أبادول

ABADOL

عصير الكتب

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان: أبادول

- الطبعة الأولى: يناير / 2025م
- رقم الإيداع: 30490/2024م
- الترقيم الدولي: 1-473-992-977-978

- تأليف: د. حنان لاشين
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب»
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

د. حنان لاشين

أبادول

ABADOL

سلسلة مملكة البلاغة 7

عصير الكتب

مقدمة

نحتاج أحيانًا إلى رحلات قصيرة دون أن نفارق مكاننا الذي نعيش فيه، بلا أمتعة ندسُّها في حقيبة نحملها، وحيث لا نبحث فيها عن تذكرة سفر. قفزة عالية وأجنحة ملائكية وتحليق إلى سماء يتوسطها بصيص هلال لا نجم حوله ينافسه ولا سحب تحجب روعته، حيث نبني قصورًا وتسكنها أرواحنا الحائرة بحثًا عن رائحة السعادة وبصيص الأمل. نحلِّق فوق مجاميع الأشجار الباسقة التي داعبتها الشمس وكستها بألوان زاهية، وربما تلاطفنا زخَّات المطر. لحظات قصيرة حلاوتها خاطفة كحلاوة السُّكَّر عندما يذوب غَزْلُ البنات على الشفاه الرطبة، ثم نتدحرج مع سيول أحلامنا، فيلطمنا الواقع فجأة، لنفيق من إغماءاتنا المتكررة، ونضطر إلى الهبوط مرة أخرى لنعود إلى الوطن فينا لتستكين أرواحنا المضطربة في صدورنا وتبرد حرارة الرجاء ووهج التمنِّي ببرد اليقين، ولطف ماء الوضوء، ثم سجدة تحتوينا لنقف من جديد ونرتِّل القرآن بشفتين أذابهما الذكر ونحلهما التسبيح.

- حنان لاشين

إهداء

إلى كلِّ من أطلق لخياله العنان وسمح لصقور مملكة البلاغة باحتضان رأسه بأجنحتها الخلَّابة، إلى الجيل الأوَّل من قرَّاء سلسلة «مملكة البلاغة»، كنتم الوقود الذي دفعني لإكمال كتابة هذه السِّلسلة، حتى وصلت معكم إلى الجزء السَّابع منها، فانتظاركم كلَّ عام لجزء جديد منها كان دافعًا لي لكي أكمل كتابتها وأتوسَّع فيها. ستظلون من المحاربين الأوائل لأنَّكم أحببتم «أبادول» من قبل أن تعرفوا أسراره، ولهذا تمنيتم أن تكونوا من أفراد تلك العائلة كما كتبتم لي مرارًا في رسائلكم التي وصلت إليَّ من مختلف بقاع الوطن العربي، فكانت كلماتكم الدافئة ضمادات لقلبي، دمتم داعمين مُحبِّين، لا حرمني الله من لطفكم وأعينكم التي تحيا بها كلماتي، شكرًا لكم من سويداء القلب، فما زال وفاؤكم.

حنان لاشين

نوفمبر 2024

«سيد المحاربين»

عهد المحاربين

مضت دولة الليل وقامت الشمس من مضجعها على استحياء وأضاءت قبتها البلُّوريَّة فمحا ضوؤها كلَّ نيِّرات النجوم والشُّهب التي كانت تضيء صفحة الليل لتحصي دموع المكلومين وتمسح على رؤوسهم، كانت القصور والقلاع تتكئ على أكتاف طرقات مملكة البلاغة وكأنها شهود بكماء على تعاقب قصص المحاربين في دروبها الغامضة، والآن تقف متهالكة وقد رسمت الشقوق على جدرانها الباهتة ألف خريطة لرحلاتهم الخالدة، استيقظ كلُّ شيء في "مملكة البلاغة"، وكما ينخر ملح البحار أطراف الشَّواطئ ينخر ملح الدموع حواف الأعين وهي تجترُّ الذِّكريات.

ثَمَّة لمسة حزن شاجيٍّ تُظلل الأجواء، حتَّى الرِّياح تئنُّ وتنوح وتبكي في نشيج مسموع وها هي قد توقَّفت عن همسها المعتاد لتُكرر جملة واحدة ظلَّت تتردد هنا وهناك «مات سيِّد المحاربين». في أرض لم يزرها «أنس» من قبل، ووجوه لم ير ملامحها قطُّ، وحيث الضَّباب الكثيف يلفُّ كلَّ شيء وقد لاحت به خيالات غامضة وكأنَّ فرسان الأزمنة التَّليدة يمرون به، وقف حفيد «أبادول» الأكبر وقلبه يختلج بين أضلعه والدُّموع لا تزال عالقة بأهدابه، اخترق صوت الشَّيخ الجليل أذنيه قائلًا: «ابسط يدك يا «أنس»».

مدَّ «أنس» يده وقبض على كفِّ الشَّيخ الذي يُخاطبه بقوَّة، رفع عينيه وكانت تلك هي المرَّة الأولى الَّتي يرى وجهه فيها، همس له بصوت مفعم بالحزن: «لا بدَّ من القسم فالأمر جدُّ خطير! أرجوك ردد خلفي عهد المحاربين».

أومأ «أنس» ورمش بعينيه في صمت وكان قلبه يخفق خفقًا، واستعدَّ لترديد ذلك القَسَم الذي ردده جده من قبل ليكون عهدًا يلتزم به للأبد، بلل شفتيه وردد خلفه:

«أقسم بربِّ الأرباب ألَّا أبوح بسرٍّ «مدينة الرَّباب»».

ثُم سار معه في طرقات تلك المدينة في سكون، كان كلاهما حزينًا على فراق «أبادول»، لم يتخيَّل «أنس» أنَّه سيطئ أرض مملكة البلاغة بقدميه وجده ليس على قيد الحياة.

***

«مملكة البلاغة»

«مقبرة المُحاربين»

مطر خفيف كالبكاء يرشق الرِّمال النَّاعمة، بل هو بكاء! فحتَّى الرَّباب الأبيض الذي يُحلِّق فوق مملكة البلاغة يبكي ويُرسل زخَّاته لفراق «أبادول»، لكنَّها سنَّة الحياة، فالموت حقٌّ وهذا قضاء الله وعلى الجميع التَّسليم والرِّضا به. وقف حرَّاس المكتبة العظمى تجللهم الهيبة بلحاهم البيضاء الطويلة ووجوههم المستنيرة الَّتي بدت متشابهة ليس فقط في الملامح بل في حزنها على فراق «أبادول» وكيف لا وقد كان له حضور في رحلة كلٍّ منهم، أقبلت الصُّقور والهداهد وسائر الطُّيور ووقفت في صفوف وهي تُهدِّل أجنحتها وتُطأطئ رؤوسها في انكسار، وكان «الرماديُّ» يرتجف وكأنَّ زلزالًا يرجُّه رجًّا. وقف «المغاتير» على حدود المقبرة الأربعة في صفوف منتظمة بشكل شرفيٍّ، وأقبل الملوك والملكات والأمراء وخلعوا تيجان رؤوسهم ليقفوا أمام قبر «أبادول» في توقير شديد، ومن خلفهم اصطفَّ جنودهم ليرفعوا سيوفهم تحيَّة لسيِّد المُحاربين، عشائر مختلفة من الإنس والجنِّ اجتمعت في آن واحد من أركان المملكة الأربعة، البعض بدوا بملامح غريبة لم يرها أفراد عائلة «أبادول» من قبل! حتَّى «الحورائيَّات» خرجن من «غابة البيلسان» بعد تناولهنَّ للترياق ليشهدن موكب وداعه ووقفن وأذرعهنَّ متشابكة وكأنَّهنَّ نسيج واحد، وكان هذا الاجتماع خارج نطاق غابتهنَّ يحدث لأوَّل مرَّة منذ أن زارهن «أبادول» في نطاقها منذ سنين طويلة. «الحوراء» حاضرة بوقارها وهيبتها أيضًا، وكيف لا تأتي؟ لكنَّها بدت واهنة وقد زادها الحزن وهنًا فما عادت تقوى على الكلام، كان «الزَّاجل الأزرق» يشعر أنَّها على وشك توديعهم هي الأخرى ويؤهِّب نفسه لتلقي الخبر في أيِّ لحظة، حملوها على كرسيٍّ وأحضروها بناء على رغبتها، وبينما وقف بجوارها، كان «طيفور» يُمسك

بيدها مُتعلِّقًا ببقايا نفسها الزَّاكية لعلَّ بعض عطر روحها يعلق به. توافد الآلاف لتقديم واجب العزاء لأحفاد «أبادول» من سكان «مملكة الشَّمال»، و«مملكة الجنوب»، ومدينة «وراشين»، وقرية «أوركا» و«قرية الدَّحنون»، وإقليم «شيليا»، ومدينة «كويكول»، وجزر أرخبيل «سقطرى»، و«أرض الرَّافدين» ومدائن أخرى عديدة، كلُّ الوجوه الَّتي التقوها أتت لتربِّت على أكتافهم. كان هناك «محاربون» و«مستكشفون و«ورَّاقون» ورُتب أخرى لم يتعرَّفوا عليها بعد، فقد أحبُّوه وتعلَّقوا به مما سمعوه عنه، لزم «المجاهيم» حوافَّ المقابر وكان لظهورهم مهابة، فقد كان «أبادول» هو الوحيد الذي يرى وجوههم على حقيقتها، الآن ما عاد أحد يراها! أتى «المشَّاؤون» و«العنادل» و«الكنادرة» وعماليق جبال «أمانوس» في جماعات. مسح «أنس» دموعه عن وجهه وقد اختلطت بزخَّات ماء المطر التي لم تنقطع ووقف يدعو لجده والجميع يؤمِّن على دعائه فارتجَّت المقابر من أصوات تأمينهم على الدُّعاء. كان «كمال» أكثر الحاضرين حزنًا وبكاء ولم يقوَ على الوقوف على قدميه، لم يفقد أباه وحسب، بل فقد صديقه وسر أسراره، وهداية حيرته وقبلة الأيَّام على جبينه، الآن يشعر على الرغم من كبر سنِّه أنَّه عاد طفلًا شاردًا، وينتظر الأمر والتوجيه من الرَّاشدين ليُخبروه ماذا يفعل!

مات «أبادول» وحطَّ الأمان أدواته وارتحل، مضت أيام الأب بدفئها وحنانها، وأقبلت أيام الحياة ببرودها وقسوتها، الآن سيعافر ليعيش ببعض نفس، وبعض روح. مدَّ ابنه «أنس» ذراعه له ليتعلَّق بها فتوكَّأ بقلبه عليه.

كان على أفراد العائلة أن يقوموا بمراسم الدَّفن في الفيُّوم قبل أن تأتي الصُّقور وتملأ حديقة بيت «أبادول» إصرارًا على دفنه بأرض «مملكة البلاغة». اضطرَّ «أنس» إلى الإذعان لمطلبهم بعد أن استخرج تصريح الدَّفن من الجهات الرَّسميَّة، وكان قد أخفى خبر وفاته عن الجيران والأقارب حتَّى لا ينتبه أحد لما سيفعلونه، فجاء السيِّد «أحمد» بعد اجتماع طارئ مع فريق من المستكشفين وأخبره ألَّا يقلق وأنَّه سيُرتِّب مقبرة رمزيَّة لـ «أبادول» لا يعلم أحد بما فيها. حملوا جدَّهم إلى غرفة الأشباح بكفنه الأبيض، فتوافدت الصُّقور لتحمله وتحمل أفراد العائلة في مشهد مهيب، لم ينتقل الجميع فقد مرضت

«فرح» وأصابتها الحمَّى منذ ظهور الوشم على عنقها، بقيت معها «مرام» لترعاها وكانت في هلع عليها، أصرَّ «حمزة» على بقاء «نور» بالبيت، وكذلك طلب «خالد» من «طيف» البقاء معها لرعاية الصِّغار، فانضمَّت إليهنَّ «دولت» حتَّى لا تتركهنَّ وحدهنَّ وودعت حماها الحنون ودموعها تهمي، أمَّا «حبيبة» و«سارة» فأصرَّتا على الذَّهاب. بدا البيت حزينًا وكأنَّ جدرانه تئنُّ وتبكي.

بعد انتهاء مراسم الدَّفن أعادت الصُّقور أفراد العائلة إلى الفيُّوم، أشعل «خالد» المدفأة وجلس يُراقب جده «كمال» الذي كان يجلس في سكون، ويُفتِّش في وجهه عن ملامح «أبادول» التي اشتاق إليها، أقبل ولدا «خالد» وتمددا أمام المدفأة لينعما بالدِّفء، وانضم إليهم أفراد العائلة تباعًا، تحلَّقوا حول «أنس» الذي كان ينقل عينيه بين وجوههم وقلبه يتفطَّر من الحزن، انكب على كفِّ أبيه وظلَّ يقبِّلها فاحتضن رأسه بكفَّيه وأخذ يتمتم بالدُّعاء.

أقبل «حمزة» وفي يده صورة مرسومة لوجه «أبادول» في شبابه ورفعها أمام الجميع قائلًا: «عثرت عليها في المكتبة».

قال «أنس» وهو يتناولها منه: «أخبرني «أبادول» أنَّ جدَّتي رسمت وجهه بنفسها في أوَّل زواجهما، انظروا! ها هو توقيعها باسمها على الطَّرف.. «قمر»».

تجمَّعوا حوله والكلُّ ينظر إلى صورة «أبادول»، وجه وضَّاء ذو ملامح هادئة، وجبهة واسعة، وعينان سوداوان تنزوي فيهما ابتسامة خفيفة، وحاجبان كثيفان على وشك الالتحام، وأنف طويل أقنى، وابتسامة وقورة لفم واثق، لا ريب أنَّ كلَّ من رآه في شبابه قد أحبَّه.

جلس «خالد» يُحدِّق تجاه جده «كمال» وعيناه تلمعان، قال له بصوت يحمل الكثير من الحنين: «جدِّي، من حقِّنا أن نسمع قصَّة «أبادول» منذ اللحظة الأولى الَّتي دخل فيها هذا البيت، لا ريب أنَّك تعرف كلَّ شيء عنه، لماذا لا تحكي لنا؟».

أشار «كمال» لابنه «أنس» وقال بصوت منكسر: «أخبرهم يا «أنس»، فقد باح لك «أبادول» بالكثير من الأسرار».

رنا «أنس» لوجهه وقال له بحنوٍّ شديد: «وكأنَّك لا تعرفها يا أبي! كنت صندوق أسراره وعصاه التي يتوكأ عليها».

- أحب أن أسمعها منك يا قرَّة عين أبيك وجدِّك.

ابتسم «أنس» ووضع صورة وجه «أبادول» على المنضدة فتعلَّقت أنظار الجميع بها، أقبلت «فرح» وهي تتدثَّر بشال من الصُّوف ففتح ذراعيه لها واحتواها في حضنه، سكن الجميع حوله وكلُّهم آذان مصغية، أطرق قليلًا ليتخيَّر ما الذي سيُخبرهم به، وما الذي لن يُخبرهم به، جال بعينيه في المكان وتأمَّل جدران البيت ونقوش سقفه العجيبة والثُّريَّات المتدلِّية، ثُمَّ استقرَّت نظراته على الكرسيِّ الهزَّاز الذي لم يجرؤ أحد منهم على الجلوس عليه، لاحت على شفتيه ابتسامة عذبة وسار نحو النَّافذة وقلبه يهرول على درج الذِّكريات عندما كان جليس جده الدائم في غرفته وهو يحكي له أسرار مملكة البلاغة، أشار على الأرض أمام النَّافذة وقال: «هنا بدأت الحكاية.. كان «أبادول» في الخامسة والعشرين من عمره حينها، مُلقى هنا على الأرض ولا يستطيع تحريك جسده، لا حيلة له لينهض ويخرج من البيت لطلب العون فقد شُلَّ جسده لسبب مُبهم، وظلَّ على حاله لساعات وهو لا يكاد يُصدِّق ما حدث له، أراد أن يبكي لكنَّ عينه أبت البكاء، أراد أن يصرخ لكنَّه لا يحبُّ الصراخ ويراه ضعفًا وخنوعًا، أغمض عينيه وهمس لنفسه بكلمات لطالما علَّمها لنا: «سيُنقذني ربي.. أثق بهذا.. سيُنقذني!»، وعندما تشرَّبت كلُّ خليَّة في جسده وروحه بهذا اليقين أطلَّ أحدهم من النَّافذة وصاح بصوته الحاني: ««توفيق».. يا إلهي! من فعل بك هذا؟». وعلى الرَّغم من كبر سنه ومكانته العلمية قفز من النَّافذة وأسرع إليه ليُنقذه».

***

١

الفيوم
(عيادة الدكتور "مَودود")

غرفة واسعة تعبق برائحة الدواء والعقاقير، وسقف مربع وخالٍ من النقوش كورقة دفتر لم يخط عليها بقلم من قبل، البرودة تنفح من أرجاء المكان؛ الجدران البيضاء، والأرض العارية من أي بساط، والأريكة الوثيرة الخاصة برواد العيادة حيث يستلقون عليها ويحدقون إلى خواء السقف الذي يؤطر خواطرهم، وكل منهم يملؤه ببوحه الذي يدوِّنه عليه بقلم خفي مداده من الأنفاس، ما أكثر ما احتواه ذاك السقف من أسرار! سَرت القشعريرة في جسد الطبيب وهو يسحب دفتر ملاحظاته من فوق المكتب الخشبي الأنيق الذي يقبع تحت نافذة طويلة من فرط نقاء زجاجها الشفاف تكاد عينك تنكر وجوده، كما ينكر عقلك بعض الحقائق على الرغم من وضوحها الشَّديد! أخذت الستائر التي تحركها نسمات الهواء تضرب بمقعد المكتب، فتبادل صوت ضرباتها إيقاعًا منتظمًا مع بندول الساعة الخشبية الذي كان يتأرجح بنعومة بينما ينزلق عقرب الثواني ببطء فيرسل صوتًا رتيبًا كلما قفز للأمام مجهزًا على ثانية مضت بلا رجعة، أغلق الطبيب النافذة بهدوء، وسار بتؤدة

ليجلس بجوار ذلك الشاب الذي حيره بما يسرده عليه من تفاصيل غريبة، كان مأخوذًا بكل كلمة ينطق بها، وقلبه يهفو إليه ويشفق عليه، فقد سمع في صوته رنَّة الشَّرف ورأى بين أعطافه دلائل النِّعمة فأهمَّه أمره، زم شفتيه وهو يطالعه من فوق عويناته وقال:

- حسنًا يا «توفيق» اهدأ واسترخ الآن فأنت في أمان، أنصت إليَّ جيِّدًا، تنفَّس بعمق وأخرج أنفاسك ببطء..

مرَّة أُخرى.

رائع!

أحسنت!

سأبدأ العدَّ الآن: «عشرة، تسعة، ثمانية، سبعة، ستَّة، خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد»..

ألقى الصَّمت عباءته على المكان وأحكم عُراها، لم يكن هناك غير صوت الأنفاس ودقٍّ واهنٍ لعقرب السَّاعة المعلَّقة على الحائط وهو يزحف ببطء، جاء صوت الطبيب هادئًا ودافئًا وهو يسأل: «أين أنت الآن؟».

- مكان غامض.

- صفه لي.

- غمام هشٌّ كندف القطن منثور حولي في كلِّ مكان، ونسمات هواء باردة تلفح وجهي، هناك ضوء ناعم لكنَّني لا أرى الشَّمس بوضوح وكأنَّه فصل الشِّتاء وتوشك أن تُمطر.

- هل أنت في حديقة؟

- لا.. أنا أطوف وأحلِّق في الهواء، يراودني شعور بأنَّني طائر! وكأنَّ لي جناحين بالفعل بيد أنَّني لا أراهما.

- أنفاسُك تتسارع.. ماذا حدث؟

- الغمام يتباعد بسرعة ويُفسح لي الطريق، هناك قوَّة تدفعني نحو جبلٍ أحمر قمَّته بيضاء كالجليد وحولها تطوف سُحب تشوبها حُمرة خفيفة، هناك سرب من الصُّقور يقترب منِّي الآن.

ران عليهما صمتٌ قصير قطعه الطَّبيب بسؤال: «هل ابتعدت الصُّقور؟».

- لا.. الصُّقور تُحدِّثني بلغة البشر!

- ماذا يقولون؟

- يُلقون عليَّ السَّلام، الآن يبتعدون تباعًا بنظام شديد، وبقي صقر واحد لكنَّني لا أراه! لا أدري لماذا؟ لكنَّني أسمع صوته فقط!

- ماذا يقول؟

- يقول إنَّه «الرَّمادي».

مرَّت فترة من الصَّمت قبل أن يسأل الطَّبيب: «هل «الرَّمادي» لا يزال هناك؟».

- يا إلهي! إنَّه فوق رأسي، ها هو يحملني! يُخبرني بعلمه أنني خائف ويطلب منِّي أن... لا.. لا!

- لماذا تصرخ؟

- نوافذ البيت كلُّها فُتحت فجأة.

- البيت!

- الكثير من الغربان تدخل من النوافذ وتنقر جسدي.. آه.. آه.

- عندما أصل إلى الرقم ثلاثة افتح عينيك في الحال: واحد، اثنان، ثلاثة!

***

«توفيق»

فتحتُ عينيَّ وكنت لا أزال في عيادة الدُّكتور «مودود» الطبيب النَّفسيِّ الَّذي نصحني به إمام المسجد في الحيِّ نفسه الَّذي انتقلت إليه لأسكن هذا البيت الغريب، سقاني الماء وقاس نبضي وعندما هدأت أنفاسي وانتظمت

دقَّات قلبي واطمأنَّ على استقرار حالتي شَرع في تسجيل ملاحظاته في دفتره الخاصِّ، فجلست شاردًا أحاول تذكُّر كيف وصلت إلى عيادته هنا لأرتب الأحداث في رأسي...

بدأ الأمر عندما لجأت للشيخ «محمود» إمام المسجد ورويت له ما أمرُّ به، فأخذ يرقيني ونصحني بالمحافظة على صلواتي فقد كان يرى أنَّها ألاعيب الجنِّ، وعندما عدت إليه مرَّات ومرَّات لأخبره أنَّ الأمر لا يزال يتكرر نصحني بزيارة جارنا في الحيِّ الدكتور «مَودود»، فهو طبيب نفسيٌّ حاذق وماهر، وأظنُّ الدكتور «مودود» أيضًا كان لا يُصدِّقني في البداية حتَّى زارني بالبيت أمس وهو عائد من عيادته، وكُنت فاقدًا للوعي وملقى على الأرض بعد أن هاجمني سرب من الغربان انتشر بالبيت ودخل من كلِّ نوافذه الَّتي فُتحت فجأة في آنٍ واحد، حينها سقطتُ على الأرض وشُلَّت أطرافي بالكامل! وبدؤوا ينقرون جسدي كلَّه، وبينما كاد أحدها يفقأ عيني اليسرى، ظلَّ الآخر ينقر فوق قلبي مباشرة ويحاول ثقب صدري لولا تلك العجوز الَّتي أطلَّت برأسها من فجوة معلَّقة في الهواء، ونثرت على جسدي مسحوقًا له رائحة نفَّاذة ففرَّت الغربان هاربة وأُغلقت الفجوة في الحال ليختفي وجه العجوز فيها، لن أنسى عينيها المنتفختين وذلك الثُّؤلول[1] البنيَّ الكبير الَّذي يتوسَّط جبهتها، ظللتُ مُمددًا لفترة قبل أن أفقد الوعي، وعندما أفقتُ لم أتمكن من الحركة من شدَّة الألم.

رآني الدكتور «مودود» من النَّافذة المطلَّة على الحديقة فأسرع لنجدتي وأسندني لكي أسير معه وانتقلنا لعيادته، وذلك عندما لاحظ توتُّري الشَّديد من البقاء بالبيت وحديثي عن هجوم الغربان، كانت الجراح تملأ ذراعيَّ وساقيَّ والدِّماء تخضِّب وجهي فقد جرحني غراب في جفن عيني اليسرى، أسرع الدكتور «مودود» يُطببها وبدأ بجرح صدري الغائر الَّذي احتاج إلى التقطيب وظلَّ يسألني عمَّا حدث، وكُنت أُجيبه بكلمات متقطِّعة وجسدي يختلج بينما

(1) الثؤلول كتلة صغيرة منتفخة تظهر على سطح الجلد نتيجة العدوى الفيروسية وتكون أغمق من لون الجلد.

هو يخيط جراحي بتركيز شديد، همس لي قائلًا بصوتٍ يغمره الحنان ذكَّرني بصوت أبي وكان يمسح خدِّي: «لا بأس يا بنيَّ أنت الآن في أمان، لن أتخلَّى عنك».

عندما انتهى أعطاني مهدئًا وقرر المبيت معي بعيادته، فقد سمعته يتحدث مع الممرِّضة ويكلِّفها بالمرور على ابنته لتخبرها بهذا، بعدها دثَّرني بمعطفه وغلبه النَّوم وهو يجلس على الكرسيِّ بجواري، وعندما استيقظتُ منذ ساعة أيقظته ليعود إلى بيته ويرتاح، لكنَّه رفض وقرر تنويمي مغناطيسيًّا ليعرف حقيقة ما حدث لي.

انتشلني صوت سُعال الدكتور «مودود» وهو يُغلق دفتر ملاحظاته من فقاعة الذِّكريات الَّتي كنت غارقًا بها وأنا أجترُّ في ذاكرتي ما حدث أمس، كان قد انتهى من تدوين ملاحظاته واستدار نحوي، مسحتُ وجهي بيديَّ فمررت على جرح جفن عيني اليسرى فانتفضت ألمًا، قال محذِّرًا: «انتبه يا «توفيق» فهذا الجرح في منطقة حسَّاسة جدًّا، دعني أغطِّيه جيِّدًا».

- آسف لأنك اضطررت إلى المبيت معي هنا بالعيادة.

- لا بأس، فقد أعطاني هذا فرصة لكي أعمل معك في هدوء بعيدًا عن زحام المرضى.

بينما كان يهتمُّ بجرحي سألته مُترددًا: «هل أخبرتك بشيء جديد خلال جلسة التَّنويم المغناطيسيِّ يا دكتور؟ أم تطابق كلامي مع ما أخبرتك به من قبل خلال زياراتي السَّابقة؟».

- الوصف نفسه والكلام نفسه.. والجديد هو أمر الغربان.

- هل تُصدِّقني الآن يا دكتور؟

صمت هنيهة وقال: «شيء واحد يدفعني لتصديق بعض ما رويته».

- ما هو؟

- لقد رأت ابنتي الغربان وهي تدلف بيتك من النَّوافذ، فالبناية الَّتي نسكنها تكشف واجهة بيتك بالكامل، وهي مغرمة منذ سنوات بغموض

هذا البيت، فأسرعتْ وأبلغتني فهي تعلم بزيارتك السَّابقة لي منذ فترة وكانت قد سمعَت الشَّيخ «محمود» وهو يُحدِّثني عنك عندما زارنا بالبيت، لهذا قررتُ المرور بك بعد انتهائي من عملي، فرأيتك على حالتك تلك، ويبدو أنَّك كنت مُمددًا هناك منذ ساعات ولم يشعر بك أحد!

تنفَّستُ الصَّعداء، أخيرًا هناك من رأى شيئًا مما أراه، قلت بحماس: «أرأيت يا دكتور.. ليست أوهامًا، أنا لا أُهلوس».

- هذا ما يخصُّ الغربان فقط، ولكن باقي ما وصفته لا يزال غريبًا، فأنت تتحدَّث عن صقر يتحدَّث بلغة البشر، وجبل أحمر، وأنَّك تطير في الهواء!

- والعجوز الَّتي أطلَّت من فجوة عالقة في الهواء ونثرت مسحوقًا على جسدي وألقت بتلك النَّبتة الغريبة على صدري فانصرفت الغربان عني.

- لم تذكرها خلال جلسة التنويم، ربَّما لأنَّني أسرعت بإيقاظك قبل ظهورها في ذاكرتك.

أخرجتُ النَّبتة من جيب قميصي، فقد قبضتُ عليها بيدي قبل أن أفقد الوعي، وعندما عثر عليَّ الدكتور «مودود» شعرت بحرارتها في يدي فور أن استعدت وعيي فدسستها بجيبي، أعطيتها له وأكملتُ قائلًا: «هذا والله ما حدث يا دكتور، منذ صعودي للغرفة العلويَّة الَّتي أخبرتك عنها».

أخذ الدُّكتور «مودود» يُقلِّب النَّبتة بين أصابعه، حدَّق إليها وقرَّبها من أنفه وتشمَّمها بعمق، أضفتُ راجيًا أن يُصدِّقني: «تلك ليست المرَّة الأولى، لقد تكرر أمر التحليق، أنام في الغرفة ويصل ذلك الصَّقر إلى نافذتها، ثُمَّ يحدث لي شيء غريب فور أن يقفز فوق رأسي بغتة ويغطِّي وجهي بريش جناحيه، أحلِّق هناك وأعود إلى غرفتي فاقدًا للوعي».

- ولماذا تنام في هذه الغرفة بالذَّات؟

- لأنَّها أخافتني.

- ماذا؟

- نعم.. أنام فيها دفعًا للخوف.

- فطرتنا تدفعنا دائمًا للابتعاد عمَّا يُخيفنا وليس العكس يا «توفيق».

- أحبُّ كسر حاجز الخوف، أكره أن أكون جبانًا يا دكتور، لم أُخلق رجلًا لأخاف! قُلت لنفسي سأنام هنا رغم أنف ذاك الصَّقر الغريب.

- لماذا لم تعد إلى عيادتي مرَّة أخرى في موعدك الَّذي اتفقنا عليه خلال زيارتك الأولى؟

- توقَّف كلُّ شيء، كان البيت هادئًا لفترة وكأنَّ شيئًا لم يكن، حتَّى عاد «الرَّمادي» وهاجمتني تلك الصُّقور.

صمت الدكتور «مَودود» لوهلة وعاد يسأل: «هل كانت الغربان تُهاجمك في كلِّ مرَّة تعود فيها بعد تحليقك مع ذلك الصَّقر؟».

- لا.. هذه المرَّة فقط لأنَّني رفضت.

- رفضت ماذا؟

- طلب منِّي الصَّقر هذه المرَّة أن أدخل معه غابة من غابات «مملكة البلاغة» وأبقى هناك لفترة للقيام بمهمَّة ما.

- ماذا قُلت؟ «مملكة البلاغة»!

غمغم الطبيب قبل أن يخلع عويناته وقال وهو يدقق النظر إلى عينيَّ: «هل تقرأ الروايات الخياليَّة يا «توفيق»؟».

- أقرأ في شتى المجالات يا دكتور، التَّاريخ والأدب والخيال وعلم النَّفس والفلسفة، لا أترك كتابًا يقع تحت يدي إلَّا وأقرؤه.

- أقصد الخيال تحديدًا.

- يبدو أنَّك لا تُصدِّقني.

وضع يده على كتفي وقال: «ثق بي، أنا حريص عليك، ولا أرجو من سؤالي هذا إلَّا مصلحتك، فقط أجب عن أسئلتي بوضوح وصراحة لكي أتمكَّن من مساعدتك».

- حسنًا.. تفضَّل!

- هل قرأت عن «مملكة البلاغة» تلك من قبل؟
- لا.. أقسم لك إنني لم أسمع بهذا الاسم من قبل، ولم أقرأ رواية تُشبه ما مررتُ به، وما أخبرتك به عن البيت حدث بالفعل، ولم أهتم بالصُّقور قطُّ، حتَّى إنَّني لا أعرف ما تعنيه الرُّموز الَّتي تظهر لي.
- هل تستطيع رسم أيِّ رمز منها؟
- نعم.

أعطاني قلمًا وورقة فرسمت أحد الرُّموز وكان يتكرر باستمرار في تلك الرؤى الَّتي تراودني، تناول الدكتور الورقة من يدي وتأمَّلها طويلًا وظلَّ يُديرها ويميل برأسه وهو يتفحَّصها ثُمَّ طواها أخيرًا ودسَّها في جيبه، واحتفظ بالعُشبة أيضًا، حدَّق إلى وجهي قبل أن يقول: «تبدو قويَّ البنية يا «توفيق» هل تمارس الرِّياضة؟».

- نعم، كان أبي -رحمه الله- حريصًا على تنشئتي على ممارسة الرِّياضة.
- هل تُمارس رياضة جماعيَّة؟ كرة القدم مثلًا؟
- لم أشارك في رياضة جماعيَّة قطُّ، لكنني أُجيد السِّباحة، وتدرَّبت على فنون القتال والمصارعة لفترة طويلة.
- يبدو هذا جليًّا فقبضتك قويَّة وعضلات ذراعك مجدولة.
- لكنَّني توقفت عن التدريب.
- لماذا؟
- زهدت في ممارستها بعد وفاة أبي، لكنَّني انتظمت في الرَّكض لأحافظ على لياقتي، وللأسف كما ترى هزمتني حفنة من الغربان!
- لا تستهن بنفسك فبنيتك القويَّة هي التي جعلتك تتحمَّل ما فعله الغربان بجسمك، لم أشهد مثل تلك الجراح الغائرة من قبل، أنت لم تُهزم ولكن كما وصفتَ لي أصيب جسدك بشلل فتجمَّدت عضلاتك.
- لو لم أُصَب بذلك الجمود والشلل لتصيَّدتهم واحدًا تلو الآخر.

هزَّ رأسه موافقًا وسألني: «أخبرتني سابقًا أنَّك وحيد أبويك، فهل لديك أصدقاء؟».

- كان ابن عمِّي صديق طفولتي، لكنَّه الآن ينفر منِّي وصار يتهرَّب من لقائي، والحديث بيننا شبه مقطوع.
- أذكر أنَّك أخبرتني أنَّك قصصت عليه ما تراه.
- بعضه فقط.. لهذا ابتعد، يظنني فقدت عقلي وجُننت، وأنا أيضًا توقَّفت عن زيارته، لا حاجة لي بمعرفة من يراني ناقصًا!
- لا تغضب منه فما تصفه غريب.
- لقد جرحني بكلماته، وضربة اللسان أشدُّ قسوة من ضربة السيف.

أخذ يطرق بأنامله على مكتبه وسألني: «كيف تقضي وقتك إذن؟».

- أنا مدمن للقراءة، تستطيع أن تقول إنَّني أتعاطى الكتب.
- يقولون إنَّ الكتب أصدقاء أوفياء.
- أشعر أحيانًا أنَّ الكتب تناجيني وتحاورني وتسليني وقد تتجادل معي.

قال وهو يرفع حاجبيه: «منذ وفاة والديك لم تختلط بالنَّاس إلَّا نادرًا أليس كذلك؟».

- بلى.

شردتُ قليلًا ويبدو أنَّ الدكتور «مودود» قال شيئًا فالتفتُّ نحوه وسألته: «هل قُلت شيئًا؟».

ثقبني بنظراته ثُمَّ سألني: «ما الذي تُفكر به؟».

- لا شيء، أشعر أنَّني في حاجة إلى النوم.
- أتعلم بم أُفكِّر يا «توفيق»؟ عندما أتيت لزيارتي أوَّل مرَّة لم تكن خائفًا مما تراه وتعيشه، حتَّى إنَّك لم تخجل من أن يعلم أحد به، لم تُنكره ولم تتبرأ منه، فقد أخبرت ابن عمِّك، وإمام المسجد، ولم يُزعجك أنَّهما لم يُصدِّقا كلامك.

- كيف أخجل وما أراه حقيقيٌّ!
- البعض يخشى المُجتمع.
- سُحقًا للمجتمع، لماذا تُشعرني أنَّه من الصَّعب تصديق ما أحكيه لك؟
- أخبرني أنت.. لماذا تراه أمرًا سهل التصديق؟ وتتحدَّث وكأنَّ ما تصفه سهل الحدوث وعاديٌّ!
- لم يكن سهلًا، لم يكن سهلًا على الإطلاق! عانيت وما زلت أُعاني، ما أمرُّ به شيء خارق للطبيعة، أرجو منك أن تُصدِّقني.
- لا بدَّ أن أرى ما تراه بأُمِّ عيني لأُصدِّقك.
- وإن لم تره؟ سأكون مريضًا في نظرك وما أراه مجرَّد هلوسات وأوهام، وسأتناول العلاج لأُرضي من حولي، وأنا على يقين أنَّ ما أراه يحدث بالفعل.

اعتدل في جلسته وقال بنبرة هادئة: «لا بأس أن تشعر بهذا تجاه الأمور غير المنطقيَّة الَّتي تراها، لكنني أعلم أنَّك مثقف وقرأت عن الأمراض النَّفسيَّة ومرض الذِّهان بالذَّات أليس كذلك؟».

- بلى.
- وتعلم أنَّني طبيب والعلم يؤمن بالبيانات وهذا ما درسته وأتقنه، ألم تزرني لهذا السَّبب؟
- بلى.
- إذن عليك أن تُساعد نفسك أوَّلًا ثُمَّ تُساعدني لكي أتمكَّن من تقديم العون لك.
- يبدو أنَّ هذا الأمر مرتبط بمدى إيماني بالله ثُم بصدقي مع ذاتي، وهو اختبار لي من الله! نعم.. نعم.. هذا اختبار! ومهما تعثَّرت وخفت وسقطت لن يُضيِّعني الله أليس كذلك؟ فأنا لا أكذب ولا أختلق تلك الأشياء، أتيتك استجابة لنصيحة الشيخ «محمود».

- المرض النَّفسيُّ لا علاقة له بإيمانك، قد تكون تقيًّا وصالحًا وتُعاني مرضًا نفسيًّا، ولا بدَّ من العلاج الدوائيِّ لتتوازن كيمياء دماغك وتعيش مرتاحًا.

- أثق بهذا تمامًا، لكنَّني لا أتوهَّم ما أراه.

- ألا تثق بي؟

- بلى أثق بك، وأومن أنَّ كلَّ شيء بأمر الله فهو الشَّافي وحده، حتَّى الدَّواء الَّذي ستقترحه لن يُفيدني إلَّا بإرادته.

- أوافقك الرَّأي بالتَّأكيد، وهذا الدَّواء أخذٌ بالأسباب ونحن أُمرنا بهذا.

- أنا بكامل قواي العقليَّة يا دكتور «مودود»، ما أراه يحدث بالفعل ولم يظهر إلَّا بعد أن انتقلت إلى هذا البيت.

- قد يذهب العقل أحيانًا إلى مناطق مُظلمة.

- لا مكان للظُّلمة في عقلي، ولم أسمح بوجودها بقلبي، حتَّى إنني لا أخشى الظَّلام.

خلع عويناته وقال بجديَّة شديدة: «اترك هذا البيت، ارحل عنه وأقم مؤقتًا في أيِّ مكان آخر، وإن اختفى كلُّ هذا ولم يظهر لك مرَّة أخرى فأنت بخير، وبعدها اعرضه للبيع، أمَّا إن ظللت على حالك فلا بدَّ من الدَّواء».

- لا أستطيع.. هناك شيء يجذبني إليه كالمغناطيس، جزء منِّي يظلُّ عالقًا بداخله حتَّى أعود إليه، وكأنَّه وطني الوحيد.

- حسنًا.. لو أتاك شخص وأخبرك بما وصفته لي قبل أن تدخل هذا البيت، بماذا كنت ستنصحه؟

- بالذَّهاب إلى طبيب نفسي.

- أرأيت؟ هذا هو المنطق والعقل، أعلم أنَّك في صراع نفسيٍّ بين عقلك ومشاعرك، ونفسك تُحدِّثك بأنَّك.. ربَّما تكون مريضًا نفسيًّا بالفعل ولهذا أنت هنا.

- لديَّ يقين أنَّ الله هو الَّذي ساقني إلى عيادتك.

- لم ألتقِ شابًّا لديه يقين بالله مثلك يا «توفيق»! تمسَّك به فهو الشَّيء الوحيد الَّذي سيبقيك على الطريق الصحيح.

عقد الدكتور «مودود» ذراعيه وقال وهو يُقطِّب جبينه: «والآن سنبدأ من جديد.. أُريد أن أعرف كلَّ شيء عنك، وعن سبب انتقالك إلى هذا البيت بالذَّات، ولا تهمل التفاصيل».

بدأت أحكي له قصَّتي مع البيت منذ بدايتها.

***

البيت

كُنت في الثالثة والعشرين من عمري عندما تخرَّجت ووُظِّفت بعدها بمدرسة إعداديَّة حكوميَّة بالفيُّوم لأدرِّس مادة التاريخ، مرَّ عامان وصرت في الخامسة والعشرين من عمري وكانا أثقل عامين مرًّا على نفسي، فبعد وفاة أبي على إثر مرضه الشَّديد توفيت أمِّي سريعًا، الَّتي لم تصبر على فراقه، وما عُدت أرغب في البقاء في المكان نفسه بعد رحيلهما، قررت الانتقال إلى بيت آخر وسط الفيُّوم لأبتعد عن كلِّ ما يُحفِّز الذِّكريات. وقفت مع ابن عمِّي «وَهدان» الَّذي كان يكبرني بعام أمام بيت معروض للبيع، وكُنَّا قد تسلَّمنا للتوِّ ثمن أرض أبوينا الزراعيَّة بعد أن بعناها وقررنا شراء شقَّتين متجاورتين في منطقة راقية بالفيُّوم حتَّى مررنا بهذا البيت القديم فعلق فؤادي به، ذهبنا إلى المسؤول وكانت هناك لافتة معلَّقة تحمل عنوان مكتبه، فأخبرنا بسعره وكان السِّعر مغريًا للغاية فتعجَّبنا، أخبرنا أنَّه سيأتي معنا في الحال وقام معنا مسرعًا، سألنا ثلاث مرَّات إن كنَّا حقًّا نريد شراء البيت وكنَّا نجيبه في كلِّ مرَّة بالإيجاب! حاول فتح قفل البوَّابة لكنَّه كان صدئًا وعلق المفتاح به، احتقن وجهه وهو يُحاول إدارة المفتاح في القفل وكان حانقًا وغاضبًا، حاول «وَهدان» مرارًا هو الآخر حتَّى تساقط العرق من جبينه وبدأ للأسف يسبُّ القفل ويلعنه، ولم ينجح في إخراج المفتاح منه هو الآخر، عندما يئسا قررا كسر القفل، تقدَّمت لأُجرِّب بنفسي فإذا بالمفتاح يدور معي في القفل بكلِّ يُسر وسهولة! دُفعت دفتا الباب على الجانبين فور أن أزحت القفل دون

أن أمسَّهما، وكأنَّ هناك من يسحبهما، لاحظ المسؤول هذا فوقف يُحدِّجني بنظراته ويتخبَّط في اضطراب، تركنا نتجوَّل في البيت وانصرف وهو يُردد: «ها هو البيت أمامكما، تجوَّلا فيه كيفما شئتما، وخذا القرار النِّهائيَّ فالبيع لا رجعة فيه، وعندما تنتهيان أغلقا قفل البوابة خلفكما».

وضع المفتاح في جيب سُترته وقال وهو يرنو إلينا: «ليس عليكما إلَّا إغلاق القفل مرَّة أخرى».

ثُمَّ تمتم وهو يبتعد: «لا يجرؤ أحد على دخول البيت أصلًا، وإن لم تُغيِّرا رأيكما فأنتما تعرفان مكاني».

كان البيتُ أنيقًا على قِدمه، فيه سحر خاصٌّ ويسبح في هدوء عجيب لم يُخفني لكنَّه أزعج ابن عمِّي كثيرًا، وبعدما تجوَّلنا فيه سألته وأنا أدير عينيَّ في ردهة البيت الواسعة: «حسنًا يا «وَهدان» هل ستُشاركني في شراء هذا البيت الرائع؟».

- ماذا! رائع؟
- نعم، هو كذلك.
- أتمزح يا «توفيق»! أراه قديمًا ومُتهالكًا وكئيبًا وخواؤه مُفزع.

تحسستُ جداره بيدي واقتربت من عمود يتوسَّط الردهة وقُلت وأنا أمرِّر أصابعي على ثناياه ونقوشه ببطء: «ليس كئيبًا! لو جُدِّد الطلاء ونُظِّفت الحديقة واهتُمَّ بها سيكون كالقصر».

مرر «وهدان» يده على الجدار مثلي فأصيب بخدش من مسمار بارز فأخذ يسبُّه ويلعنه، ثم قلب شفتيه وقال بامتعاض: «ما الذي يُعجبك فيه؟ لا أجد فيه ميزة غير انخفاض سعره».

- نظامه الدَّاخليُّ بديع، هذا الدَّرج الخشبيُّ الحلزوني الَّذي يفصل بين الطابق العلوي والسفلي فخمٌ جدًّا، وطراز بنائه الخارجيِّ راقٍ على الرغم من قدمه، ولو جددنا الطلاء سيكون رائعًا بإذن الله، أنت تسكن في طابق، وأنا أسكن في الطَّابق الآخر ونتزوج وننجب الكثير من الأولاد.

سخر «وَهدان» من حماسي للبيت وقال بنَزَق: «الطابق العلوي مظلم وغرفه تبدو كالكهوف المهجورة، الطلاء منزوع ومتآكل، الرُّطوبة تزحف على الجدران ويبدو جليًّا تسرُّب مياه الأمطار من السَّقف هنا وهناك».

أشار إلى أماكن الرُّطوبة على الجدران ووثب في مكانه ليضغط بقدميه على الأرضيَّة الخشبيَّة وقال: «انظر! تلك الأرضيَّة الخشبيَّة الكالحة تُصدر أزيزًا كلَّما خطوت خطوة عليها، لا ريب أنَّ السوس ينخر في هذه الأخشاب منذ سنوات، لا كهرباء ولا ماء، حتَّى المصابيح والثُّريات غير موجودة، ورائحة العفن والرُّطوبة تفوح في الأجواء، هذا البيت كالمقبرة».

صعدنا على الدَّرج فتعثَّر «وهدان» مرَّتين بلا سبب! وطار طربوشه[1] فجأة وسقط فهبط الدرج ليلتقطه وهو غاضب فهدَّأتُ من روعه، دلفنا لغرفة بالطَّابق العلويِّ، فتعثَّر «وهدان» في عتبتها وسقط على وجهه فثار كالقدر الذي يغلي بالماء، ساعدته على النُّهوض ووقفت أتأمَّل الغرفة.

كانت نافذة الغرفة العريضة والمطلَّة على الحديقة الخلفيَّة مفتوحة على مصراعيها مرسلة لضوء الشَّمس ليتسلل منها وينداح على أرضيَّة الغرفة بشكل بديع، لمحت بناء صغيرًا منفردًا ومعزولًا من غرفة واحدة على أطراف الحديقة ربَّما كانت سكنًا للبستانيِّ أو شيئًا من هذا القبيل، تركت النَّافذة وعُدت أتأمَّل الغرفة المهيبة والخالية من الأثاث، عندما تبادلنا الحوار فيها كان لصوتنا رنين غريب وكأننا في بئر عميقة، قال «وَهدان» بضيق شديد: «غرفة مقيتة، لون الجدران مكتوم، والنَّافذة تُطلُّ على خرابة، حتَّى السَّقف يبدو مسرطنًا بتلك الشُّروخ وكأنَّ البرق ضربه للتوِّ».

- أراها هادئة وحالمة، وضوء الشَّمس يغمرها بالكامل من تلك النَّافذة اللطيفة، ولون الجدران ليس مكتومًا أبدًا، أحبُّ هذا اللون جدًّا.

(1) الطربوش أو الشاشية هو غطاء للرأس كالقبعة أحمر اللون وهو على شكل مخروط ناقص تتدلى من جانبه الخيوط الحريرية السوداء. بدأ العرب يرتدونه منذ الحقبة العثمانية، وشاع استعماله قديمًا في بلاد الشام ومصر والمغرب.

توقَّف «وَهدان» عن الكلام فجأة وقال بصوت أجوف وكأنَّه آتٍ من بئر عميقة: «هل لاحظت؟».

- ماذا؟

- صار لصوتنا صدى غريب فور دخولنا لتلك الغرفة.

ثمَّ صمت لوهلة وأضاف في ارتياب: «أشعر بوجود أحد معنا!».

سُطم باب الغرفة فجأة فانتفض «وَهدان» وأجفل وهمس قائلًا: «أظنُّها مسكونة».

تبادلنا النَّظرات في صمت فأردف قائلًا: «أتدري؟ لعل هذا سبب انخفاض سعر البيت وزُهد الناس فيه، هذا البيت مسكون بالجنِّ، أرأيت كيف طار طربوشي وحده ونحن على الدرج!».

- لا تُبالغ يا «وَهدان»، ليس مسكونًا إنَّما هي الرِّياح.

كان البيت يروقني، شعرت بشيء يجذبني إليه، فبدأتُ أُلحُّ عليه: «وافق أرجوك، لقد بعت الأرض الَّتي ورثتها عن أبي يا «وَهدان» وأسعار الشقق غالية، لن نتمكَّن من شراء شقَّتين فاخرتين كما طمحنا، وسعر هذا البيت فرصة لن تُعوَّض».

- ما بك؟ تتحدَّث وكأنَّك ضحَّيت من أجلي يا بن العمِّ! وأنا أيضًا قد فعلت مثلك وبعتُ أرض أبي، لقد جازفنا معًا واتخذنا قرارنا معًا، ولا بدَّ أن نستثمر هذا المال فنحن لا نملك غيره، على العموم لديَّ فكرة.

- أخبرني بها.

- نستطيع هدم البيت وبناء عمارة فارهة مكانه بمشاركة مقاول يتولَّى الأمر ونُساهم معه بأرض البناية، سيكون لنا نصف الشُّقق ونستطيع بيع أو تأجير بعضها.

- لكنني لا أرغب في ذلك.

لوَّح «وَهدان» بسبَّابته في الهواء وهو يقول: «لن أضع مالي في هذا البناء المتهالك إلَّا لو وافقت على هذا الشَّرط».

ترددتُ قليلًا، فقد كان حلمي أن أعيش في بيت له حديقة واسعة، وكانت أغلب البيوت في هذا الحيِّ تُشبهه، حدائق مُبهجة ورياحين تنفح عطرها في الأجواء وعائلات سعيدة، وكان هو البيت الوحيد المهجور بينها، وكأنَّه نجم انطفأ فجأة وسط حفنة من النُّجوم السَّاطعة، ولكن ما باليد حيلة! قُلت يائسًا: «حسنًا يا «وَهدان» أُوافق على شرطك، فقط دعني أعيش فيه لفترة قصيرة».

- رائع، تُعجبني عندما تخرج من خندق الكتب الَّذي أكل عقلك وتَعزِف معي على الوتر نفسه، المال يجلب المال يا «توفيق»، علينا أن نكون أثرياء فالمال هو كلُّ شيء.

خرجنا من البيت وتركت قلبي عالقًا هناك، لا أدري هل «وَهدان» على صوابٍ أم لا! لكن على الأقل ستُبنى هنا عمارة فارهة وسيكون لي فيها سكن خاص.

كانت هناك مشكلات روتينية معقَّدة تتعلَّق بأوراق ملكيَّة البيت، بعض الورثة لهم نصيب في الأرض، ولهم أشقَّاء آخرون من الأبِّ لهم نصيب في البناء، ثُمَّ دبَّت بينهم عقارب الشِّقاق وعلقت الأمور، ومات الجميع وورثهم أبناؤهم وصار الخلاف معقدًا ومتشابكًا وامتدَّ لأجيال، بعد جهود ومحاولات مضنية انتهينا من شراء البيت، وكان للوسيط الَّذي التقيناه الفضل في تيسير تلك الأمور فقد كان مُتحمِّسًا لبيع البيت بشكل غريب ويتعجَّله مما أدخل الرِّيبة في قلب «وَهدان» لكنَّني أقنعته أنَّه لا ريب ينتظر مبلغًا كبيرًا من الورثة لقاء بيعه. حُلَّت بعض المشكلات العالقة الَّتي تخصُّ توصيل الكهرباء والماء بعد تسديد المخالفات المتراكمة وهذا لم يُعجب «وَهدان» الذي لم يصبر كما اتفقت معه وعرض البيت فورًا على أكثر من مقاول ليتمَّ الهدم سريعًا، وكان في كلِّ مرَّة يتهرَّب من دخول البيت معهم ويُكلِّفني بالمهمة، لم يوافق أيٌّ منهم ونفروا من البيت، والثلاثة الَّذين وافقوا كان يظهر لهم مشروع آخر من حيث لا ندري في اللحظات الأخيرة، فانصرفوا وكانت الأمور تتعقَّد.

مضت أسابيع ونحن على هذا الحال، كنت في العادة أقضي إجازة نهاية الأسبوع في القراءة، لكنني هذه المرَّة قررت الانتقال إلى البيت وتنظيفه قدر

استطاعتي لعلَّ «وَهدان» يعدل عن فكرته. استعنت ببعض العمال لإزالة الأشجار المتكسِّرة من الحديقة، كان هناك الكثير من القمامة فقد كان بعض سكَّان الحيِّ يُلقونها من فوق السُّور للأسف، عندما نُظِّفت الحديقة خرجت منها القوارض والقطط وشعرت بالرَّاحة. قبل انصراف العمَّال ساعدوني في تنظيف الطَّابق العلوي وركبنا بعض المصابيح لإنارته لكي أتمكَّن من المبيت فيه حتَّى يعودوا في اليوم التَّالي لتنظيف الطَّابق السُّفلي، فالبيت واسع وممتلئ بالأتربة وطلاء الجدران المتساقط يملأ المكان، لم نجد الكثير من الأثاث، مقاعد قليلة هالكة ولا بد من إخراجها من البيت وطاولتان محطَّمتان. ودَّعتُهم وأغلقت الباب وصعدت الدَّرج وكُنت مُتعبًا للغاية، سأنام على الأريكة الوحيدة السليمة بالبيت، سحبتها للغرفة المطلَّة على الحديقة الخلفيَّة فقد أعجبني هواؤها العليل، لم يكن معي غطاء فارتديت سترتي فوق منامتي وتوسَّدت ذراعي واستسلمت للنَّوم بعد أن صلَّيت العشاء ودعوت لأبي وأمِّي، ليتهما كانا هنا فقد كانت أمِّي تتمنى أن تعيش في بيت كهذا.

عندما أغمضتُ عيني شعرت برهبة، فقد تناهى إلى مسامعي همس بلغة غريبة، تخدَّرت أطرافي ولم أتمكَّن من فتح عينيَّ، كان هناك ثقل شديد في قدميَّ وكأنَّ شيئًا ما يقيِّدهما، بدأتُ أتنفَّس بصعوبة وكأنَّ ملزمة تضغط على صدري، لم أكن نائمًا ولكن.. هناك شيئًا غريبًا يحدث لي، فُتِحت عيناي رغمًا عنِّي وكأنَّ أحدهم يُرغمني على الاستيقاظ! وألفيتُ نفسي أرتفع في الهواء حتَّى كدت ألمس السَّقف بينما تُحيط بي خيالات لنقوش غريبة، وكأنَّها رموز أو طلاسم، كانت تلك النُّقوش تُحيط بي من كلِّ الجهات وتدور حولي، لامستْ وجهي وجلدي حتَّى إنَّها رفعت ذراعيَّ في الهواء وكأنَّها تُصافحني، كانت تومض وتُضيء وكأنَّها مصابيح صغيرة، ابتعدتْ عنِّي تباعًا وشكَّلت هيئة رجل يقف أمامي بتفاصيله العامَّة، برأسه وكتفيه، وذراعيه وساقيه! الرُّموز كانت تتعانق وتقف فوق بعضها بعضًا لتُشكِّل هيئته، كدت أنشطر إلى نصفين من هول ما أراه، بدأت دقَّات قلبي تتواثب في صدري بجنون، وددتُ أن أصرخ لكنَّني لم أستطع، ظلَّ خيال هذا الرَّجل أمامي والرموز تموج في بعضها بعضًا، اخترق أذنيَّ صوت غريب سريعًا ما أدركت أنَّه صوت صفحات

كتاب تُقلَّب بسرعة، فتَّشت بعينيَّ في الغرفة فلم أر أيَّ أثر لكتاب هنا أو هناك، قال ذلك الكيان شيئًا لم أفهم كنهه، ثُمَّ كرره ولم أتبيَّن ما يُردده، انبثقت فجوة مُعلَّقة في الهواء وكانت تموج وتدور بسرعة شديدة وابتلعت كلَّ الرُّموز تباعًا واختفى خيال الرَّجل ثم انغلقت الفجوة مُحدثة صوتًا مهيبًا انخلع له قلبي وسقطتُ على الأرض، كان جسدي محقونًا بجرعة من «الأدرينالين» كانت كافية لإخراجي من البيت ركضًا في أقلِّ من دقيقة، جلست خارج السُّور واستندتُ إليه بظهري وجسدي كلُّه يختلج، كان الحيُّ ساكنًا كالمقبرة وكُنت في حيرة، بدأت أُحدِّث نفسي بصوت مسموع لأتيقَّن أنَّني مستيقظ: «أيُعقل أن يكون البيت مسكونًا كما زعم «وهدان»! أم أنا فقدت عقلي وأتوهَّم؟ لكنني واثق أنني لم أفقد وعيي ولا تركيزي ولا للحظة واحدة!».

أخذت أُطمئن نفسي ولُذت بالله وقررت أن أعود، فمهما كان هذا الشيء لا بدَّ أن أستعين بالله وأواجهه، فلا مكان للخوف في قلبي، انطلق أذان الفجر وشقَّ السُّكون فهَدهَد قلبي واطمأنَّت جوارحي، هرولت للمسجد واستعدت رباطة جأشي، صلَّيتُ وجلستُ حتَّى تُشرق الشَّمس فغلبني النَّوم وأنا جالس هناك، وعندما استيقظتُ أسرعت عائدًا إلى البيت وسريعًا ما وصل العُمَّال، لم أُخبرهم بما مررت به الليلة الماضية فلو أخبرتهم لن يتمُّوا المهمَّة والبيت يحتاج إلى الكثير من العمل، انشغلت معهم في تنظيف البيت، شيئًا فشيئًا بدأ جماله الدَّاخليُّ يظهر، وصل «وَهدان» فكان ظهوره كشربة ماء بعد طول عطش، أنستُ بوجوده وكُنت في حاجة إلى هذا الأُنس، راقه ما رآه من ترتيب ونظافة لكنَّه قال ساخرًا: «يبدو أنَّك ما زلت عالقًا في حلمك بالبقاء هنا في هذا الخراب».

تجاهلت سخريته، قررت إقناعه بالمبيت معي فنام على الأريكة ونمت على أرض الغرفة نفسها معه، وكانت ليلة هادئة غرقت فيها في نوم عميق.

تركت منزلي السَّابق بالكامل وسلَّمت مفتاحه لمالك البناية وكان الوداع مؤلمًا، فقد ظلَّ يدعو لأبي وأمِّي سقى الله أيَّامهما، ونقلت أثاث بيت والديَّ كلَّه وكتبي الَّتي أحبُّها وأقمت إقامة دائمة بالبيت العتيق الَّذي اشتريناه، وضعت

سريري في الغرفة نفسها، كُنت عنيدًا.. أعرف هذا، لكنَّه عهد اتخذته على نفسي، وهو ألَّا أخضع للخوف أبدًا، وتكرر ما حدث لي بعد ذلك مرَّة أُخرى، نفس الرُّموز وطيف الرَّجل والفجوة الَّتي تبتلعه وسقوطي على الأرض. لم أنتقل من الغرفة فقد كُنت أرى أنَّ ما يحدث سيتوقف إن تماسكت أمامه. أخبرت «وَهدان» بكلِّ شيء ولم يُصدِّقني، عندها توقف ظهور طيف الرَّجل.

راودتني بعد ذلك بعض الرؤى الجميلة في يقظتي، كُنت أشعر أنَّني أرى البساتين من أعلى بحللها السندسيَّة الخضراء وكأنَّني أُحلِّق في السَّماء! وأرى الحقول الخضراء على مدِّ البصر، مشهد فردوسيٌّ خلاب كان يتجلَّى من تحتي كلَّما مررتُ بجبل من الجبال بقممها البيضاء المتوزِّعة في نظام بديع، وأمرُّ على بحار وشلالات وأنهار ماؤها ملوَّن، وغابات فيها طيور أشكالها غريبة أجنحتها مزركشة وملوَّنة، رأيت أفواجًا من الحيوانات المختلفة تركض في الغابات، وجِمالًا بيضاء كالقطن تسير خلف بعضها في الصَّحراء فتتمايل أسنمتها وهي تمضي، وأسرابًا من الحيتان والدلافين تشكِّل دوائر وتقفز في أحد البحار، فأصبحت أستلذُّ ما أراه حتَّى أدمنته وأنا لا أدري هل هو حلم أم حقيقة؟ أحببت تلك الرؤى والبيت والبقاء فيه، وما عُدت أخاف منه، وقصصت على ابن عمِّي أمر الرُّؤى، لكنَّه ظل يُردد أنَّ هذا البيت مسكون وأنَّني سأفقد عقلي إن بقيت فيه، ونصحني بالذَّهاب إلى طبيب نفسي.

عندما فشلتْ محاولاتنا لإقناع المقاولين ببناء عمارة مكان البيت، فوجئت بـ «وَهدان» يزورني بغير موعد وقد قرر فجأة بيع نصيبه في الحال، وقعت في حيرة وطلبت منه أن ينتظر على الأقل لنبيعه معًا، لكنَّه غضب وصار يتَّهمني أنني ورَّطته في شراء هذا البيت الهالك، وأنَّه لا يستحقُّ ثمنه ولن نجد من يشتريه منَّا، وتشاجرنا وعلا صوتنا فهددني بأنَّه سيبيعه لأوَّل مُشترٍ فصحتُ في وجهه قائلًا: «افعل ما يحلو لك فلن أغادر البيت ولن أبيع نصيبي فيه!».

خرج يجرُّ أذيال الخيبة وعلَّق لافتةً بالفعل وكتب عليها «المنزل للبيع»، حزنت حُزنًا شديدًا، فأنا لا أفضل مشاركة شخص غريب، ولا أرغب في

التفريط فيما تبقى معي من مالٍ، يئست منه ولم أجادله وتركت اللافتة مكانها ومرَّت الأيام ولم يظهر مشترٍ واحدٍ للبيت وكأنَّ النَّاس لا تراه، فعاد «وَهدان» يلومني وكان محبطًا للغاية فشعرت بتأنيب الضَّمير لأنَّني أقنعته بشرائه وكانت فكرتي من البداية، فقررتُ شراء نصيبه بكلِّ ما تبقَّى معي من مال لعلَّ ضميري يرتاح فوافق في الحال، وأعطيته ثمن نصف البيت بأرضه كما طلب، وقَّعنا على عقد ينص على أنَّ البيت ملك لي بأكمله على أن نلتقي مع المحامي في وقت لاحق ليصيغ لنا عقدًا جديدًا ينصُّ على ملكيَّة الأرض أيضًا ويوقِّعه «وَهدان»، فقد تسلَّم المال كاملًا، وبقيت وحيدًا في البيت، شعرت بوحشة وأوجعني صدري، فقد تجدد حزني على والديَّ. كنت أشعر أنَّ البيت ممتنٌّ لي ويُخاطبني بطريقة ما وكأنَّه حيٌّ! مرَّت ليالٍ ممطرة وكان البرد شديدًا وقارسًا لكنَّ غرفتي كانت دافئة على الدَّوام، والهدوء يملأ أرجاء البيت، وكأنَّني بمجرَّد غلق نافذتها أنعزل عن العالم. عدت أقرأ من جديد وكنت أستمتع بما أقرأ، لاحظ زملائي في العمل أنَّ صحَّتي صارت أفضل، عدت لممارسة الرِّياضة بانتظام، وانقطعت الرُّؤى الَّتي كنت أراها في يقظتي ولم أر طيف الرَّجل مرَّة أخرى، وصرت أعيش في سلام حتَّى ظهر الصَّقر وهاجمتني الغربان وكادت تقتلني.

عُدت من عيادة الدُّكتور «مودود» بعد أن رويت له قصَّتي مع البيت وكيف اشتريته. لم أتمكَّن من النَّوم بسهولة، أعددت لنفسي عشاء شهيًّا ثُمَّ شربت كوبًا من النعناع وهذا كمكافأة لي على ما مررتُ به، أو ربَّما أحاول طمأنة نفسي فما زلت أنتظر عودة الغربان في أيِّ لحظة، أنا لا أخشى الجنَّ ولو ظهر لي سأتحدَّث معه، أما نقر الغربان لجسدي فذاك مؤلم للغاية، شعرت حينها أن ملايين الأشواك ترشق جسدي بأكمله. استلقيتُ على الأريكة وبدأت تراودني فكرة بيع البيت والخلاص منه، فما فعله الغربان بي نزح أيَّ لذَّة كُنت أستشعرها من تلك الرؤى السَّاحرة الَّتي كانت تراودني، ولكنَّها ليست رؤى! أنا فعلًا أرى تلك الأشياء في يقظتي، ما زلت أذكر المرَّة الأولى، أخذ الكرى بمعاقد جفنيَّ ونمت أخيرًا، لكنَّني استيقظت لأجد منقاره أمامي وخلفه عيناه

المستديرتان، إنَّه «الرَّماديُّ» مرَّة أخرى! وكان يقول: «أنت حيٌّ يا «توفيق» أليس كذلك؟».

قفزتُ من فوق الأريكة فأوجعتني قدمي فصرخت حانقًا: «ماذا تُريد منِّي؟».

- لا شيء، جئت لأطمئنَّ عليك بعد ما حدث.
- لن أسمح لك باختطافي مرَّة أخرى، حتَّام ستظلُّ تُلاحقني أنت وغربانك الحمقى؟
- لا تجمعني مع الغربان في جملة واحدة.
- وكأنَّك تختلف عنهم!
- غدًا ستُدرك أنَّني لست مثلهم، أمَّا الآن فسأتركك لترتاح، ولنا حديث طويل بعد أن تستردَّ عافيتك.
- لن يكون بيننا حديث آخر، ستنصرف الآن وستختفي للأبد.
- لا أستطيع!
- لماذا؟
- لا بدَّ أن تذهب معي إلى «مملكة البلاغة».
- «مملكة البلاغة» مرَّة أُخرى! لا أُريدها ولن أذهب إليها أبدًا.
- إذن ستكون عُرضة للخطر، وستعود الغربان لمهاجمتك وسيقتلونك.
- لماذا؟
- ستفهم كلَّ شيء، فقط رافقني.
- اغرب عن وجهي.
- أنت تعلم أنَّني أستطيع نقلك بسهولة وإلقاءك وسط الغابة، وثبة واحدة فوق رأسك وستكون هناك وستخضع رغم أنفك، لكنَّني لا أرغب في هذا.
- لن يُرغمني أحد على فعل ما لا أريده.

- أعرف هذا جيِّدًا.
- إذن فلتبتعد أيُّها الصَّقر اللعين.. أعوذ بالله منك، بسم الله..
- تظنُّ أنَّني من الجنِّ؟ هيَّا اقرأ القرآن فأنا أحبُّ سماعه بصوتك!
- ومتى سمعت صوتي وأنا أقرأ القرآن؟
- سأخبرك لاحقًا.

أمسكت برأسي وظللت أُردد بصوت مسموع: «لا وجود لصقر يتحدَّث بلغة البشر».

ثُمَّ هجمت عليه قائلًا: «تعال هنا لأرى من أين يصدر ذلك الصَّوت، أو لعلِّي أذبحك وألقيك لتنهشك القطط».

تراجع «الرَّمادي» للخلف وضرب بجناحه مبتعدًا عنِّي وقال: «يومًا ما سأعرِّفك بعشيرتي، أرجوك رافقني للقاء «ذوي الدِّماء الحمراء» وأعدك أن أرجعك إلى البيت مرَّة أخرى بعد هذا اللقاء».

- كلُّ دمائنا حمراء، تتحدَّث بالألغاز وليس لديك شيء لتُخبرني به.
- حسنًا، نم الآن في أمان، واعلم أنَّنا نحرسك، السيِّدة «مارماحوز»(1) أخبرتني أنَّ الغربان لن تعرف طريقك لفترة كافية حتَّى تستردَّ عافيتك.
- من؟ من؟ «مارماحوز»!
- العجوز الَّتي ألقت عليك مسحوق «عروق الظيَّان»(2).
- عروق ماذا!
- «الظيَّان» مسحوق لنبتة مميَّزة، إنَّها عطَّارة ماهرة.
- هذه ليست سِحنة عطَّارة بل سِحنة ساحرة خبيثة.
- أنت مدين لها بالمناسبة، فقد أنقذت حياتك.

---

(1) المارماحوز نوع من الأشجار ساقه أسطوانيَّة وأوراقه بيضاويَّة ورائحة أوراقه طيِّبة وطعمه مُرٌّ، ينبت في حوض البحر المتوسِّط.

(2) الظيَّان نبتة تنبت في البراري ورؤوس التلال الرَّطبة وكأنَّها ضرب من اللِّبلاب المتسلِّق ويُسمَّى ياسمين البرِّ.

- لست مدينًا لأحد!

- بل مدين لها.

- كفَّ عن الكلام واغرب عن وجهي.

- لا بدَّ أن تخلد للنَّوم فأنت مُتعب للغاية يا «توفيق»، سأنصرف الآن.

بسط «الرَّماديُّ» جناحيه وانطلق من النَّافذة، ظللت أراقبه وهو يرتقي في السَّماء ويبتعد حتى استحال نقطة سوداء ابتلعها الأفق البعيد، تركني وفي رأسي زحام من الأسئلة، لكنَّني كنت متعبًا ولم أقوَ على الوقوف مُستندًا على حرف النَّافذة أكثر من ذلك فعدت للاستلقاء على الفراش، لا أدري لماذا بدأت أثق بهذا الصَّقر، حتَّى إنَّني لم أُغلق النَّافذة خلفه ولم أخف من عودة الغربان، فقد نثرت «مارما..» «مارمي..» «مارمووو..» لا أذكر اسمها! المهمُّ أنَّ مسحوق تلك العشبة الغريبة التي لا أذكر اسمها أيضًا يُغطِّي جسدي كلَّه، ولكن.. مهلًا.. سأغلق النَّافذة قبل أن أنام!

***

انتهت إجازتي المرضية ولا بدَّ من العودة إلى العمل، ما زلت أعرج على قدمي اليمنى، فقد نقرها أحد الغربان بعمق مما تسبب في إحداث حفرة مؤلمة بها، وكنت أغطِّي عيني اليسرى عندما أخرج من البيت فلا يزال جفني مُحتقنًا وداكنًا بيد أن التورُّم الَّذي كان فيه قد زال، كان تلاميذي يسخرون من طريقتي في السَّير، سمعتُ همزهم ولمزهم وهم يلقِّبونني بالقرصان لأنَّني أغطِّي عيني اليسرى، عندما كان زملائي يسألونني عن الخدوش والجراح الَّتي أُصبت بها كنت أخبرهم أنَّه شجار عنيف دون الخوض في التفاصيل، وتركت لخيالهم إكمال ملامح المشهد، فهم يعلمون من هيئتي أنَّني مُصارع قويٌّ كما يعلمون أنَّني أمارس الرِّياضات القتالية، فلو أخبرتهم أنَّ حفنة من الغربان هاجمتني لن يصدِّقوني. توجَّهت إلى مكتبة المدرسة وبحثت عن كتابٍ يتحدث عن الأعشاب البرِّية، كنت أفتِّش في أسماء الأعشاب لعلِّي أتذكَّر اسم العشبة الَّتي نثرت العجوز مسحوقها على جسدي لتُبعد الغربان، لم أتذكَّر الاسم للأسف.

قررت أن أمرَّ على الدكتور «مودود» لأستردَّ منه العُشبة وأسأل أحد العطَّارين عنها، فمررت بعيادته وانتظرت حتَّى انصرف آخر مرضاه، وعندما سألته عن العشبة أخبرني أنَّها بالبيت، سرنا معًا وكنت لا أزال أعرج فأمسك بذراعي وسألني: «هل تناولت الدَّواء كما اتفقنا؟».

- لا.

- لماذا؟

- ما أراه وأعيشه ليس هلوسات يا دكتور.

- إن كُنت ترغب حقًّا في نجاح العلاج لا بدَّ أن تعترف بأنَّك مريض يا «توفيق»، فقدك لأبويك وصدمتك في موتهما وعزلتك كلُّها أشياء تكاثفت وأثَّرت عليك.

- والغربان! وما...

- هذا دوري كطبيب، التعامل مع الحقائق والمعطيات، وأراك تحتاج إلى علاج سريع قبل أن تتفاقم حالتك وتسوء.

بُترت الكلمات على طرف لساني، ظللتُ منصتًا إليه طوال الطَّريق، مررنا ببيتي فأخبرني أن أدخل لأرتاح وأن أمرَّ عليه غدًا ليُعطيني العشبة، شعرت أنَّه لا يرغب في اصطحابي إلى بيته فاستجبت وودعته على بوابة بيتي.

***

نسي الدُّكتور «مودود» إحضار العشبة ليومين متتاليين فخجلت أن أطلبها بعد ذلك حرجًا منه فلعله أضاعها. لم أتناول الدَّواء ولم أذهب إلى عيادته على الرغم من الأرق الَّذي أصابني، في لحظة ضجر وملل قررت المرور عليه بعيادته لأسأله عن العشبة فأخبروني أنَّه مريض فأسرعت لزيارته، طرقت باب شقَّته ففتح لي الباب واتسعت حدقتاه على وسعهما عندما رآني، شعرت بانزعاجه فأدركتُ أنني تجاوزت حدودي عندما أقدمت على زيارته في منزله. كان يبدو متعبًا للغاية بوجهه الشَّاحب وعينيه المنكسرتين، أدخلني لغرفة الاستقبال فلاحظت سيره ببطء فأدركت أنَّه لا يزال يُعاني آثار وعكته الصحيَّة،

كان بيته أنيقًا ومرتَّبًا للغاية، ألوان قطع الأثاث وتوزيعها في الغرفة الَّتي كُنت فيها مريح للنَّفس والعين، شعرت بالسَّكينة لمجرد وجودي هناك، اخترقت رائحة المخبوزات أنفي، لم أتناول طعامًا شهيًّا منذ وفاة أُمِّي، تذكَّرتها فجاشت عواطفي وتذكَّرت كيف كانت أُمِّي تعتني بي وتحنو عليَّ وتُطعمني، سألني عن حالي فأجبته وأنا في غاية الحرج: «عندما علمتُ بمرضك أردتُ الاطمئنان عليك».

- أُعاني منذ فترة آلامًا بصدري، ويبدو أنَّ قلبي ليس بخير.
- لا بأس عليك، سأنصرف الآن لتستريح، وإن احتجت إلى شيء فأنا موجود.
- بهذه السُّرعة؟
- أردت رؤيتك فقط.

قررت الانصراف في الحال لكنَّه عندما وقف ليودِّعني ترنح وسقط على الأرض واصطدم بطاولة فسقطت معه وأحدثت ضجيجًا بسبب تحطُّم الوعاء الفخَّاري الذي كان فوقها، أقبلت ابنته في اندفاع عندما سمعت الصَّوت، وفور أن رأت أباها على الأرض هوت على ركبتيها بجواره وأخذت تناديه: «أبي.. أبي..»، أخذ يُطمئنها وأخبرها أنَّه يشعر بدوار خفيف، طلب مني أن أساعده ليصل إلى غرفته فحملته إلى فراشه وسألته: «أليس من الأفضل أن أصحبك إلى المستشفى؟».

- أنا بخير، دوار خفيف لا أكثر ربَّما بسبب نقص السُّكر في دمي.

عادت ابنته بكوب من الماء المحلَّى بالسُّكر ووقفت تسقيه برفق فرنوت إليها فخفق قلبي، نقلت عيني مسرعًا إلى وجه أبيها الشَّاحب وشعرت بالارتباك، كان قد بدأ يتحسَّن فأمسك بيدي وقال بصوت يرتجف: «حمدًا لله أنَّك هنا».

- سأنصرف الآن لترتاح يا دكتور.

خرجت ابنته من الغرفة مسرعة وكأنَّها انتبهت لشيء ما، ربت الدكتور «مودود» على يدي وقال: «ابق قليلًا لعلَّك تتناول معي من المخبوزات التي تعدُّها «قمر»».

انتشرت رائحة حريق فجأة فأغمض الدكتور «مودود» عينيه ووضع يديه على وجهه وقال: «لقد أحرقتها كالعادة».

ضحكت رغمًا عني، دلفت «قمر» الغرفة فشعرت بالحرج، قال الدُّكتور «مودود» وهو يشير إليها: «منذ وفاة أُمِّها حوَّلتني إلى حقل لتجاربها في الطَّبخ».

اصطبغ وجهها بحمرة الخجل، قال أبوها يمازحها: «أحضري لضيفنا أيَّ شيء لا يُخبز في الفرن».

عندما غابت مرَّة أخرى قال: ««قمر» خيالية للغاية، العام الماضي كانت ترغب في رؤية هذا البيت الذي اشتريته من الدَّاخل لترسمه، فهي تظنُّه قصرًا من القصور التي تقرأ عنها في الروايات، فأخذت تُلحُّ عليَّ فالتقيت المسؤول لكنَّه رفض السَّماح لنا بزيارة البيت».

- مرحبا بكما في أيِّ وقت.

شردتُ قليلًا وكُنت أسبح في لُجَّة من الأفكار عندما اخترقت حجاب الصمت بعينيها العسليتين وهي تقول: «تفضَّل».

تناولت كوب العصير وقلبي يرجف، التفتت «قمر» نحوي وقالت بصوت خفيض زعزع كبرياء قلبي الَّذي لم يهتز لفتاة قطُّ: «الرَّمز الَّذي رسمته لأبي هو رقم واحد باللغة النُّوبية».

صمتت لبرهة وأضافت وهي تحرِّك يدها في الهواء وكأنَّها تكتب شيئًا: «كنت أرسمه على هامش دفتري اليوم، فرآه أستاذي وأخبرني بهذا، وعندما بحثت في الأمر تأكَّدت من المعلومة، هذا هو الرَّقم واحد بالنوبيَّة ويُنطق هكذا: وِيرا».

قال الدكتور «مودود»: «قمر تدرس في السنة الأخيرة في المدرسة الثانويَّة للبنات، وأحد أساتذتها من النُّوبة».

ثم أضاف: «هل تستطيع رسم المزيد من الرُّموز الَّتي تراها في أحلامك، أرغب في معرفة سرِّها».

- سأُحاول أن أتذكَّر.

قالت «قمر» وهي تُحدِّق إلى الأرض أمامها: «أتدري أنَّ البيت الَّذي تسكن فيه كان لأحد علماء الآثار المشهورين يا أستاذ «توفيق»؟».

- أظنُّ هذا، كان قبل أن يُباع للعائلة الَّتي اشترته وهجرته لسنوات طوال.

- نعم.

- ما علمته أنَّ هِجرة أغلب أفراد العائلة لدول أوروبيَّة كانت من الأسباب الَّتي أدَّت إلى إهمال البيت، والخلافات المستمرَّة بين الورثة زادت الأمور تعقيدًا.

قال الدكتور «مودود»: «بالإضافة إلى الشائعات، رددوا كثيرًا أنَّه بيت مسكون».

شعرت بالارتباك عندما قال هذا فسألتهما: «هل تصدقانهم؟».

تفرَّس الدكتور «مودود» في ملامحي وقال: «فلتخبرنا أنت!».

ران علينا صمت خفيف قطعته «قمر» قائلة: «لقد رأيت الغربان، لا بدَّ أنَّها أفسدت أثاث البيت».

تبادلتُ النَّظرات مع الدُّكتور «مودود» الَّذي أسرع ليغيِّر دفَّة الحديث قائلًا: «لقد رسمت «قمر» البيت عدَّة مرَّات قبل شرائك له، إنَّها مغرمة بطراز بنائه للغاية، لو رأيت لوحاتها ستُدهشك، أحضريها يا «قمر»».

انصرفت «قمر» بهدوء لتحضر لوحاتها، عندما خرجت قال لي: «لا تحكِ شيئًا فقد تخاف مما ستسمعه منك».

- بالتأكيد لن أفعل.

أحضرت «قمر» لوحاتها، أخذت أتأمَّلها وقُلت وأنا أمرر أطراف أناملي على الرَّسم: «تلك هي تفاصيل البيت الَّتي أحببتها عندما رأيته لأوَّل مرَّة مع ابن عمِّي «وَهدان»، كان يراه كئيبًا وكنت أراه رائعًا، وبينما يراه مظلمًا أرى ضوء الشَّمس يُعانق النَّوافذ، وبينما يراه قذرًا أراه مُتعَبًا وحسب، نعم.. رأيته بيتًا متعَبًا مثلي».

أشارت وهي تريني آخر رسمة له وكانت قد انتهت منها حديثًا، فرأيت ظلًّا خلف إحدى النوافذ فأدركتُ أنَّ هذا ظلي، وسعدت بوجودي في اللوحة ولو كنت مجرَّد شبح أسود خلف نافذة! لاحظتُ أنَّ ألوان البيت أكثر إشراقًا من اللوحات السَّابقة، وأنَّها أضافت إلى حديقته الكثير من الأشجار، قالت وهي تسترد لوحتها من يدي: «البيت رائع وستكون الحديقة مذهلة لو اهتُمَّ بها».

أثنيت على رسومها فانصرفتْ بلطف، ولم أفهم بعدها كلمة واحدة مما قاله لي الدُّكتور «مودود»، كان الكلام يشرد عن أُذنيَّ، لقد اخترقت ابنته شغاف قلبي للتوِّ وزلزلت كياني، سألته عن العشبة فأشار إلى حقيبته لأناولها له ففعلت، وتناولتُ العشبة من يديه فعادت تحرق كفِّي فتنبَّهت للمكان وللزمان، حييته ومضيت أعرج بقدمي وقلبي نحو البيت، ماذا فعلت بي تلك الفتاة الضئيلة الصَّغيرة الَّتي لا تُجيد الطَّبخ وتحرق المخبوزات؟ حسنًا.. سأهتمُّ بالحديقة لتكون مذهلة كما قالت.

***

٢

القبو

لم يظهر «الرَّماديُّ» مرَّة أخرى، يبدو أنَّه كان أمرًا عارضًا وإن كان خارقًا للطبيعة، لم أُرهق خلايا عقلي في التفسير وانشغلت بعملي وكُنت أتعافى سريعًا فما عُدت أعرج وجرح جفني قد شُفي والحمد لله، بيدَ أنَّني أحيانًا أشعر بوخزة خفيفة فيه، قررت طلاء جدران البيت لكنَّ هذا سيُكلِّفني الكثير من المال وما عُدت أملك مالًا بعد أن دفعت ثمن باقي البيت لابن عمِّي، سأشتري دلو طلاء واحدًا من راتبي، وسأجرِّب طلاء غرفة واحدة بنفسي وإن نجح الأمر سأكمل البيت كلَّه شيئًا فشيئًا فلستُ في عجلة من أمري، فراتبي لا يكفي لجلب العمَّال والنقَّاشين ليساعدوني.

في نهاية الأسبوع ابتعت علبة طلاء كبيرة وبعض الأدوات وأنا عائد من المدرسة الَّتي أعمل بها وبدأتُ رحلتي مع طلاء جدران البيت، كنت أتخبَّط في البداية واستغرقت وقتًا طويلًا لكي أتقن ما أفعله، ظللتُ ساهرًا للفجر حتى انتهيت أخيرًا من طلاء جدار واحد فقط في إحدى الغرف، تركت كلَّ شيء وخلدتُ للنوم فقد كان ظهري يؤلمني للغاية، استيقظت مبكرًا في اليوم التَّالي لأكمل الطلاء لكنني قفزت من فراشي وقلبي يكاد يخترق قفصي الصَّدري من

فرط الاندهاش مما رأيته! لقد كانت كلُّ جدران الغرفة الَّتي نمت فيها مطليَّة وبشكل رائع!

ولكنَّها مطليَّة بلون مختلف عن ذلك الَّذي اشتريته!

هرولت نحو الغرفة الَّتي كنت قد تركت فيها علبة الطِّلاء التي اشتريتها فوجدتها لا تزال هناك، حتَّى الجدار اليتيم الَّذي كنت قد طليته بالفعل تغيَّر لونه، اقشعرَّ جلدي فقد أدركتُ أنَّني لستُ وحدي، صحت سائلًا: «من فعل هذا؟».

لم يأتني الجواب فغرقت في حيرة شديدة، تُرى كم علبة طلاء تكفي لطلاء بيت بهذا الحجم؟ تساءلت وأنا أتنقل كالمجنون بين الغرف وأُحدِّق إلى الجدران وألمسها بكفيَّ.. كل جدران البيت مطلية باللون نفسه!

وهل ليلة واحدة تكفي لإنهاء طلاء جدران كلِّ هذا البيت بأكمله!

وما نوع هذا الطِّلاء؟

ومن قام به!

كيف سأستمرُّ في العيش بين جدران هذا البيت وأنا على يقين أنَّ أرواحًا أخرى تعيش معي تحت سقفه وتراقبني دون أن أراها؟

حسنًا! هناك بالفعل نفر من الجنِّ، فلماذا لا يظهرون لي؟

قُلت بصوت مسموع: «أعلم أنَّكم هنا.. لماذا لا تظهرون لي؟».

تسمَّرت قدماي بالأرض، أرهفت السَّمع وكان هناك صوت خفيض لهسيس وأصوات غريبة، بدأت أرى أطيافًا تموج في الهواء فخفق قلبي كآلة مجنونة، كانوا يشبهون بعضهم بعضًا وكأنَّهم نسخة مكررة من هيئة واحدة، لم أتبيَّن ملامحهم جيدًا وكأنَّها نقوش قد ماهت في لوحة سُكب عليها الماء! كانوا يقفون بنظام في صفَّين، لم يُخاطبوني ولم أسمع لهم صوتًا غير هذا الهسيس الضعيف، خرجوا من الغرفة وبدؤوا يطوفون بالبيت، تبعتهم من غرفة لأخرى، أخذت أُردد آيات من القرآن فالتفتوا تجاهي وكأنَّهم انتبهوا للتوِّ لصوتي فخرجوا من النَّافذة، اقتربتُ من حافَّتها فوجدتهم يهبطون إلى الحديقة تباعًا،

انتشروا فيها ودار بينهم حوار لم أتبيَّن منه حرفًا واحدًا، وبدؤوا يخططون أرض الحديقة ويقلبون تربتها، بعضهم كان ينثر شيئًا كالحبوب بانتظام في خطوط مستقيمة، أدركت أنَّهم يزرعونها، لا ريب أنَّهم يعرفون كلَّ شيء عنِّي! بل يعرفون ما دار برأسي عن الحديقة وزراعتها من أجل أن تعجب «قمر»، هرولت على الدَّرج وخرجت للحديقة واقتربت منهم، كانت أطيافهم تتلاعب في الهواء وكأنَّها دخان ملوَّن يموج في الهواء ويتنقَّل، ليس لهم قوام لألمسه لكنَّ أفعالهم واضحة، فها هم يزرعون الحديقة أمام عيني. تلفَّتُّ حولي لأرى هل لاحظ الجيران وجودهم مثلي أم لا؟ لكنَّ الوقت كان مُبكرًا والنَّاس نيامًا فاليوم الجمعة، انتهوا من مهمَّتهم وتلاشوا في الهواء، غمرني السُّكون لوقت طويل وكُنت أُحدِّق إلى كلِّ جهة كالمجنون، وعندما لم يظهروا لي مرَّة أخرى غادرت الحديقة وعدت إلى داخل البيت وأنا أتعجَّب مما رأيته.

كنت عائدًا من عملي عندما رأيت حشدًا من الشَّباب يتزاحمون على أحد المتاجر المشهورة بشارع من شوارع الفيوم، وكان خلفهم القليل من النساء والفتيات، والجميع ينتظر فتح أبوابه للشراء بعد إعلان الشَّركة الأجنبيَّة المسؤولة عن هذا المتجر عن تنزيلات كبرى في أسعار منتجاته، مررت بجوارهم وكنت في عجلة من أمري وفوجئت بمن تُناديني: «أستاذ «توفيق»!».

التفتُّ وإذا بها «قمر» ابنة الدكتور «مودود» وكانت لا تستطيع عبور الشَّارع خوفًا من الحشد، توجَّهت نحوها ودفعت الشَّباب والرِّجال لتمرَّ دون أن يمسَّها أحد، عبرت الطريق خلفي وهي تتخبَّط في اضطراب، كنت غاضبًا للغاية ولا أدري لماذا فارت الدِّماء في عروقي، كنت أسير مُسرعًا بعد أن أخبرتها أن تتبعني، التفتُّ فوجدتها على مسافة بعيدة منِّي فانتبهت لخطواتي المسرعة فوقفتُ أنتظر اقترابها، وعندما وصلت بالقرب منِّي وجدتني ألومها بقسوة: «كيف تقفين وسط الزِّحام هكذا يا آنسة «قمر»؟ كيف لفتاة مهذَّبةٍ أن تفعل هذا؟».

- لم أفعل! كنت...

قاطعتها قائلًا: «أتسيرين وسط الشَّباب وتناديني باسمي بصوتٍ عالٍ وسط الشَّارع!».

- ليس لي علاقة بهم! كنت عند صديقتي! وما ناديتك إلَّا لثقتي بك.

شعرت بالحرج فالتفتُّ وعدت للسير وسارت خلفي، كان عليَّ أن أعتذر، هبَّت الرِّياح وبدا وكأنَّها ستُمطر، التفتُّ نحوها فطار طربوشي نحوها فهرولتْ والتقطته فاقتربتُ واعتذرتُ منها قائلًا: «آسف! ظننتك كنتِ معهم».

- لم أفعل، كنت في رفقة صديقتي لأتسلَّم ثوبي الجديد من الخيَّاطة.

- أعتذر منك مرَّة أخرى.

- لا عليك يا أستاذ «توفيق»، أستطيع إكمال الطريق وحدي من هنا.

انصرفت بعد أن ردَّت إليَّ طربوشي وسرقت فؤادي، ظللت واجمًا وساكنًا في مكاني وأنا أراقبها تبتعد، كنت أشعر بحرج شديد من نفسي ومما قلته، لا ريب أنَّها الآن تنفر منِّي بشدَّة، عدت إلى بيتي محزونًا وعقلي لا يتوقَّف عن التفكير بها.

مرَّ أسبوع آخر بوتيرة سريعة، وكنت قد ابتعت خلاله من المشتل القريب البعض من النَّباتات ووزعتها في الحديقة بجوار ما زرعه الغرباء، هكذا أسميتهم بيني وبين نفسي، وبدأت أرويها بانتظام، لم يظهر هؤلاء الغرباء مرَّة أخرى لكنَّني ظللت مرتابًا طوال الوقت وشعرت أنَّني مُراقَب باستمرار فأصابني بعض الضِّيق. لعلَّهم من عُمَّار البيوت! أو لأنَّ البيت كان مهجورًا لفترة طويلة سكنه الجنُّ وسيرحلون بالتَّأكيد لأنَّني انتقلت إليه، على أيِّ حال هم لم يؤذوني حتَّى الآن، ولكن هل يفعلون هذا لأطمئن إليهم ثُمَّ سيؤذونني بعد ذلك؟

رتَّبت أثاث أبي وأُمِّي الَّذي نقلته من بيتنا القديم إلى هنا، بالكاد ملأتُ غرفتين بالطَّابق العلويِّ، فالبيت هنا كبير ويحتاج إلى المزيد من الأثاث. بدأت أتجوَّل في غرف البيت وأطلقت العنان لمخيلتي، أخذت أتساءل هل كان شراؤه صفقة ناجحة أم أنني أضعت ميراثي وبعثرته بلا فائدة؟ لو كان أبي على قيد الحياة لحزن لبيع تلك الأراضي. شعرت بالجوع وكان المطبخ

بالطَّابق السُّفلي، لم أجد شيئًا آكله فارتديت ملابسي على عجل، وبينما كُنت أسير في أحد الممرات متوجهًا نحو الباب الرئيسيِّ أحسست بيدٍ تدفعني من الخلف فانزلقت قدمي كما تنزلق الزُّبدة في الطَّنجرة السَّاخنة وسقطتُ على الأرض مستندًا على مرفقيَّ فضغطت دون قصد على لوح خشبي فانزاحت عدَّة ألواح تباعًا على مزلاج حديديٍّ ببطء شديد وهي تُصدر أزيزًا مُزعجًا بسبب صدأ هذا المزلاج، كانت الفتحة واسعة بعد إزاحة تلك الألواح، خفق قلبي خفقًا وأنا أتلفَّت باحثًا عن اليد الَّتي دفعتني، لم يكن هناك أحد! حملقتُ في الظُّلمة الحالكة تحتي، كان هناك درج ينحدر لقَبو بالأسفل، لن أخاف من الظَّلام! هكذا عاهدت نفسي منذ الصِّغر، فأيُّ ظلمة في الحياة كانت تهون أمام عيني عندما أذكِّر نفسي بظلمة القبر. «عليك أن تكون شجاعًا من أجل نفسك».. هكذا كان يقول لي أبي عند انقطاع الكهرباء وأنا صغير. هبطتُ الدرج مستعينًا بالله وكان القَبو غارقًا في عتمة شديدة، أسرعت صاعدًا مرَّة أخرى لأجلب مصباحًا يدويًّا لأبحث عن مفتاح الضَّوء بالقبو وعدت إليه، ارتبت في البداية من خيالات سوداء لكنَّني اكتشفت بعد عثوري على مصدر الضوء أنَّها قطع ثمينة من الأثاث العتيق ملفوفة بعناية، هناك خزانتان كبيرتان، وتلك مرآة طويلة، وهذه مكتبة عظيمة، وهذا كرسيٌّ هزَّاز، ومذياعٌ خشبي كبير أظنُّه أقدم ما بهذا البيت، في ركن القَبو عثرت على مكتب خشبيٍّ أنيق يزيِّنه النحاس وكان مطعَّمًا بالصَّدف، يبدو أنَّ صاحبه كان يجلس هنا ليكتب، فقد كان المكتب هو القطعة الوحيدة العارية بلا أغطيه وكذلك مقعده كان بلا غطاء، كما أنَّ هناك أوراقًا وريشة ومحبرة مفتوحة جفَّ حبرها فعلقت الرِّيشة بداخلها والتصقت بحرفها، أمسكت بالعدسة المكبِّرة المغمورة بالأتربة ونفخت فيها فبدا لي أثر بصمة إبهام لعلَّها لمن كان يكتب، تحسستُ طرف فنجان القهوة الخزفيِّ الأنيق الَّذي استقبل أنفاسه يومًا ما وها قد استحال جوفه مقبرة لبعض الحشرات وأنا أفكِّر في هويَّة ذلك الرَّجل الَّذي اختار هذا المكان ليهرب من العالم والنَّاس ويكتب!

ترى ماذا كان يكتب؟

فشلت في فتح أدراج المكتب، لعلَّ لها مفتاحًا سأعثر عليه لاحقًا، عدت للتفتيش في القبو فوجدت سريرًا مفككًا من النحاس، وحقائب من الجلد سطحها مقشور وتالف بها الكثير من الملابس الَّتي بليت ونحلت وتهتَّكت بمرور الزَّمن. عثرت على الكثير من الأشياء، يا له من قَبو! هناك أسرار حيوات عديدة دُفنت هنا! فَنِيت الأرواح وبُلِيَت الأقمشة وَصمد الخشب والنحاس، وأمَّا الورق فبالكاد يقوى على إكمال مسيرته، يا له من فناء!

دُهشت عندما عثرت على حفنة من الكتب العتيقة، الكثير منها لا يزال محتفظًا برونقه بيد أنَّ أوراقه اصطبغت بصفرة مخنوقة، قضيت وقتًا طويلًا في ذلك القَبو أُفتِّش في الصَّناديق الخشبية، وأتفحَّص الأثاث والثريَّات النحاسيَّة والكتب العتيقة، والتُّحف الثَّمينة، قررت الاستعانة ببعض العمَّال لأخرج كلَّ شيء من هذا القَبو، سيكون البيت كالقصر بعد أن تُعلَّق هذه الثُّريات البديعة، سأنظِّفها وألمِّعها لتبرق من جديد، سأوزِّع قطع الأثاث بنظام، سأضع تلك المكتبة الرَّائعة في صدر صالة الاستقبال، وسأشعل المدفأة فأجواء هذا البيت باردة، سأجلس على ذلك الكرسيِّ الهزَّاز بجوارها وأقرأ بينما تحضِّر لي زوجتي القهوة، ستكون زوجتي «قمر» لا غيرها!

بدأت أتفحَّص الكتب فوجدت كتابًا عن بلاد النُّوبة وتاريخها، ومعه ملحق مطويٌّ لترجمة الكثير من الكلمات من النُّوبيَّة للعربيَّة، تذكَّرت الرَّمز الَّذي يظهر لي باستمرار فقررت أن أبدأ بقراءة ذلك الكتاب. عثرت أيضًا على صندوق به بعض الرَّسائل وألبوم به قصاصات من المجلَّات والصُّحف وكانت ملصوقة بعناية وإتقان، كانت الصُّور لعالم الآثار والمالك الأصليِّ لهذا البيت خلال رحلاته، بجوار الأهرامات تارة، وفي أسوان تارة، والكثير من الصُّور في الأقصر، وبعض الصُّور لتماثيل ومسلَّات وأوراق برديٍّ كان قد عثر عليها في رحلاته الاستكشافيَّة، وتحت كلِّ صورة تاريخ التقاطها وبعض الأخبار عن هذا العالم وجولاته. تركت الألبوم والرَّسائل وعُدت أفتِّش في الكتب فذاك شغفي وعشقي. تسللت نسمة هواء باردة لظهري فاقشعر جذعي، وقفت حائرًا وأنا أتلفَّت باحثًا عن مصدرها فأنا لم أعثر على نافذة واحدة، عندها رأيت فتحات بأعلى الجدار مغطَّاة بشبكة من الحديد فاطمأنَّ قلبي أنَّ الهواء

تسلل منها، قرصني الجوع فتذكَّرت أنَّني كنت خارجًا لشراء الطَّعام، فخرجت من البيت مُسرعًا بعد أن أغلقت فتحة القبو بسهولة، كان كلُّ شيء في هذا البيت مصنوعًا ومُعدًّا بمهارة، يبدو أنني لن أندم على شرائه.

وقفت أمام عيادة الدُّكتور «مودود»، ساقتني قدماي إلى هناك بلا تفكير أو تخطيط، أو ربَّما قلبي هو من ساقني، حدَّثتني نفسي أنَّ الأيَّام المُقبلة مزهرة، فها قد اقتنيت بيتًا كبيرًا ولديَّ وظيفة لائقة ومرتَّب ثابت، ودقَّ قلبي لأوَّل مرَّة في حياتي وشعرت بالانجذاب نحو فتاة من بيت طيِّب، فلماذا لا أتقدَّم لخطبة «قمر»؟ أو أُلمِّح لجسِّ النَّبض لعلَّ الله يفتح لي بابًا لقلب ذلك الرَّجل، كان قلبي يدقُّ طبول الحرب، شعرت بالعرق يغمر كفيَّ وأنا أُمسك بمقبض الباب، فتحته بعد أن طرقته بيد باردة كالجليد وسُمح لي بالدُّخول فدخلت وأنا لا أدري كيف وصلت إلى هنا! بعد التحيَّة سألني الدُّكتور «مودود»: «هل أنت بخير يا «توفيق»؟».

- بخير.. أنا في أحسن حال.
- الحمد لله، زيارتك المفاجئة تُنبِّئ بأنَّك تحمل خبرًا مهمًّا، هل ظهر الصَّقر من جديد؟
- لا.. لا.. أنا لا أشكو من أيِّ شيء، أصبحت في أحسن حال.
- رائع.

التقمني الصمت وجلست أفرك كفيَّ في ارتباك وكأنَّني ارتكبت جُرمًا وأجلس أمام القاضي، لاحظ الدكتور «مودود» هذا فقال: «لكنَّني أشعر أنَّك تريد البوح بشيء.. تفضَّل يا بُنيَّ».

- وددتُ فقط أن..
- ماذا؟
- أن أشكرك على استضافتي في بيتك، وعلى حسن ضيافة الآنسة «قمر».
- هذا واجبنا ولقد سررت بزيارتك.

- وددتُ أيضًا أن أسأل عن باقي الرُّموز الَّتي كتبتها، هل وصلت الآنسة «قمر» إلى معانيها بمساعدة أُستاذها؟

ران علينا صمتٌ مطبق، شعرت بانزعاج الدُّكتور «مودود»، يبدو أنَّه قرأ ما بخاطري، كدت أعتذر وأنصرف، انتظرته أن يقول شيئًا وعندما ظلَّ متمسِّكًا بصمته قُلت وأنا أتخبَّط في ارتباك: «هل أنت بخير يا دكتور؟ تبدو شاردًا!».

رسم على فمه ابتسامة مصطنعة وقال: «أنا بخير، فقط تشغلني بعض الأُمور، وأمَّا عن الرُّموز فلم تُخبرني «قمر» بشيء عنها، ولعلَّها نسيت لانشغالها بالدراسة».

عاد إلى صمته الحذر وخشيت أن يُغيِّر دفَّة الحديث وكنت أرغب في استمرار الحديث عنها فقلت: «يبدو أنَّها موهوبة بفطرتها، رسومها للبيت رائعة».

رماني بنظرة فاحصة وقال بهدوء: «بالفعل هي بارعة ولها رؤية خاصَّة وترسم الطَّبيعة من زوايا مختلفة تبهرني».

- لا ريب أنَّك فخور بها.
- بالتَّأكيد فهي مثقفة وشغوفة بالقراءة.
- غالب الفتيات الآن لا يحظين بفرصة جيدة للتعليم هذه الأيَّام ويكتفين من العلم بالقليل.
- تأخَّرتُ في تسجيلها بالمدرسة لثلاث سنوات، هي الآن في العشرين من عمرها.

صمت هنيهة وأضاف: «أتدري؟ لعلَّك تسمع عنها أخبارًا سارَّة في وقت قريب».

سُحق قلبي ودوَّختني كلماته، أكمل قائلًا بحماس: «هُناك من طلبها للخطبة وهو شابٌّ مُناسب، العقبى لك يا «توفيق»، هيَّا ابحث عن عروس لتؤنسك وتعمِّر هذا البيت الكبير بأولادك».

وقعت كلماته على رأسي كأنَّها جبل تصدَّع فتساقطت صخوره تباعًا، انعقد لساني وتاهت نظراتي في وجهه، من بين الفتيات القليلات اللاتي

التقيتهنَّ أُعجب بواحدة فيخطفها شابٌّ غيري! لملمت شتات نفسي واغتصبت ابتسامة وأنا أهنِّئه وأبارك له وأثنيت عليها وأنفاسي تكاد تنقطع، قال وهو ينتقل من مقعده خلف المكتب ليجلس أمامي: «أنت أيضًا ستجد عروسًا مُناسبة إن شاء الله».

تنهَّد بعمق وطالعني من فوق عويناته وهو يقول: «هل بدأت العلاج؟».

- لا.

- لماذا؟

لم أُجبه فتفرَّس في وجهي وقال: «أنت شابٌّ رائع وألمس دماثة خُلقك وأعلم بخبرتي أنَّك سليم الطويَّة، وليس فيك خبث ولؤم الكثير من الشَّباب، لهذا أمرك يهمُّني. يا بنيَّ، المعطيات الَّتي بين يديَّ تُخبرني بأنَّك مريض نفسيٌّ، وأنت ترفض الاعتراف بهذا وترفض العلاج، حتَّام سترفضه؟».

تخشَّب لساني في فمي، لم أجد كلمة واحدة تُعبِّر عمَّا يعتمل في صدري، كان انتقاله السَّريع للحديث عمَّا أشكو منه جارحًا، شعرت بحرج شديد، يا إلهي! كم كُنت غبيًّا، كيف راودتني فكرة الارتباط بابنة الطَّبيب الَّذي أتيت إليه للعلاج وأروي له خرافات لا يُصدِّقها عقل! هل أعماني التعلُّق بها لهذه الدَّرجة؟ أم فُتنت وذهب عقلي. قُلت وأنا في حرجٍ شديد: «سأحاول أن أبدأ العلاج يا دكتور، أرجو منك قبول اعتذاري فعليَّ الانصراف الآن».

خرجت مُسرعًا وكُنت نادمًا على كلِّ خطوة خطوتها تجاه هذه العيادة، وكأنَّني ذُبحت للتوِّ بسكين صدئ وأنا أواجه الحقيقة، يا لحماقتي! كيف أتعلق بفتاة لا أعرفها إلا معرفة سطحيَّة؟ هل هذا هو الحب من أول نظرة الذي يصفونه؟ أم أنا مفتون فقط! كيف أحكم قلبي هذا! لا ريب أنَّ الدكتور «مودود» يظنُّ هذا من أثر مرضي الذي يزعمه...

ولكن هل أنا حقًّا مريض وأتوهَّم تلك الرُّؤى وذلك الصَّقر؟

ماذا لو كُنت أخبرته أنَّني استيقظت لأجد بيتي قد طُلي بالكامل؟

بل ماذا لو وصفت له نفر الجنِّ وهم يزرعون الحديقة؟

وصلت إلى البيت محزونًا وكنت قد نسيت أمر القبو الذي اكتشفته وما فيه، جررت قدميَّ تجاه الغرفة العلويَّة، كنت أصعد الدَّرج وأنا أشعر أنَّ أكياسًا من رمال مقيَّدة في ساقيَّ، خلعت قميصي وعلقته على المشجب وعلَّقت معه آمالي وأحلامي، ألقيت ببدني على الفراش وأنا مهزوم فغلبني النَّوم.

***

بيت العائلة

«الفيوم»

توقف «أنس» عن الكلام عندما سألته «حبيبة»: «كيف تعلق «أبادول» بجدَّتي «قمر» بهذه الطريقة وهما لم يتحدَّثا بعمق ليعرفا بعضهما؟».

- لم يكونا في حاجة إلى هذا، أغلب من تزوجوا في تلك الفترة تزوجوا بالطريقة نفسها.
- تلك حقيقة بالفعل.
- كانت طبيعة الحياة تختلف عن حياتنا الآن، وكان «أبادول» شابًّا عفيفًا ولم يختلط بالكثير من الفتيات، وكذلك جدتي «قمر» كانت تعيش في بيئة محافظة ومنغلقة، ومن حُسن حظِّها أن ألحقها الدُّكتور «مودود» بمدرسة الجمهوريَّة بالفيُّوم.
- إذن كان أوَّل شاب يتقاطع طريقه مع طريقها، وكانت أوَّل فتاة مناسبة لعمره يراها بعين الإعجاب والحب.
- شيء من الكيمياء حدث بينهما.

قال «يوسف» وهو يخلع عويناته: «الحب أحجية غامضة يا «حبيبة»، قد يقع على القلب كما يقع الغيث ولا حيلة للإنسان فيه، هما يختلفان عنَّا، كما نختلف نحن عن أولادنا، كان هذا حبًّا عفيفًا ونقيًّا، أوَّل تجربة لهما، لهذا رآها رائعة، ورأته الأفضل».

راق الجميع ما قاله «يوسف»، وكيف لا وهو الذي كتب عن ألوان الحبِّ والهيام والغرام في رواياته، عاد «أنس» ليحكي عن «أبادول» وصوته يفيض بالحنين..

«توفيق»

كُنت قد قررت بالأمس أن أستعين بأحد عمال المدرسة لننقل معًا الأثاث من القبو على مهل ورويَّة. استيقظت قبل موعد خروجي للعمل بساعة كاملة، فلا يزال ما حدث بالأمس يؤلمني، فقررتُ أن أتعجَّل في ترتيب البيت لأشغل نفسي ولكي أشعر ببعض الدفء والأمان، فخواء البيت ووحدتي مزعجان للغاية. فور أن فتحت عيني خرجت منِّي صيحة فزع فقد كانت إحدى الثُّريَّات الَّتي عثرت عليها بالقبو مُعلَّقة بالفعل وتتدلَّى من سقف الغرفة الَّتي أنام بها وتتأرجح، اعتدلت جالسًا وعيني تدور بأرجاء الغُرفة في حيطة وحذر، يا إلهي! نُقل المكتب أيضًا إلى هنا! وهناك بساط صوفيٌّ مزركش مفروش على الأرض، وثبتُّ من الفراش وهرولت نحو الطَّابق السُّفليِّ، المكتبة هناك في صدر صالة الاستقبال والكرسيُّ الهزَّاز بجوارها كما كنت أُخطط.. ويتحرَّك وكأنَّ هناك شبحًا يجلس عليه، اقتربت بحذر وقلبي يخفق خفقًا ترتجُّ له طبلة أذني ووضعت يدي بهدوء لأوقفه عن الاهتزاز، مررت يدي على مكان الجلوس وكأنَّني أُطمئن نفسي أنَّه لا أحد يجلس عليه! ما زال قلبي يخفق ولكن لا بدَّ أن أتماسك، عدت أجول بعيني في المكان فوجدتُ قطع الأثاث موزَّعة بنظام بديع، هناك ساعة يتدلَّى منها بندول نحاسيٌّ وها هو يتأرجح يمينًا ويسارًا، وهناك ثلاث لوحات لها إطارات بديعة ومطليَّة بالذَّهب معلَّقة على كلِّ حائط، واللوحة الرَّابعة مُعلَّقة على الجدار العريض عند مدخل البيت، رفعت رأسي لأتأمَّل الثُّريات المتدلِّية، نحاسها الَّذي كان يعلوه صدأ أخضر صار الآن يبرق، وزجاجها الَّذي كان ملطخًا صار يضوي، حتَّى خشب الأرضيَّات يبدو وكأنَّه دُهن حديثًا ولُمِّع. أصبح البيت أنيقًا ودافئًا؛ مصابيح أُرجوانية ومذهَّبة تنير أثاثًا ثقيلًا من الخشب الثمين، وأرضيَّة خشبية باللون الجَوزيِّ الفاتح، وزخارف بديعة تحتضن السَّقف وتتكاتف على الحوائط، كُنت أشعر بفرحة مشوبة بالخوف والرِّيبة والقلق..

من يفعل كلَّ هذا؟ ولماذا؟

لا ريب أنَّهم الجنُّ من جديد!

تُرى ما حقيقة أطياف الجنِّ الَّتي ظهرت لي؟

وأين «الرَّمادي» لأسأله عنهم؟

وهل سأستطيع البقاء هنا وأشعر بالأمان؟

كيف سأنام مطمئنًا وهم حولي في كلِّ ركن بالبيت يتجوَّلون في خفاء؟

بل هل سأستطيع مُستقبلًا ترك زوجتي وأولادي بين جنبات هذا البيت وحدهم وأخرج للعمل؟

ظللتُ غارقًا في لجَّة من الهواجس والظُّنون، ومأخوذًا بما أراه والأفكار تدور في رأسي كطواحين الهواء، تجوَّلت في البيت ودلفت كلَّ الغرف، حتَّى السرير النحاسيُّ أُعيد تركيبه في غرفة من الغرف العلويَّة واستحال المكان غرفة ملكيَّة، هرولت على الدرج الحلزونيِّ الَّذي يفصل الطَّابق العلويَّ عن السُّفليِّ وأسرعت نحو القبو فوجدت فيه ستة من الصَّناديق لم أنجح في فتح أقفالها بالأمس ولم يمسها أحد! يبدو أنَّ فتحي للأشياء وتفحُّصها بيدي مهمٌّ لتكتمل تلك الأمور الغريبة! تركتها كما هي لعلِّي أفتحها لاحقًا، قُرب دَرَج القبو وجدت ما قررت التَّخلُّص منه من الأقمشة المهترئة والحقائب الجلديَّة التَّالفة والملابس البالية، سأفقد عقلي! ما يحدث غريب ومُريب لكنَّني لن أهرب منه، سأواجه كلَّ هذا حتَّى النِّهاية. أصابني الإرهاق من تجوالي بالبيت فتوجَّهت نحو المطبخ وجلستُ واجمًا، كان الحزن لا يزال عالقًا بصدري بعد ما قاله لي الدُّكتور «مودود».

أفطرتُ وأعددتُ لنفسي فنجانًا من القهوة لكي أستوعب ما حدث، وبدأت أحمل الأقمشة والأشياء البالية للخارج وألقيتها في حاوية القمامة الكبيرة التي أمام البيت، وعُدت فأغلقت القبو وذهبت للعمل، وكلما نظرت إلى وجوه تلاميذي كنت أتذكَّر أطياف الجنِّ المتطابقة وهم يطوفون بالبيت، انتهيت من عملي وفي طريق عودتي قررت المرور على محلٍّ للعطارة لأسأل عن النَّبتة الغريبة، وعندما دسست يدي في جيبي لأتفحَّصها وجدتها قد جفَّت وذبلت وانكمشت، فارتعت من هذا الأمر وتذكَّرت كلام «الرَّمادي» فتسارعت دقَّات قلبي، «هل ذبولها يعني أنَّ الغربان ستتمكَّن من العثور عليَّ مرَّة أخرى؟»،

كنت أتساءل وأنا في الطريق، لا أدري لماذا أشفقت على نفسي حينها، أنا وحيد كغصن شارد قُطع من شجرة وأطاحت به الرِّياح، تائه كطير رحل عنه سربه الَّذي يُشبهه للأبد، لو متُّ الآن أو ابتلعني هذا البيت بغموضه لن يشعر بي أحد، ولن يبحث عنِّي حبيب، شعرت ببرودة شديدة اقشعرَّ لها جلدي، وعندما دلفت البيت زاد شعوري بها، رأيت البيت واسعًا وكبيرًا أكثر من ذي قبل، حتَّى السَّقف رأيته أعلى من السَّابق، أو ربَّما أنا ضئيل على امتلاك بيت بهذا الحجم، كيف لم أُفكِّر بهذا؟ يكفيني غرفة واحدة أو بيت صغير من غرفتين، لماذا اشتريت هذا البيت الواسع وأنا وحيد وليس لي عائلة تسكنه معي لتسكن روحي المتعبة؟ كان «وهدان» ابن عمِّي على حقٍّ، هذا البيت فخٌّ وقد علقت فيه بتسرُّعي واندفاعي.

شعرت أنَّ صدري ضيِّق وكأنَّه يصَّعَّد في السماء، كُنت أرغب في الحديث مع أحد أثق به، ولم يكن لديَّ من أتحدَّث إليه، توضَّأت وصليت وعندما سجدت أخبرت الله بكلِّ شيء، هواجسي ومخاوفي، وأوجاع قلبي وانكسارات نفسي وما أشعر به من حنين لوالديَّ، وشعوري بالخواء والاحتياج إلى أنيس أسكن إليه فناجيته هامسًا: «﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[1]».

هدأت نفسي واستكانت جوارحي وتكوَّرت كالجنين على سجَّادة الصَّلاة، وسريعًا ما غلبني النَّوم.

الخبز والجبن والبيض المقليُّ، كان هذا ما تناولته على الغداء، صعدت إلى غرفتي الخاصَّة فأنا أُصرُّ على المبيت بها مهما رأيت منها. وقفت أمام نافذتها أتأمَّل الحديقة الخلفيَّة، عندما تنبت الأشجار الَّتي زرعتها سيكون المشهد رائعًا، ستسكن العصافير الأشجار، وستنفح الرياحين بعطرها الأخَّاذ، علقت عيني بالغرفة المعزولة في الحديقة، سأخصص لها يومًا لأخرج ما بها من خردة لأتخلَّص منها، فقد لمحت درَّاجة قديمة، وأدوات للحفر، وبعض الأجهزة العتيقة التي أكلها الصَّدأ، والعديد من البراميل.

(1) [سورة الأنبياء/ آية 89].

التفتُّ تجاه المكتب وتذكَّرت أنَّني لم أتمكَّن من فتح أدراجه، جلست على الكرسي وبدأت أحاول حتَّى نجحت في فتح درج واحد فخلعته ومددت يدي وأخرجت كل ما يحتوي عليه هو والدُّرج الأسفل منه. وجدتُ رسالة اصفرَّت أوراقها بشدَّة وصارت بلون الزيت القاتم، فأمسكتها برفق شديد وجلست أقرؤها على مهل، وكان الكاتب هو المالك الأصليُّ للبيت، فكشفت لي تلك الرِّسالة الكثير من الأسرار.

***

الاثنين / الفيُّوم

1880

لا أدري لماذا أكتب هذه الرِّسالة، لعلِّي أُريح ضميري المُتعب، فأنا نادم على ما فعلته، ونادم على الضرر الذي تسببت به لزوجتي وأبنائي.

أنا الآن في بيتي الجديد الَّذي أشرفت على بنائه بنفسي بالفيُّوم، بلدي الَّتي أُحبُّها ومسقط رأسي، وددتُ أن يُشبه القصور الَّتي بُنيت في القاهرة لأجل سكن علية القوم، لتنعم زوجتي بمسكن يليق بالأميرات، اخترت بناءه على الطِّراز ذاته الذي بنوا عليه تلك القصور بالقاهرة، وزرعت حديقته بأندر أنواع الأشجار، وكنت أعيش أسعد أيَّام حياتي فيه حتَّى حدث ما غيَّرها للأبد. كُنت في مهمَّة استكشافيَّة بالنُّوبة في جنوب مصر بعد أن انتهيت وفريقي من جولتنا بالأقصر وأسوان، أنجزنا الكثير من الأعمال هناك واكتُشِفت أربع مومياوات رائعة، والكثير من التَّماثيل الفرعونيَّة الَّتي دُفنت معها. أمَّا رحلة النُّوبة فكانت قصيرة، عثرنا فيها على تمثال فُخَّاريٍّ لرجل مقيَّد اليدين والقدمين ورأسه مُهشَّم، ونُقش عليه بالحروف النُّوبيَّة القديمة:

باسم عظمة الملك «كاشتا» نأسر روح الأمير «أواوا».

باسم جلالة الملك «كاشتا» نحطم رأس الأمير «أواوا».

باسم هيبة الملك «كاشتا» نذبح فؤاد الأمير «أواوا».

ستظلُّ روحه مقيَّدة للأبد.

ولن يكون له ملك البلاد.

يبدو أن الملك «كاشتا» قد طلب من حاشيته صنع هذا التمثال عندما فشل في العثور على عدوه الأمير «أواوا»، وهشموه عن قصد، فقد كانوا يعتقدون قديمًا أنه في حالة صنع مجسد للعدو، وكتابة اسمه عليه، ومن ثم تهشيمه، فإن ذلك سيُلحق به الأذى أو يقتله باستخدام السحر الأسود. فقد رغبوا في إيذائه عن طريق السحر حيث إنهم كانوا عاجزين عن إلحاق الأذى به مباشرة، وهذا ما كنت أعرفه من خبرتي وكان قد كُتب على جدران المعابد قديمًا. كما عثرنا في أثناء الحفر على أوراق برديٍّ بجوار التمثال، وكانت مهترئة للغاية، ولم يتمكن أحد من قراءة ما دُوِّن فيها نظرًا لحالتها السيئة، كانت تتمزق وتتفتت بين أصابعنا، بقيت أجزاء قليلة منها ورأى زملائي وباقي أعضاء الفريق أنَّها ليست ذات قيمة وتركوها مهملة وانصرفوا عنها وكانوا زاهدين فيها، لم يتناقشوا حتَّى في إمكانيَّة عرضها في متحف على وضعها نظرًا لسوء حالتها، لملمتها وجمعتها بحرصٍ شديد ووضعتها في أغلفة مخصصة لعلِّي أرممها، وكانت تتفتَّت نظرًا لارتفاع نسب الحموضة فيها بعد تأثُّر ما تحتوي عليه من رطوبة، وعدت إلى بيتي هنا بالفيُّوم، ظننت أن بقاياها من الممكن أن تباع وأحصل على ثروة إن أفلحتُ في ترميمها وترقيعها وتهريبها ثُمَّ بيعها، وبتُّ ليلتي أُفكِّر في الرموز القليلة التي بقيت على الأجزاء السليمة من تلك البَرديَّات[1]، وكنت أبيت في غرفتي الخاصَّة المُطلَّة على الحديقة الخلفيَّة حيث كُنت أقوم بأعمالي بعيدًا عن ضوضاء البيت وكانت زوجتي تعلم أنَّني لا أحبُّ أن يقتحم أحد منهم الغرفة عندما أتفحَّص أوراقًا تخصُّ عملي.

سهرت طويلًا حتَّى غلبني النَّوم على الأريكة، في اليوم التالي استيقظتُ على صوت عجيب وكأنَّ أحدهم يعبث في أوراق البَرديَّات، وفوجئت بها وقد تجددت وما عادت بالية، والكلمات والرموز فيها قد اتضحت وكأنها كُتبت من جديد، أصابني الرُّعب وركضتُ خارجًا من الغرفة، وأخبرت زوجتي الَّتي كانت

(1) البَرديُّ: نَبات مائي ينمو بكثرة في مِنْطقة المستنْقَعات بأعالي نهر النيل، وصَنَع منه المصريُّون القدماء ورق البَرْدِي المعروف الذي استخدموه في الكتابة.

أكثر منِّي رُعبًا، شعرت أنَّها مسحورة فقررت التخلُّص منها، فكَّرت في حرق أوراق البرديِّ لكنَّني لم أجرؤ على دخول الغرفة لثلاث ليالٍ متتابعة، وعندما تماسكت لأدخلها وجدتها مرتَّبة على المكتب، جلست أُحملق فيها وأنا لا أدري ماذا أفعل بها، وما الَّذي سأقوله لرفاقي عنها! جلست أقرؤها وعكفت على ترجمتها للغة العربية واحدة تلو الأخرى، شعرت حينها أنَّني اكتشفت كنزًا عظيمًا، غادر الخوف نفسي وكانت مشاعري مجمَّدة وكذلك شعرت زوجتي، ازددتُ طمعًا وكانت زوجتي تعزز جشعي بقولها في كلِّ مرَّة أقرر فيها تسليم البَردِيَّات وإبلاغ هيئة الآثار بالحقيقة: «لا بدَّ أن تستغلَّ هذا الأمر لمصلحة أولادنا»، رتبتُ أموري ودفعت رشوة إلى أحد العمال الذين يحفرون في المكان الأثري الذي كنا نبحث فيه، وزعمت أنني قد عثرت على كتابات جديدة للتوِّ، وما فهمه ذلك العامل أنَّني وجدتها بالفعل في المرة السابقة وفقط كُنت سأخفي أمرها وتراجعت عن هذا، لم يدر بما حدث بالغرفة العلويَّة في بيتي بالفيوم ولن يُصدِّقني لو أخبرته بالحقيقة عن تجددها وتحوُّلها، واشتهرتُ باكتشافي هذا وأحدث ضجَّة كبيرة فقد كانت البَردِيَّات تضمُّ بعض القصص النوبية القديمة، سلَّمتها لهيئة الآثار وحُفظت في أحد المتاحف بمصر، وسمح لي بفحصها عدَّة مرَّات خلال عامين فانتهيت من ترجمتها بالكامل وكُنت أعمل على هذا لساعات طويلة، وقدَّمت ترجمتي لدار نشر لتطبعها. لكنَّني ومنذ ذلك اليوم وأنا أرى كوابيس باستمرار عن ذلك الأمير «أواوا» صاحب التِّمثال ومعه الملك «كاشتا»، أكون دائمًا «أواوا» ويقتلني «كاشتا» ويقطع لساني! كلُّ قصَّة ترجمتها أراها في أحلامي بصورة بشعة، وأكون أنا أحد أطرافها، أُقتل وأُذبح وأُطعن ويُسلخ جلدي، رفضتْ دار النشر طباعة القصص لبشاعتها، فقد رأوها دمويَّة وتدعو للظلم والفجور والقتل، فدفعت لهم مبلغًا كبيرًا ليطبعوا لي منها طبعة واحدة أهديها لمن يهمهم الأمر علَّني أنال الشُّهرة الَّتي أبتغيها وتُطبع في الخارج بلغات أُخرى ففعلوا وأحضروها لي بالبيت، طبعة واحدة من خمسين كتابًا كما طلبت. اشتكت زوجتي من تلك الكتب وقالت إنَّها صارت تسمع هسيسًا وصراخًا عندما حاولت قراءتها، وكذلك أخبرني أولادي، فجمعتها من فوق أرفف المكتبة ووضعتها بالغرفة المعزولة في الحديقة،

أخبروني في هيئة الآثار لاحقًا أنَّ البَردِيَّات الَّتي اكتُشِفَت أصبحت خالية من الكلمات، فهرولت نحو المتحف بالقاهرة فوجدتها بالفعل خالية تمامًا وكأنَّها لم تُمس من قبل!

عُدت مكروبًا إلى البيت في اليوم التَّالي فلم أجد زوجتي، لقد تركت البيت ورحلت مع أبنائي إلى «فرنسا»، فالكوابيس والحوادث المُريبة بالبيت كانت تلاحقهم جميعًا، هربت زوجتي لأخيها في «باريس» حيث يقيم منذ سنوات وكنت قد وهبتها الكثير من المال. كُنت حانقًا وغاضبًا فأمرتُ أحد الخدم بإحضار عدَّة براميل وملأتها بتلك الكتب وسكبت عليها مادة حارقة وأشعلت فيها النَّار، غمر الدخَّان الأسود الحديقة بأكملها، أحرقتها جميعًا وذهبت إلى فراشي وجسدي كلُّه مكدود، واستيقظت في اليوم التَّالي على طرقات الخادم على باب غرفتي، لقد أعاد أحد القضاة الَّذي كنت قد أهديته نسخة من كلِّ كتاب من الكتب الَّتي ترجمتها الهديَّة واعتذر عن قبولها، وأرفقها برسالة كتب فيها جملة واحدة: «الكتب خالية من الكلمات!»، أقبلت أتفحَّصها وكانت العناوين كما هي، فتصفَّحتها فلم أجد فيها كلمة واحدة، كانت أوراقها خالية بالفعل من الكلمات، وكنت على يقين قبل أن أرسلها أنَّها مطبوعة، فقد فحصتها ولففتها بيدي بعناية وكتبت إهداء في أوَّل صفحة منها وقد تلاشى هو الآخر! ازددتُ حيرة وأصابني يأس شديد، كلُّ الليالي الَّتي سهرت فيها أصيغ تلك الكتب وأترجمها ضاعت هباء، لقد ضيَّعت عامين من عمري. قررت السَّفر حيث زوجتي وأبنائي، فطلبتُ من الخدم إنزال أثاث البيت إلى القبو السرِّي وتغطيته حتَّى لا يتعرَّض البيت للسرقة في أثناء سفري، فهذه المرَّة سيطول الغياب ولا أدري متى سأعود بأسرتي إلى مصر، فقد جمعت الكثير من التُّحف وقطع الأثاث الغالية من كدِّي وتعبي طوال سنين عمري لأسعد أسرتي وأخشى أن أخسرها. أنا أكتب الآن في ركن قصيٍّ من القبو، سأرحل بعد قليل، هذه الرِّسالة أعترف فيها أنَّني زيفت اكتشافي لتلك البَردِيَّات، وأنَّها ظهرت وحدها في غرفتي دون أن أمسَّ حرفًا منها، لا أدري هل تلك لعنة أصابتني أو بها شيء من السِّحر الأسود، وليس لديَّ الشَّجاعة لأعترف أمام الملأ، لتعرفوا

الحقيقة ولكن بعد أن أموت، أو قد أعود يومًا وأمزِّق هذه الرِّسالة بيدي.. وإن لم أعد، فالبيت وما فيه لمن يملكه، بكلٍّ ما فيه من سعادات وأحزان وأسرار.

توقيع

نديم الشبراوي

«توفيق»

انتهيت من قراءة الرِّسالة وعقلي يضجُّ بالأسئلة وقد استباحت الأفكار رأسي، النُّوبة، الكوابيس، أوراق بردي عليها كتابات نوبيَّة، الرَّقم واحد باللغة النُّوبيَّة الَّذي يظهر لي باستمرار!

رفعت رأسي تجاه الكتب العتيقة الَّتي كانت على المكتب أمام عيني، وقع في نفسي أنَّها هي النسخ الأخيرة الخالية من الكلمات الَّتي تحدَّث عنها «نديم الشبراوي» وأعادها أحد القضاة إليه، كدت ألمسها بأطراف أصابعي... وفجأة! بدأت تلك الكتب تطير في الهواء، حلَّقت فوقي وكأنَّ هناك يدًا خفيَّة تحرِّكها، كانت صفحاتها تتقلَّب بسرعة رهيبة، تصاعد صوت أنين مخيف، تلاه صراخ رهيب فاقشعرَّ جلدي، ركضتُ نحو باب الغرفة فلاحقتني الكتب، انزاح البساط نحو الجدار، ولم أتمكَّن من الحركة، فساقاي قد تسمرتا بأرض الغرفة، ثُمَّ صارت الكتب تدور حولي في دوَّامة، توقفت الكتب فجأة وظلَّت معلَّقة في الهواء للحظات ثم هوت على أرض الغرفة في آنٍ واحد مُشكِّلة حلقة حولي ودوَّى صوتها بقوَّة انخلع لها قلبي، تصاعد غبار ذهبيٌّ من بين صفحات الكتب فشكَّل هالة مضيئة حولي، عادت صفحات الكتب تتقلَّب بسرعة كطواحين الهواء، انتشرت رائحة غريبة في أرجاء الغرفة، ثمَّ انغلقت الأغلفة فجأة إلَّا كتابًا واحدًا ظلَّ مفتوحًا أمامي، شعرت أن رأسي كالقدر يغلي بالدِّماء، كان العرق يسيل على وجهي ويتساقط من ذقني، ثمَّ بصعوبة حرَّكت قدميَّ تجاه ذلك الكتاب وانحنيت نحوه لأتفحَّصه، كانت صورة وجهي تظهر تدريجيًّا على الصفحة الأولى وكأنَّ هناك شبحًا يرسمها بينما أنا أقف أمامه! مددتُ يدي بوجلٍ وأغلقت الكتاب لأقرأ عنوانه، كانت هناك كلمة واحدة مكتوبة بخط واضح «أبادول»، ثُمَّ رأيت الرَّمز الَّذي كان يتكرر ظهوره لي، كان مكتوبًا

باللون الأحمر الكرزي على الغلاف، بيد أنَّ كلَّ صفحات الكتاب كانت خالية من الكلمات! في تلك اللَّحظة سمعت صوت خفقان أجنحة، إنَّه «الرَّمادي» قد وصل للتوِّ، دلف الغرفة وقال فور أن رآني: «أسرع قبل أن تأتي الغربان».

- إلى أين؟

- مملكة البلاغة، لقد اختارك الكتاب.

- أيُّ كتاب؟

- أبادول.

أجفلتُ عندما نطق بالكلمة، فتلك الكلمة نفسها الَّتي قرأتها الآن على الكتاب الغريب منذ قليل، قُلت وكلُّ ذرَّة في كياني تختلج: «كيف يختارني كتاب؟ هذا جماد!».

- ليس هذا وقت الأسئلة، أسرع فأنت في خطر!

- لماذا عليَّ الإسراع؟

- أخبرتك من قبل أن تثق بي لكنَّك لم تفعل، الرَّمز كما يظهر لك في الكتاب يظهر للأعداء، فيرسلون الغربان لمهاجمتك، لا بدَّ من الهرب الآن.

- ومن هم الأعداء؟

قال وصوته يحمل نبرة خوف وقلق: «لا تنسَ الكتاب».

تناهى إلى مسامعي نعيق الغربان فأجفلت، ثُمَّ سمعت صوت النوافذ وهي تُفتح في آن واحد كما حدث في المرَّة السَّابقة، التفتُّ نحو «الرَّمادي» فلم أجِده! كان قد وثب بمهارة وخفَّة فوق رأسي وقال بحزم شديد: «هل أنت مُستعدٌّ؟».

كُنت أقبض بقوَّة على كتاب «أبادول» وصدري يضج بمزيج من المشاعر، خوف ويأس وحزن ووحدة وروح مُتعبة، فقلت بصوت يرتجف: «فلنرحل من هنا».

وضعت الكتاب تحت قميصي وتأهَّبت للرَّحيل، تسارعت دقَّات قلبي بجنون وشعرت وكأنَّه سيهرب من تحت جلدي ولحمي، استوى الصَّقر واستقرَّ على

رأسي ثم بسط جناحيه في الهواء، وبدأ يحتضن وجهي بهما ببطء وبهدوءٍ شديد، حيث غطى وجهي كلَّه بريش جناحيه، ريشة فوق ريشةٍ بانتظام، جبهتي وعيني وأذني وخدي، لم يترك إلا أنفي وفمي لأتمكن من التنفس والكلام. شعرت بجسدي يُخدَّر، وسَرى في نفسي شعور غريب، شيئًا فشيئًا خفَّ جسدي وكأنَّه ريشة في جناح هذا الصَّقر، شعرت بقوَّة تجذبني وتسحبني، عندما فتحتُ عيني كُنا نطير فوق مساحات شاسعة من الوديان والحقول الخضراء، قال «الرَّماديُّ» بصوته المُميَّز: «مرحبًا بك في مملكة البلاغة».

جُلت بناظريَّ في سحرها الأخَّاذ وقد غمر الضباب كلَّ شيء حولنا، لفحتني الرياح الباردة، وشعرت برذاذ خفيف يبلل جبيني، رائحة المطر الخفيف داعبت أنفي، تُرى ما الَّذي يحدث لي!

كانت «قمر» تقف بانتباه لتراقب سطح القهوة وهو يرتفع، وقبل أن ينسكب من الرَّكْوَة رفعته لتسكبه في فنجان أبيها الخزفيِّ المُفضَّل، سارت بتؤدة وهي تحمله إليه، قالت وهي تمدُّ يدها تجاهه: «هل سنذهب إلى بيت الأستاذ «توفيق» بعد عودتك من صلاة الجمعة يا أبي؟».

رشف رشفة من فنجانه وقال وهو يثقبها بنظراته: «لن نذهب».

- لماذا؟

- كان من الخطأ أن يأتي أحد مرضاي إلى البيت.

- هل حدث منه شيء مريب أو شائن؟

- لا.

- لكنَّه جارنا في الحيِّ والشَّيخ «محمود» أوصاك بالاهتمام به وأثنى عليه.

- أرجوكِ لا تُناقشيني في هذا الأمر يا «قمر».

- لكنَّني أرغب في رؤية هذا البيت من الدَّاخل.

- سأتسبب في مشكلة كبيرة لو ذهبت لإرضاء فضولك هذا.

- كيف؟

- سنؤلم ذلك الشَّاب ونجرح شعوره.

- لماذا؟

- لقد أظهر اهتمامًا بك، وقع في نفسي أنَّه يكاد يطلب يدك منِّي فتداركت الأمر بسرعة وأغلقت الباب، أنا أفهم هذا الشَّاب جيِّدًا.

ألقت بنفسها على الكرسيِّ وسألته بخفوت: «لماذا يا أبي؟».

اصطبغ وجهها بحمرة التوت عندما رشقها أبوها بنظرة لم تفك شفراتها فهي لا تعرف هل هو يتعجَّب أم غاضب منها أم مزيج منهما معًا، قال باقتضاب: «وهل ترضين بالزَّواج به؟».

- ولم لا؟

- أنا أعلم عنه ما لا تعلمينه يا بنتي.

- هل ارتكب جرمًا أو حرامًا؟

- لا.. لكن يكفي أنَّ لديه هلوسات سمعيَّة وبصريَّة، ويحتاج إلى العلاج وهو يرفض.

- ولو وافق على العلاج؟

- ما بك يا «قمر»؟ لقد التقيتما مرَّة واحدة فقط، ليس بينكما علاقة وثيقة لكي تنزعجي مما فعلته.

- يا أبي...

بتر كلامها وقال بحزم شديد: «لا تناقشيني في هذا الأمر أبدًا، وهو أصلًا لم ينطق بحرف واحد يشي بأنَّه يرغب في خطبتك».

انصرفت «قمر» إلى غرفتها وكأنَّها تسير على جمر مشتعل، وعندما أغلقت الباب خلفها هربت دمعة من عينيها الجميلتين في سكون، كانت في حيرة من أمر نفسها فقد تعلَّقت بـ «توفيق» وكأنَّها تعرفه منذ سنوات، مسحت وجهها بكفَّيها ووقفت في الشُّرفة تراقب البيت من بعيد والفضول يقتات على قلبها.

٣
بحر الظُّلمات

مملكة جميلة كالكوكب المشبوب حسنًا وبهاء لولا سحابة من الغموض تتدجى فوق أطلالها، بدأت الحقول الخضراء تمتدُّ كبساط سندسيٍّ عظيم تحتنا ونحن نطير في السَّماء، اختفت معالم الحقول المتشابهة وبدأت الأرض في الارتفاع بتدرُّج بديع، لاحت الجبال الشاهقة عند حافَّة الأفق خلف غلالة رقيقة من الضباب الشفيف تتخللها أشعة الشَّمس الذَّهبيَّة المنزلقة على سفوح الجبال وكأنَّها وُلدت من قممها الشَّهباء، كنت أعلم أنني دلفت للتوِّ لعالم مختلف عن عالمي مراوغ بجماله السَّاحر للعقول لكنَّني على يقين أنَّ خلف كلِّ هذا البهاء يكمن سرٌّ خطير ويختبئ في نسيج تلك المشاهد الفاتنة!

بدأ «الرَّماديُّ» يطوف بي في أنحاء مملكة البلاغة، رأيت الكثير من القصور والقلاع والغابات والأنهار، وكان يتحدَّث معي ليُشعرني بالألفة ولكي أطمئنَّ للمكان، اقتربنا من غابة كثيفة الأشجار يحوِّطها طوق من الصُّخور البيضاء من كلِّ الجهات، وكنت قد لاحظت أنَّ تلك الأطواق من الصُّخور على حدود كلِّ غابة مررنا بها.

هبَّت رياح ذاريات وكان لها صوت مهيب، كان جسدي يتأرجح تحت «الرَّماديِّ» وهو يقاومها، أجفلتُ عندما سمعت نعيق الغربان فأدركتُ أنَّهم

لا يزالون يترصَّدون لي، حاصرونا من كلِّ جهة فأخذ «الرَّماديُّ» يرتقي وينخفض ليحاول الفرار من حصارهم، وفجأة بدؤوا يُهاجموننا في وقت واحد ويصطدمون بنا، صاح «الرَّماديُّ»: «تماسك يا «توفيق»».

كنت ساخطًا عليه وعليهم وعلى كلِّ شيء، فقد بدأت مناوراتهم في الهواء تزداد خطورة، ظننت أنَّها النِّهاية وأنني سأسقط على تلك الجبال من تحتنا ويُدقُّ عنقي في غمضة عين، فبدأت أصرخ فالتفَّ «الرَّماديُّ» وغيَّر مساره وباغتهم وانطلق يهوي إلى الأسفل وكأنَّه قذيفة مدفع وتوجَّه نحو شاطئ قرب الغابة الَّتي نحلِّق فوقها، رماله سوداء تبرق عليها أحجار ملوَّنة وأخرى مضيئة وكأنَّ السَّماء أسقطت بعضًا من نجومها عليها، بينما الماء اللازورديُّ يمتدُّ كبساط كتيم لا موج فيه ولا زبد، رأيت الماء تزداد زرقته قتامة كلَّما اقتربنا وكأن هناك حبرًا يسيل فيه ويتخلله، صار داكنًا ومخيفًا ومرعبًا، أراد «الرَّماديُّ» أن يهبط بنا على تلك الرِّمال لكنَّ طائفة الغربان عادت وهاجمتنا بشراسة وأصاب أحدهم «الرَّمادي» في رأسه بمنقاره فأسقطني من بين مخالبه، فهويت في لجَّة هذا البحر القاتم وقلبي يكاد يشقُّ صدري وينتفض هاربًا من تلك الظُّلمة الَّتي أندفع نحوها كالصَّاروخ فسحبت نفسًا عميقًا وأغمضت عيني وضرب جسدي صفحة الماء وكأنَّني سيف يقطعه، وغصت فيه والظَّلام يتكاثف أمام عيني، حاولت أن أحرِّك أطرافي لأنجو لكنَّني لم أفلح فسحبني الماء فانسلَّ جسدي للقاع، ما عدت أستطيع كتم أنفاسي وشعرت وكأنَّ رأسي سينفجر وفجأة.. رأيت الكثير من الأعين تبرق وسط العتمة كما يبرق الألماس، ثُمَّ أحسست بالكثير من الأيادي تمسك بي وترفعني لأعلى بسرعة شديدة، وعندما وصلت إلى سطح الماء فتحت فمي وشهقت بقوَّة، تلفَّتُّ باحثًا عن ذلك الشَّيء الَّذي سحبني فلم أجده، جُلت بناظريَّ فلم أجد أثرًا لـ «الرَّماديِّ» ولا للغربان، حتَّى الشَّاطئ ذو الرِّمال السَّوداء ليس هناك لأسبح نحوه! أنا كقطرة ماء ضئيلة في محيط رحب وواسع، كنت أردد بلا وعي منِّي: «أين أنا! أين أنا!».

جاءني الجواب من خلفي بصوت انتزع قلبي ورجَّه رجًّا حيث قال أحدهم: «أنت في **بحر الظُّلمات**[1]».

استدرت وإذا بعملاق يخرج من البحر أمامي ويحجب عنِّي رؤية الأفق وضوء الشَّمس الشَّاحب، صُعقت وبدأت أرتجف وأرتجُّ فاهتزَّ الماء حولي، كان يُشبه الرِّجال لكنَّه ليس من البشر، جسد وكأنَّه من زجاج حُبس فيه ماء المحيط الأزرق، وشعر شعث يتبعثر حول رأس عظيم فوقه قلنسوة زرقاء، وتتدلَّى من عنقه قلادة فيها صدفة حلزونيَّة ينبعث منها ضوء خفيف يومض، لم أتبيَّن من وجهه سوى عينيه الواسعتين، ذكرت الله فتضاءل حجمه لكنَّه ظلَّ ظاهرًا أمامي، انتظرت الموت وأنا أُحدِّق تجاهه، اهتزَّ الماء وكأنَّ انفجارًا حدث للتو تحت سطحه وبرزت منه أيادٍ كثيرة فتخشَّبت أطرافي، أظهروا وجوههم تباعًا وتلاحموا وأحاطوا بي من كلِّ جهة وصنعوا من أجسادهم كرة التقمتني في جوفها، ثُبِّتت أقدامي وكأنَّ أحدهم يقبض عليها بقوَّة، وغاصوا بي في جوف «بحر الظُّلمات» وتدحرجت بي الكرة التي صنعوها حولي، كان الظَّلام يحيط بي من كلِّ جهة، وعقلي لا يزال يُنكر ما أراه وأعيشه، رددت دعاء نبيِّ الله «يونس» لعلَّه ينير ظلماتي: «لا إله إلَّا أنت سُبحانك إنِّي كُنت من الظَّالمين»، وأنا لا أدري هل الماء الَّذي يقطر من وجهي من بلل ماء البحر أم تلك دموعي، أنا خائف.. نعم خائف، خمسة وعشرون عامًا وأرتجف كطفل صغير رأى كابوسًا مُرعبًا! بيد أنَّه ليس بكابوس وما عُدت طفلًا صغيرًا.

أضاءت عتمتي ومضات متتالية، حدَّقت فإذا بفتاة تسبح بجوار الكرة الَّتي حُبست فيها، تأمَّلتها فوجدتها باهتة البشرة وكأن رأسها من جليد، وجهها يموج وكأنَّ الماء يجري فيه، لها شعر أرجوانيٌّ طويل يموج خلال الماء خلفها، وعلى رأسها تاج مزيَّن بحجر لازورديٍّ[2] أزرق، كأنَّها أميرة هذا

---

(1) بحر الظُّلمات هو المحيط الأطلنطيُّ، واشتهر قديمًا عند العرب باسم بحر الظُّلمات. أشار ابن خلدون إلى سبب تسميته بهذا بأنَّه كان مظلمًا لقلَّة الضَّوء الواصل إليه بسبب كثافة السُّحب في تلك المنطقة، وكان العرب يهابونه لكثرة الحوادث فيه.

(2) اللازورد معدن أزرق يُتَّخذ للحليِّ وأجوده الصَّافي الشفَّاف الأزرق الضَّارب إلى الخضرة، وله منافع في الطِّب.

البحر وجاءت تُرافقني، وكانت تُلقي أحجارًا زرقاء أمامنا، وفور اصطدام تلك الأحجار بالقاع كانت تومض وتُضيء، حانت منها التفاتة تجاهي وأومأت برأسها وكانت كفُّها اليمنى من ذهب خالص يلمع ويبرق كلَّما ألقت حجرًا من كفِّها!

رأيت قاع المحيط الزَّاخر بمخلوقات عجيبة لو لم أكن خائفًا لاستمتعت بتأمُّل ألوانها وأشكالها لكنَّني كنت مشدوهًا وما زلت أرتجف، سريعًا ما وصلنا إلى مغارة كبيرة، فتقدَّمَنا زعيمهم، واندفعوا بالكرة لداخلها، وكانت خالية من الماء فانفصلوا عن بعضهم بعضًا وحاصروني من جديد، كنت أتنفَّس بسهولة فقد كان الماء محجوزًا على بوَّابة تلك المغارة وكأنَّ هناك حاجزًا غير مرئيٍّ يمنعه من الانسياب للدَّاخل، حرروا أقدامي وبدؤوا يطوفون بي ويصدرون أصواتًا غريبة ومخيفة، انقطعت أصواتهم عندما أطلَّ آخرون، كانوا في هيئة رجال أشدَّاء لهم وجوه كالحة وكلٌّ منهم يحمل رمحًا طويلًا عليه نقش عجيب، وعلى صدورهم تتدلَّى القلادة نفسها الَّتي يرتديها من أحضروني، لم أر لهم أقدامًا ترسو على أرض المغارة فقد كانت كياناتهم تطفو في الفراغ حولي، توقَّفوا فجأة وقبض أحدهم على عنقي بيده، حاولت أن أمسكها فلم أجد لها قوامًا لألمسه، بيد أنَّني أشعر بها وهي تُطبق على حنجرتي، خلا المكان من الجميع في غمضة عين وبقيت معه وحدنا وهو يهدر غضبًا ويزداد حنقًا، أحكم قبضته أكثر وكان يضيِّق الخنق وكادت أنفاسي تنقطع لولا صيحة نَدَّت من الفتاة نفسها ذات الشعر الأرجوانيِّ الَّتي ظهرت فجأة وقالت: «إنَّه من الوافدين».

حررني من قبضته في الحال، وعندما لاحظ الكتاب انتزعه من تحت قميصي، ظننت الكتاب قد فسد من ماء المحيط لكنَّه لم يؤثِّر به وأصابه بعض البلل وحسب، اقترب ذلك الغليظ وقال وهو يغرز عينيه في عيني: «ذاك الفاشل لم يسترد كلمات كتابه!».

قُلت بصوت متحشرج فقد كان عنقي يؤلمني بشدَّة: «وصلت للتوِّ، أسقطني الصَّقر في ماء المحيط».

رشق الفتاة بنظرة أرغمتها على الرحيل وتلاشت في الحال من أمامنا، قال شيئًا مُبهمًا فظهر أربعة مسوخ حولي فقال وهو يقبض على الكتاب: «ألقوه في السِّجن».

أردتُ أن أصرخ في وجهه لكنَّ صوتي حُبس، رغبت أن أعترض وأهرب لكنَّني كنت أسيرًا ومحاطًا بقوم لا أدري عن جنسهم شيئًا، رشقني بنظرة ناريَّة وكان هذا يحرق رأسي، فلو قاتلني رجلًا لرجلٍ سأسحقه، لكنَّه من الجنِّ!

سرت معهم وأنا أرجو أن يكون حلمًا أو خيالًا لينتهي كلُّ هذا! قادوني كمجرم ولم أرتكب جرمًا لأُعامل بتلك الطريقة، ازداد سخطي على البيت، وعلى الكتب، وعلى الصُّقور وعلى الجنِّ ومملكة البلاغة بأسرها..

أين «الرَّماديُّ» الآن؟

وما الَّذي يحدث هنا؟

وما علاقة طائفة من الجنِّ تسكن قاع المحيط بكتاب خالٍ من الكلمات؟

وهل هذا حقًّا «بحر الظُّلمات» الَّذي أعرفه في عالمنا؟

كانت الأسئلة تتناطح في رأسي وتتكاثف وتزداد..

ليتني ما وثقت بهذا الصَّقر المشؤوم.

في مغارة معتمة تفوح منها رائحة الملح والعطن والطَّحالب قيَّدوني، وكان قيدي غير مرئيٍّ، قدماي مثبتتان في الجدار وكذا كتفاي ويداي وعنقي ورأسي، وكأنَّني مجذوب بمغناطيس للجدار، طال الانتظار وكلُّ أنملة في جسدي تؤلمني، نشر البرد عظامي ولا تزال ملابسي مبللة بالماء. غفوت للحظات وإذا بالفتاة توقظني بكفِّها الذَّهبيَّة ففتحت عينيَّ وأجفلت عندما رأيتها أمامي فذكرت الله فانتبهت وقالت: «الله الواحد الأحد!».

- نعم!

سألتني: «ما اسمك؟».

- «توفيق».

- أنا «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة».

هزَّت رأسها فتبعثر منه غبار مضيء انطفأ فور ملامسته للأرض، قالت وهي تتراجع للخلف: «لقد ألقاك الصَّقر قبل أن ينصرف مُسرعًا تجاه الغرب».

- هل رأيتِه وهو ينصرف؟

- نعم، أراد أن يُضلل الغربان ولاحقوه بالفعل، لم ينتبهوا لسقوطك في الماء فقد استغلَّ كثافة السُّحب التي تعلو «بحر الظُّلمات».

- لعلَّه سيعود لانتشالي.

- إذن أنت من الوافدين الَّذين تحملهم الصُّقور ويأتون لاسترداد كلمات تلك الكتب من محيط آخر.

- تقصدين من عالم آخر.

- كلٌّ مُحيط في جوفه عالَم، وكلُّ عالَم يحفُّه مُحيط!

أخذني الفضول لأعرف عمرها، فالجنُّ يعيشون لسنين طويلة فسألتها: «كم عمرك؟».

عبست غاضبة وقالت: «لا تسأل فتاة عن عمرها!».

- كيف السَّبيل للنجاة من هذا السِّجن؟

- كان مصيرك الموت لولا علمهم بكونك وافدًا من عالم آخر.

- والفضل لكِ في هذا.. لولا صيحتك لكُسر عنقي.

- لتعلم أنَّك مهمٌّ لديهم.

- وماذا يُريدون منِّي؟

- كتابك.

- كتابي معهم!

- لكنَّ مفتاحه معك وحدك! لهذا سيأخذونك للقاء الملك لتتنازل عنه، وإن لم تقبل بفتح كتابك سيقتلونك.. والنتيجة في الحالتين أنَّك ستُقتل، الملك يغدر دائمًا بالوافدين.

- وكيف أنجو؟

ارتفعت في الهواء وقالت وهي تترقَّب الحرَّاس: «سآخذك الآن للقاء أبي».

- وما الَّذي يدعوني للثِّقة بك؟

- أعدك ألَّا تؤذى وسأخرِجك من «بحر الظُّلمات» بسلام إن وافقت على لقاء أبي.

- لا أثق في وعود الجنِّ.

- «أصحاب القلانيس الزَّرقاء»[1] لا يُخلفون الوعد!

انتبهت للتوِّ للقلانيس الزَّرقاء التي تعلو رؤوس الجميع، حتَّى تاجها كان أزرق اللون، انتبهت لشرودي فقالت: «لا تُفكِّر، ستأتي معي رغم أنفك».

رددت شيئًا مبهمًا فتحررتُ مما كان يُقيِّدني ويشلُّ أطرافي، بسطت وشاحها الملوَّن لأقف عليه ففعلت وانتقلنا في الحال حيث قصر أبيها دون أن نخوض في ماء «بحر الظُّلمات»، ذلك المحيط العظيم الَّذي كان العرب يهابونه قديمًا لكثرة الحوادث فيه، ولظلمته الشَّديدة وقتامته، مضيت معها وما زال قميص الخوف يُحكم عراه على صدري.

***

كانت الأجواء تعبق برائحة الملح، وكلُّ شيء حولي يبرق ويضوي، كان أبوها يجلس على عرش من الزجاج يموج فيه الماء، وقد طالت لحيته وكادت تصل إلى نهاية ثيابه المزيَّنة بالياقوت والمرجان، بينما شعره الأبيض منثور في ضفائر حول رأسه الَّذي يعلوه تاج من العقيق الأزرق، أشار إليَّ بصولجان من لُجينٍ[2] برَّاق طرفه من حجر عظيم من اللاَّزورد يضوي، قالت ابنته وهي تنحني أمامه: «جلالة الملك «زُريق»».

---

(1) القلانيس جمع قُلَنسُوة وهي لباس للرَّأس مختلف الأنواع والأشكال، وقد ذُكِروا في رواية سُقطرى.

(2) اللجين اسم من أسماء الفضَّة.

أجفلتُ عندما علمت أنَّها ابنة الملك! التفتُّ نحوه وتأمَّلته وهو ينظر إليها بحنوٍّ بليغ، خرج صوته وهو يحمل رنَّة حزن عندما قال: «توقَّفي عن مناداتي بالملك، لقد انتهى عهد مُلكي!».

هدأت نفسي وأدركتُ أنَّه ليس ذاك الملك الذي أخبرتني أنَّه سيأمر بقتلي إن لم أعطه كتابي، كانت تقترب من أبيها وهي تقول في خضوع: «سيعود لك مُلكك يا أبي! أبشر بخيرٍ قريب!».

هزَّ أبوها رأسه في أسى ورنا إليَّ وسألني: «أنت من الوافدين؟».

- نعم.
- أخبرتني ابنتي أنَّ الصَّقر أسقطك في الماء عندما هاجمتكما الغربان.
- هذا صحيح.
- ولماذا لم يعد لالتقاطك؟
- لا أدري.
- كيف لا تدري؟
- لأنَّني لم أختر أن أنتقل إلى هنا، ولا أدري كيف تسير الأمور، ولا أعرف ما حقيقة ما يدور على تلك الأرض الغريبة.
- هل أخبرك الصَّقر بوجهتك؟
- لا.
- أنت جاهل بما عليك فعله، وجاهل بما لديك وسيؤهلك لما ستفعله، وجاهل بنا وبأرضنا.
- وأرغب في العودة إلى دياري في الحال.
- ولكن قبل أن تعود عليك أن تعلم أنَّك مدين لابنتي فقد أنقذت حياتك، ويجب أن تردَّ الجميل.
- كيف؟

أشار بصولجانه فأحضر أحد خدمه أسطوانة من النحاس فأخرج «زُريق» منها لفافة من الجلد ملفوفة بعناية، كان يحملها برفق وحذر وكأنَّها شيء ثمين يملكه، ارتفع عن عرشه وحلَّق نحوي ثُمَّ بسطها أمامي على الأرض، كانت اللفافة تحوي خريطة مرسومة بدقَّة وعناية، أخذت أتفحَّصها وكانت أسماء المدن غريبة وعجيبة لكنَّها مكتوبة بالعربيَّة الفصحى وبجوار كلِّ اسم منها رُسمت ملامح المكان ببراعة، قال وهو يراقب ردود أفعالي: «هل تعلم عن هذه البقاع شيئًا؟».

- لا.

- هذه خريطة المكان هنا، وأُريد منك أن تدلَّنا على موقع «مدينة النحاس»[1].

- مدينة النحاس!

أجفلتُ عندما ردد اسمها وكُنت أعرف قصَّتها، سألني عندما لاحظ اندهاشي: «وما الغريب في ذلك؟».

أخذت أُحدِّق أسفل الخريطة لأقرأ ما دُوِّن أسفلها وكان: «نزهة المُشتاق في اختراق الآفاق»[2]، أدركتُ أنَّها خريطة «الشَّريف الإدريسيِّ»، أوَّل خريطة رُسمت للعالم، رفعت رأسي وأنا في ذهول مما رأيته، قلت له وأنا أُديرها: «لكي تراها منضبطة يجب أن تديرها هكذا لأنَّها مقلوبة».

---

(1) مدينة عجيبة ذُكرت في كتاب مُعجم البلدان لياقوت الحمويِّ، وكذلك تحدَّث عنها ابن خلدون في كتبه، وفي بعض الروايات أن الجن هم من بنوها بأمر من سيدنا سليمان -عليه السلام-، وتدَّعي رواية أخرى أن ذا القرنين هو من بناها ليكنز فيها ثرواته ويضع عليها سحرًا وطلاسم لمنع الدخول إليها.

(2) في القرن السادس الهجري / 12 م طلب الملك «روجر الثاني» ملك صقلية من العالم المسلم العربي «الشَّريف الإِدْرِيسي» أن يرسم له خريطة للكرة الأرضية، يبين فيها شكل الكرة الأرضية والبحار والمحيطات والبلاد الأخرى، وكان الملك «روجر» يحب العلم والعلماء فنقل كل علوم العرب إلى بلاده وجعل علماء العرب حوله وكان يتباهى بهم أمام زوار مجلسه. وقد ألَّف «مُحَمَّدٌ بن محمد بن عبد الله الإِدرِيسي الْهَاشِمِي القُرَشِي» كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

صُدم الملك «زُريق» عندما علم بأنَّها مقلوبة، اقترب ووقف بجواري وسألني: «من أخبرك بهذا؟».

- قرأت عنها وأعرف قصَّتها بالتَّفصيل.

- حسنًا.. أين نحن على هذه الخريطة؟

أشرت بيدي حيث يقع «بحر الظُّلمات» فقد أخبرني المارد الَّذي برز لي من الماء بهذا، وقُلت له: «نحن الآن هنا.. في قاع «بحر الظُّلمات»».

- ومدينة النحاس؟

- اسمها غير مدوَّن ولتعلم أنَّها مخفيَّة عن أعين البشر.

قال يائسًا: «ومخفيَّة عن أعين عشيرتنا أيضًا».

- لكنَّ ما قرأته عنها يُخبر عن اكتشافها في تلك المنطقة حيث يقع المغرب العربي، أي على مقربة من هنا، ولكن كيف لا تعرفون المكان وأنتم من الجنِّ؟ تستطيعون التجوال في كلِّ مكان والوصول إليها بسهولة.

قال الملك «زُريق» والقلق يسكن عينيه الواسعتين: «كلَّما أرسلت أحدًا من أتباعي يضلُّ الطريق ويعود خالي الوفاض، أو لا يعود أبدًا».

- وما الَّذي تُريده من هناك؟

- ولدي «القابض على رمحه»، خرج منذ أمد بعيد ولم يعد.

ارتعش صوت الملك «زُريق» وهو يضيف قائلًا: «أدري أنَّه ربَّما يكون قد مات، لكنَّني أخشى أن يكون محبوسًا من قِبل مارد من المردة، فقد خرج للبحث عن «مدينة النحاس» وانقطعت أخباره، وتلك المدينة العجيبة قد بنتها طوائف أخرى من الجنِّ».

- يقولون إنَّ الجنَّ قد بنوها لنبيِّ الله «سُليمان» -عليه السَّلام-.

تبادل النَّظرات مع ابنته ويبدو أنَّ ما قلته للتوِّ قد راقهما وسألني: «أتؤمن بالله الواحد الأحد؟».

- نعم والحمد لله.

- أصحاب القلانيس الزّرقاء يؤمنون بربِّ «سُليمان» -عليه السَّلام-.

ثُمَّ سألني بتأثُّر: «هل تستطيع الوصول إلى تلك المدينة؟».

- لا أعرف مكانها.

- لماذا قُلت إنَّك لا تعرفه؟ ألست من الوافدين؟ والوافدون يعرفون كلَّ شيء يخصُّ مملكتنا!

- لأنَّني حقًّا لا أعرفه.

- أتدري أنَّني التقيت وافدين آخرين ووعدوني أنَّهم سيبحثون عنها؟ ووعدوني أنَّهم سيعودون ولم يعودوا، لم يصدُق أحد منهم في وعده لي من قبل، البشر كاذبون!

- ربَّما كانوا خائفين، نحن نأتي للمجهول، حتَّى الآن أنا لا أدري كيف وصلت إلى هنا ولا أُصدِّق أنَّني في قاع «بحر الظُّلمات» وأتحدَّث لملك من ملوك الجنِّ لا يعرف أين اختفى ابنه ويظنُّ أنَّني أعرف مكانه!

- أنت من الوافدين ولديك ميزات خاصَّة.

- وأنت من الجنِّ ولديك قُدرات هائلة! كما أنَّني لا أملك أيَّ ميزة أُفيدك بها.

- المملكة هنا تُحبُّ الوافدين، تمنحهم أشياء لا تمنحها لنا ولا لأهلها، هناك سرٌّ بينكم وبين مملكتنا.

أدركتُ أنني لن أخرج من هنا بسلام إلَّا إذا اطمأنَّ الملك «زُريق» أنني سأساعده، اتخذت قرارًا سريعًا أن أساعده وأدلَّه على مكان مدينة النُّحاس، وقد يساعدني «الرّمادي» بالتحليق فوق تلك المنطقة، فقلت للملك «زُريق»: «حسنًا، إن أردت منِّي البحث عن مكان «مدينة النُّحاس» لا بدَّ أن أخرج من هنا».

رماني بنظرة يملؤها الشَّك وقال: «أدري أنَّك لن تعود».

- بل سأعود بإذن الله، فقط أعطني الخريطة لأحدد مكانها، فالصَّقر يستطيع التحليق بي في كلِّ مكان هنا.

اقترب منِّي فجأة فخفق قلبي وقال: «أتدري أنَّهم جميعًا لم يطلبوا الخريطة منِّي؟ وهذا لأنَّهم لم يرغبوا في مساعدتي والبحث عن مدينة النُّحاس وعن ولدي».

- أعدني إلى البرِّ وحتَّى إن لم أصل إليها سأعود لأردَّ لك الخريطة بإذن الله، ولكن أخبرني فضلًا من أين حصلت عليها؟

قال الملك «زُريق» وعيناه تلمعان: «عثر عليها ولدي على متن سفينة عظيمة كانت تمخر عباب «بحر الظُّلمات» وتحمل جغرافيِّين ورحَّالة، لم نتمكَّن من قراءة تلك اللغة الَّتي كُتبت بها الأسماء، وعلمنا أنَّ الوافدين يستطيعون قراءتها، كان رسم مدينة النُّحاس مرسومًا عليها في البداية ورآه ولدي بوضوح وقال إنَّه سمع حوار الرَّحالة عنها وأشاروا إليها وكان حاضرًا بينهم وهم لا يشعرون بوجوده فباغتهم وسرقها وطمع في الوصول إليها، لكنَّ الرسم اختفى من الخريطة وكأنَّه لم يُرسم عليها من قبل!».

- ألم أخبرك أنَّ تلك المدينة وراءها سرٌّ!

- تلك الخريطة حيَّة، العلامات تتحرَّك عليها وتتنقَّل وتومض.

- كيف هذا؟

دققت فيها وإذا بالرُّسوم عليها تتذبذب بالفعل، البحار تموج قليلًا، والأسماء حروفها تتراقص أمام عيني.

- كلُّ شيء في الممالك هنا حيٌّ ويتنفَّس، ستُدرك ما أعنيه عندما تخرج من هنا.

- دعني أخرج لأرى.

قالت ابنته لتدفعه ليوافق: «فلنُحرره يا أبي لعلَّه يصدق».

- ليخرج دون الخريطة.

قُلت له وكنت في حاجة إلى الخريطة: «لو خرجت دونها لن أفيدك».

- يجب أن تظلَّ الخريطة هنا لنتمكَّن من العثور على ولدي.

قالت ابنته: «كانت معنا طوال الوقت ولم ننجح في العثور على أخي، دعه يجرِّب يا أبي».

قال الملك «زُريق» بعد تردد: «لتعلم أنَّني سأرسل خلفك من يُراقبك».

- ليكن هذا يا جلالة الملك.

اختفت «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» لثوانٍ وعادت وكان معها الكتاب، قالت وهي ترده لي: «سرقته من أجلك، فلا تتخلَّ عن أخي».

وضعته مرَّة أخرى تحت قميصي على صدري، قال أبوها وهو يخلع وشاحه: «أبنائي لصوص، أخوكِ سرق خريطة وها أنت تسرقين كتابًا من حاشية الملك».

- آه يا أبي! عمي سرق منك المُلك بسبب غياب وليِّ عهدك وتُحاسبني على هذا؟ على العموم الكتاب مسروق أصلًا من صاحبه، والملك عمِّي ولي أن آخذ ما أشاء من قصره.. أليس عمِّي؟

- بلى. والآن لنخرِج هذا الشَّاب من هنا بسرعة.

وضع الملك «زُريق» الخريطة في جراب من الجلد وأعطاه لي، خلع الملك تاجه ثُمَّ تمدد وتعملق جسده واحتواني في كرة وتدحرج ليُخرجني من القصر للماء، وكانت «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» تنشر أحجارها لتُضيء لنا الطريق. وصلنا إلى الشَّاطئ فودَّعني الملك وعيناه مملوءتان بالرَّجاء، ولم أتخيَّل يومًا أن يرجوني ملك من الجنِّ لأساعده! لأنَّه لا يرى «مدينة النُّحاس» الَّتي احتُجِز فيها ولده ولا يعرف مكانها. كان القمر يُلقي بضوئه على سطح الماء، ترى هل هو القمر نفسه الذي يُطل على موطني أم لا؟ أحاطني السواد من كلِّ جهة وحتَّى الرِّمال كانت تحاكيه في ظلمته، فظلَّ الخوف يتكاثف على صدري، قررت الجلوس على الشَّاطئ حتَّى يطلع الفجر، عادت «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» وانزلقت بطيفها الملوَّن على الرِّمال السَّوداء وأهدتني حفنة من الأحجار الزَّرقاء الَّتي كانت تُنير بها ظلمة قاع البحر وعتمته، فركتها بكفِّها الذَّهبيَّة

فأضاءت، ونثرت المزيد حولي، وضعت ما تبقَّى في جراب الخريطة، همست قبل أن تُغادر: «إن عثرت على «بنات الرَّعد» فأنصت إليهن».

- ماذا! وما هي «بنات الرَّعد»؟

انصرفتْ سريعًا وكأنَّها لم تقل شيئًا ولم تُجب عن سؤالي، راقبتها حتَّى تلاشت في ماء البحر وكأنَّها ذابت فيه وماهت ألوان ثيابها وشعرها على سطحه! غمرني صمت مهيب وكان البحر خاليًا من الموج، فحصت ساعتي فوجدتها قد توقَّفت تمامًا وكنت لا أدري في أيِّ ساعة من اللَّيل نحن الآن، هل نحن في أوَّله أم آخره؟ رجوت الله أن نكون آخره حتى لا يطول انتظاري لطلوع الفجر، خلعت حذائي وأفرغت ما به من ماء، وخلعت قميصي ونفضتُ الماء عنه لعلَّه يجفُّ قليلًا وأعدتُ ارتداءه على الرَّغم من بلله، كان الجوُّ قارس البرودة وكان بلل الثِّياب يزيد ارتجافي من حدَّة البرد، وددت لو ألقيت بجسدي على الرِّمال لأنام لكنَّني لم أجرؤ على النَّوم، أنَّى لي بفنجان من القهوة يُشعل سراج عقلي ويُذهب النَّوم عن عيني الآن، كُنت مُتعبًا وجائعًا للغاية، أجفلت عندما اخترق أذني صوت خفقان جناحَي «الرَّماديِّ»، وسريعًا ما وصل إلى حيث أجلس، وقف أمامي وكان مصابًا في رأسه وملطخًا بطين أسود، أردت أن أوبِّخه وأسبَّه وأنتف ريش جناحيه لكنَّني كنت منهكًا ومتعبًا وهذا صقر! فهل سأصارع صقرًا وإن كان يتحدَّث بلغة البشر؟ كما أنَّني أشفقت عليه.

يا إلهي.. ما الَّذي يحدث لي، الآن أجلس أمام صقر وأنتظره ليُملي عليَّ ما سأفعله!

قال وهو يضمُّ جناحيه لجسده: «حمدًا لله أنَّك ما زلت على قيد الحياة».

- لا تقلق سأموت قريبًا.

- عندما فقدت اتصالي بك شعرت بيأس شديد، طفت بالشَّاطئ مرَّات ومرَّات للبحث عنك ولم أعثر لك على أثر.

- كنت تحت الماء أيُّها الحاذق، ألم تلقني في بحر الظُّلمات؟ كاد الجن يقتلونني.

- فلتنس الجنَّ وما رأيته.

- بهذه البساطة! أنسى ما رأيته! أنت لا تعلم أصلًا ما عشته خلال السَّاعات الماضية.

قاطعني قائلًا: «لقد وصل السيِّد «سُفيان»».

ثُمَّ أردف «الرَّماديُّ» وهو يرفرف بجناحيه: «سأرحل الآن وأعود لاحقًا».

- لماذا سترحل! ألم تعدني بأن تُلازمني في كلِّ خطوة هنا؟

- بلى، ولكنَّني مُصاب وأحتاج إلى علاج سريع، لقد نزفت كثيرًا وأنا أبحث عنك هنا وهناك.

لم يُمهلني لأطرح المزيد من الأسئلة، حلَّق سريعًا ثُمَّ أطلق صيحة فكان لصوته صدى مهيب أخذ يتردد في الأجواء.

أقبل رهط من الرِّجال تجللهم الهيبة بخيولهم، أطلَّ من بينهم كهل[1] قد بدأ الشَّيب يخطُّ شعر رأسه وكانت له لحية كثيفة وقصيرة وأنف أقنى[2]، له هيبة وكأنَّه زعيم يتقدَّم جنده، فقد رأيت مَن خلفه يُجلُّونه ويحترمونه وكأنَّه ملك، كان بعض من خلفه من الرِّجال لهم ملامح غريبة فدخلت الرِّيبة لقلبي، وقف أمامي ومدَّ يده ليُصافحني وقال بصوته العميق: «مرحبا يا بنيَّ».

- وأخيرًا رأيت أناسًا يُشبهونني.

- كُنت أتوق للقائك يا «توفيق»، أنت شجاع لكنَّك عنيد.

- أتعرفني؟

قال وهو يتفرَّس في ملامحي: «قليلًا».

ثُمَّ وضع يده على صدره وقال وهو يمنحني ابتسامة هادئة: «اسمي «سُفيان»».

تلفَّتُّ في حيرة وسألته: «ما الَّذي يحدث هنا بالضَّبط يا سيِّد «سُفيان»؟».

---

(1) الكَهْلُ: هو مَنْ جاوز الشبابَ ولمَّا يصل إلى سنِّ الشيخوخة بعد، وهو الذي خطه الشيبُ.

(2) أقنى: ارتفع وسط قصبته من غير قُبح وضاق منخراه.

مدَّ يده طالبًا منِّي الكتاب الَّذي عثرت عليه في القَبو، فأخرجته من تحت قميصي، تناوله وقال وهو يمسح عليه بيده: «إذن هذا هو كتابك، أتدري ما الرَّقم الخاصُّ بك؟».

- «ويرا».. الرقم واحد بالنُّوبيَّة.

- أتدرك معنى هذا؟

- ما هو؟

- هذا يعني أنَّك الأوَّل في عائلتك، ستتولَّى أوَّل مهمَّة.

- أيُّ مهمَّة؟

طالع الكتاب بعينيه العميقتين وقال: ««أبادول»، تُرى عن أيِّ شيء يتحدَّث هذا الكتاب؟».

- ما أدراني! إنَّه خالٍ من الكلمات يا سيِّدي.

- تلك مهمَّتك يا «توفيق».

- ماذا تعني؟

- أن تستردَّ الكلمات الغائبة.

- هل تعني أن أكتبها بيدي؟ أؤلف كتابًا؟

- لا.. لكنَّك ستستردها بجهودك وعملك وثباتك هنا، لأنَّك حتمًا تؤمن بقيمتها ومعانيها، عندها ستظهر على السُّطور لأنَّك تؤمن بها وترعاها.

- كيف أومن بما لا أعرفه!

- بل تؤمن بشيء ما من صميم قلبك، قد لا أعرفه أنا ولم تُدركه أنت بعد، لكنَّ الكتاب أدرك هذا عندما التقاك في ذلك البيت.

- كيف التقاني الكتاب؟

- تلك الكُتب تتمثَّل في خيالات كالرِّجال، وتُحدِّثنا بلغتها، وتشعر بنا.

- وأنَّى للجماد أن يشعر بالبشر!

قال وهو يُغلق الكتاب بهدوء: «لأنَّ تلك الكُتب حيَّة».

ثُمَّ ابتسم وهو يُعيده إليَّ وقال مُحذِّرًا: «لا ينبغي لصاحب المهمَّة أن يُفرِّط في كتابه بسهولة، لقد سُرق منِّي كتابي عندما وصلتُ إلى هنا وتعرَّضت لأخطار عديدة لولا السيِّدة «مارماحوز» الَّتي ساعدتني لأسترده».

أخيرًا تذكَّرت اسم العجوز، حفرته في ذاكرتي حتى لا أنساه، ولكن! مهلًا، لقد قال السيِّد «سُفيان» شيئًا مهمًّا، صحت بانفعال شديد: «أنت أيضًا من الفيُّوم! أقصد من حيثُ أتيت؟ يعني من خارج هذه المملكة؟ أليس كذلك؟».

- بلى! بيد أنَّني من صعيد مصر، عندما أتيت إلى هنا كُنت في مثل عُمرك.

اقشعرَّ جلدي مما سمعته فقلت فزعًا: «يا إلهي! كُنت أعلم أنَّني لن أستطيع العودة إلى دياري مرَّة أخرى».

- ومن قال هذا؟ نحن نعود إلى هنا من آن لآخر، فقد قطعنا على أنفسنا العهد أن نُكمل الطريق.

- من أنتم؟ وأيُّ طريق؟

قال أحد الشَّباب بصوته الجهوري وكأنَّه يُقدِّم قائدًا عظيمًا: «السيِّد «سُفيان» من أصحاب الدِّماء الحمراء».

- ماذا تعني؟ أليست جميع دمائنا حمراء!

ابتسم الشَّاب وقال: «دماؤنا -نحن سُكَّان مملكة البلاغة- تختلف عن دمائكم».

- كيف تختلف؟

استلَّ سيفه وجرح إصبعه فسالت الدماء السَّوداء منها، تذكَّرت رأس «الرَّماديِّ» فأدركت أنَّه كان مصابًا بجرح بليغ وما ظننته طينًا كان دماؤه الَّتي تسيل، التفتُّ نحو السيِّد «سُفيان» وسألته: «كيف هذا؟».

- لو انتظرت تفسير كلِّ ما يحدث لن تتقدَّم خطوة واحدة، والوقت يمرُّ والخطر وشيك، وإن لم تُسرع في أداء دورك ستنقلب الأمور ولن تنجح في السَّيطرة عليها.

- كم عدد الَّذين وصلوا إلى هنا مثلنا؟

- كثيرون.
- وأين هم؟
- استردُّوا كلمات كتبهم وعادوا إلى الديار في بقاع شتى من عالمنا، والقليل منهم لقي حتفه ومات ودُفن هنا.

شعرت بغصَّة في حلقي عندما ذكر الموت، ازدردت ريقي بصعوبة وقُلت وأنا أُدقق النظر إلى وجهه: «أرني كتابك بعد استرداد كلماته من فضلك يا سيِّد «سُفيان»».

- ليس معي الآن، لقد سلَّمته لحرَّاس الصناديق الَّتي تُحفظ فيها الكُتب، وكُنت الأوَّل في عائلتي مثلك، ومن بعدي أتى ابني الأكبر.
- عذرًا يا سيِّد «سُفيان»، ما مررت به ليس بأمرٍ هيِّن، ما زلت أشعر أنَّني في حلم ولا أجد لغموضه تفسيرًا، هناك الكثير من الألغاز، أُريد أن أفهم ما يدور هنا بالضَّبط!

التفت الجميع تجاه السيِّد «سُفيان» الَّذي قال بهدوء: «منذ قديم الأزل انقسم أهل المملكة هنا إلى قسمين، النُّور والعلم والكتب والمعرفة والحقُّ والسَّلام في جهة، ونقيض كلِّ تلك المعاني تحت عباءة الظلام الَّذي طغى على كلِّ شيء في الجهة الأُخرى».

- إذن الصِّراع قائم بين الحقِّ والباطل على أرض «مملكة البلاغة».
- بل الصِّراع قائم بين «مملكة البلاغة» ومملكة أخرى.
- وما هي؟
- «مملكة الدَّيجور»(1).
- ونحن الآن على أرض «مملكة البلاغة»، أليس كذلك؟
- بلى، ولكن لتعلم أنَّك قد تدخل في رحاب بقعة من بقع الدَّيجور خلال تجوالك، فالأمور هنا تختلط ببعضها وتتداخل وتتشابك.

---

(1) الدَّيجور أي الظلمة، ويُقال ليل ديجور أي ليل مظلم شديد السواد، وجمعها دياجير.

- أظنني ولجت لأكثر البقاع قتامة، فقد سقطت في «بحر الظُّلمات».

- والتقيت «أصحاب القلانيس الزَّرقاء» واستطعت الهرب بمساعدة «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» ابنة الملك «زُريق» الَّذي انتزع أخوه الحكم منه بعد اختفاء وريثه «القابض على رمحه» الذي خرج للبحث عن «مدينة النُّحاس»، وقد منحك «زُريق» خريطة «الشريف الإدريسيِّ».

- كيف تعرف كل هذا؟ لم أخبر أحدًا.. حتَّى «الرَّماديُّ» لم يعرف!

التفت السيِّد «سُفيان» لمن خلفه وأومأ برأسه، برز من بين الجمع شابٌّ أمهق، له شعر شديد البياض تشوبه صفرة خفيفة جدًّا، وكان لون إهابه كالحليب، اقترب من البحر وفتح ذراعيه ورفع رأسه وهو مغمض لعينيه وسريعًا ما انضمَّ له اثنان يُشبهانه فأدركت أنَّهم ثلاثة توائم، همس لي الشَّاب الَّذي جرح إصبعه: «هؤلاء أبناء القمر، لهم مع البحار حكايات وأساطير».

ساروا حتَّى انغرزت سيقانهم في الماء حتَّى نصفها، ففار الماء واهتزَّ وعلا موجه، ثُمَّ توقف اعتلاج الموج وسكن البحر واستوى سطحه كما كان، ثُمَّ انحسر الماء بسرعة شديدة وتراجع فبرز قاع البحر، وكانت صخور مستديرة هنا وهناك تبرق وتضوي، قال الشَّاب نفسه: «بنات الرَّعد».

تذكَّرت ما همست به «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» عن بنات الرَّعد وسألته: «وما هي «بنات الرَّعد»؟».

- صخور تتبلور تحت الماء عندما يضرب الرَّعد ماء البحر، تتجمَّع مع بعضها وتشكِّل أقراصًا، تلك الأقراص تحفظ كلَّ الأحداث الَّتي تتم على أرض المملكة هنا.

- وكأنَّ التَّاريخ هنا يُدوَّن.

قال السيِّد «سُفيان» بهدوء: «وبزوال «بنات الرَّعد» سيُنسى كلُّ شيء».

ثُمَّ تقدَّم وسار بين الصُّخور الَّتي برزت، واقترب من صخر مسطَّح مستدير ناصع البياض ووقف على أطرافه، لم يتبعه أحد من الرِّجال ووقفوا على الشَّاطئ يُراقبون أطراف الغابة، أشار لي فسرت نحوه وعندما اقتربت منه أضاء الصَّخر فجأة وبدأت الصُّور تتوالى أمامنا، كانت الصُّور تتحرَّك

أمام ناظريَّ كما لو أنَّني أراها على شاشة السينما، بيد أنَّها لم تكن بالأبيض والأسود كما هي في عالمنا بل كانت بالألوان! ظهرت خريطة للمكان بأكمله من أعلى، بحار عظيمة، وسلاسل من الجبال، وجزر كثيرة، قلاع وقصور وبيوت، وبساتين مخضرَّة وغابات أشجارها باسقة وفروعها مُتشابكة، وأنهار وشلالات، والكثير من البشر هنا وهناك، قال بصوته الدَّافئ: «هذه مملكة البلاغة الَّتي حيَّرتنا يا «توفيق»».

رفع عينيه تجاه وجهي مرَّة أُخرى وقال: «سأخبرك بما عرفته، ولا تظن أنَّني أعرف كلَّ شيء! وربَّما تصل في رحلتك إلى ما لم أصل إليه أنا وكلُّ من سبقني».

ثُمَّ أشار بإصبعه إلى جزيرة وحيدة وسط زُرقة المحيط الواسع فظلَّت تكبر حتَّى شعرت أنَّني أقف على شاطئها، وبدأ السيِّد «سُفيان» يروي لي الحكاية منذ بدايتها.. منذ قديم الأزل.

***

٤

بنات الرَّعد

يُحكى أنَّ قومًا عاشوا لأعوام طويلة على سطح جزيرة كبيرة عامرة بالنَّخيل والخيرات، الحيتان والدَّلافين تقفز حولها وتلاعبهم وكأنَّهم أسيادها، وموج البحر ينثر رذاذه على شاطئها، ويتردد بينه وبين صخور بيضاء ملساء تطفو على سطح الماء على مقربة منها وتحيط بها كسوار من اللؤلؤ، كان لكلٍّ منهم بيت مُستقلٌّ، وكانوا يعرفون بعضهم بعضًا ويحفظون أسماء الأجداد والجدَّات ويرددونهم كأنَّهم أبطال أساطير وحكايات، لكنَّهم لا يعرفون أصلهم وفصلهم ولا متى وكيف وصلوا إلى الجزيرة ليتزاوجوا وينجبوا فيها حتَّى زاد نسلهم وتفرَّع على أرضها. هكذا وجد القوم أنفسهم! يعرفون بعضهم بعضًا، ولكن من أين أتوا أصلًا؟

تساءلوا فيما بينهم: «من نحن؟

ومن أين أتينا؟

وكيف وصل أجدادنا إلى هنا؟».

لم يجدوا الإجابة، فجميعهم لا يعرفون شيئًا عن الماضي، وكانت الإجابة الَّتي تتكرر كثيرًا على لسان الشيوخ والعجائز: «نحن نعرف أفراد عائلاتنا لكننا لا نذكر من أين أتينا!».

مرَّت الأيَّام سريعًا وتعايشوا وكأنَّهم هناك منذ قديم الأزل، واختاروا لجزيرتهم اسمًا وهو «جزيرة النِّسيان». قرر بعض الشَّباب صناعة القوارب والإبحار بحثًا عن شاطئ آخر لعلَّهم يحلُّون أحجيتهم الغامضة فقد غلبهم الفضول، وخرج البحَّارة في أوَّل رحلة لهم والحماس يغمرهم، وكان أهل الجزيرة يتوافدون على الشَّاطئ لتوديعهم، شقَّ عليهم تخطِّي الصُّخور البيضاء الطَّافية على سطح الماء، فاضطروا إلى القفز في الماء وتحريك القوارب فوقها بسواعدهم والأعين تراقبهم بفضول من شاطئ الجزيرة، وعندما نجحوا في اجتيازها بصعوبة بدؤوا التَّجديف وابتعدوا، ومرَّت سنوات وتوقَّف أهل الجزيرة عن انتظار عودتهم على الشَّواطئ، «لعلَّهم ماتوا أو التهمتهم الحيتان».. هكذا كانوا يقولون وهم يُنكِّسون رؤوسهم في يأس وحزن، ومرَّت السنون تجرُّ بعضها بعضًا والغموض يتكاثف حول الجزيرة. وفي ليلة من ليالي الشِّتاء قارسة البرودة عاد بعض البحَّارة أخيرًا بعد أن طال الغياب، عشر سنوات غيَّرت من أعمارهم وأشكالهم ونفوسهم. مات البعض وبقي البعض على قيد الحياة يفتقدونهم ويخشون المصير نفسه فخسروا قطعًا من أرواحهم وشعروا بخواء في صدورهم، وصلوا أرواحهم الممزَّقة بشيء من هنا أو آخر من هناك، رقَّعوا أفئدتهم فما عادوا كما كانوا. أقبل سُكَّان الجزيرة عليهم كالفراش المبثوث من كلِّ حدب وصوب، وبعدما زال عنهم وعثاء السَّفر وكآبة المنظر بدؤوا يسردون عليهم ما رأوه وشَهِدوه. كانوا يحملون من الأخبار ما أدهش سكان الجزيرة، لقد وصلوا بالفعل إلى أرض فيها مدن وبقاع مختلفة، لكلِّ مدينة أهلها وأجواؤها ولغتها وطيورها وحيواناتها، وكأنَّ كلًّا منها عالم مختلف، حتَّى طريقة الملابس تختلف، وكلُّ زمان يُسابق الأزمنة الأخرى وكأنَّها سهام أُطلقت من الأقواس في آنٍ واحد، لا تدري أيًّا منها سبق الآخر!

لكلِّ بقعة مُلك ومَلك وجُند وسلطان، ولكلِّ عشيرة زعيم وتاريخ وأنساب، ولكلِّ غابة سُكَّانها من الإنس ومن الجِنِّ ومما لا يُدركه عقل إنسان، أجزاء معزولة عن بعضها بعضًا، كانت الحدود أحيانًا من الحجارة البيضاء، وأحيانًا

من الضَّباب الكثيف، وكثيرًا ما كانوا يعبرون النَّهر فينتقلون بين عالمين مختلفين.

عاشوا بين هؤلاء تارة، وأقاموا عند هؤلاء تارة، وفوجئوا بوجود مخلوقات تختلف في تكوينها عن الإنسان، وقُتل بعضهم لمجرَّد كونهم غرباء، وظلَّت دواليب الحياة تدور، كان سكَّان تلك البقاع يسيحون في أركان المملكة الأربعة ولا يأبهون، يفترشون الأرض الزَّاخرة بالخيرات وينعمون بها ويستظلُّون بالسَّماء ويستقبلون غيثها.

شاع في الأجواء أنَّ للشَّمال مَلكًا، وللجنوب مَلكًا، فغار أهل الشَّرق والغرب فانتخبوا مَلكًا لكلِّ جهة منهما، أربعة ملوك لكلٍّ منهم قصر وتاج وجُند وحاشية، وتوارثوا المُلك جيلًا بعد جيل.

لفظت الأرض بعض كنوزها فقد زادت عن الحد واحتقن جوفها مما تحمله، ولا بد من بعض المنح والعطاء لتتنفَّس! لم ترض كلُّ مملكة بكنوزها التي منَّ الله عليها بها، بل طمعت في كنوز الممالك الأخرى، وعندما فاح عبير الكنوز أعمى الأبصار وزادت الأطماع، ودارت رحى الحرب واشتدَّ القتال واستُبيحت الدِّماء، وكان هناك ظلم وقسوة وطغيان فتفرَّق الجمع وتشتَّتت العشائر. وعندما استبدَّ بمن تبقَّى من بحَّارة «جزيرة النِّسيان» الخوف قرصتهم الغُربة في سويداء قلوبهم، فقرروا العودة إلى جزيرتهم فقد غلبهم الشَّوق إلى وطنهم، ذاك الأمان الَّذي افتقدوه، فهناك جيوش تسحق بعضها والحرب تدور رحاها هنا وهناك، بين الإنس وبعضهم، وبينهم وبين عشائر من الجنِّ، ولم يسلم الجميع من السَّحرة وأعوان الشياطين.

ضلَّ البحَّارة في الغابات حتَّى ظنُّوا الهلاك، وقرروا أخيرًا الإبحار بقوارب جديدة صنعوها بأياديهم، ولكن من أين سيُبحرون؟ ولأيِّ جهة سينصبون أشرعتهم؟

وقفوا أمام الشَّاطئ حائرين وهم يتساءلون هل هو الشَّاطئ نفسه الذي استقبلهم منذ سنوات أم هو شاطئ آخر؟ وقبل أن تغرب الشَّمس في ذلك

النَّهار أقبل سرب من الحيتان يمخر عباب البحر تجاههم، أطلقوا صيحاتهم وبدؤوا يروحون ويجيئون أمامهم وكأنَّهم يعرفونهم!

هل هذا معقول!

وبعد عشر سنوات من التخبُّط والتِّيه في الأرض؟

«لعلَّها رسالة وربَّما أرسلهم أهلنا للبحث عنَّا، لقد رأينا من الأعاجيب ما يدفعنا لتصديق هذا! أليس كذلك؟»، هكذا قالوا لبعضهم بعضًا، ظلَّت الحيتان على حالها فقرروا الإبحار خلفها، تبعوهم بالقوارب وعادوا إلى جزيرة «النِّسيان»، وها هم يجلسون حول النَّار ويتدثَّرون بأيادي آبائهم وأمهاتهم وهي تحتضن أكتافهم ويروون الحكايات.

انتهى أحد البحَّارة من سرد ما رآه ولمعت عيناه وهو يقول جملة أخيرة: «كان هناك همس يدور في الأجواء بأصوات تختلف عن بعضها بعضًا لكنَّها لا تتوقَّف أبدًا وكأنَّ هناك من يقرأ ولا يتوقَّف أبدًا لالتقاط أنفاسه».

قال أحدهم وهو يهزُّ كتفيه: «لعلَّها أرواح حائرة».

قال آخر وهو يعقد حاجبيه: «ربَّما أشباح».

صاحت عجوز وهي تُحدِّق بعينيها تجاه الشَّاب: «بل هم نفرٌ من الجنِّ».

أطبق الصَّمت عليهم للحظات ثُمَّ انطلقوا يتحدَّثون في آنٍ واحد وأحدثوا جلبة شديدة، بعد حين وعندما تسرَّب الرُّعب إلى صدورهم قرر الجميع عدم تخطِّي الحدود للأمان، أردف شابٌّ آخر وهو شارد بعينيه الكابيتين: «حول كلِّ مدينة توجد صخور بيضاء لامعة ومستديرة تُشبه تمامًا تلك الصُّخور الَّتي تحيط بشاطئ جزيرتنا وتطفو على سطح الماء، كنَّا نتعرَّض للخطر فور تخطينا لها ونُنادى من قِبل ساكني تلك البقع بالغرباء».

قاطعت السيِّد «سُفيان» سائلًا: «أهي «بنات الرَّعد»؟».

- لا يا «توفيق»، ظننا في البداية أنَّها هي، لكنَّها تختلف ولا نعرف حتَّى الآن ما سرُّ تلك الأحجار المصفوفة.

- لا بدَّ أن وراؤها شيئًا مهمًّا.. كيف نحلُّ تلك الأُحجية الغامضة؟

- تظلُّ بعض الأشياء مبهمة حتَّى تُدرك حقيقتها، وعندما تعرف الحقيقة تكتشف أنَّ الله أراد هذا لكي تَسلم، وأحيانًا لتعرف حقيقة شيء آخر قبل أن تصل إليها.
- إنَّها حكمة الله.
- ونعم بالله.

رفع السَّيِّد «سُفيان» رأسه وقال بجديَّة شديدة: «ستلتقي هنا ديانات مُختلفة، وقد تمرُّ بقوم يؤمنون بنبيٍّ من الأنبياء ولم يسمعوا بالآخر، ستجد موحدين، وستجد الكفرة الفجرة، فكُن حكيمًا وعاقلًا وتجنَّب الجدال حتَّى نحُلَّ تلك الأحجية، فقد يقتلونك إن خالفتهم».

- حسنًا.. ولكن ما زال الفضول ينهش عقلي.. هناك غموض يكتنف كلَّ شيء!
- في مملكة البلاغة قد يؤذيك أن تسأل كثيرًا فاقنع بما تعرفه.
- أشعر بالحيرة والقلق، ولا أُخفي عليك.. لستُ مُطمئنًّا ولا مرتاحًا!

ظهرت علامات القلق على وجهه وقال: «أُدرك هذا الشُّعور جيدًا، لكنَّ القلق والحيرة سيتلاشيان بالتَّدريج».

شعرتُ بالضِّيق فأنا أرغب في فهم كلِّ ما يدور هنا، عُدت أسأله: «هذا عن تاريخ المكان هنا، ولكن ماذا عنكم أنتم يا سيِّد «سُفيان»؟ كيف تواصلت معكم الكُتب؟».

تنهَّد بأسى وأغمض عينيه ليُلملم شتات فكره، ثُمَّ فتحهما وأطال النَّظر إلى وجهي وكأنَّه يقرأ أفكاري ومسح على الصَّخر الأبيض فتبدَّلت الصُّور، ورأيته، وهو شاب ومعه ثلاثة من رفاقه، وانطلق يصف لي ما مرَّ به: «بدأ الأمر عندما كُنت ورفاقي نتشارك القراءة، كُنا نشتري الكتب ونتبادلها بيننا، نخرج للمتنزَّهات ونقرأ معًا، نذهب للمكتبات العامَّة معًا وكلٌّ منَّا يختار كتابًا ليقرأه، نناقش ما نقرأ وندوِّن أفكارنا، حتَّى بدأت الكتب بأفكارها ومضمونها ترسم ملامح شخصيَّاتنا، وبدأنا نضع لأنفسنا الكثير من المبادئ والقيم، نُصحح لأنفسنا الأفكار المغلوطة، ونكتشف معًا تلك السموم الَّتي تُدسُّ في بعض

الكتب لإفساد العقول، لقد أدَّبتنا الكتب وكنَّا محظوظين باختيارنا لمؤلفيها في شتى المجالات. أحيانًا لم نسلم من تلك السُّموم فقد كان لكلٍّ منَّا كبوة، لكنَّ الآخرين دائمًا كانوا طوق النَّجاة عندما ردُّوه للصواب، قد ترانا أربعة نختلف في ملامحنا الشَّكليَّة كاختلاف أطراف الأرض الأربعة، لكنَّ ملامح شخصيَّاتنا الَّتي لا تُرى بالعين تكاد تتطابق.

حدث أن علمنا أنَّ هناك من يبيع مكتبة أبيه التي ورثها عنه مضطرًّا، فهو لا يُحبُّ القراءة ويحتاج إلى المال، فجمعنا كلَّ ما معنا من نقود وتشاركنا في شرائها، ثُمَّ وزَّعناها بيننا وكانت تضمُّ القديم العتيق المهترئ والحديث الباهي من الكتب، في تلك الفترة كُنَّا قد التحقنا بالجامعة وتفرَّقنا لأوَّل مرَّة كلٌّ منَّا في جامعة مختلفة، واعتدنا كلَّ عام أن نجتمع في الإجازة ليُقدِّم كلٌّ منَّا ملخَّصًا عن كتاب مميَّز قرأه خلال العام، ومرَّت أعوام الدراسة الجامعيَّة ونحن على هذا الحال، في عامنا الأخير قررنا أن نختار من الكُتب العتيقة والمهترئة، فاختار كلٌّ منَّا كتابًا عتيقًا من تلك الكُتب الَّتي كُنَّا قد اشتريناها، وكانت كلُّها للمؤلِّف نفسه، وهي عبارة عن نصوص قديمة مترجمة عن اللغات العتيقة الَّتي كانت تُكتب بالخطوط المسماريَّة القديمة، وكان المؤلِّف قد جمع القصص الَّتي تناقش القضيَّة نفسها معًا، فهذا كتاب يتحدَّث عن الوفاء، والآخر عن الصِّدق، والثَّالث عن الشَّجاعة، والرَّابع عن الصبر، طال غيابنا عن بعضنا بعضًا وانشغلنا في الدِّراسة لكنَّنا لم نقطع القراءة ونشأت بيننا وبين تلك الكتب علاقة وطيدة، أحببنا الكتب والقصص الَّتي فيها، وأصبحنا نُطبِّق مبادئ الأبطال في حياتنا. كُنت أومن أنَّ الصَّبر هو عمود من الأعمدة الَّتي لا تقوم الحياة إلَّا بوجوده، وأصبحت أتصبَّر على كلِّ شيء، الفقر، وطلب العلم، وبُعدي عن أهلي وأيِّ عارض يعرض لي في حياتي. انتهى العام الدِّراسيُّ وعدنا إلى قريتنا والتقينا بعد غياب طويل، وكنَّا نتلهَّف إلى رؤية بعضنا بعضًا فتلك اللقاءات السريعة خلال العام لم تُشبع تُربة أفئدتنا الَّتي أصابها الجفاف، تعانقنا وجلسنا معًا نرتوي من حديث بعضنا بعضًا، قررنا الخروج معًا لواحة من الواحات الشهيرة بصحراء مصر كمكافأة لنا على الاجتهاد في الدِّراسة طوال العام ونصبنا خيمة لنعيش ولأوَّل مرَّة أجواء رحلة بريَّة لم نقم

بها من قبل، وعندما انتصف الليل جلسنا نناقش الكتب الَّتي قرأناها وكيف أثَّرت في حياتنا، بدا جليًّا أننا نضجنا خلال تلك الأعوام، أخرج كلٌّ منَّا كتابه من حقيبته ففوجئنا أنَّها أصبحت خالية من الكلمات! سمعنا أنينًا يصدر من الكتب، فأجفلنا وران علينا صمت مُطبق، كدنا نهرب وإذا بحروف غريبة تتجسَّد وتطير في الهواء وتُشكِّل أربعة أطياف لأربعة من الرِّجال الأشدَّاء، حدَّثونا بداية بلغات لم نفهمها، وكانوا يتحدَّثون في الوقت ذاته فتداخلت أصواتهم وأصابنا رعب شديد، توقَّفوا فجأة عن الكلام ثُمَّ بدأ أحدهم يتحدَّث إلينا بالعربيَّة الفصحى بعد أن تغيَّرت العلامات الَّتي تطوف حوله إلى حروف الأبجديَّة العربيَّة، لم يكن له لسان ولا عينان لكنَّ الصوت يخرج من جهته جليًّا وواضحًا، وقفنا نُنصت إليه ونحن نتشبث ببعضنا بعضًا ونرتجف، استغاثوا بنا وطلبوا منَّا الانتقال معهم إلى عالمهم لنسترد كلمات كُتبهم الأصليَّة الَّتي اختفت من أوراقها وألواحها، فأبطال قصصهم يخوضون حروبًا ويُعانون والآن انقلبت الحقائق، واختلط الباطل بالحقِّ..

«لماذا نحن بالذَّات؟» هكذا سألناهم، فأخبرونا أنَّ ذلك لأنَّنا نؤمن بالقيم المدوَّنة على صفحات أوراقهم، فقد لازمونا طوال العام ويشعرون كيف أنَّنا نؤمن من صميم قلوبنا بتلك القيم، وكيف طبَّقناها وعشنا بها، وأنَّنا أصدق من يُدافع عنها ليستردَّها، رفضنا أن نذهب معهم.. لكنَّهم نقلونا عُنوة بخيمتنا إلى هنا».

- ولماذا عُنوة.

- لم يجدوا غير هذا!

- ليس من حقِّهم.

- كنت أُفكِّر مثلك تمامًا لكنَّني بعد رحلاتي هنا أدركت سبب إقدامهم على هذا، أحيانا تتعلَّق بمن تثق به ليُنقذك، تتمسَّك به قبل أن تغرق لتطفو وتنجو ثُمَّ ترفعه معك لشاطئ الأمان.

- أو يُغرقك معه.

- الأمر أنبل من أن يُرى من تلك الزَّاوية.. إنَّها «مملكة البلاغة» حيث الحروف والكلمات أغلى من الجواهر والذَّهب.

- ومن سمَّاها بـ «مملكة البلاغة»؟

- أنا ورفاقي.

- أنتم!

- بعد أن أتممنا مهامَّنا اتفقنا على أن نسمِّيها «مملكة البلاغة»، فلم نجد كلمة تُعبِّر عمَّا رأيناه من تجلِّي قيمة الكتب وبلاغة معاني كلماتها غير هذا الاسم الذي عاش معنا طويلًا، كنَّا نعيش حياتنا في عالمنا ونجتمع كلَّ فترة في أيِّ بُقعة نائية، وكانت الكتب تعرف أماكننا وتنقلنا إلى هنا لكي نكون في استقبال من تحضرهم عُنوة لإكمال المهام، أخبرناهم أنَّ طريقة الانتقال عُنوة لن تروق الجميع وفيها تخويف وترهيب، فتواصلوا مع الصُّقور وبدؤوا في إرسال العلامات والإشارات لصاحب المهمَّة قبل أن يأتي، وعلى الصَّقر أن ينقله إلى هنا، لهذا أنتم أكثر منَّا حظًّا فهناك صقر يظهر ليُحذِّركم من الغربان.

وقفتُ واجمًا فانتشلني من فقاعة الصَّمت التي لُذت بها وقال: «تبدأ رحلاتكم من بيوت عتيقة تملكونها، فتلك البيوت بوابات تقود إلى العالم هنا، ولتلك البيوت قصص ستعرفها لاحقًا، فعقلك لن يستوعب كلَّ الحقائق الآن، أمَّا نحن فلم نملك مثل تلك البيوت».

- هل فُتحت لكم بوابات؟

- الكتب نقلتنا خلالها عُنوة كما أخبرتك. هناك شيء آخر، بعض الوافدين كانوا في خضم معركة ما، يُدافعون عن وطنهم وسط حرب من الحروب الشَّهيرة ونُقلوا إلى هنا دون مُقدِّمات ودون أن تحملهم الصقور، والبعض كان في رحلة بحريَّة وضلَّ وسط عاصفة هوجاء، ثُمَّ نُقل إلى هنا بضربة موج عالية، والبعض تاه في الصحراء، وهناك من كان يسير بسيَّارته وسقط من فوق هاوية فوجد نفسه هنا!

- عجيب! أليس الأمر منوطًا بالكتب القديمة الَّتي اختفت كلماتها؟

- بلى، لكنَّ الأمر لم يكن منتظمًا في البداية، كانت الكتب تتخبَّط في حيرة كما يحدث لنا، ولم تكن على تواصل عميق مع الصُّقور كما يحدث الآن، ولم يكن هناك تسلسل رقمي لكلٍّ لغة بأرقامها الخاصَّة، تستطيع أن تقول إنَّ الكتب كانت تُجرِّب اختيار المناسبين من قرَّاء الكتب لأداء المهام، وكثيرًا ما كانت تفشل والبعض عاد إلى وطنه دون أن يستردَّ حرفًا واحدًا، والبعض رفض رفضًا قاطعًا.. والبعض مات.

- هل قتلتهم الغربان؟

- البعضُ ماتوا خلال رحلاتهم، والقليل بسبب الغربان، فعداوة الغربان لم تكن موجودة سابقًا، الغربان بدأت تُهاجم الوافدين بعد تولِّي الصُّقور مهمَّة نقل الوافدين، وقد أصابوا البعض بالفعل في أعينهم وأجسادهم.

- ولمَ تسلك الغربان هذا السُّلوك؟

- هناك الكثير من التحالفات بدأت تُحيك مؤامراتها في الظَّلام، والطُّيور على أشكالها تقع.

- ومن يوجِّه الصُّقور لاختيار هؤلاء المحاربين بالذَّات؟

- الكتب!

- كيف؟

- بين الصقور والكتب علاقة عميقة ستلمسها بنفسك وستعرف خباياها، فالكتب هنا حيَّة تتنفَّس وتعيش وتشعر بمن حولها، وعندما بدأتْ تكتسب خبرة أدركت أنَّ القارئ المناسب لأداء المهمَّة هو الَّذي يُصدِّق القيم الَّتي يقرأ عنها ويؤمن بتلك الأفكار الَّتي تناقشها، فليس من المنطقيِّ أن يبذل شابٌّ جهده لاسترداد كلمات لا يُصدِّقها ولا يعرف معانيها ولا يؤمن أنَّها هي عين الصَّواب.

- وما ذنب القرَّاء؟ لماذا يُختطَف أحدهم من خضم حياته ليتعرَّض لأخطار هو في غنى عنها؟

- كما أخبرتك، هذا شرف لن يناله إلَّا رجل يُدرك قيمة ما يدافع عنه، عليه أن يكون ذا عقل مُستنير، ومؤمنًا وصالحًا قبل كلِّ شيء، ثُمَّ فارسًا، وشجاعًا، وصادقًا، وذكيًّا.
- أنت تصف جنديًّا أو مُحاربًا.
- نعم تلك صفات مُحارب بالفعل.
- وكيف سأعرف القيمة الَّتي يُعبِّر عنها كتابي لكي أُدافع عنها هنا؟
- ستسير في دروب تلك المملكة العجيبة، ستختلط بأهلها قدر استطاعتك حتَّى تبدأ الكلمات في الظُّهور على السُّطور، عندها ستُدرك أنَّك بين أصحاب القصَّة الَّتي يتحدَّث كتابك عنها، ستكون عونًا لأحدهم لكي تردَّ عنه ظلمًا أو تمنعه من ارتكاب جُرم قد يحوِّل الحقَّ إلى باطل، ولا تيأس إن ظهرت كلمة واحدة، فكما يُقال: «**الغِرَّة تجلب الدِّرَّة**»[1].
- وكأنَّنا سنكون داخل قصَّة أو رواية بكتاب.
- بالضَّبط، لكنَّنا لن نكون مجرَّد نقش على ورق، الأمر حقيقيٌّ يا «توفيق».
- لن يُصدِّقنا أحد.
- وما حاجتنا إلى تصديق الآخرين؟ هل أنت تُصدِّق؟
- أُصدِّق.
- وهذا يكفيك.
- كيف تعودون إلى هنا مرَّة أُخرى وتتركون حياتكم؟ كيف تفعلون هذا يا سيِّد «سُفيان»؟
- عندما تذوق لذَّة المغامرة وشرف المهمَّة ستعرف.
- وكيف سأعرف أنَّ دوري قد انتهى؟
- عندما تُردُّ الحقوق لأصحابها ستُدرك هذا من كتابك، ستكتمل كلماته وستُعطيه لنا.

---

(1) «الغِرَّةُ تجلب الدِّرَّة» مثلٌ عربيٌّ شهيرٌ يُقصد به أنَّ قِلَّة لبن النَّاقة تعني زيادته بعد حين، ويُقال هذا المثل عن الشَّيء الَّذي يُرجى زيادته مُستقبلًا.

- وماذا ستفعلون به؟

- في بداية رحلتنا لم ندرِ ما سنفعله بالكتب بعد كمالها، اجتمعنا ودار بيننا نقاش طويل، كان معنا فرقة من الفرسان الشرفاء التقيناهم في ربوع المملكة، وأخبرناهم بما مررنا به، توطَّدت علاقتنا بهم كما تعمَّقت علاقاتهم ببعضهم بعضًا وعدنا فالتقينا جميعًا، قرروا حفظ الكتب في صناديق مغلَّقة بالأقفال في مكان أمين، ويتناوبون على حراستها، وهم يفعلون هذا دون مقابل، عندما وجدنا هذا منهم وكيف وهبوا حياتهم لحماية العلم والتُّراث والكتب قررنا أن نقتدي بهم ونعود من آنٍ لآخر لنُرشد الوافدين مثلكم.

- هل هذا كلُّ شيء؟

- بل هناك المزيد، لتعلم أنَّ المملكة هنا بحر من الغموض لا ينفد ولا ينتهي، بها سحرة، ومردة، وعشائر من الجنِّ، وأعاجيب لن يُصدِّقها عقلك، وطيور لم ترها من قبل، ومدن فوق وتحت الأرض، وأخاديد وبراكين وجبال وكهوف، وجسور معلَّقة، وقلاع وقصور، ووحوش ستلتقيها وتحاربها وستواجه كلَّ هذا وحدك، وما زلنا نكتشف الجديد كلَّ يوم ونُفاجأ.

- كيف سأتغلَّب على كلِّ هذه المخاطر؟

- ثق أنَّك هنا لأنَّك مُميَّز يا «توفيق»، وأنَّك ستملك ميزات مدهشة بإذن الله، وستُمنح ميزات خاصَّة وأدوات ستُعينك على أداء مهمَّتك، والأداة الَّتي ستعثر عليها ستكون لك للأبد.

- أشعر أنَّني أعيش في حكاية خرافيَّة.

- يبدو الأمر كذلك لكنَّه ليس خيالًا كما أخبرتُك، عليك أن تُصدِّق نفسك لكي تستطيع النَّجاة!

- وماذا لو أردتُ العودة إلى حياتي وترك كلِّ هذا وراء ظهري؟

- وهل ستستطيع؟

- ربَّما! ولم لا؟ مثلًا لو أردت؟

- لا أظنُّ أنَّك ستفعلها!

- وكيف تعرف؟

- لم تهرب من بيتك على الرغم مما رأيته، وصدَّقت نفسك ولم تلتفت لمن يصفك بالجنون والمرض.

- كيف تعرف كلَّ هذا عنِّي؟

أشار إلى «بنات الرَّعد»، فأدركتُ أنَّه راقبني من خلالها فسألته: «هل أنتم جميعًا تعرفون كلَّ شيء عنِّي؟».

- «بنات الرَّعد» تفتح أعينها لنا فقط، لو اقترب هؤلاء ووقفوا بجوارنا لن يظهر شيء، لكنَّهم على أيِّ حال يثقون بي.. يرافقونني ويتركونني لأقرأ منها.

- تقصد أنَّها تفتح عينيها لأصحاب الدِّماء الحمراء فقط؟

- نعم.. أنت منهم!

- وماذا إن أردت النَّظر إليها، كيف سأجد هذا الشَّاب الأمهق ليُساعدني.

- بل قُل كيف ستصل إلى هنا أصلًا! الشاطئ الضَّيق هذا محدود بغابة «السِّنُّور»[1]، وأهلها في غاية الشَّراسة، نحن نصل إلى هنا بأُعجوبة، ولولا توفيق الله ثُمَّ مُساعدة قلَّة من الصَّالحين بينهم لانتهى أمرنا.

- ولو استطعت اجتيازها ووصلت إلى هنا؟

- إمَّا أن تغوص في الماء، وإما أن تنتظر حدوث الجزر.. وهذا خطير!

---

(1) السِّنُّوريَّات، وتُعرف كذلك باسم الهريات أو القططيات وهي فصيلة من الحيوانات الثديية التي تضم الكثير من الأنواع مثل الأسود، والببر، والنمور، والفهود، والقطط الأليفة والبرية، وأنواع عديدة أخرى. تعتبر هذه الفصيلة إحدى الفصائل التسع التي تشكل رُتبة اللواحم.

ران علينا صمت خفيف وكانوا جميعًا يراقبوننا من بعيد ونحن واقفان بين «بنات الرَّعد»، قال السيِّد «سُفيان» وهو يغرز عينيه في عينيَّ: «ما ستقوم به سيُنقذ أجيالًا من بعدك».

- كيف؟

- استرداد كلمات الكُتب يعني الحفاظ على ما كُتب فيها من قيم ومبادئ، التَّاريخ الحقيقيُّ، العلم بلا تزييف، وإن لم تتم المهمَّة فأنت تُساهم في ترسيخ الباطل بالكُتب وهذا سيدمِّر أجيالًا قادمة.

- لو كُنت ولدك بماذا ستنصحني.

- أن تؤدي واجبك، ولتعلم أنَّ تلك المهام تورَّث، فأبناء بعض الوافدين وصلوا بالفعل.

- هذا يعني أنَّ أبنائي سيتعرَّضون لما تعرَّضت له!

- وربَّما أحفادك، وهذا إن نجحت في مهمَّتك ونلت هذا الشَّرف.

وضع يده على كتفي وقال: «الرَّجل الحق ليس الشُّجاع والقويَّ فقط، ولا من كَرُمَ حَسبُه وحُمِدَت شمائله، بل هو الَّذي يتولَّى إصلاح عِظام الأُمور إن طُلب منه هذا، أو عندما لا يجد من يُصلحها غيره».

وقعت كلماته في نفسي وتركت أثرًا بليغًا فقُلت بثبات: «حسنًا، من أين سأبدأ رحلتي؟».

طالعني السيِّد «سُفيان» بنظرة واثقة يشوبها الحنان وقال لي: «هكذا كان ظنِّي بك يا «توفيق»».

عدنا إلى الشَّاطئ حيث يجتمعون فقال: «حسنًا.. أرني خريطتك».

- لماذا؟

- ستدلُّك على الطريق.

أخرجت الخريطة وبسطتها على الأرض، انبثق وميض على طرف «غابة السِّنُّور» وخرج منه خط متعرِّج وتوغَّل فيها فعلت همهماتهم، بدا لي انزعاجهم فسألتهم: «ماذا؟».

قال السيِّد «سُفيان»: «لا بدَّ أن تمرَّ من الغابة لسبب ما».

- وما هو؟

- هذا ما لا نعرفه.

التفت إلى رفاقه وقال وهو يتصفَّح وجوههم: «من منكم يُرافق «توفيق» خلال عبوره لغابة «السِّنُّور»؟».

ران عليهم صمت مطبق، لم يتقدَّم أحد منهم غير ذلك الشَّاب الَّذي جرح يده ليريني لون دمائه، علمت أنَّ اسمه «أمان»، قال السيِّد «سُفيان» وهو يربِّت على كتفه: «سيعبر بك «أمان» الغابة وهو خير رفيق لك، وراقب الخريطة فقد تتغيَّر فجأة!».

- غريب!

- ولماذا تتعجَّب؟ أليست الكتب هنا حيَّة؟

- بلى.

- والخرائط أيضًا، ولقد عثرتْ عليك بنفسها. وبعد خروجك من الغابة سيحملك «الرَّماديُّ» لـ «مدينة الرَّباب»، فأنت الوافد الأوَّل من عائلتك، ولا بدَّ أن يزور حامل الرَّقم الأوَّل تلك المدينة.

- لا يُعجبني أن يقودني صقر، ليُرافقني «أمان» وكفى.

ابتسم ولمعت عيناه وهو يقول: «أترفض رِفقة «الرَّمادي» لأنَّه صقر؟».

في تلك اللحظة أطلق أحد الرِّجال صيحة فقاطع حوارنا والتفتنا تجاهه فأشار إلينا لنُسرع، أدركت من وجوههم أنَّ هناك خطرًا وشيكًا، فاض ماء البحر من جديد وغمر «بنات الرَّعد»، بينما انصرفوا تجاه الشَّرق بعيدًا عن الغابة، كنت أتوجَّه مع «أمان» للانطلاق بالجواد، اقترب السيِّد «سُفيان» وهمس لي وهو يُربِّت على كتفي: «ستخوض المعارك وحدك، فلا تركن لأحد هنا واستعن بالله ثُمَّ كُن سندًا لنفسك، وتذكَّر دائمًا أنَّ ما تعرفه قطرة، وما لا تعرفه محيط».

انصرف بعد أن تركت آخر كلماته أثرًا بليغًا في نفسي، وقفت أمام الغابة أتأمَّل أشجارها الشَّاهقة الارتفاع وكأنَّها أشباح تراقب «بحر الظُّلمات» من عُليٍّ، بدت مهيبة وسط الظَّلام، نقلت ناظريَّ إلى وجه «أمان» وكان شابًّا مستضيء الوجه له جبين عريض ووجه مسحوب له فكٌّ بارز، وبنية قويَّة لفارس مغوار يقبض بيده على سيف يبرق كاللجين، كان يتمنطق بحزام أزرق عريض وعلى جبينه عصابة لها زُرقة الحزام نفسها، رفرفت ثيابه الحنطيَّة اللون مع الرِّياح الَّتي هبَّت فجأة، وهو يرتقي صهوة جواد لونه قد اختلط فيه السواد بالحُمرة، قال بصوت جهوريٍّ وواثق النَّبرة: «أسرع، قبل أن يعلم «أبناء السِّنُّور» بوجودنا، لنتسلل بهدوء».

ظللت أنقل عينيَّ بين سيفه وبين وجهه فلاحظ إعجابي وانشغالي بالسيف فأعاده إلى غمده وقال وهو يشير لي بيده: «يجب أن نُسرع.. هيَّا».

اقتربت منه فمدَّ ذراعه بعضلاته المجدولة وساعدني لكي أعلو صهوة الجواد خلفه، قال قبل أن ينطلق: «تشبث جيدًا يا «توفيق»».

ضرب على ظهر الفرس بكفِّه وانطلق يهملج داخلًا في أتون ظلمة الغابة، وكان كتاب «أبادول» يلمس صدري تحت قميصي فشعرت به يختلج، شققنا ممرَّات بين أشجار السرو والصفصاف السَّامقة والمصطفَّة على الجانبين وهي ترفع هاماتها العالية، وأشجار من أنواع لم ترها عيني من قبل، لم تتوقَّف الفرس للحظة واحدة، ولم يكن الكلام متاحًا فقد كان ذلك الشَّاب مأخوذًا بحواسِّه وبما يراقبه وينصت إليه بتركيز شديد من آن لآخر، وعندما يصل إلى مسامعه صوت ما كان يلتفت إليَّ ويضع إصبعه على فمه وينظر إليَّ بعينيه الواثقتين ويرفرف بأهدابهما الكثيفة لكي أصمت، فكنت أرهف السَّمع وأقبع خلفه في هدوء وأتوقَّف عن الهمس والحركة، بدأ يمسح على عنق فرسه الكُميت[1] وهو يهمس لها: «سنمرُّ بسلام، ولن يُدركنا «أبناء السِّنُّور»».

- لماذا تخافون من «أبناء السِّنُّور»؟ أتخشون حيوانًا بلا عقل.
- ليسوا من الحيوانات!

(1) الكميت من الخيل ما كان لونه بين الأسود والأحمر.

- كيف هذا؟
- مجرَّد رؤيتهم تبعث في النَّفس شيئًا من الخوف، فما بالك بقتالهم.
- صفهم لي.
- هم مخلوقات غريبة تجمع بين صفات البشر والنُّمور والأسود، وقليل منها يُشبه القطط البرية، يسيرون على قدمين ويتحدَّثون بلغة البشر.
- أي يتحوَّلون كالمستذئبين؟
- بل هم هكذا على الدَّوام، وكأنَّك ترى نمرًا اعتدل ليقف على ساقيه كالإنسان، بيد أن إهابهم ليس عليه وبر أو شعر كشعر تلك الحيوانات الَّتي يُشبهونها، فجلودهم مبرقشة ومُخطَّطة ومنقَّطة، وهم شرسون وعدوانيون للغاية.
- ألهذه الدَّرجة؟
- وأكثر، لم أكن على علم بوجودهم حتَّى التقينا في معركة بين عشيرتنا وعشيرتهم، فقد بسطوا نفوذهم على الغابة هنا وللأسف لا يمكن الوصول إلى شاطئ الرِّمال السَّوداء إلَّا عن طريق المرور بغابتهم، فالغابة تحتضن شاطئ الرِّمال السَّوداء بذراعيها، لهذا كلَّما يصل وافد منكم نخوض معارك لنصل به إلى هنا، ويُساعدنا قلَّة من الصَّالحين منهم.
- لماذا لا بدَّ أن يصل الوافد إلى هنا بالتَّحديد؟
- السيِّد «سُفيان» يُصرُّ على هذا، فـ «بنات الرَّعد» تظهر هنا فقط!
- من الجيِّد أنَّ هناك صالحين من أبناء السِّنُّور.
- في كلِّ مجتمع لا بدَّ من وجود صالحين، كالزهرة البيضاء التي تنبت في حقل من البصل... أمَّا الغالب منهم فوحوش ضارية.
- من أين أتى كلُّ هذا الشرِّ!

***

بيت العائلة

«الفيوم»

توقَّف «أنس» عن سرد الأحداث ليلتقط أنفاسه، وكانوا جميعًا ينصتون إليه وكأنَّ على رؤوسهم الطَّير، قال «يوسف» وكان يجلس بجواره: «لم يكن سهلًا أن يُقذف «أبادول» في بحر الظُّلمات هكذا ويبرز له الجنُّ من تحت سطح الماء فور وصوله، هذا أمر يخلع القلب!».

أومأ «أنس» موافقًا وقال: «كان هذا ضروريًّا ليعلم «أبادول» أنَّ هناك وجوهًا أخرى للخوف تختلف عن تلك التي يعرفها، فقد كان يظنُّ أنَّه انتصر على كلِّ مخاوفه هنا».

قال «كمال» وهو يعبث بلحيته: «كلُّ ما مرَّ به أبي على أرض «مملكة البلاغة» صقل قلبه ليكون من حديد، لهذا أصبح «أبادول» الشُّجاع ذا الهيبة، لو رأيتموه عندما كان يتحدَّث إلى حرَّاس المكتبة وكيف كانوا ينصتون إليه في صمت مهيب، وكيف كانوا لا يتخذون قرارًا إلَّا بمشورته!».

رفع «خالد» حاجبيه في اندهاش وقال: «وكأنَّ «بنات الرَّعد» شاشات إلكترونيَّة لحاسوب كبير يحمل المعلومات، وله شفرة لا يفكُّها إلَّا المحاربون».

ابتسم «سُليمان» قائلًا: «تخيَّل يا «خالد» أن «أبادول» رآها هناك من قبل أن تكون هنا تلك الشَّاشات! بل وفي وقت لم يكن هناك تلفاز في مصر وكانت السينما هي الموجودة فقط!».

قال «طارق» وهو يُخاطب ولده «عمران»: «أسمعت كيف أعجب «أبادول» بإطلالة «أمان» وسيفه، يبدو أنَّك تشبهه في عشقك للسيوف وأشكالها».

حمل «حمزة» ابنته وقال وهو يقترب من أبيه ليجلس بجواره: «كان لقاء «أبادول» مع السيِّد «سفيان» كشربة ماء بعد طول عطش، لا ريب أنَّ ذلك اللقاء أدخل الطمأنينة إلى قلبه، لقد رأيت اسمه على شاهد القبر المجاور لقبر «أبادول»، لا ريب أنَّه كان محاربًا عظيمًا».

انتبه «كمال» والتفت نحوه وقال وهو يحرِّك إصبعه في الهواء: «كانت رحلة «أبادول» أكثر صعوبة من رحلات جميع من سبقوه وهذا باعترافهم جميعًا، أنصت لتتعرَّف على جدِّك يا «حمزة»، كان حقًّا «سيِّد المُحاربين»».

عادت أعينهم إلى وجه «أنس»، وأغلقوا أفواههم وجلسوا وكلُّهم آذان مُصغية، وعاد «أنس» يحكي....

***

٥

غابة السِّنُّور

«توفيق»

يقولون إن للجمال جانبًا مرعبًا، وقد يكون جماله هو أكثر ما يخيف فيه، والغابات على الرغم من جمالها مخيفة! بقمم أشجارها التي تتعانق لتصنع قبابًا معتمة تحجب الضوء عن ممراتها الغامضة، بجمال أزهارها التي تسحر ناظريك فتدفعك للتوغُّل فيها فترسل العقارب لتلدغك تارة، وترسل الأفاعي لتغتالك بغتة من حيث لا تدري. وللغابات طيور فاتنة تجذبك بصيحاتها البديعة فتهرع إليها وتتوغل في جنباتها مستعذب الصوت وقد شُلَّ عقلك عن التفكير، وكلما زاد توغلك فيها تكتم الرِّياح صوتك وتبتلع صداه وتبدد أنفاسك وكأنها تؤازر الغابة لاختطافك. قد تُفاجأ بخيال يمثل بين يديك ويُحدِّثك، أو بشبح أسود يدنو منك رويدًا رويدًا فترتاع من منظره وتفزع للاختباء خلف جذع شجرة لن يحجبك عنه، فالخوف لم يلمس جسدك بل قد مسَّ أطراف روحك المتعبة! وقد تتعثَّر بجثَّة معفَّرة بالتراب ملقاة بلا اكتراث وقد استحالت طعامًا للطير الغادي والوحش الساغب في قلب حفرة تطفح بالدماء. للغابات متاهات ودروب ملتفَّة وأقنعة خادعة، أليست حياتنا غابة شديدة الجمال ومرعبة؟

في عتمة الغابة حيث تُطلُّ الأشجار من فوقنا وكأنَّها رؤوس أشباح تُطالعنا وتتربَّص لنا، وبين صيحاتٍ لطيورٍ وحيواناتٍ كانت غريبة على أُذنيَّ، كان «أمان» يسير ببطء شديد، ويتوقَّف عندما يطرق مسامعه صوت مُحدد يبدو أنَّه يُميِّزه، طال زمن سيرنا بـ «غابة السِّنُّور» فسألته هامسًا: «ما الأمر؟ لقد استغرقنا وقتًا طويلًا، لماذا نسير ببطء؟».

- لأنَّ الجميع كانوا في قصر «الوَشَق»[1]، فحفل زفافه أُقيم الليلة قبل منتصف الليل، ولا ريب أنَّ أبناء السِّنُّور انتشروا في الغابة بعد انتهائه.
- ومن هو «الوَشَق»؟
- ابن زعيم عشيرتهم الأكبر، ومعشوق الفتيات هنا.
- لا ريب أنَّه كان احتفالًا عظيمًا.
- هذا ليس زواجه الأوَّل فمن أكبر هموم أبناء السِّنُّور إكثار نسلهم، ومنذ مرض أبيه وهو يتولَّى الزَّعامة.
- لديَّ فضول لرؤيتهم ولو من بعيد.
- ولِمَ الفضول؟ لقاؤهم كحفر مقبرة لنفسك.
- أراكم تخافونهم وأنا أكره الخوف، أحبُّ أن أرى ما يخيف بعيني وأُحدِّق إليه حتَّى لا أخافه!
- وهل تظنُّ أنَّ مجرَّد رؤيتك لهم ستجعلك لا تخافهم؟
- هكذا نزعت الخوف من الظَّلام من صدري بتكرار دخولي للأماكن المظلمة بثبات.
- المرء لا يخاف مما يألفه! لا ريب أنَّك كُنت تدخل أماكن تعرفها واعتدتها ورأيتها سابقًا وهي عامرة بالضَّوء، جرِّب أن تدخل مكانًا مُظلمًا لا تعرفه ولم تزره من قبل، ولا تعلم بما فيه من خبايا وحيل صنعها البشر وغيرهم، نحن في غابة يا صديقي، قد يربض العدوُّ تحت قدميك

(1) حيوان من رتبة اللَّواحم، بين القِطِّ والنَّمِر، يقطن الغابات ويُصاد لقيمة فرائه.

ولن تشعر به إلَّا عندما يغرز أنيابه في عنقك، أبناء «السِّنُّور» وحوش ضارية لا يكتفون بالطَّعام العاديِّ فهم ينهشون اللحم أيضًا ويتلذذون بالدِّماء.

استحال جلدي جلد إوزَّة، رأيت كلامه صحيحًا فقد تذكرت خوفي عندما سقطت في «بحر الظُّلمات» ورأيت الجنَّ فيه، فأدركت أنَّ الخوف له وجوه عديدة وقد تعرَّفت على بعضها فقط. همس «أمان» وهو يجوس بعينيه في المكان: «أبناء السِّنُّور على مقربة من هنا، أسمع أصواتهم، أخشى لو اقتربنا أكثر أن يصهل جوادي، ولو حدث هذا سيُقبلون علينا من كلِّ حدب وصوب وسيفتكون بنا، لنسكن ونهدأ حتَّى ينصرفوا».

ترجَّلنا عن الجواد وسحبه «أمان» خلف الأشجار وفور أن أشار إليه بيده جلس وأحنى عنقه ولزم الصَّمت، تعجَّبت من طاعة الجواد له. وقفنا خلف الأشجار نُراقب «أبناء السِّنُّور» من بعيد، كانوا ثلاثة لهم هيئة البشر العاديين عليهم ثياب من الجلد والفراء، أحدهم كان له ضفيرة قصيرة وغليظة، أما الآخران فكانا حليقي الرَّأس وآذانهما بارزة كآذان القطط، بدت لي بنيتهم قويَّة، كانوا منكبين على شيء يلتهمونه بنهم! همستُ لـ «أمان» الذي كان يراقبهم هو الآخر: «يأكلون بشراهة».

- ألم أُخبرك أنَّهم وحوش!

على الرغم من ضوء النَّار الَّذي كان يضيء ما حولهم لم أتبيَّن ملامح وجوههم بشكل واضح. ظللنا قابعين في صمتٍ لنُراقبهم ولم ننتبه لاثنين من تلك المسوخ يقتربان من خلفنا، وعندما سمعنا زمجرتهما التفتنا في آنٍ واحد، قال «أمان» وهو يستل سيفه ببطء شديد: «ليس معي إلَّا سيف واحد، تدبَّر أمرك يا بطل».

انطلقا نحونا ركضًا وكان قلبي يخفق بقوَّة، بدأ «أمان» يُجندل بسيفه ويُهاجم أحدهما، وانخرطتُ في مُناوشاتٍ مع الآخر، وكنت في حالة من الذُّهول، فهناك مخلوق في هيئة إنسان له نابان حادان يقترب منِّي، وجه داكن وعينان غائرتان وأنف أفطس، وجبين مسحوب وضيِّق، وجلد مُرقَّش،

وحش كبير يسير على قدمين! صوَّبت إلى فكِّه ضربة بقبضتي فلم يتأثَّر، ركلته بساقي فتراجع للخلف ولم يسقط، ألقمني ضربة في معدتي بقبضة يده فأوجعتني كما لم توجعني من قبل! أثنيت جذعي وانطويت على نفسي وتراجعت للخلف وكان يُلاحقني، لو أمسك بي لن يصمد عنقي أمام أنيابه، ألقيت بنفسي عليه وتعلَّقت بعنقه كما أفعل عندما أصارع خصمًا قويًّا، وبدأ الاشتباك المباشر بيننا فالتصقنا وكأننا كرة تتدحرج على الأرض، تفاديت أنيابه قدر استطاعتي وكان صلبًا قويًّا كصخرة، تباعدنا للحظات ثُمَّ عُدنا إلى اشتباكنا وتدحرجنا على أرض الغابة لأسفل التلَّة حينها رآنا الثلاثة الآخرون فنفضوا أياديهم عن الطعام وأقبلوا، وقفوا يراقبونني وأنا أُصارعه في ذهول، قررت أن أضرب نقاط ضعفه فبدأت بعينيه، ضغطت عليهما بإصبعيَّ فضربني في صدري ورفع يديه نحو عينيه وهو يزمجر غاضبًا، فسددتُ ضربتين قويَّتين إلى صدغيه في آنٍ واحد وقبضت على الوحلِ تحت قدميَّ ودسسته في فمه، عضَّ على كفِّ يدي فانغرز نابه فيه وآلمني، تخلَّصت منه بصعوبة وعندما انحنى ليطرح ما ألقمته لففتُ ذراعي حول عنقه وظللت أخنقه، تركته عندما خارت قواه وركع، فصاح أحد الثَّلاثة عندما لاحظ كفِّي وهي تنزف: «دماء حمراء!».

حاول المسخ الوقوف فسددتُ إليه ضربة قويَّة بقبضتي على رأسه فسقط، وسالت دماؤه السَّوداء من فمه.

وقفتُ ألتقط أنفاسي والثَّلاثة يُراقبونني من بعيد، لم يهاجمني أيٌّ منهم وكأنَّهم يترقَّبون شيئًا ما فزادت حيرتي، ظلَّ الصَّمت يتكاثف حولنا، كُنت أتراجع للخلف وأنقل عينيَّ بين وجوههم متوقعًا هجومهم في أيِّ لحظة لكنَّهم ثبتوا في أماكنهم، رحت أتأمَّل جلودهم المخططة وأفواههم العظيمة وأنيابهم الحادَّة، لازمتني أعينهم المخيفة الَّتي تُطلُّ من خلف أجفانهم الدَّاكنة وأنا أتراجع، التفتُّ باحثًا عن «أمان» بأعلى التلَّة فلم أجد له أيَّ أثر فأدركتُ أنَّني صرت وحدي!

قال أحدهم وهو يُحدِّق تجاهي: «لم يتأثَّر!».

وتساءل رفيقه: «كيف هذا؟».

قال الثَّالث: «لننتظر».

ظللت أتراجع حتَّى اصطدم ظهري بجذع شجرة، شعرت حينها بدوار شديد وكأنَّ نارًا تسري في عروقي، انقبض قلبي وحُبست أنفاسي وغامت الأجواء أمامي وازدوجت الرؤية قبل أن تغيب عن عيني، أمسك أحدهم يدي بقبضة من حديد فلم أقوَ على مقاومته وكانت تؤلمني للغاية، بدأ يتشمم الجرح، بينما دار بينهم حوار قصير لم أتبيَّنه بسبب الدُّوار، كان جفناي ينزلقان على عينيَّ، وددتُ أن أصرخ لكنَّ لساني ثَقُل وتخشَّب في فمي، ولم أشعر بشيء بعدها.

***

فتحتُ عينيَّ بصعوبة وكنت ضعيفًا ومنهك القوى والحمَّى تُفتت جسدي ويدي تؤلمني لكنَّني لا أستطيع الوصول إليها فأدركتُ أنَّني مُقيَّد ومحتجز بداخل قفص عظيم وسط الأشجار، استعدت وعيي لأيًا فلأيًا وعندما اعتدلت كان ما رأيته كافيًا لتدفُّق طنٍّ من «الأدرينالين» في عروقي فتنبَّهت وشعرت بدقَّات قلبي تتواثب وكانت أحشائي ترتجف، كادت عيناي تخرجان من محجريهما، فأبناء السِّنَّور يحيطون بالقفص من كلِّ الجهات يحملقون تجاهي ويمدُّون أياديهم ليمسكوا بأطرافي، كانت أنيابهم البارزة تحتكُّ بحديد القفص بينما لعابهم يسيل، جلست أتلفَّت وكانت حرارتي مُرتفعة وكَفِّي تؤلمني للغاية وجرحها ينبض في القيد خلف ظهري، أيقنتُ أنَّني هالك لا محالة فردَّدتُ الشَّهادتين وجلست أنتظر لحظة انقضاضهم عليَّ، لا ريب سيمزِّقونني إربًا في لحظات، كانت أصواتهم مزيجًا من زئير أسد، وضرضرة نمر، وزمخرة فهد، ومواء قطط!

ولكن ما الَّذي يحدث؟

ولماذا أنا في قفص؟

وكيف لم يقتُلني الثلاثة الَّذين رأوني وأنا أُصارع رفيقهم؟

أطلق أحدهم صيحة فسكتوا جميعًا وشقُّوا الطريق بينهم بسرعة وبدؤوا يقفون في صفَّين، أقبل أحدهم وكأنه الشَّيطان يقترب! عينان غائرتان وكأنَّهما ثقبان في جمجمته، العتمة والسَّواد يشعَّان منهما وكأنَّه وُلد من الجحيم، أنف أفطس وفم كبير واسع لثَّته قاتمة وأنيابه ملتفَّة كخطَّافين على الجانبين، وكان له شارب كثيف يُظلل شفته العليا، أمَّا جلده فكان أسود فاحمًا ومرقوشًا بنقاط ضئيلة بيضاء وكأنَّها نُدف جليد لصقت به للتوِّ، سمعتهم يتهامسون: «أفسحوا الطريق للأمير»، فأدركتُ أنَّه «الوشق»، وقف أمام القفص وهو يحدِّق إلى وجهي وقال بصوته الأجشِّ: «هذا الَّذي هزم أقوى حارس لدينا!».

أشار «الوَشقُ» بيده ففُتح باب القفص، وهنا سقط قلبي بين أضلعي، لم يجرؤ أحد على الدُّخول معه فكلُّهم يهابونه، اقترب منِّي وأخذ بتلابيبي وسحبني تجاه وجهه وألصق فمه بعنقي..

لا بأس.. سأموت فورًا ولعلَّ الله يغفر لي بموتتي تلك! سأشعر بألم تمزيقه للحمي وبعدها سينتهي كلُّ شيء، أغمضت عينيَّ وردَّدت الشَّهادتين للمرَّة الثَّانية فأنصت إليَّ وأنا أُردِدهما ثُمَّ بدأ يتشمَّم أنفاسي، رجع برأسه إلى الخلف ثُمَّ خمش عنقي بمخلبه فسالت الدِّماء من جرح أصابني به، وهمس قائلًا بصوت يشبه الفحيح: «تلك هي الدماء الحمراء!».

بدأ يتشمَّم دمائي ولعقها بطرف لسانه فاقشعرَّ جلدي وكنت لا أشعر بمن حولي ولا أراهم، فقد استحال العالم لعينين سوداوين ملتصقتين بعينيَّ، وأنياب تكاد تفتك بي، بصق وقال بتقزز: «طعم الحديد والصَّدأ!».

ثُمَّ دفعني فسقطت على الأرض وصاح وهو يُحدِّق إلى وجهي: «من أيِّ جنس أنت؟».

برز أحدهم وكان لديه لطخة صفراء تتوسَّط جبينه الأسود وقال: «لا ريب أنَّه من هؤلاء الَّذين يُقال إنَّهم يفِدون من ممالك أخرى، ثيابه عجيبة وذلك الحذاء غريب جدًّا!».

- ألم تستجوبوه أيُّها الحمقى؟

- ليس بعد.

- إنَّه محموم، أنفاسه حارَّة.

- لم يُمِته سُمُّ النَّاب، وأظنُّ تلك الحرارة من أثر سريان السُمِّ ببدنه.

اقترب المُتحدِّث من «الوشق» أكثر وقال له: «مولاي، نستطيع قتله إن أردت».

- أيُّها الغبيُّ، لننظر أوَّلًا هل سيعيش أم لا؟

- تقصد أنَّه قد يتخطَّى السُّمَّ!

- نعم، وهذا يعني أنَّ سمَّ النَّاب قد ضعف كما قالت «الخيفاء»، سُحقًا لها.

صاح قائلًا: «ما اسمك؟».

كان سؤاله لي بمنزلة طلقة صوَّبها إلى قلبي فرجرجته، أجبته بصعوبة: «توفيق».

قال ذو اللطخة الصَّفراء: «يبدو أنَّ هناك ثِقلًا بلسانه».

لكزه «الوشقُ» وسأله: «كيف يتغلَّب على أحد حُرَّاس الحدود؟ كيف صرعه بيديه العاريتين؟».

- يبدو أنَّه مُدرَّب بإتقان، فجسده متين وعضلاته مفتولة.

- ألم تعثروا على رفيقه الَّذي قتل الحارس الآخر؟

- لا.. وكأنَّه تبخَّر في الهواء.

- أين «الخيفاء» البلهاء الَّتي لم تفدنا بعلمها الَّذي تعلَّمته من جدتها كما تزعم؟

- رهن إشارتك يا مولاي.

- تلك الفتاة مُخادعة، إن لم تكشف سرَّ هذا الشَّاب ودمائه الحمراء سأتزوَّجها لعلَّها تنجب لغابتنا المزيد من «السِّنُّور».. فلتترك الأعشاب الَّتي تعبث بها وتصنع شيئًا نافعًا.

- تلك الفتاة لا تليق بك يا مولاي.

- لنرَ كيف سينجو، لو تحرر لسانه أحضروه لقصري، فأنا أرغب في الحديث معه، أحتاج إلى إجابات عن الكثير من الأسئلة.

- ولكن.. أبناء «السِّنُّور» يُحيطون بالقفص وكما ترى يتلهَّفون للانقضاض عليه.

التفت «الوَشق» نحوهم وصاح قائلًا: «من يمس هذا الغريب سأقتله بيدي».

انفضُّوا من حول القفص في الحال وتسلَّلوا بين أشجار الغابة وبقي الحرَّاس فقط، حدَّق «الوشق» تجاه ذلك السِّنُّور الأسود ذي اللطخة الصَّفراء على جبينه قائلًا: «لو مات أحرقوا جثَّته».

انصرف «الوَشق»، وقبل أن ينصرف رفيقه أرغمني على تجرُّع سائلٍ مذاقه لاذع ثُمَّ حلَّ وثاقي، تمعَّنت في ملامحه فأدركت للتوِّ اختلاف ملامح المسخ الَّذي صارعته عن هؤلاء الذين يحيطون بي، أغلق الحرَّاس القفص بإحكام، ووقفوا بسيوفهم حوله، بدأت أتعرَّق بغزارة وأصابني صُداع شديد.

***

عين زرقاء وعين خضراء ووجه أبيض، وفمٌ أصغر من كلِّ الأفواه الَّتي رأيتها منذ دخولي تلك الغابة، هذا ما فتحت عينيَّ لأجده أمامي، أنثى بوجه هرَّة كبيرة تُحدِّثني! همست بصوت أنثوي ناعم وهي تسألني: «بماذا تشعر الآن؟».

اعتدلت جالسًا وكان الماء يتساقط من رأسي وإذا بقميصي مبلل هو الآخر، رفعت رأسي فوجدت ذا اللطخة الصفراء على جبينه أمامي، قال وهو يسكب المزيد من الماء على رأسي: «هيَّا قُم، قضينا ساعات ونحن نسكب الماء على رأسك، ظننا أنَّك لن تفيق من الحُمَّى».

- يكفي أرجوك

توقَّف عن سكب الماء وكُنت أشعر بالبرد، بدأتُ أنفض الماء عن جسدي وكانت كل مفاصلي تؤلمني، قال الذَّكر وهو يُشير إلى صدره: «أنا «المارج»[1] وهذه «الخيفاء»[2] ونحن هنا لمُساعدتك».

(1) المارج اسم بمعنى الشُّعلة الساطعة ذات اللَّهَب الشَّديد المختلِط بسواد النَّار.

(2) الخيفاء: الخيف حالة تنتج عن طفرة جينية تسبب تباين لون القزحية، «الهيتيروكروميا» فتكون إحدى العينين زرقاء والأخرى بنيَّة أو بلون آخر.

ثُمَّ أضاف هامسًا: «نحن أصدقاء «أمان»».

اطمأنَّ قلبي قليلًا، انتبهت فإذا بهم قد أخرجوني من القفص ونقلوني لمكانٍ آخر وكان بناء من غرفة واحدة ممتلئة بقوارير زجاجيَّة ملونة وأُخرى فخاريَّة مصفوفة على الأرفف، والأجواء تعبق بروائح قابضة فأدركت أنَّه كعيادة طبيَّة أو شيء من هذا القبيل، سألتني «الخيفاء»: «هل تشعر بصُداع أو دوار؟».

- لا أشعر بدوار، لكنَّ الصُّداع لا يزال ينخر في دماغي، رأسي يكاد ينشطر إلى نصفين.

- أستطيع أن أسقيك شرابًا يخفف منه لكنَّه سيُنوِّمك قليلًا.

قال «المارج»: «سقيتك منه وأنت في القفص».

أردفت «الخيفاء» وهي تهزُّ رأسها: «صنعته من عُشبة نادرة».

- ذلك الدَّواء لم يؤثِّر فالصُّداع يدقُّ رأسي دقًّا.

- لعلِّي أعطيك دواء آخر.

- لا.. سأتحمَّل، لقد اكتفيت من النَّوم.

انتبهت لعدم وجود كتابي وخريطتي معي فأجفلت وسألتهما: «أين كتابي؟».

قال «المارج»: «حقيبتك مع حرَّاس الحدود الذين ألقوا القبض عليك، وقد سلَّموها للزعيم».

- «الوَشَق»؟

- ومن غيره!

- أين اختفى «أمان»؟

قال «المارج» وهو يُخفِّض صوته: «كان عليه أن ينصرف سريعًا، فإراقة دماء السِّنُّور جرم عظيم، لو وقع في أياديهم سيفتكون به، من حُسن حظِّك أنَّك لم تقتل الحارس الَّذي صارعته، وكان من المتوقَّع أن تموت من سُمِّ النَّاب».

- لعلَّ أثر السُّمِّ سيظهر بعد قليل.

قالت «الخيفاء»: «لا أظنُّ، أنت تتعافى بشكل سريع، انخفضت حرارتك وعلاماتك الحيويَّة تشي بأنَّ صحَّتك جيِّدة».

أضافت على استحياء: «أُحاول أن أتعلَّم علاج الأمراض والأوجاع من.. الكتب».

ظهر الضِّيق على «المارج» وقال لها: «احذري، قد يسمعك أحد الحرَّاس الواقفين خارج الباب، فمنذ مغادرتنا القفص وهم يتبعوننا لحراسته».

سألتهما: «وما العيب في قراءة الكتب؟».

قالت «الخيفاء»: «الكتب ممنوعة في غابتنا، القراءة جريمة».

- كيف هذا؟

- ملوك السِّنُّور يعتقدون أنَّ القراءة والكتب وما فيها من علم أسباب لتمرُّد عامة الشَّعب، وخطر يُهدد مُلكهم.

- ما أضعف الملك الَّذي يخشى استنارة عقول شعبه، وما أقبح أن يسودهم بجهلهم.

- «الوشق» عدوٌّ للكتب.

- لا بدَّ أن أخرج من هُنا، ساعداني لكي أصل إلى أطراف الغابة، ولكن يجب عليَّ استرداد الكتاب أوَّلًا.

قالت «الخيفاء»: «لتتعافَ أوَّلًا من أثر سُمِّ النَّاب بشكل كامل، دعني أتفحَّص جرح يدك».

أمسكت بيدي وكان الجرح عميقًا، كادت تقطر داخله سائلًا أسود فأبعدت يدي وسألتها: «ما هذا؟».

- راتنج[1] الأشجار المُباركة بغابتنا.

- رائحته تُشبه الحبر المُعتَّق!

---

(1) الرَّاتنج مادَّة صمغيَّة لزجة تخرج من لحاء بعض الأشجار كالصنوبر ونحوه، وهي مادَّة غير قابلة للانحلال في الماء وسريعة الاشتعال.

ابتسمت قائلة: «أخبرني صانع الأصباغ أنَّه يُشبه الصَّبغ الَّذي يصنعه بنفسه من مسحوق حجر أسود معروف، يستخدمونه في الرَّسم على التَّماثيل، والنَّقش على الجدران، لكنَّه ليس مُباركًا كرحيق الشَّجرة السَّوداء!».

- لا داعي له.

قال «المارج»: «سيُفيدك ويُطهِّر جرحك، وهو أفضل من الكيِّ بالنَّار».

ترددتُ قليلًا لكنَّني تذكَّرت أنَّ عروقي قد حُقنت بسمٍّ غريب يخرج من أنياب مخلوقات لم أرَ مثلها من قبل، فمن أيِّ شيء أخاف! مددتُ يدي وتركتها تقطر ما تشاء في جُرحي فبدأ يحرقني، رفعت عينيها تجاه وجهي وسألتني: «ألا تشعر بشيء؟».

- بلى.. أشعر بحرقة.

- لماذا لم يظهر على وجهك أنَّك تتألَّم!

تذكَّرتُ كيف كان رفاقي يضربونني وأنا غلام وكنت أكتم الألم حتَّى أظهر قويًّا أمامهم، وعندما كُنت أعود إلى البيت كنت أركض نحو أمِّي وأنفجر باكيًا، أتألَّم بين يديها، وأحزن بين يديها، وأغضب وأخرِج كلَّ ما بجوفي من مشاعر، بل إنَّ الضَّربات لم تكن تؤلمني إلَّا أمامها، وكانت لهفتها عليَّ ومسحة كفوفها الحانية ودعواتها النَّابعة من سويداء قلبها كافية لتطبيب جراحي. لزمتُ الصَّمت وكانت «الخيفاء» تُضمِّد جرح يدي بمهارة، انتهت من عملها ووقفت بجوار «المارج» أمامي، كانا يُطالعانني بفضول، سألتهما: «ما قصَّة السُّمِّ الَّذي بأنيابكم؟».

قال «المارج» وهو يُشير إلى نابه: «انظر إلى نابي، انظر كيف يختلف عن ناب هذا الحارس الَّذي صارعته».

أبرز نابه فنظرت إليه بتمعُّن فأردف قائلًا: «سمُّ النَّاب لـ «أولاد الرَّقشاء[1]» فقط، وهؤلاء وفدوا لغابتنا من قديم الأزل ويعيشون بيننا لأنَّهم يُشبهوننا، ويدينون بالولاء للملوك، فجدُّ «السِّنُّور» الأكبر أعطاهم الأمان واستقبل ملكتهم «الرَّقشاء» وأحسن ضيافتها حتَّى ماتت بين أشجار الغابة هنا، فأقسم أبناؤها

(1) الرقشَاء هي الحَيَّة المنقوطة بسوادٍ وبياضٍ.

بالولاء لـ «السِّنُّور» لهذا أغلب حُرَّاس الحدود من «أولاد الرَّقشاء»، يعملون جنبًا إلى جنب مع رجالنا، فلديهم خصائص الأفاعي، ويُغيِّرون جلودهم كلَّ فترة كما تطرح الأفاعي جلودها، ألم تلحظ الفارق بيننا وبينهم؟ نحن لا نُشبههم أبدًا! وجوهنا أكثر وسامة!».

قلت وأنا أُحاول إخفاء ابتسامتي حتى لا أُغضِبهما: «في الحقيقة أراكم جميعًا متشابهين، لم أرَ وجهًا مُختلفًا غير وجه «الخيفاء»».

قالت «الخيفاء»: «أشعر أنَّني مُصابة بشيء ورثته عن أجدادي، فأنا الوحيدة في الغابة هكذا».

- نقول عنها «طفرة وراثيَّة».
- على العموم نحن أيضًا نراكم متشابهين، جميعكم لكم الآذان والأعين والأنوف نفسها، ولون جلودكم متطابق! كيف نُميِّزكم دون خطوط أو نقاط أو علامات على جلودكم، أنت مثلًا تُشبه «أمان» كثيرًا.
- ربَّما! فتلك سنَّة الله في خلقه، أن جعلنا شعوبًا وقبائل لنتعارف.

قالت وهي تستعدُّ للخروج: «لا ريب أنَّك جائع، ماذا تُحبُّ أن تأكل؟».

- الفاكهة ستكون مُناسبة جدًّا.

تركاني بعد أن أمدَّاني ببعض الفاكهة مما أعرفه ومما لا أعرفه، حذَّرتني «الخيفاء» من التلاعب بقوارير الدَّواء وقبل أن تنصرف أزاحت بساطًا كتيمًا من الجلد المدبوغ كانت تُغطِّي به الأرض، بدا لي أنَّها تخشى على معملها أو عيادتها أو ذلك الوكر الَّذي يُخبِّئونني فيه، كان هناك مصباح لزيته رائحة نفَّاذة وكان ضوؤه الضئيل يكفيني، تمددت على الفراش الخشن الَّذي بالغرفة وأخذت أجترُّ ما حدث لي منذ شراء ذلك البيت العجيب، وما أخبرني به السيِّد «سُفيان» حتَّى غلبني النَّوم وأطفأ سراج عقلي.

- «توفيق».. قُم!

همس بها «المارج» وهو يهزُّ كتفي، فزعت عندما فتحت عيني ووجدت وجهه أمامي، وضع يده على فمي وقال: «لا تُصدر صوتًا واتبعني».

كان المكان يسبح في هدوء وقد اختفت أصوات الحرَّاس فأدركت أنَّهم نائمون، فقد أخبرني «المارج» أننا تخطَّينا منتصف الليل، تبعته وإذا به ينزل من فتحة بأرضيَّة الغرفة مخفيَّة بعناية، سرنا بممرٍّ ضيِّق حتَّى وصلنا إلى غرفة أوسع تحت الأرض، كانت مليئة بالكتب وأوراق البرديِّ وكرانيف[1] وألواح وقطع من الجلد، وكان بعض أبناء «السِّنُّور» هناك، أدركت حينها أنَّ هؤلاء أصدقاء «أمان» الَّذين أخبرني عنهم، تبادلنا التَّحيَّة وأحطنا بطاولة قصيرة وبدأت «الخيفاء» تتحدَّث وقالت: «نحن نقرأ هنا في الخفاء، وتلك هي الكتب والألواح والأوراق الَّتي نُهرِّبها للغابة».

- كيف تكون القراءة جريمة؟

قال أحدهم: «تساءلنا كثيرًا وكانت الإجابة دائمًا أنَّ دماء أبناء السِّنُّور ومُلكهم وسلطانهم أغلى من العقول والعلم والكتب، وربما يخشى زعيمنا من استنارة عقول الرَّعيَّة».

قال آخر: «حاول بعضنا إظهار حبِّه للعلم فقتلوه».

وقال ثالث: «سيأتي يوم وينتهي هذا الكابوس».

طال الحديث بيننا، أخبروني عن أنفسهم وعن غابتهم، وقمنا معًا نتصفَّح الكتب، كُتب كبيرة الحجم أغلفتها من جلد الماعز ومخيطة يدويًّا بمهارة وأوراقها معتَّقة صفراء، لم أتمكَّن من قراءة الحروف المكتوبة، كانت غريبة ولم أرها من قبل! وكأنَّها كتابة مسماريَّة قديمة يعرفونها ويقرؤونها أمامي بسلاسة، وجدتها تُشبه الكتابة اليابانيَّة! ضجَّ عقلي بالتَّفكير.. كيف يفهمون عربيَّتي ويتحدَّثون بها وهم لا يكتبونها!

حدَّقت إلى وجوههم وانزلقت عيناي نحو الكتب المنقوشة حروفها بحبر أسود يُشبه راتنج الشَّجرة الَّذي عالجتني «الخيفاء» به فسألتها هل هو نفسه؟ فأجابتني: «نعم هو، هذا الرَّاتنج مُبارك وفيه سرٌّ عجيب! كلَّما استخدمنا حبرًا

(1) كرانيف أصول تبقى في جذع النخلة بعد قطع السَّعف منها تصلح للكتابة عليها لكونها عريضة.

آخر كان لا يثبت على ألواحنا، إلَّا هذا يثبت ولا يُمحى أبدًا، تمنحنا أشجار الصنوبر السَّوداء القليل منه يوميًّا، ونجمعه ونحتفظ به في قوارير صغيرة».

رأيت علبة خشبيَّة معقَّدة التَّركيب، طلبوا منِّي فتحها ولم أنجح، وكان فيها حيلة ذكيَّة وخطوات متتابعة وملتفَّة لكي تُفتح بشكل صحيح، صنعها «المارج» بعد أن رأى كيفيَّة صنعها في كتاب هرَّبوه في الخفاء لمكتبتهم، علمت حينها أنَّ «المارج» ذكيٌّ جدًّا، أخبروني أنَّهم جميعًا استطاعوا فتح هذه العُلبة، قضيت معهم وقتًا لطيفًا على الرغم مما أحمله فوق كاهلي من همٍّ، كان من اليسير الاندماج معهم وتعلَّمت منهم حلَّ لغز العلبة فأطربهم هذا كثيرًا.

انتهت زيارتي لمكتبتهم السرِّية، وعدوني أن يُساعدوني لكي أخرج من الغابة، فهم يرون مهمَّتي نبيلة. أعادني «المارج» إلى العيادة الطِّبيَّة، وطلبت منِّي الخيفاء إعادة البساط الكتيم لمكانه على الأرض ففعلت، أزاح الفجر ستار الليل وأنا أتساءل كيف سأسترد كتابي قبل أن أهرب؟

***

ضرب الحرس الباب بقوَّة واقتحموا الغرفة وكُنت مستيقظًا، أخرجوني منها بعنف ففوجئت بـ «الوَشق» أمامي، كان يقطع السَّاحة جيئة وذهابًا ويداه معقودتان خلف ظهره، جلس على جذع شجرة مقطوع وأشار لهم فسحبوني تجاهه وكُنت أكره طريقتهم تلك، أمرهم أن يبتعدوا عنِّي وسألني: «من أين أتيت أيُّها الغريب؟».

- من «الفيُّوم».

- أين تقع هذه المملكة؟

- ليست مملكة! إنَّها مدينة.

- أين تقع تلك المدينة؟

- في «مصر».

- وأين تقع مملكة «مصر»؟

- في «إفريقيا».

هدر غاضبًا في استياء: «في أيِّ مملكة يقع كلُّ هذا؟ انطق!».

أحببتُ أن أعطيه كلمة تُرضي فضوله فقلت له: «في ممالك القارَّة السَّمراء».

- ماذا؟ ممالك القارَّة السمراء! لم أسمع عن تلك الممالك من قبل!

دار بعينيه في لؤم وقال: «إيَّاك أن تُضللني».

- أنا أُخبرك بالحقيقة.

رشقني بنظرات ناريَّة وسألني: «أين رفيقك الَّذي كان يحمل سيفًا؟».

- لا أدري.

- كيف لا تدري!

- كان دليلي وتعرَّفت إليه حديثًا.

- لماذا دخلت غابتنا؟

- أردتُ الوصول إلى الشَّاطئ الأسود.

- لماذا؟

- يقولون إنَّه شاطئ ساحر وغريب.

- هذا الشَّاطئ يخصُّ عشيرتنا فقط، ليس من حقِّك دخوله.

- لماذا؟ أرغب في معرفة سره الغامض!

غمغم ولم يُجبني، ثُمَّ طرح سؤالًا جديدًا: «كيف نجوت من عضَّة النَّاب؟».

- لعلَّ جسدي قاوم سمَّ النَّاب ولم أحتج إلى ترياق.

- أتدري من الَّذي طرحته أرضًا؟

- لا أدري.

- أفضل حرَّاس الحدود بأسًا وقوةً وشجاعة! إنَّه من أولاد «الرَّقشاء»!

ثُمَّ زأر غاضبًا وقال: «لعلَّك سعيدٌ لأنَّك فعلت هذا؟».

- لم أبدأ بمُهاجمته.

- لكنَّك تسللت لغابتنا.

لزمت الصَّمت فأصدر الأمر لحاشيته وقال وهو يُطالعني بازدراء: «اجمعوا لي أقوى أبناء السِّنُّور في الحال».

ثُمَّ رشقني بنظرة حانقة واهتزَّت شفتاه وهو يقول: «ستُصارع أكثر المقاتلين قُوَّة أمام عينيَّ حتَّى يفتكوا بك، لا بدَّ من كَسر أنفك قبل أن تموت سحقًا على أرض غابتنا».

أعادوني إلى القفص فشعرت بحرارة تجتاح جسدي وكانت أحشائي ترتجف لا أدري هل هذا بسبب الخوف أم من أثر سمِّ النَّاب، جلست أرتب أفكاري محاولًا أن أبعث الحماس في نفسي، فالوضع مختلف هذه المرة، فـ «الوشق» سيدفعني لمصارعة أقوى رجاله!

يمكنني هزيمتهم بعون الله! فقد تمكنت سابقًا من صرع أقوى حراسهم وأفضلهم على حد قولهم عندما دخلت مع «أمان»! استطعت أن أهزمه على الرغم من أنها كانت المرة الأولى التي أصارع فيها وحشًا وكنت مصابًا، ربَّما كنت خائفًا وأتخبط في حيرتي ومأخوذًا بدهشتي محاولًا أن أستوعب الموقف لكنني طرحته أرضًا! أمَّا الآن وقد جمعت شتات نفسي وأدركت الوضع الذي عِلقت به، فبكل تأكيد يمكنني مواجهة أمثاله والصمود أمامهم، سأهزمهم بإذن الله، فقط عليَّ أن أهدأ.

لم أجد ما أتوضَّأ به فتيمَّمت ووقفت أُصلِّي فتزاحم أبناء السنُّور حول القفص ليُراقبوني فلم ألتفت لهم، كنت أخشى أن يخونني قلبي ويسيطر الخوف عليَّ بوجه جديد لم ألتقِه من قبل فيُكسر أنفي أو أموت، سجدتُ فسجد قلبي وخشعت جوارحي فلجأت لله ليقوِّيني ويثبتني في معاركي القادمة، قُمت من صلاتي وكأنَّ الماء البارد قد صُبَّ فوق رأسي، كنت هادئًا مطمئنًا وقد سكن ارتجاف أحشائي. لزمت الذِّكر الذي كان دائمًا ينير ظلماتي: «لا إله إلَّا أنت سبحانك إنِّي كُنت من الظَّالمين».

***

في ساحة واسعة، ومن حولنا الشُّعل تُلقي بأضوائها المتراقصة على وجوه أبناء السِّنُّور وهم يهتفون لزعيمهم، بدأت أولى جولات المُصارعة مع أحد أبناء

السِّنُّور، خلعت قميصي وحذائي وجوربي وشمَّرت عن ساقيَّ وتأهَّبت للقتال، تقدم خصمي الأول واشتبكنا وسرعان ما كورت قبضتي ووجهتها بقوة نحو فكه فكسرته فسقط على إثرها، شعرت حينها بجرعة من الأدرينالين تتدفق في عروقي، لم أشعر بهذا الحماس منذ زمن!

تقدم الثاني نحوي وهو يزمجر غضبًا، كان طويل القامة أضخم مني، اشتبكنا وكانت ضرباته عنيفة لكنها عشوائية، أصابني ببعضها وأصاب الهواء بمعظمها، وجهت له لكمات سريعة لكنها لم تؤثر به وبدأت يداي تؤلمانني فقد كان جسمه صلبًا وكأن جلده درعٌ منيع، التففت حوله بسرعةٍ فجائية ووجهت ضربة قوية بساقي اليمنى استهدفت بها مأبض ركبته اليسرى، فانثنى جسده وانحنى قليلًا، فصار رأسه في المتناول، ولم أضيع هذه الفرصة، ثنيت ذراعي اليمنى ووجهت بمرفقي ضربة سريعة نحو مؤخرة رأسه أصابته بدوار سقط بعده على الأرض فأجهزت عليه، كنت أستغل معرفتي بنقاط ضعف الجسم وأركز على إصابتهم فيها، فهم يقاتلون مندفعين اعتمادًا على أنيابهم لا أكثر..

في الجولتين السابقتين وعندما كنت أطرح خصمي أرضًا كانوا يصيحون: «اقتله، اقتله»، لكنَّني لم أفعل، وكانوا يجرُّونه خارج دائرة القتال وهم يتعجَّبون، لم يصمد الثَّالث أمامي وخرج بسهولة فقد استهدفت عينيه مباشرة فما عاد يراني بوضوح واحتاج إلى المساعدة، وأقبل الرَّابع من «أولاد الرَّقشاء» وكان منيعًا عصيًّا لكنَّني استطعت أن أتفادى نابه المسموم، وتمكَّنت من عصر عنقه بذراعي وكنت أُجيد هذه الحركة، وعندما فقد الوعي ظنُّوا أنَّه لقي حتفه وكادوا ينقضُّون عليَّ لكنَّ الحرس منعوهم بأمر «الوَشق»، أسرعتُ أُنعشه وأحاول إفاقته وعندما استردَّ وعيه تراجعت إلى الخلف، وتأهَّبت لمصارعته من جديد لكنَّه طالعني بعينين محتقنتين وخرج من السَّاحة وهم يشيِّعونه بأعين عامرة بخيبة الأمل. أدركتُ أنَّه مقاتل ذو شهرة بينهم ولم يتوقَّعوا أن يُهزم أمامي. كان «الوَشق» يُراقب كُلَّ هذا في صمت، وأخيرًا أشار لهم فأوقفوا الجولات واكتفوا بتلك الأربع، وطلب من الجند إحضاري لقصره.

***

سرنا في ممرَّات يحفُّها من الجانبين أشجار قصيرة خضراء نحو قصر «الوَشق» ذي القباب الذَّهبيَّة حيث تُحيط به أشجار القيقب من كلِّ الجهات، وفُتِّحت لي أبوابه المزيَّنة بالنحاس المطروق واستقبلني الحرَّاس بتحفُّظ شديد، كان هناك شيء غريب يسكن أعينهم حاولت أن أفكَّ شفرته، ربَّما هو مزيج من الإعجاب بقوَّتي والغضب لبني جنسهم لأنني تفوَّقت عليهم ولم أخف منهم، لمست هذا في توقير بعضهم لي وهم يُدخلونني القصر، وصلنا إلى بهو عظيم في صدره عرش «الوَشق» المطليُّ بالذَّهب، جلسنا ننتظر حضوره وكنت متعبًا للغاية وكلُّ عضلات جسدي تؤلمني، عندما وصل تقدَّم نحو عرشه بخيلاء وكان عليه رداء مخمليٌّ فاخر، وحينما استدار انحنوا له جميعًا ولم أفعل، زمجر عندما لاحظ هذا لكنَّه لم يُعلِّق بكلمة، وانشغل بضبط تاجه على رأسه، أشار لي لأقترب ففعلت، دعاني للجلوس فتعجَّبت، سألني دون مقدِّمات: «لماذا لم تقتل أيًّا من أبناء السِّنُّور الَّذين صارعوك؟».

- وما حاجتي لقتلهم! يكفي أنَّني هزمتهم.
- لكنَّك كُنت تقدر!
- أعلم، لكنَّني أكره إزهاق الأرواح.

شعرت أنَّه كضابط يُحقق معي، انهال عليَّ بالكثير من الأسئلة، وكُنت أجيبها لأُرضي فضوله، تغيَّرت نبرة صوته فجأة وكرر أكثر من مرَّة أنَّ دماء أبناء السِّنُّور غالية، وكما أنَّ سفكها يعني الكثير، فالحرص على عدم إراقتها يعني الكثير أيضًا، فأدركتُ أنَّه يُقدِّر كثيرًا أنَّني لم أقتل أبناء السِّنُّور الذين صارعتهم، طالعني بنظرة شملتني من أعلاي إلى أسفلي وسألني: «كم عُمرك؟».

- خمسة وعشرون عامًا.
- أين تعلَّمت المُصارعة وفنون القتال؟
- في موطني، كان أبي حريصًا على هذا.

أومأ برأسه لأحدهم فأحضر له كتابي الَّذي سلبوني إيَّاه في القفص، فتحه وأخذ يتأمَّله وسألني: «أهذا الكتاب لك؟».

- نعم هو كتابي.

- ما عنوانه؟

- «أبادول»؟

- وماذا تعني؟

- لا أدري.

هزَّ كتفيه وقال باستنكار: «كيف هذا؟ ولماذا هو خالٍ من الكلمات؟ صفحاته بيضاء ولا أثر للكتابة فيها».

- لهذا أنا هنا يا «جلالة الملك».

راقه أنني خاطبته باحترام فلان صوته وهو يسألني: «لماذا أنت هنا؟».

- لكي أستردَّ كلماته.

- يقولون إنَّكم تفدون لممالكنا استجابة لنداء هذه الكُتب، فهل هذا صحيح؟

- نعم.

- كيف وهي جماد لا روح فيها ولا نَفس؟

- الكُتب هنا حيَّة وتتنفَّس وتتحدث إلينا.

فغر فاه ثُم سألني باندهاش: «وكيف تُدرك هذا؟ هل رأيتها بعينك؟».

- تشكَّلت أمامي حروفها في هيئة إنسان وحدَّثتني.. لقد سمعت صوتها.

- أنت مجنون!

- هذا ما يظنُّه البعض، لكنَّ من رأوها مثلي يصدِّقونني.

- هل عليكم كتابة كلماتها؟

- هي مكتوبة بالفعل لكنَّها تأبى الظُّهور.

- أتمزح؟ كيف هذا؟

- هناك من زيَّفها وبدَّلها لهذا اختفت، وفي الحقيقة ما زلت أخوض تجربتي الأولى هنا مع كتابي هذا.

- إذن أنت لا تدري كيف ستستردها؟

- حتَّى الآن... لا!

وقف واقترب منِّي وكانت عيناه عامرتين بالفضول وهو يقول: «أُريد أن أرى تلك الكتب الحيَّة بعيني».

- عليك أن تؤمن بما فيها لكي تظهر لك.

- حسنًا.. خذ كتابك واقرأ لي منه شيئًا لكي أومن به وأصدِّقه فيظهر لي!

بدأ يضحك وكان الحضور يُشاركونه الضَّحك بطريقة آليَّة، انتظرت حتَّى انتهوا وقُلت: «هل تسمح لي بسؤال؟».

- لا.. فأنت هنا لتُجيب عن أسئلتي فقط.

دَنا منِّي وسألني: «لماذا دماؤك حمراء؟».

- لأنَّ دماءك سوداء!

- هذه ليست إجابة.

- خُلقت هكذا كما خُلقت أنت هكذا، نحن نختلف عن بعضنا بعضًا، وهذه حكمة لا يعلمها إلَّا الله وحده.

- ماذا! أتؤمن بالله؟

- الحمد لله.

- يقولون إنَّ رجلًا خرج من مملكة مجاورة لنا ورحل إلى بقعة أخرى، وعندما عاد إلى موطنه بدأ يحكي عن نبيٍّ يُدعى «موسى» يدعو النَّاس لعبادة الله.

- «موسى» -عليه السَّلام- من أنبياء الله، وهم كثيرون. أخبرني بماذا تؤمن أنت؟

التفت غاضبًا وقال: «قُلت لك أنت هنا لتُجيب عن أسئلتي فقط».

لزمت الصَّمت فقال وهو يُشير إلى نفسه: «أومن بنفسي، وبقوَّتي، وبمُلكي ونفوذي».

- لم يدُم هذا لأبيك، ألا يقولون إنَّه مريض؟

- بلى.

- كلُّ ما تؤمن به بائد، لن تغلب الزَّمن، فالعمر يجري ويأكل كلَّ شيء في طريقه حتَّى عظامنا تتفتت وتتآكل.

ران علينا صمت ثقيل وكان واجمًا، سألني وهو يُحدِّجني بنظراته: «ما الَّذي يدعوك لتحمُّل المخاطر من أجل كتاب؟».

- الكتاب ثروة، علم يُجمع بين دفتيه ليعيش قرونًا عديدة، وهو مهمٌّ لي ولغيري.

- ليس عليك فعل هذا!

- أحيانًا نجد أنفسنا على طريق لم نختره، حينها ينبغي لنا فعل ما نقدر عليه لتتمَّ الأمور العالقة.

- ليس من الضروري أن يتمَّ كلُّ شيء، ومهما فعلت ستظلُّ بعض الأمور عالقة للأبد، فما الَّذي يدفعك لهذا؟ هل هناك جائزة كُبرى؟

- كنت غاضبًا في البداية، لكنَّني الآن أومن أنَّ عليَّ أن أفعل الخير وإن كُنت أرى أنَّني لن أنتفع بأثره، ولن أنال الثناء عليه، فالصالحون يفعلون الخير لغيرهم ولا يلتفتون، أنثر الحبوب ولا أنظر إلى الخلف، لعلَّها تُنبت أشجارًا لغيري وينتفعون من ثمارها، ولديَّ يقين أنَّني هنا لسبب ما.

- اليقين! ماذا يعني اليقين لك؟

- الأمل أنَّ ما أرجوه سوف يكون لأنَّني سأؤدي ما عليَّ، وأُسلِّم مقاديره لله.

أخذ يُحدِّق إلى وجهي بعينيه النَّافذتين فأضفت وأنا أنظر إليه بثقة: «لديَّ يقين أنَّني سأخرج من هنا حيًّا، وأنَّني سأؤدي مهمَّتي بنجاح، وأنَّني سأعود سالمًا إلى وطني!».

- لو أعطيتك الأمان لتخرج وتُتمَّ مهمَّتك، هل تعدني بالعودة بعد استرداد كلمات كتابك لتقرأه عليَّ؟

- وإن لم يرضِك ما فيه؟

- لن أقتلك، ولن أسمح لأحد بالنيل منك.

ثُمَّ فرك ذقنه قائلًا: «أُريد رؤية هذا الكتاب كاملًا، فأنا أسمع عن الوافدين منذ فترة طويلة ولم ألتقِ أحدًا منهم من قبل، ولم أر كتبهم قطُّ».

- لو توقَّفتم عن قتل كلٍّ من يمر بغابتكم لالتقيتموهم.

- نحن نحمي أنفسنا من الأعداء.

- ليس كلُّ من يمرُّ بغابتكم أعداء، أنتم تعيشون وحدكم بعزلة عن العالم.

- لماذا يرغب الوافدون دائمًا في زيارة الشَّاطئ الأسود؟

- ربَّما يوجد شيء يعنيهم هناك.

- هناك سرٌّ.. وأرغب في معرفته.

- ربَّما هناك سرٌّ بالفعل، ما زلت في بداية رحلتي فكتابي لم يُظهر حرفًا حتَّى الآن، ولعلِّي أزوره معك عندما أعود إليك بكتابي.

- سأنتظر منك أن تُخبرني بهذا السرِّ.

- سأُحاول.

- حسنًا.. سأتركك ترحل بسلام، فهل تعدني بالعودة؟

- أعدُك.

- قبل أن تنصرف، لتعلم أنَّنا نعتزُّ بمن يُقدِّر دماء أبناء السِّنُّور، لهذا سأمنحك شرف الحصول على رحيق الأشجار المباركة، وهذه أغلى هديَّة يقدِّمها ملوكنا للزائرين.

خرجنا معًا من القصر وسرنا في البساتين حوله والحرس يحيطون بنا، مررنا بين أشجار التَّنُّوب البديعة حتَّى وصلنا إلى صفٍّ طويل من أشجار الصنوبر العملاقة، كانت جذوعها سوداء وطويلة جدًّا، كانت أكثر عرضًا

وسُمكًا من أيِّ شجر رأيته في حياتي، أعطاني وعاء من الفخَّار وقال لي: «اجمع الرَّحيق المبارك بنفسك».

- كيف؟

- امسح على جذع الشَّجرة وستفيض بالقليل من رحيقها.

- لكنَّ الوعاء صغير جدًّا!

ضحكوا جميعًا، وأعطوني وعاء كبيرًا ووقفوا يُراقبونني وهم يتهامسون ويسخرون منِّي، مسحتُ على جذع الشَّجرة فسال راتنج أسود منها فألصقتُ الوعاء بها وظلَّ يسيل حتَّى غمر ملابسي وأغرق الأرض وسال تحت أقدامي فوقفوا يتعجَّبون، امتلأ الوعاء فتراجعت للخلف فتوقَّف نزف الشَّجرة، لم أدرِ ما فائدة هذا السَّائل الأسود، لكنَّني أبديت تقديري لهديَّة «الوَشق»، أعاروني ثيابًا جديدة وخيَّروني بين الجلد والكتَّان فاخترت الأخير، وكانوا معجبين بحذائي فتركته لهم وانتعلت حذاء قويًّا من صنعهم أعجبني أكثر. أخبرتهم أنَّني لا أستطيع حمل كلِّ هذا السَّائل فسكبوا لي قدرًا معقولًا في قارورتين حملتهما في حقيبة من القماش أهدتها لي «الخيفاء» وكانت قد أتت مع «المارج» ليودِّعاني، ووضعت كتابي أيضًا في الحقيبة بعد أن تفحَّصته ولم أجد حرفًا واحدًا قد ظهر فيه، وردُّوا لي خريطة «الشَّريف الإدريسيِّ» والأحجار الزَّرقاء وأخبروني أنَّ تلك الأحجار المنطفئة لا قيمة لها فابتسمت.

خرجت من الغابة بعد أن حييت «الوَشق» الَّذي أمر حرَّاسه أن يرافقوني إلى نهاية الغابة بشكلٍ شرفيٍّ، كُنت أسير مع الحرس وأعين «أبناء السِّنُّور» الَّذين التقيتُهم في المكتبة السرِّيَّة تشيِّعني بإعجاب، ليس لتقديرهم للعلم والكتب وحسب، بل لأنَّ زعيمهم منحني رحيق الشَّجرة السَّوداء الَّتي يرونها شجرة مباركة، فهم يعتقدون أنَّ هذا السَّائل لا يُقدَّر بثمن، ولأنَّهم لم يتوقعوا أن يبدي زعيمهم ولو ذرَّة اهتمام بكتاب واحد، والآن ها هو ينتظر عودة «توفيق» بعد أن يستردَّ كلماته ليقرأه عليه! وفوق هذا ودَّعه بشكلٍ لائق!

عندما وصلنا إلى طرف الغابة تركتُ الحرَّاس وبدأت أسير مُبتعدًا ومعي حقيبتي وبها كتابي وخريطة «الشَّريف الإدريسيِّ» والأحجار الزَّرقاء، وأنا لا أُصدِّق أنَّني ما زلت على قيد الحياة، لقد أنقذني الله للمرة الثَّانية!

***

أقبل «الرَّماديُّ» فور أن ابتعدت عن غابة «السِّنُّور» وكأنَّه كان ينتظر أن أخطو بقدمي فوق الصُّخور البيضاء المُحيطة بها، عندما استقرَّ على الأرض أمامي سألته: «كيف علمت بخروجي من الغابة؟».

- سأُخبرك لاحقًا.. المهمُّ، علينا أن نُسرع بنقل راتنج الشَّجرة السَّوداء.
- وكيف علمت بأمره؟
- صدِّقني سأُخبرك بكلِّ شيء، فقط لنُحاول إنقاذ «أمان»، فقد عضَّه الحارس الَّذي كان قد طعنه بسيفه في ساعده عندما اقترب ليتيقَّن من موته، فطعنه «أمان» طعنة أخرى قضت عليه، وأسرع بالخروج ليُبلغ السيِّد «سفيان» والبقيَّة لينقذوك، لكنَّه فقد وعيه وسقط عن الجواد بعد أن خرج من حدود الغابة فحمله رفاقه، وللأسف لم نجد ترياقًا ولم يُفلح الدَّواء الَّذي حاول المعالجون صُنعه في علاجه، وجرحه شديد والحمَّى تكاد تفتك به.
- احملني إليه.

حلَّقنا في الحال ونقلني «الرَّماديُّ» إلى بُستان به العديد من الأكواخ المتجاورة، حيث تنتشر الخيول والبعض من الرِّجال الأشدَّاء يجلسون هنا وهناك، بينما انزوى في أحد الأركان حدَّاد عظيم العضلات يقف أمام الكِير ويطرق الحديد المتوهِّج والعرق يتصبب من جبينه، بنظرة سريعة أدركت أنَّه يصنع السُّيوف لهم. في أحد الأكواخ كان «أمان» مُمددًا على الأرض، والسيِّد «سُفيان» يجلس بجواره في هدوء ويمسح رأسه ووجهه بالماء، وهناك شابٌّ آخر يقطر شيئًا بحذرٍ في فمه، وكُنت أدرك الألم الَّذي يُسببه سريان سمِّ النَّاب في البدن، حييتهما واقتربت منه وقُلت وأنا أحل رباط جرح ساعده المصاب: «لا بأس عليك يا صديقي».

- سامحني، لم أتخلَّ عنك ولم أُغادر إلَّا لطلب العون.
- لا عليك، سأقطر الآن في جرحك راتنج الشَّجرة السَّوداء.

تهلل وجه الشَّاب الَّذي كان بجواره وقال: «الحمد لله! لقد جفَّت الأشجار السَّوداء بالغابة القريبة، وبحثت عن تلك الأشجار في أكثر من غابة أخرى لأصنع ترياقًا لكنَّني لم أعثر عليها».

أدركت أنَّه طبيبهم، فأومأت له وأنا أفتح الزجاجة الصَّغيرة الَّتي معي، سقينا «أمان» بعضًا من الرَّاتنج بعد إضافة شيء آخر أحضره الطبيب، وبدأتُ أقطر في جرحه منه فقال وهو يكزُّ على أسنانه: «إنَّه يُحرقني».

- أدري، لكنَّه سيُساعدك.

سألني «أمان» بصوت واهن: «كيف نجوت من «أبناء السِّنُّور»؟».

- أنقذني الله وحده.
- هل التقيت أحدًا من أصدقائنا؟
- نعم، التقيت «المارج» و«الخيفاء» وآخرين.

فتح عينيه ليرى وجهي وقال بخفوت: «بعد أن انتهيت من أمر الحارس بحثتُ عنك وإذا بك أسفل التلَّة وكنت تتراجع للخلف، رأيت دماءك وهي تسيل من جرح يدك».

- حينها فقدتُ وعيي.
- كدت أقفز لأُساعدك لكنَّني سمعتُ الثَّلاثة يقولون إنَّ «الوشق» طلب منهم عدم قتل الوافدين كما كانوا يفعلون من قبل لأنَّه يرغب في رؤيتهم بنفسه، فقررتُ الخروج سريعًا لإحضار العون قبل أن يحملوك إليه، لكنَّني فقدتُ الوعي.
- عندما تتعافى سأروي لك ما مررت به بالتَّفصيل، المهم أن تتعافى من أثر هذا السُّم.
- ليست المرَّة الأولى، أصابني أحد «أولاد الرَّقشاء» من قبل لكنَّني كُنت أحمل ترياقًا وتناولته، أمَّا هذه المرَّة فلم يتوفَّر لدينا ترياق.

قاطعنا السيِّد «سُفيان» وقال بصوته العميق: «رفض بقيَّة الفرسان الدُّخول معك لغابة السِّنُّور دون حمل التِّرياق ليحموا أنفسهم من سمٍّ ناب «أولاد الرَّقشاء»، لكنَّ «أمان» الوحيد الَّذي تطوَّع أن يحملك للشَّاطئ الأسود وكان متحمِّسًا لمساعدتك».

رنوت إلى وجه «أمان» فالتقت نظراتنا وكنت ممتنًّا له، فقد ألقى بنفسه في أتون غابة يملؤها الوحوش ليُساعدني.

أعاد الشَّاب تضميد جُرح «أمان»، وظلَّ السيِّد «سُفيان» يسكب الماء على رأسه، كان يعامله بحنان أبويٍّ ويرفق به حتَّى إنَّه أطعمه حساء أعده له بنفسه، انخفضت حرارة «أمان» بعد نحو ساعة وهدأت أنفاسه ونام فخرجنا من الكوخ وظلَّ الطَّبيب معه، قال السيِّد «سُفيان» وهو يُربِّت على كتفي: «يبدو أنَّ ولوجك للغابة أتى بثماره، هذا الرَّاتنج ثمين للغاية فانتبه له».

- أخبرني «الوَشق» أنَّها هديَّة ملوكهم للزائرين.
- هذا احتفاء وتكريم عظيم لك.

تذكَّرت شيئًا فسألته: «أخبرني يا عمَّاه.. كيف يفهمون عربيَّتي ولغتهم تُكتَب بحروف غريبة؟».

- ذاك من أسرار مملكة البلاغة، ستختلط بأجناس عديدة من الإنس والجنِّ وسيفهمونك ولن تحتاج إلى ترجمة!
- كيف؟
- ما زلت أبحث عن إجابة.
- وكأننا نتخاطب بالتردد نفسه مهما اختلفت حروفنا! تناغم من نوع غامض!
- لا تنخرط بتفكيرك في متاهات حلزونيَّة فعقلك لن يحتمل.

كان «الرَّمادي» يُحلِّق فوقنا ويعود ليقبع بيننا في سكون، سألته عندما اقترب: «كيف علمت بما حدث لي مع «الوشق»؟».

التفت نحوه السيِّد «سُفيان» وقال له: «عليكما الرَّحيل في أسرع وقت».

قُلت متحسِّرًا: «لماذا؟».

- أنسيت أنَّ هناك من عليك مُساعدته؟

- وددتُ لو بقيت لوقت أطول معكم، فقد شعرت بالأمان بينكم.

- هل ظهر شيء في كتابك؟

- لا.. أتفحَّصه من آن لآخر، ولم يظهر فيه حرف واحد.

- لهذا عليك أن تبدأ التجوال.

ثُمَّ قال وهو يُبدي شيئًا من التَّعاطف معي: «لا ريب أنَّ ما مررت به في غابة «السِّنُّور» أتعب روحك، ولكنَّني أتعجَّل رحيلك لمصلحتك يا بنيَّ، فأنت لم تحصل على سلاحك حتَّى الآن».

- فليكن سيفًا من تلك السُّيوف.

ابتسم السيِّد «سُفيان» وقال: «تلك السُّيوف ليست لنا، بل لهم».

وأشار إلى الفرسان المتفرِّقين بالبستان، سألته والفضول يلعب برأسي: «لماذا؟».

- الأرض هنا لها خبايا وكنوز وستمنحك شيئًا فريدًا.. صدِّقني.

ظلَّ السيِّد «سُفيان» يتعجَّل رحيلنا لمدينة «الرَّباب» على الرغم من عدم ظهورها على خريطة «الشَّريف الإدريسيِّ» بعد خروجي من «غابة السِّنُّور»، فقد كان الوميض يوجِّهني شمالًا، بيد أنَّ «الرَّمادي» ظهر حينها، لم يسمح لي السيِّد «سُفيان» بالعودة إلى السلام على «أمان»، حرَّك «الرَّماديُّ» جناحيه ووثب فوق رأسي وحلَّقنا مبتعدين.

بيت العائلة

«الفيوم»

استوقفت «حبيبة» أخاها «أنس» وقالت: «أعجبتني «الخيفاء»! ذكيَّة وشجاعة وتهتمُّ بالعلم، هكذا يجب أن تكون الفتيات».

قال «سليمان» سائلًا «أنس»: «غريب أمر راتنج الأشجار الأسود! يُشبه دماءهم، ويشفي جراحهم، ويستخدمونه في الكتابة! وكأنَّ الأشجار حيَّة مثلهم، وتنزف مثلهم! أظنُّني رأيت قارورة منه بالمكتبة، هل يجب علينا أن ندرس تركيبه؟».

- الأفضل ألَّا تفعل يا «سُليمان» فقد تُسأل عن مصدره، كما أنَّه لن يفيد إلَّا سكان مملكة البلاغة.

رمش «سليمان» بعينيه وهو يسأله: «لماذا أهداه «الوشق» إلى «أبادول» يا خالي؟».

- هذا تكريم وتشريف له، فهو أكثر ما يملكونه تقديسًا في غابتهم، فقد أُعجب «الوشق» بشخصيَّة «أبادول»، وفُتن ببأسه وشجاعته، وراقه أنَّه لا يُحبُّ القتل وسفك الدِّماء على الرغم من تلك القوَّة، وكان يكره أن يصفه الغرباء بالجهل وقد شاع هذا عنه بالفعل في أرجاء مملكة البلاغة، أمَّا «أبادول» فقد عامله باحترام وتوقير وأعطاه هيبته.

كان «يوسف» شاردًا، قال وعيناه عامرتان بالفضول: «أين خريطة «الشريف الإدريسيِّ»؟».

رفع «أنس» حاجبيه وقال: «موجودة بالمكتبة، انتظر حتَّى أخبرك كيف أرشدت تلك الخريطة «أبادول» لطريقه، فالرِّحلة الحقيقيَّة لم تبدأ بعد».

عاد «أنس» يُكمل حديثه، وبدأ من تلك اللحظة يُخفي عنهم بعض الأشياء! ويتحايل حفاظًا على القَسم الذي ردده وألزم نفسه به.

٦

مدينة الرَّباب

«توفيق»

كان ضوء الشَّمس ناعمًا وحانيًا والدفء يملأ الأجواء. استمرَّ «الرَّماديُّ» ضاربًا بجناحيه نحو سلسلة من الجبال الشَّاهقة، بدأ يُسرع في الطَّيران حتَّى شعرت أنَّنا سنصطدم بقمم تلك الجبال، التي بدت مهيبة وساحرة والرَّباب الأبيض يحيط بها من كلِّ صوب. عبرنا سلسلة الجبال وابتعدنا عن حلقات الرَّباب فخفَّض «الرَّمادي» ارتفاع تحليقه، واحتوانا الضَّباب في أكنافه حتَّى ظننت أنَّنا غطسنا في بحر من حليب! شعرت بـ «الرَّماديِّ» يهبط برويَّة وهدوء، وعندما ثبتُّ قدميَّ على الأرض ورفعت رأسي كان الضَّباب قد تلاشى، وقف «الرَّماديُّ» أمامي وضمَّ جناحيه إلى جسمه وكأنَّه يُلملم عباءة يرتديها، عندما تلاقت نظراتنا ارتجفت صورته أمامي، وإذا به في غمضة عين يتحوَّل إلى شاب مليح الوجه يُطالعني بعينين نابهتين لهما بريق أخَّاذ ويقف أمامي بثبات، أجفلتُ وسألته بخفوت: «من أنت؟».

- أنا «الرَّماديُّ»!

تخشَّب لساني في فمي وأنا أتأمَّله، وجه مستدير وعينان واسعتان لهما بؤبؤان رماديَّان وأنف رفيع وشفتان دقيقتان باهتتان وشعر غزير ناعم كالحرير له غرَّة طويلة تنسدل على جبينه الناصع، وكان الجرح الَّذي أُصيب به واضحًا للغاية، بينما شعره يموج مع الرِّياح، بدت بشرته الباهتة وكأنَّ مسحوقًا لؤلؤيًّا نُثر فوقها، رأيت الريش يغطِّي نصف جسده الأسفل وكأنَّه يرتدي سروالًا من الرِّيش الرَّماديِّ الأردوازيِّ[1] يُماثل تمامًا لون ريش الصَّقر الَّذي كان يحملني! أردت أن أسمع صوته مرَّة أُخرى لأتأكَّد فسألته: «أحقًّا أنت الرَّماديُّ؟».

- نعم هو أنا، ما بك يا «توفيق»؟

- تتحوَّل إلى صقر!

- ما الغريب في هذا؟

خرج من فمه الصَّوت نفسه بالنَّبرة نفسها، لاحظ ارتباكي وذهولي فاقترب منِّي وقال وهو يُمدُّ يده: «مرحبًا بك في «مدينة الرَّباب»».

صافحته وكان هناك زغبٌ صغير على ظهر يده، أدركت أنَّ الرِّيش يبرز من جلده، بيد أنَّ صدره كان خاليًا من الرِّيش! وقفتُ مدهوشًا وأنا لا أُصدِّق أنَّني أتحدَّث إلى الصَّقر الَّذي كان يحملني منذ قليل! قال ليزيل سحابات الهواجس الَّتي كانت تُحلِّق فوق رأسي: «أعلم أنَّك تتخبَّط في حيرة».

- وأيُّ حيرة!

- تتناطح في رأسك الكثير من الأسئلة.

- وأُريد إجابات تروي ظمأ خواطري.

- هكذا كُنت مثلك في البداية عندما تحدَّثت إليَّ الكتب لأوَّل مرَّة.

حاولتُ أن أستردَّ رباطة جأشي وسألته: «كيف تحدَّثت إليك الكُتب؟».

تلفَّت مُراقبًا الأجواء في دأب فلكيٍّ ثُمَّ طلب منِّي أن أسير معه ودلفنا غابة كثيفة الأشجار، قال وهو يُمسك بذراعي: «ذهبت لأستعير كتبًا من خزانة الكتب

---

(1) منسوب إلى صخر الأردواز ولونه رماديٌّ داكن.

بمدينتنا، فوجدت أوراقًا قديمة مخيطة على شكل كتاب بها بعض القصص الغريبة وكُنت قد سمعتها من أبي بشكلٍ آخر وأحداث مختلفة! وكان مضمون تلك الأوراق على عكس ما سمعته، فالحقائق مقلوبة كأنَّ عقلًا شيطانيًّا قد كتبها، فبدأت حينها أُحدِّث نفسي أنَّ هذا هراء وكذب وغير معقول حتَّى ارتفع صوتي، فإذا بالحروف تختفي تباعًا من بين يديَّ، والأوراق تخلو من الكلمات، وفجأة! انبثقت الحروف من حيث لا أدري وصارت تتلاعب في الهواء وتتشكَّل في هيئة إنسان وتتحدَّث معي، طلب منِّي الصوت الصَّادر منها أن أُساعده على استرداد كلماته الحقيقيَّة، وتكرر الأمر بوجود الأوراق أو دون وجودها، كُنت خائفًا في البداية لكنَّني اعتدت ظهورها، أخبرت أبي فطلب منِّي أن أُخفي الأمر، ثُمَّ أخبرني عن الكتب وكيف التقى السيِّد «سُفيان»، ثُمَّ تجوَّلنا في القرى القريبة ورحلنا من بقعة لأُخرى، والتقينا آخرين من المجنَّحين مثلنا».

- «المجنَّحون»؟
- نعم.. عشيرتنا.
- هل تتحولون إلى صقور فقط؟
- بل إلى كلِّ أنواع الطُّيور، ونستطيع التحليق والطَّيران كما رأيتني.
- عائلتك إذن تتحوَّل بأكملها إلى صقور.
- لا.
- كيف هذا؟
- أنا وأبي نتحوَّل إلى صقور ونحن أكثر أفراد العائلة نشاطًا وترحالًا، أمِّي تتحوَّل إلى هدهد وتملك من الذَّكاء والدَّهاء ما يُدهشك، أختي الصُّغرى تتحوَّل إلى نورس وهي حالمة والعاطفة تغلب عليها، دائمًا تُحلِّق وقت الغروب على الشَّواطئ، ولي شقيقان أحدهما يتحوَّل إلى البوم وهو من أذكى أهل المدينة ويُدرِّس الرياضيَّات بمدرسة مدينتنا، أمَّا أخي «برهان» فيتحوَّل إلى هدهد كأمِّي وهو حكيم مثلها ويعمل في ساحة القضاء، سيروقك كثيرًا فهو مميَّز ورائع، وفي عائلتنا الكثير من

البطاريق الكسالى أكره زيارتهم لنا، وهؤلاء لا يُغادرون المدينة فهم يعجزون عن التحليق كما تعرف.

ابتسم فبدت أسنانه كاللؤلؤ المصفوف فأضفتْ على مُحيَّاه المزيد من الوسامة، أردف قائلًا وهو يغضِّن جبينه: «أمَّا الغربان فهم أسوأ من بالمدينة، لهم أقبح نفوس وأقذر خبايا، قاطعهم الشَّعب في التِّجارة والمعاملات وحتَّى الزَّواج، يقيمون خارج الحدود بعد حاجز الرَّباب والضَّباب في قلاع مُظلمة كظلمة قلوبهم، وكلَّما نكتشف واحدًا منهم نُخرجه من بيننا، وما يُحزنني أنَّهم كثيرون».

- يبدو أنَّ تلك الطُّيور هي انعكاس لما تنطوي عليه سريرتكم، أو تعبِّر عن طبيعة شخصيَّاتكم بشكل ما.
- صحيح.. وأنت هنا ستلمس هذا بنفسك.

أشرت إلى جبينه وسألته: «هل الجرح يؤلمك؟».

- قليلًا، لكنَّني اعتدت تلك الجروح، الغربان تلاحقني باستمرار.
- هل كانت الرُّؤى الَّتي أراها بعينيك؟
- نعم.. فبيننا انسجام وتواصل وترابط بطريقة ما يا «توفيق».
- كيف هذا؟
- منذ دخولك البيت سمعت صوت دقَّات قلبك، بعدها سمعت صوت أنفاسك، وحتَّى صوتك وأنت تُحدِّث نفسك، وعندما كنت تُثرثر مع أحدهم منذ دخولك إلى هذا البيت، فتلك البيوت بوابات لعالمنا.
- بوابات!
- ولا تسألني كيف.
- عجيب!

كان «الرَّماديُّ» واسع الخطوات مثلي، تأملت قدميه الحافيتين وكيف يسير بخفَّة بجواري، وصلنا إلى وادٍ سحيقٍ يفصل بين الغابة الَّتي خرجنا منها للتوِّ وغابة أخرى، التفت نحوي قائلًا بعفويَّة شديدة: «بشكل ما شعرت

أنَّك صديقي المقرَّب، نحن من المرحلة العمريَّة نفسها يا «توفيق»، فأنا أيضًا في الخامسة والعشرين من عُمري، وهذا لم يحدث مع أحد من قبل، لهذا أحببت أن أنفرد بك وتراني على هيئتي تلك وتألفني لنكون أصدقاء، وذلك قبل أن تلتقي أبي، وأرجو أن يكون هذا السِّر بيننا».

تأمَّلت وجهه وكان محيَّاه يبعث الاطمئنان في القلب، ران علينا صمت خفيف قطعه بلطف وهو يقول: «دقَّات قلبك متسارعة، اطمئنَّ يا صديقي».

أدركت أنَّه يشعر بي بالفعل، سألته وكنت في حالة من الرَّفض، فقد اقتُحِم رأسي وليس بيتي فقط والآن أنا مكشوف أمام شخصٍ آخر، سألته بريبة: «هل تقرأ أفكاري؟».

- أمَّا هذا فلا، فقط أسمع أنفاسك وكلامك وحتَّى همسك بصوتٍ خفيض، ودقَّات قلبك، وقد أُريك ما أراه بعيني كتلك الرؤى وحاولت أن أرى بعينيك ففشلت.

كان هذا بمنزلة صدمة لي، فالمفاجآت تتوالى كالبروق على رأسي حتَّى شعرت بثقل جمجمتي، سألته بينما عيناي لم تتوقفا عن مراقبة كلِّ شيء: «أين سنذهب الآن؟».

- سنعبر هذا الوادي للقاء أبي، أراد أن تراه في هيئته البشريَّة، فنحن لا نستطيع الخروج من نطاق «مدينة الرَّباب» أبدًا على هيئاتنا تلك.
- لماذا لا تستطيعون الخروج منها في صورة البشر؟
- الضَّباب الأبيض يحول بيننا وبين باقي أجزاء المملكة ومن فيها منذ اقتحام حفنة من السَّحرة لأرضنا، ولو حاول أحدنا الخروج سيرًا يضلُّ في كنف الضَّباب الَّذي يحجب كلَّ شيء عنَّا، ولا يعود ذلك الشَّخص حيًّا، ونعثر على جثَّته بعد أيَّام على الحدود، فالأرض تزحف وتلقي بجثَّته لنا.
- غريب! هل قُلت إنَّ الأرض تزحف؟
- وتنطوي، وتتباعد، وتنشق فتفصل بعض البقاع عن الأخرى.

- يبدو أنَّ «مملكة البلاغة» تحوي الكثير من الأعاجيب.
- نستطيع الخروج من هنا فقط في هيئة صقور وغيرها من الطُّيور كما أخبرتك، نُحلِّق عاليًا ونتخطَّى هذا الغلاف الكثيف، لو كنت أستطيع خوض الرِّحلة لاسترداد كلمات الكتب لفعلت، لكنَّ الأمر كان عصيًّا عليَّ وعلى أبي وعلى من سبقونا وخصيصى ونحن هناك في الجهة الأُخرى، لأنَّنا نظهر في صورة طيور ونعيش معيشتها حتَّى نعود، لهذا لا نستطيع أداء تلك المهام، وبالمناسبة لا يعرف البعض هناك بحقيقة تحوُّلنا إلى صقور.

لم يكد «الرَّماديُّ» ينهي جملته حتى خرج من خلفنا شاب طويل القامة ورفيع عليه لباسٌ لاصق من الجلد يزينه الرِّيش الأسود، وسدد لوجه «الرَّماديِّ» ضربة شديدة فطرحه أرضًا، ووثب بخفَّة تجاهه قبل أن ينهض وانهال عليه باللكمات، أسرعتُ نحوه وسحبته من ذراعه وألقمته بقبضتي ضربة في فكِّه فارتجَّت جمجمته، صاح بصوته الأجش قائلًا: «ليتني فقأت عينك».

أدركتُ حينها أنَّه الغراب المأفون نفسه الَّذي هاجمني، غلت الدِّماء في عروقي فانقضضت عليه وسددتُ إليه ركلة بكلِّ ما أوتيت من قوَّة بوسط صدره فوثب واقفًا بخفَّة وكأنَّني لم أركله مما استفزَّني أكثر! فأنا أُدرك قوَّة ساقي وضربتها! صارعته قليلًا ثُمَّ دُرت حوله وخنقته بذراعي وشددتُ بقوَّة، كان يركل الهواء بقدميه ويحرِّكهما بعنف ليتخلَّص من عصرة ذراعي الخانقة لعنقه، لم أتركه إلَّا عندما خارت قواه وسقط كالخرقة البالية على الأرض، صفعته مرارًا على قفاه، ذلك الحقير الَّذي نقرني في جفني! أخرجت كلَّ ما بجعبتي من غضب، وكُنت في حاجة إلى شيء محشوٍّ باللحم لا ألوم نفسي على ضربه كهذا المسخ أفرغ فيه بعض ما شُحن به صدري من مشاعر مكبوتة، فقد مررت حتَّى الآن بالأعاجيب، وجَّهتُ إليه ضربة أخيرة على فمه فسالت دماؤه، في غمضة عين تحوَّل إلى غراب وتمزَّقت ملابسه وتبعثرت في الهواء، كان منقاره ينزف كما نزف فمه، ضرب بجناحيه وابتعد ونعيقه

القبيح يملأ الأجواء، التفتُّ نحو «الرَّماديِّ» فقال وهو يضحك: «أحسنت، لقد كسرت منقاره وشفيت غليل صدري».

- أراحني هذا كثيرًا.

- ألم أخبرك ألَّا تجمعني مع الغربان في جملة واحدة؟

- ولكن مهلًا، ألم تُخبرني أنَّهم لا يعيشون داخل مدينة الرَّباب؟

- بلى، لكنَّهم يستطيعون التسلل خلسة من آن لآخر، ليس عن طريق التحليق ولكن بطرق أُخرى ملتوية، وذلك لأنَّ السَّحرة الَّذين تسببوا في حجب مدينتنا من حلفائهم.

- هذا يعني أنَّهم غير مقيدين مثلكم، ويستطيعون العودة إلى صورتهم البشرية خارج الحاجز!

- للأسف يستطيعون، ويستطيعون بسط أجنحتهم هناك متى يشاؤون.

حدَّج «الرَّماديُّ» الوادي بعينيه وقال لي: «والآن ما رأيك أن تكون صقرًا لبعض الوقت؟».

- ماذا تقول! سأتحوَّل إلى صقر!

- لا.. سنُحلِّق فوق هذا الوادي فديارنا في الجهة الأخرى.

انتظرته أن يتحوَّل إلى صقر ويحملني لكنَّه لم يفعل، وعندما رآني ساكنًا حمل حجرًا في يده وقذفه تجاه الوادي فظلَّ الحجر عالقًا في الهواء ولم يسقط، ثُمَّ بدأ الحجر العالق يتحرَّك مع الرِّياح، فعلتُ مثله وألقيت حجرًا فتكرر ما حدث، اخترت حجرًا أثقل فلم يسقط!

قال لي وهو يتراجع للخلف عدة خطوات: «هكذا ستفعل تمامًا، وبعدها ستطير فوق هذا الوادي مثل هذا الحجر».

ركض «الرَّماديُّ» سريعًا ثُمَّ قفز في الهواء وطار جسده دون أن يتحوَّل إلى صقر، بسط ذراعيه وساقيه وأدار جسده رأسيًّا تجاهي وقال: «هيَّا يا «توفيق»».

- لن أقفز لأسقط ويُدكَّ عنقي وأموت في الحال، لست صقرًا ولا غرابًا كما تعلم ولا حتَّى بحجر كذاك الذي ألقيت به!

- أتيت بك خصيصى لتَعيش هذه التجربة، اقفز وسترى بنفسك روعة ما أعيشه كلَّ يوم! لا بأس ببعض المُتعة يا صديقي.

- هذا ضرب من الجنون.

- هل أنت خائف؟

- لا.

- إذن حاول.. أرجوك!

ظللتُ جامدًا كتمثالٍ في مكاني وأنا أراقبه، لا أجرؤ على القفز فوق هذا الوادي السَّحيق فأنا لا أرغب في قتل نفسي والعياذ بالله، صاح «الرَّماديُّ» قائلًا: «حسنًا، سأتحوَّل الآن إلى صقر وعليك القفز، وإن رأيتك تسقط سأمسك بك».

- وما يدريني أنَّك ستنجح في التقاطي؟

- أتيت بك إلى هنا ولم تفلت منِّي ولو لمرَّة واحدة، فكيف لا تثق بي؟ لو كان أمرك لا يهمُّني لتركت الغربان تُنهي حياتك في بيتك، وكُنت أستطيع إلقاءك في فوهة أيِّ بركان هنا لتذوب في الحال.

وضعت راحتيَّ على خصري ووقفت أتأمَّله وكان صادقًا فيما يقوله، استحال إلى صقر في الحال، وعاد إلى هيئته الَّتي رأيته بها لأوَّل مرَّة، قال بحماس: «هيَّا!».

ترددتُ في البداية لكنَّه ظلَّ يُحفِّزني، سرت نحو الهاوية ووضعت قدمي فشعرت وكأنَّني أخطو على شيء جامد، مددتُ ذراعي للأمام فشعرت بمقاومة بالفعل! تراجعت للخلف وركضت نحو طرف الهاوية الَّتي تؤدِّي إلى الوادي فشلَّت قدمي، لم أتمكَّن من القفز، لم أستطع.. خشيت السُّقوط.

عاد «الرَّماديُّ» إلى هيئته البشريَّة ووقف بجواري وقال بهدوء: «لا بأس».

ثُمَّ باغتني ودار خلفي ودفعني من ظهري، هوى جسدي إلى الأسفل فسارع «الرَّماديُّ» بالتقاطي بعد أن استحال صقرًا في غمضة عين، صرخت وكُنت حانقًا عليه للغاية: «كِدت أموت».

رفعني قليلًا في الهواء ثُمَّ تركني، صرتُ أحلِّق بالفعل وعُلِّق جسدي في الهواء وكأنَّ الجاذبيَّة الأرضيَّة مسلوبة في تلك البقعة، سبحت في الهواء كما يحدث لروَّاد الفضاء، وكأنَّني ريشة في مهبِّ الرِّياح، عاد «الرَّماديُّ» إلى هيئته البشريَّة من جديد وظلَّ عالقًا في الهواء ليُعلِّمني كيف أتحكَّم في أطرافي وتوازن جسدي وأرشدني بتعليمات بسيطة، شعرت بالخفَّة وراقني أن أسبح في الفراغ، قضينا وقتًا لطيفًا وكانت تلك هي المرَّة الأولى الَّتي أضحك فيها، وصلنا إلى الطرف الآخر وفور أن عبرنا الفضاء فوق الوادي عادت الجاذبيَّة إلى عملها وهبطنا على الأرض بأقدامنا، وسرنا تجاه ديار «الرَّماديِّ»، فاستقبلنا أبوه بترحاب شديد وألقى بعباءة على كتفَي ولده وعيناه تُشعَّان فخرًا به فأدركتُ مكانة «الرَّماديِّ» في قلب أبيه، وكان لنا حديث ماتع.

***

بناء أبيض مُحاط بأسوار عالية، يحفُّه النَّخيل من جهاته الأربع، لم يكن قصرًا لكنَّني شعرت أنَّني دلفت قصرًا للتوِّ، ساحة واسعة تتوسَّط البناء وأبواب الغرف تُطلُّ من عُليٍّ وتُحيط بنا في شكل دائريٍّ وفوق كلٍّ منها نصف قبَّة زرقاء، أُخذتُ بروعة النُّقوش الَّتي تكسو الجدران، فاحت رائحة الرِّيحان فأشجاره تؤطِّر المكان من الدَّاخل، وكان خرير ماء النوافير لطيفًا مما أدخل الرَّاحة إلى نفسي. جلست أمام السيِّد «شاهين» والد «الرَّماديِّ» ورحت أتأمَّل ملامحه، كان شيخًا تُجلله الهيبة قد أقمر رأسه، سقط حاجباه الأبيضان المنكسران على عينيه، بيد أنَّه لا يزال يحتفظ بنظرة ثاقبة، جلسنا أمامه فقال بصوته العميق: «كان لا بدَّ من زيارتك لمدينتنا، فالبداية من هنا».

- بداية ماذا؟

- مهمَّتك.

- ما زلت مشوَّشًا ولا أدري حقيقة تلك المهمَّة، فهلَّا أوضحت لي!

اعتدل في جلسته وأطرق هنيهة وقال: «عندما وصل الوافدون الأوائل الأربعة إلى هنا كانت الكتب قد وضعتهم في مكان يتوسَّط المنطقة الَّتي يكثر فيها أبناء طائفة الصُّقور بالذَّات، وكانت الكتب قد ظهرت لنا بكياناتها الغريبة أيضًا وطلبت منَّا ما طلبته من هؤلاء الوافدين، ولكنَّنا لم نتمكَّن من استرداد كلمات الكتب، فاختارت أشخاصًا من عالمكم ونقلتهم إلينا».

- ومن أعطاها حقَّ الاختيار؟

- مهلًا يا بنيَّ، ولتسمعني للنهاية.

أومأت موافقًا فواصل كلامه قائلًا: «كُنت وأشقَّائي الثلاثة ندرِّس في مدرسة المدينة هنا، عانينا بسبب بعض الرُّؤى وأشياء أُخرى، ولأنَّنا أصدقاء بُحنا لبعضنا بعضًا ما نعانيه ونراه، واكتشفنا أنَّنا على تواصل مع هؤلاء الوافدين الأربعة بطريقة ما، نسمع أصواتهم وهمساتهم ودقَّات قلوبهم ونُحدِّثهم ويُحدِّثوننا في الأحلام مما أخافنا وأذهلنا!».

صمت لوهلة فتعجَّلته قائلًا: «ثُمَّ ماذا؟».

- دخلوا مدينتنا بعد أن دلَّتهم الكتب علينا، أقام الأربعة بيننا لفترة كانت كافية ليدرِّبهم فرساننا على القتال، في أثناء تجوالهم بمملكة البلاغة ظهرت لهم أدوات وخناجر وسيوف وأشياء أخرى علموا لاحقًا فائدتها، ثُمَّ خرج كلٌّ منهم بكتابه وانقطع تواصلهم معنا وما عدنا نشعر بهم، وعندما لم يعودوا خرجنا لنبحث عنهم وطفنا بأصقاع المملكة في هيئاتنا العاديَّة تارة، وفي صورة الصقور تارة أُخرى ولم نعثر لهم على أثر، لكنَّ أطياف الكُتب أخبرتنا لاحقًا بتمام مهامِّهم ورحيلهم، وتوافُدِ آخرين، وكُنَّا لا ندري من أين يصلون إلى المملكة!

- كيف لا تعرفون كيفية وصولهم وأنتم من تحملونهم؟

- لم تكن الأمور هكذا في بدايتها.. أمهلني وسأخبرك بكلِّ شيء.

كانت الأسئلة تتزاحم على طرف لساني لكنَّني قررت أن أصبر وأُنصت لعلِّي أعرف الحقيقة، استأنف حديثه قائلًا: «عندما خرجوا من مدينتنا وقبل أن يتفرَّقوا كانوا قد التقوا ثلَّة من الفرسان الشُّرفاء علموا بما حدث

لهم فساعدوهم قدر استطاعتهم، لأنَّ طرق الوافدين الأربعة كانت مُختلفة، وكلٌّ وافد كانت له رحلته الخاصَّة، وعندما انتهوا من استرداد الكلمات عادوا ليحفظوا الكتب عند هؤلاء الفرسان بعد استرداد كلماتها».

- وهل هؤلاء الفرسان على علاقة بالكتب؟

- لم يروها وهم مثلنا لا يستطيعون أداء دور الوافدين، علمت هذا عندما التقيت بعد عام فارسًا منهم أتى مع رفاقه لزيارتنا وأخبرني بكلِّ شيء، فقد بحث عن مدينتنا عن طريق خريطة خطَّها له أحد الوافدين الأربعة القدامى، ووصل إلينا بعد بحث طويل، فقد كان صديقًا مقرَّبًا منه وأخبره عن مدينتنا، وتركوا لنا الكتب ورحلوا، حينها وعندما جلست مع باقي الصُّقور وتبادلنا الحوار وتفحَّصنا الكتب التي استردت كلماتها ظهرت أطيافها مرَّة أخرى، كُنَّا نسمع أنفاسهم بالمكان، أخبرونا أنَّ الأمر لم ينتهِ بعد، وأنَّ هناك الكثير من الكتب في خطر، وأنَّ علينا أداء أدوارنا.

- وما هي أدواركم؟

- طلبوا منَّا أن نطير ونحمل الوافدين إلى هنا لأن الاختطاف يُخيفهم، وكنَّا نتساءل كيف سنعرفهم ومن أين سنحملهم! فأخبرونا أنَّ الأمور ستتضح وشيئًا فشيئًا أصبح كلُّ صقر يشعر بالوافد قبل حضوره، ويسمع صوته، ويتشاركان في الرُّؤى ويتخاطران، وبدأ يُرسل العلامات والرُّموز لصديقه من عالمكم ليُمهِّد له قبل نقله، وشيئًا فشيئًا فُتحت البوَّابات لنا وأصبحنا ننتقل إلى عالمكم لنحملكم إلى هنا، وبدأت النُّفوس الخبيثة تغلي، وتربَّص الكثيرون للوافدين، أرادوا السيطرة على وعي الشعوب بتزييف الكتب، علموا بأمرنا وحاولوا إثناءنا عن دورنا لنسلِّمهم الوافدين فور وصولهم للقضاء عليهم فأبينا، فطلبوا من الغربان لكنَّ الغربان لا تستطيع حمل الوافدين، بيد أنَّهم استطاعوا الوصول إلى البوابات واقتحامها ومهاجمتهم قبل أن يصل الصَّقر إلى أحدهم، كان الخوف والتردد سببًا لسقوط من يظهر له الرَّمز، ونجحوا

في قتل بعض المُحاربين بالفعل. نشأت بيننا وبينهم الحروب على الأرض وفي السَّماء ونحن نُحلِّق معهم، لكنَّهم تحالفوا مع السَّحرة، وحجبوا مدينتنا بالضَّباب الأبيض الكثيف.

رنا إليَّ «الرَّمادي» وقال: «أنت أوَّل وافد أحمله، كُنت أحاول إرسال العلامات لك».

- إذن هي أوَّل مهمَّة لك كما هي الأولى لي.

أضاف أبوه وهو ينقل عينيه بين وجهي ووجه ابنه: «سيكون «الرَّماديُّ» مسؤولًا عنك وعن نسلك، ولا تخبر أحدًا عن حقيقتنا وعالمنا، نحن الآن نعمل في الخفاء».

- لماذا كلُّ هذا الغموض؟

- أرواحنا ومدينتنا ستكون عُرضة للخطر، ستأتي جيوش الممالك الأخرى لتسحقنا.

- لماذا سيرغبون في ذلك؟

- لأنَّنا نفتِّش عن الكتب، عن العلم وعن الحقيقة وهم لا يرغبون في كشفها لشعوبهم ليدوم ملكهم، الجهل هو الوتد الَّذي يشدُّ كلَّ ملك من الملوك به خيمته ليُقيم فيها للأبد.

- لو اقترب شخص من الضَّباب الأبيض سيموت، أليس كذلك؟

- الحاجز الضَّبابيُّ كان يحجبنا عن الآخرين فقط، والآن انقلب السِّحر على السَّاحر وصار يحمينا!

- كيف هذا وقد التقيت أحد الغربان وصارعته هنا على أرض المدينة؟

- أدخله ساحر يستعين بالجن، لكنَّه فور أن يُحلِّق سيضلُّ الطريق ولن يستطيع العودة إلى المكان نفسه تحليقًا ليدلَّ الآخرين على مكاننا، ولتعلم أنَّ خلف الضَّباب الكثيف العديد من الغابات المسحورة، بعضها بوابات للموت فمن يدخلها لا يخرج منها، لكنَّ هناك من سار فيها من الوافدين بسلام!

- الآن بدأت أفهم.
- وانتبه فالسَّحرة بالخارج يحيكون المصائد ويصنعون الحيل باستمرار، والغربان لا تتوقَّف عن مهاجمة الوافدين وتقاتل الصُّقور.
- لماذا تفعل الغربان هذا بكم؟ ولماذا اختارت الكتب الصُّقور تحديدًا؟
- قد تعرف الإجابة عندما تعرف لماذا أنت بالذَّات دون غيرك هنا.
- لعلَّ هذا منوط بما نقرأ عنه ونؤمن به.

رفع حاجبيه قائلًا: «هناك بعض الحقائق ستنكشف لك وحينها لن تحتاج إلى السؤال ولا إلى الشرح، وأمَّا عن الغربان فسيأتي يوم وتُمنع فيه من التَّحليق بسمائنا للأبد، وحتَّى يحدث هذا عليك أن تُقسم بإخفاء خبر مدينتنا».

- لكنَّ الفرسان يعرفون بأمركم.
- بعضهم فقط وقد أقسموا بالفعل، وهؤلاء يختلفون عن الآخرين من سكَّان مملكة البلاغة، فهم يملكون رصيدًا فائضًا من الشَّجاعة يدفعهم لخوض المعارك بجسارة لنصرة الحقِّ دون أن يُطلب منهم هذا، هم من القابضين على سيوفهم بثبات، الَّذين لا يُبالون بالهلاك ما داموا يسيرون على دروب الحقِّ، هؤلاء يعلمون بسرِّ مدينتنا وعشيرتنا ويستطيعون دخولها آمنين عن طريق حمل الصُّقور لهم.

بدأت الأمور تتضح لي شيئًا فشيئًا، وكلَّما أعثر على إجابة لسؤال يتبرعم من تلك الإجابة أسئلة أخرى، كان عقلي يعمل كطواحين الهواء، رأيت طيورًا تُحلِّق في السَّماء فسألتهم عنها، فقال «الرَّماديُّ»: «تلك طيور عاديَّة ولا تتحوَّل إلى بشر، لكنَّها تستطيع منح البشر عينيها ليروا بها كلَّ شيء حولهم، وأغلبهم من البوم».

- كيف هذا؟
- لا بدَّ أن تلازم الشَّخص الَّذي تمنحه رؤيتها وترافقه طوال الوقت، ويكون هذا كهديَّة منها له، وفي الغالب تختار تلك الطُّيور أصحاب النُّفوس النَّقيَّة ممن أصابهم العمى.

- غريب!

- ستتوقَّف عن ترديد هذه الكلمة قريبًا يا «توفيق».

قضيت اليوم أتجوَّل في الحقول مع «الرَّماديِّ» بعد أن أعارني ملابس أُخرى من الكتَّان فقد رفضتُ ارتداء الرِّيش مثلهم، وكان لديهم الكثير من الملابس، فكما أخبروني.. في كلِّ مرَّة يتحوَّلون فيها تتمزَّق ملابسهم وتتناثر كالفتات في الهواء، ولولا الرِّيش الَّذي يُغطِّي أنصاف أجسادهم السفليَّة لانكشفت عوراتهم. قضيت ليلة هادئة تسامرنا فيها أنا و«الرَّماديُّ» وأرضى فضولي بالإجابة عن الكثير من الأسئلة عن عشيرتهم، أعطيته راتنج الشَّجرة السَّوداء ليُعالج جرحه ففعل، غلبني النَّوم وكُنت متعبًا للغاية، وفي الصَّباح التَّالي دعاني «الرَّماديُّ» للقاء بعض رفاقه فسرت معه، وكانت المفاجأة.

***

مملكة الدَّيجور

احتضن الظَّلام القلعة وبسط جناحيه ليحجب عنها النُّور وحتى ضوء القمر الشَّاحب أبى أن يُمرره لها. كانت الغربان تُحلِّق بكثافة فوقها في جماعات، ما عاد هناك حشيش أخضر على أرض حديقتها فقد جفَّت أشجارها وطرحت أوراقها الخريف الماضي لآخر مرَّة ولم تُنبت بعدها ورقة واحدة وكأنَّها ترفض الحياة، فباتت الأغصان الجرداء تلوح تحت ضوء القمر وكأنَّها هياكل لأموات خرجوا من قبورهم عراة ورفعوا أذرعتهم نحو السَّماء. هبط أربعة من الغربان واستحال كلٌّ منهم إلى شابٍّ من شباب عشيرة الغربان المطرودين من «مدينة الرَّباب». بدوا وكأنَّهم وُلدوا من عتمة الدَّيجور، كانت أعينهم شديدة السَّواد واتسموا بغزارة شعور رؤوسهم ونعومتها الشَّديدة فكانوا يختالون بها ويتنافسون في إطالتها، سار الأربعة نحو القلعة ودلفوا حيث كان زعيمهم يجلس على عرش من لجين تحيط به حلقة من النَّار لا

تُطفأ أبدًا. كان الملك «قَتَام»[1] أوّل من نُصِّب ملكًا لعشيرة الغربان المنفيَّة، وأمر أتباعه بصناعة تاج من الذَّهب الخالص المزيَّن بالعقيق[2] الأسود.

عندما اقترب الشباب الأربعة منه ركعوا أمامه وكان يعاقب من لا يركع له ويأمر بقتله، انتظر الأربعة إشارته ليقفوا فهم لا يجرؤون على الوقوف إن لم يأذن لهم. أشار إليهم فوقفوا واقترب أحدهم وكان أكثرهم قوَّة وقال وهو يهزُّ كتفيه في حرج: «لم ننجح في قتله يا مولاي».

- سبقك «الرَّماديُّ» كالعادة يا «قلقديس»[3]!

- أبي..

قاطعه الملك قائلًا وهو يزجره: «سهرك طوال الليل ولهوك مع الفتيات جعلك خاملًا وفاشلًا أيُّها العربيد».

تلفَّت «القلقديس» في حرج ورمى رفاقه الثلاثة بنظرة قاتمة فأحنوا رؤوسهم، فهو يكره أن يروه بينما يوبِّخه أبوه، أضاف الملك وهو يضرب على فخذه: «دائمًا تتأخَّرون، كيف لم تنتبهوا لعلامات ورموز ذلك الكتاب عندما ظهرت؟ كيف استطاع ذلك الوافد دخول المملكة دون أن تنقروا عينيه وتنهشوا جسده؟ الآن سيستردُّ كلمات كتابه ويعود سلطان تلك الكتب وأصحابها، لن نستطيع توسيع مملكتنا، تلك الكتب تفسد عقول النَّاس».

- لكننا نجحنا بالفعل في قتل العديد من الوافدين قبل ولوجهم «مملكة البلاغة».

قاطعه الملك غاضبًا وسأله: «ماذا قُلت؟ مملكة ماذا؟».

تلجلج «القلقديس» وقال في تلعثم: «أقصد «مملكة الدَّيجور»».

- نعم هو «الدَّيجور» وليس غيره، هكذا أسميتها وسُحقًا لأيِّ اسم آخر. والآن أخبرني إلى أين وصل ذلك الوافد الجديد؟

---

(1) القتام: هو الظلام الكثيف الأسود.

(2) العقيق: حجر كريم منه ألوان متعددة أحمر وأزرق وأسود.

(3) القلقديس: هو اسم من اسم مركبات الزَّاج، والزَّاجات من الأملاح الكبريتية.

- تسلل أحدنا إلى «مدينة الرَّباب» ورآه بصحبة «الرَّماديِّ» لكنَّه لم يتمكَّن من البقاء هناك أكثر من دقائق معدودة.

مال الملك «قَتَام» برأسه وتمعَّن في وجه أحد الشَّباب المرافقين لابنه فرآه وقد ازرقَّت عينه وتورَّمت شفته وكان فيها جرح عميق، فقال باستهزاء: «لا ريب أنَّه أنت.. هل جرحك «الرَّمادي» كالعادة أيُّها الأحمق؟».

قال الشَّاب وهو يضع يده على فمه: «إنَّه المغبون «توفيق» الوافد الجديد».

- ماذا؟ ضربك الوافد؟

انتفض الملك في غضب وقام واستلَّ سيفه وسار بخطوات مسرعة نحوه فتراجع الشَّاب للخلف خوفًا منه، وقف «القلقديس» بين أبيه ورفيقه وقال له: «اهدأ يا جلالة الملك، سأعثر على «توفيق» هذا بنفسي وألقِّنه درسًا لن ينساه».

أعاد الملك «قَتَام» سيفه إلى غمده وقال لولده: «سيأتي السَّاحر الليلة».

- «سورنجان»[1]؟

- نعم.. فهو من أقوى السَّحرة ولديه أعوان من الجنِّ ذوي بأس شديد، سيُحاول إدخال الغربان لـ «مدينة الرَّباب» من جديد، فكن حاضرًا لعلَّك تستطيع دخولها.

- ما عدت أثق بهم فقد أصبحت حيلهم فاشلة ولم تنجح إلَّا نادرًا ولوقت قصير، الآن صار الوصول إلى «مدينة الرَّباب» مستحيلًا!

زمَّ الملك «قَتَام» شفتيه الدَّاكنتين وقال وهو يكزُّ على أسنانه: «لا تكرر تلك الكلمات أمامي مرَّة أخرى».

- أمرك يا مولاي.. ولكن!

- ولكن ماذا؟

---

(1) السورنجان: من الأعشاب الطبية ويُطلق عليه اللحلاح الخريفي.

- ما حاجتنا إلى تلك المدينة الفانية يا أبي.. أقصد يا جلالة الملك؟ الآن صار لدينا قلاع عظيمة وأراضٍ واسعة وملك وسلطان ونفوذ ومال وكثر أتباعنا، وعندما نتحالف مع ملوك الممالك الأربع ستكون الغلبة لنا.

- «مدينة الرَّباب» أرضي وموطني وفيها نشأت، كان من الحماقة أن نطلق أيادي السَّحرة ليحجبوها، الآن صار حاجز الضَّباب والرَّباب يحميها منَّا بدلًا من حجبها عن النَّاس!

- لكنَّهم لا يستطيعون الخروج منها إلَّا في هيئة صقور وهذا يصبُّ في مصلحتنا.

قال «قتَام» وهو يقلب شفتيه: «وما حاجتهم إلى هذا والوافدون الحمقى يتعاونون معهم وهناك من يساعدهم!».

- أدري أنَّهم يتلقُّون المساعدة من بعض الرِّجال والسَّحرة أيضًا، ولكنَّ هذا الحاجز سيزول قريبًا صدِّقني، أمَّا أمر الكتب فهو ما يُحيِّرني، لماذا اختاروا الصُّقور بالذَّات؟

صاح «قَتَام» في غضب شديد فارتجَّت أرجاء القلعة: «سُحقًا لتلك الكتب».

طارت الغربان والخفافيش من فوق القلعة على إثر صرخته، وصل «سورنجان» وكان يسير مع ذئبين عظيمين يتبعانه ولكلٍّ منهما عينان حمراوان متَّقدتان كجمرتين مشتعلتين، أطلقا عواء تنخلع له القلوب فامتلأت نوافذ القلعة بسكَّانها، وقفوا يُراقبون السَّاحر وذئبيه، توسَّط «سورنجان» الحديقة الجرداء وأشار بيده فخرجت من تحت عباءته الأفاعي وتسللت في كلِّ جنبات الحديقة، وحطَّت الخفافيش حيث كانت تقف الغربان على قمم القلعة، خرج «القلقديس» ليستقبله فأجفل من الذِّئبين الرَّابضين بجواره ولعابهما يسيل، فصرفهما «سورنجان» بإشارة من يده ودلف معه قلعة الدَّيجور.

٧

"مارماحوز"

سرنا خلال طرق ملتفَّة لكي نصل إلى أطراف «مدينة الرَّباب»، مررنا ببستان محفوف بأشجار مُتشابكة الأغصان وكأنَّها تحتضنه، دُهشتُ بجمال شجرة سنديان كبيرة والطُّيور تقف عليها في سكينة وهدوء، وقف «الرَّماديُّ» وسط البستان وأحاط فمه بكفَّيه وأطلق صيحة تردد صداها في الأجواء وكأنَّها إشارة لأحد ما، فحلَّقت الطيور وطافت بالمكان، وفجأة انبثق أمامنا كوخ وكأنَّ ستارًا خفيًّا قد انزاح عنه! فُتح بابه وخرجت العجوز الَّتي أطلَّت بوجهها من الفجوة في بيتي وأنقذتني من الغربان بنثر مسحوق على جسدي، فأدركت أنَّ كوخها كان مخفيًّا بطريقة ما. «مارماحوز»، هذا هو اسمها الغريب الَّذي ما زلت أجد صعوبة في نطقه، كانت قصيرة وممتلئة ولها وجه أبيض مستدير، عيناها المنتفختان تقبعان تحت حاجبين كثيفين مقوَّسين بينهما ثؤلول بنيٌّ قاتم، مسحت كفَّيها في وزرتها ونفضت ثوبها، ثُمَّ صاحت وهي تُعدِّل غطاء رأسها المزركش: «وصل «توفيق» يا أولاد».

سمعت ضجيجًا وخرجت من خلفها فتاتان وخلفهما أطلَّ شاب طويل ونحيف وأشقر له أُذنان بارزتان بشكل ملحوظ، بينما شعره المُجعَّد يتناثر ويلتفُّ في حلقات حول رأسه، بينما وقفوا يطالعونني بفضول أقبلت

العجوز نحونا وبدأ «الرَّماديُّ» يُعرِّفني بهم، أشار إلى العجوز قائلًا: «السيِّدة «مارماحوز» من أمهر العطَّارين بـ «مدينة الرَّباب»، ماهرة في العلاج بالأعشاب وتُجيد أشياء أخرى».

ثُمَّ غمز لي بعينه ففطنتُ لمراده، التفت «الرَّماديُّ» تجاه الفتى الطويل الأشقر وقال: «هذا حفيدها الأكبر «حَلتِيت»[1]».

ثُمَّ أشار إلى الفتاتين قائلًا: «وهذه أُخته «بِرشَاوشَان»، وتلك أصغرهم «ماميران»».

ثُمَّ مال عليَّ هامسًا: ««حلتيت» من أعز أصدقائي، نشأنا معًا».

قالت العجوز وهي ترفع حاجبيها بعد أن لاحظت تعجُّبي من الأسماء: «أطلقتُ على أحفادي أسماء الأعشاب الَّتي أُحبُّها، أليس هذا رائعًا؟».

تبادلنا التَّحيَّة ودَعَتنا السيِّدة «مارماحوز» للدخول، كانت ملامح وجهها جامدة فلم أتبيَّن هل هي سعيدة لحضوري أم لا، تحدَّثتْ لتبرز سنٌّ مكسورة من أسنانها الأماميَّة وقالت: «كُنت أترقَّب حضورك أيُّها الشَّاب العنيد».

- شكرًا لإنقاذك لي، ما زلت أحتفظ في البيت بالنَّبتة الَّتي ألقيتِها عليَّ، أظنُّ اسمها...

- «عروق الظَّيَّان».

وضعت يدها في جيبها وأخرجت حفنة من النبتة نفسها ودسَّتها في جيب قميصي الكتَّانيِّ وقالت: «هذا من أجل تلك الغربان الحمقى».

ثُمَّ وضعت راحتيها على خصرها وسألتني: «هل أعجبك لون طلاء الجدران؟».

أدركتُ أنَّها وراء طلاء البيت ونقل الأثاث من القبو وتوزيعه في الغرف وزراعة الحديقة، حسنًا، تلك هي السَّاحرة الَّتي تُرسل الجنَّ ليتلاعبوا بأثاث بيتي، قُلت في ارتباك: «نعم، كان ذلك رائعًا».

(1) الحَلتيت والبِرشاوشان والماميران من أسماء الأعشاب البرِّيَّة المذكورة في قاموس الأعشاب وتُستخدم في صناعة الدَّواء وأشياء أخرى.

- لقد صنعت خليطًا من «فتائل الرُّهبان» و«بُصاق القمر»[1]، وأضفت منقوع «الشَّمندر»[2] للطلاء لكي أحصل على هذا اللون الخلاَّب.

شعرت بالارتباك عندما رددت تلك الأسماء لكنَّني أدركت أنَّها أسماء أعشاب بريَّة عندما رأيت «الرَّماديَّ» يغمض عينيه ويومئ لي برأسه، قُلت في حرج: «اللون رائع، شكرًا لك سيِّدتي».

بينما همس «الرَّمادي» كانت تسكب لنا منقوع الزَّنجبيل لتُضيِّفنا به: «الحوذانيُّون»[3].

- ماذا تعني؟

- لديها خدم من الجنِّ يقومون بتلك المهام، وهذا اسمهم.

- وأين هم الآن؟

- في الحديقة، تحت كلِّ زهرة «حَوذان» يرقد جنِّي منهم في انتظار إشارة منها.

كان أحفادها الثَّلاثة يجلسون في صمت ويُحدِّقون تجاهي، حاولتُ احتساء الشَّراب لكنَّ مذاقه كان قابضًا فاعتذرت، سألتني وهي تسحب كوبها وترشف منه رشفة: «هل ظهر شيء في كتابك؟».

- لا.. يبدو أنَّ رحلتي لم تبدأ بعد.

- رحلتك بدأت بالفعل منذ قبولك لأداء المهمَّة.

ثُمَّ دمدمت وهي ترشف المزيد من ذلك الشَّراب: «خشيت أن ترفضها».

- ما زالت الأمور هنا مبهمة لي، ولكنَّني أعدُّها تجربة من تجارب الحياة سأخوضها لعلِّي أكتسب مهارة ما!

---

(1) فتائل الرُّهبان وبصاق القمر من الأعشاب الطبية.

(2) الشمندر: نبات أحمر من فصيلة السرمقيَّات وهو البنجر.

(3) الحوذان: من الزهور البرية.

- التجارب لا تصقل معادن الرِّجال وحسب، بل تكشفهم على حقيقتهم أمام أنفسهم قبل أن تعرِّيهم أمام الآخرين.

قال «الرَّماديُّ»: «أعلم أنَّ لقاءك «أصحاب القلانيس الزَّرقاء» وما مررت به في غابة «السِّنُّور» أصابك بالضِّيق، لكنَّك ستتجاوز هذا سريعًا».

- آلمني أسر الجنِّ لي في «بحر الظُّلمات» على الرغم من قوَّة جسدي، الشعور بالعجز مقيت، شعرت بالهزيمة.

قالت السيِّدة «مارماحوز» وهي تهزُّ كتفيها: «الهزيمَة قد تقع للشُّجعَان فَقط فالجُبناء لا يخوضون المَعارِك أَصلًا».

ثُمَّ أشارت إلى رأسي وأضافت: «لن تكون أسيرًا إلَّا إن اعتقدت ذلك في زاوية ما بعقلك، فمفاتيح الأغلال الَّتي تُقيِّدك لديك وحدك».

نطق «حلتيت» لأوَّل مرَّة وكان صوته حادًّا فقال: «تبدو قويًّا! ألم تُصارع أبناء السِّنُّور؟».

- بلى.

قال «الرَّمادي» وعيناه تُضيئان: «لقد أطاح بهم تباعًا في حلبة المُصارعة».

قالت السيِّدة «مارماحوز» وهي تضع الكوب على الطَّاولة بعد أن أفرغته بالكامل في جوفها: «عندما تكون المعارك بين العقول ينتهي دور الأذرع القويَّة».

قالت «ماميران» وهي تُحدِّق تجاهي: «احذر من ألاعيب السَّحرة هنا، لو وقعت في شراك السِّحر الأسود ستُعاني كثيرًا».

عقد «الرَّماديُّ» ذراعيه ثُمَّ قال: «يقول أبي إنَّ قوَّة الإيمان والرُّوح وجدها تهزم السِّحر والجنَّ، أمَّا قوَّة البدن حينها فتكون لعبة خاسرة».

بُتر حوارنا بصيحة في الخارج فانتفض «الرَّمادي» حين سمعها وتخبَّط في ارتباك مما أثار ريبتي، أطلَّت العجوز «مارماحوز» من النَّافذة ثُمَّ ابتسمت ورددت شيئًا ما أظنُّه لإزاحة الحجاب عن كوخها لأحدهم ليدخل كما حدث معنا، بعد لحظات دلفت فتاة ضئيلة الحجم رقيقة الملامح بيضاء كأنَّها

سقطت في نهر من حليب ترفل في ثياب بلون السَّماء وكان الخوف باديًا على مُحيَّاها، ارتبك «الرَّماديُّ» حين رآها ووثب واقفًا وكأنَّه كان يجلس على زنبرك وقال بخفوت: «قطرة الدَّمع!».

قالت الفتاة بتلهُّف: «أخبروني أنَّك قد أُصبت!».

رفع «الرَّماديُّ» يده ليتحسس جرح رأسه وقال في ارتباك: «جرح بسيط، لا أشعر بأيِّ ألم».

تأمَّلَت الجرحِ بتأثُّر وقالت: «الغربان من جديد؟».

- كالعادة!

- حمدًا لله على سلامتك يا بنِ العمِّ.

كنَّا جميعًا نراقبهما في فضول، وكانت الفتاتان تبتسمان في بلاهة، زاد ارتباك «الرَّماديِّ» عندما لاحظا أننا جميعًا نراقبهما، عرَّفني لها وانضمَّت إلى الطاولة على استحياء، لاحظت تبادل الشقيقتين للنَّظرات مع أخيهما «حلتيت» في فضول وهم يبتسمون، كان واضحًا وجليًّا أنَّ هناك بين «قطرة الدَّمع» و«الرَّماديِّ» إعجابًا شديدًا، لقد تغيَّرت سحنة ذلك الشَّاب القوي المهيب الَّذي شنَّف أذنيَّ طوال الليل بقصصه عن الغربان وصراعاته معهم عندما رأى ابنة عمِّه «قطرة الدَّمع»، وها هو يجلس أمامي والعرق يُغرِق جبينه حرجًا منها، شردتُ قليلًا وتذكَّرت «قمر» وكيف خَطَفَت روحي منذ اللقاء الأوَّل..

قد يلتقي الشَّاب الجميلة الفاتنة، والهادئة السَّاحرة، والقويَّة الواثقة بنفسها والطَّائشة المجنونة، ولكنَّ قلبه لن يلتفت أبدًا إلَّا لتلك التي رست زوارق قلبه على شواطئ عينيها مهما كانت عيوبها. انتشلتني السيِّدة «مارماحوز» من شرودي عندما قالت: «والآن، أخبرنا بما مررت به في «بحر الظُّلمات» بالتَّفصيل، فبعد سقوطك لم أتمكَّن من تتبُّع أخبارك، وأرسلتُ «الحوذانيِّين» في أثرك ولكن حَجبهم شيء ما على شاطئ «بحر الظُّلمات»».

كان السيِّد «شاهين» قد أخبرني أنَّ لقائي السيِّدة «مارماحوز» سيُفيدني كثيرًا، كما ذكر السيِّد «سُفيان» أنَّها ساعدته في استرداد كتابه عندما سُرق منه في أوَّل رحلته، همس «الرَّماديُّ» ليدفعني للحديث وقد ظنَّ أن صمتي

لتشككي في الحاضرين: «لا تقلق يا «توفيق» فجميعنا في صفِّك، أنت في أمان بيننا يا صديقي».

بدأت أحكي لهم ما حدث في «بحر الظُّلمات» وكانوا ينصتون إليَّ بتركيز شديد. وعندما انتهيت بدأ الأحفاد الثَّلاثة يسألون جدَّتهم عن «مدينة النَّحاس» و«أصحاب القلانيس الزَّرقاء»، لكنَّها لم تُجبهم وظلَّت تنقر الطَّاولة بإصبعها وتركت الأسئلة معلَّقة فوق رؤوسنا مما أدخل القلق لنفسي، وقفت «قطرة الدَّمع» فجأة وقالت: «لنخرج للبستان كما كُنَّا نفعل قديمًا».

راق قولُها الجميعَ فنهضوا تباعًا وخرجت خلفهم، وبقيت العجوز «مارماحوز» بالكوخ، كان هناك العديد من أشجار الجوز وأشجار الكستناء بالبستان بينما الأرض بينها مليئة بزهور «الحَوذان»، تذكَّرت قول «الرَّماديِّ» عن الجنِّ السَّاكن تحت كلِّ زهرة منها، سألته بفضول: «هناك أزهار صفراء وأخرى حمراء، تحت أيِّ لون منهما يسكن «الحوذانيون»؟».

- الزُّهور الصَّفراء تحتها الذُّكور، أمَّا الحمراء فتحتها الإناث.
- كيف تعيشون مع الجنِّ بأريحيَّة هكذا؟
- هم حولنا في كلِّ مكان وكذلك في عالمك، عندما زرت البيت مع ابن عمِّك لأوَّل مرَّة كان ممتلئًا بعُمَّار البيوت.
- يا إلهي! أكنت حينها..
- نعم، شعرت بحضورك وسمعت صوت دقَّات قلبك لأوَّل مرَّة، فأسرعت إلى هنا وأخبرت السيِّدة «مارماحوز»، ظننت أنَّ بي خطبًا ما.. لكنَّها أدركت وأرسلتهم إليك في الحال ففتحوا لك الباب.
- وهل هم لا يزالون هناك؟
- عندما ذكرتَ الله فرُّوا جميعًا من أمامك، وبقي البعض في الغرفة العلويَّة والقبو، ولاحقًا عاد «الحوذانيُّون» وأخرجوهم من البيت بأكمله.

شعرت بالضِّيق من جديد، فخصوصيَّتي مُخترقة وأنا مُحاط بغرباء يعرفون كلَّ شيء عنِّي، وتدور حولي معارك بين الجنِّ وأنا لا أدري عنها

شيئًا، وحتى ما كان هؤلاء الغرباء لا يعرفونه عنِّي مما مررت به في «بحر الظُّلمات» أخبرتهم به بنفسي منذ قليل على الطَّاولة. شَعَر «الرَّماديُّ» بتوتُّري فقال: «ما بك؟».

- أحيانًا أرغب في العودة إلى دياري والاختباء في مكان لا تصلون إليه جميعًا أنتم والجنُّ والكتب وكلُّ النَّاس.
- أعلم أنَّ هذا يُزعجك كثيرًا، وعلى العموم ستأتي لحظات ستسمع فيها دقَّات قلبي وأنفاسي وحواراتي مع من حولي، صدِّقني يا «توفيق» لو كان الأمر بيدي لأوقفته في الحال.

ابتسم فأضاء مُحيَّاه وشعرت أنَّني قد أحرجته، فقلت له: «لا بدَّ أن نعمل معًا للسيطرة على هذا الأمر، نتحكَّم فيه مثلًا بطريقة ما، فأستطيع منعك إن أردت، وتستطيع أنت كذلك منعي إن أحببت».

- ليكن هذا، ولكن بعد أن تستردَّ كتابك.

صافحته وكأنَّنا نعقد عهدًا، قال وقد أضاءت وجهه ابتسامة واسعة: «والآن راقب مهارة «قطرة الدَّمع» في القفز من خلال حلقات النَّار الَّتي تُطلقها «برشاوشان»».

التفتُّ نحوهم ففوجئت بما أراه، كانت «برشاوشان» تُطلق من يديها حلقات ناريَّة تدور في الهواء، وكانت «قطرة الدَّمع» تقفز من خلالها، أمَّا أختها «ماميران» فكانت تقف في هدوء، شعرت أنَّها تُشبه جدَّتها كثيرًا وتخفي الكثير من الأسرار، سألت «الرَّماديَّ»: «يبدو أنَّهم يجيدون السِّحر كجدَّتهم».

- لكلٍّ منهم خدعة ساحرة يُجيدها.
- أين أبوهم؟

لاح على وجهه الحزن وقال بتأثُّر: «قُتِل منذ عشرة أعوام».

- وأُمُّهم؟
- ماتت حزنًا عليه بعد شهور.
- من قتل أباهم؟

- تلك قصَّة طويلة، سأُخبرك بها لاحقًا.

تأمَّلتهم فأشفقتُ على «ماميران» فقلت وأنا أراقبها وهي تقف ساكنة: «مسكينة «ماميران»، كم عمرها؟».

- اثنا عشر عامًا، وشقيقتها «برشاوشان» في الرَّابعة عشرة من عمرها، أمَّا «حلتيت» فمن عمر «قطرة الدَّمع» وهما يصغرانني بثلاثة أعوام.

اشتعل طرف ثوب «قطرة الدَّمع» ففزع «الرَّماديُّ» لكنَّ «ماميران» أطفأته بيدها في الحال وأخذت تلوم أُختها، فعاد إلى «الرَّماديِّ» اطمئنانه فسألتُه: «هل تُحبُّها؟».

دمدم في تحرُّج: «من؟».

- «قطرة الدَّمع»؟

- بكلِّ ذرَّة في كياني، لقد تمَّت خطبتنا منذ شهرين، وسنتزوَّج قريبًا بإذن الله.

- هذا رائع جدًّا، أظنُّها تتحوَّل إلى طائر صغير.

- ماذا! لا يخدعنَّك قصر قامتها، وأنفها الضَّئيل، تلك العشرينيَّة تتحوَّل إلى أنثى صقر قويَّة وشرسة تدور في الهواء بمهارة ولا أستطيع اللحاق بها.

ضحكنا فالتفتَ الآخرون إلينا، أقبل «حلتيت» وكان يحمل سلَّة مليئة بثمار الكستناء، جمع الحطب وأشعلته «برشاوشان» فجلس يشوي حبَّات «الكستناء» لنا، وضع «الرَّماديُّ» واحدة في فمي فتذوَّقتها وكانت شهيَّة جدًّا، لم أذق ما يضاهي حلاوتها من قبل!

قال «الرَّماديُّ» باسمًا: «في صغري كان رفاقي يسخرون منِّي فقد كُنت نحيفًا للغاية، وكُنت أُضرب وأُسحل وأُهان باستمرار، حتَّى علَّمني «حلتيت» كلمات كُنت أُرددها عندما يقتربون منِّي وأنا أعقد حاجبيَّ وأغيِّر نبرة صوتي وأُحرِّك كفيَّ في الهواء فيفرُّون من شدَّة الرُّعب: «خامادريوس، خافور، خركوش، خندريلي»».

- هل هذه طلاسم سحريَّة؟
- بل تلك أسماء أعشاب بريَّة ليس لها أيُّ علاقة بالسِّحر.
- أو لعلَّها أسماء أبناء أعمامهم.

ضجُّوا بالضَّحك جميعًا عندما قُلت هذا، وعلمت من خلال كلامهم أنَّ «حلتيت» يعكف على كتابة قاموس للأعشاب، ويصنع الكثير من المخاليط لعلاج الأمراض. انضمَّت إلينا السيِّدة «مارماحوز» عندما سمعت ضحكاتنا، كنت أشعر أنَّها مهمومة، وهناك ما يشغل عقلها طوال الوقت، لا ريب أنَّ لديها الكثير من الأسرار. مرَّ النَّهار مُسرعًا وأرخى الليل سدوله فأخرجتُ الأحجار الزَّرقاء وألقيتها فأضاءت البستان فسرَّهم هذا كثيرًا، وكانت ليلة لطيفة.

قضيت أسبوعًا كاملًا في التدريب على المبارزة بالسيوف، فقد بدأ «أمان» يتردد علينا بعد أن تعافى من أثر سُمِّ النَّاب حيث حمله أحد الصُّقور إلى هنا، وكان هو و«الرَّماديُّ» يُدرِّبانني على المبارزة بسيوف خشبيَّة في البداية، أحرزت تقدُّمًا وصرت ماهرًا على الرغم من كونها المرَّة الأولى الَّتي أمارس فيها المبارزة، وعندما أحضر «أمان» سيفًا حقيقيًّا أمسكته بحرصٍ شديدٍ وكان ثقيلًا فبدأت ألوِّح به في الهواء، حمل كلٌّ منهما درعًا وكانا يُحفِّزانني على مهاجمتهما، شعرت أنَّني أحتاج إلى الكثير من التدريب على المبارزة بالسُّيوف، ولكن على أيِّ حال صرت أفضل وتحسَّن مستواي فيها، أمَّا في المهارات الأخرى كانت ذراعي أقوى في رمي الرماح. انصرف «أمان» وكنت أشعر بالأُنس لوجوده، وعدنا أخيرًا إلى بيت «الرَّمادي».

بيت العائلة

«الفيوم»

توقَّف «أنس» ليروي ظمأه بكوب ماء أتته به «مرام» مع فنجان القهوة، قالت «دولت» وهي تهزُّ رأسها: «كنت أعلم أنَّ لهذا البيت أسرارًا، لكنني لم أتخيَّل قط أنَّ الجنَّ طَلَوه!».

أضاف «كمال» وهو يرنو إليها: «وزرعوا حديقته، ورتَّبوا أثاثه وعلَّقوا تلك الثُّريات، وأعادوا رسم اللوحات الزيتيَّة!».

همست «حبيبة» في تأثُّر: «أحببت كلَّ ركن في هذا البيت لأنَّه أحبَّ «أبادول» وشعر به منذ دخوله لأوَّل مرَّة، لقد احتضنه هذا البيت عندما كان وحيدًا».

نظرت «سارة» إلى جدها «كمال» في ارتياب وهي تشير إلى النَّافذة المطلَّة على الحديقة وسألته: «أزهار «الحوذان» التي في الحديقة! أليس كذلك؟».

أومأ «كمال» برأسه وقال: «بلى».

كان «خالد» حائرًا وهو يتساءل: «لا أدري كيف استطاع «أبادول» النزول لقبو البيت وحده؟ وكيف جلس يقرأ الرِّسالة بما فيها من غرائب ولم يفقد عقله؟ وكيف واجه الغربان وتحمَّل ما فعلته به؟ بل وكيف تحمَّل تشكيك الدُّكتور «مودود» المستمرَّ في صحته العقليَّة، كيف صمد أمام كلِّ هذا وحده؟ لقد عانى «أبادول» كثيرًا».

قال «كمال» بعد صمت طويل: «كان لديه من الإيمان حصن، ومن اليقين حصن، ومن الرُّجولة حصن، ومن قوَّة الرُّوح حصن، لم يكن وحيدًا! بل كان في معيَّة الله على الدَّوام».

وضع «أنس» فنجان القهوة وعاد يحكي...

***

«قمر»

دفع الدُّكتور «مودود» باب الحديقة ودلف وخلفه ابنته «قمر»، لم يصمد أمام توسُّلات ابنته الَّتي طلبت منه أن يمنحها الحقَّ في اختيار شريك حياتها، ويعطي «توفيق» فرصة ويسمح لهما بالحوار لعلَّها تُقنعه بتناول العلاج، بكت بين يديه لأوَّل مرَّة في حياتها! وكان يُدرك في قرارة نفسه أنَّ «توفيق» شاب رائع، ولأنَّه شعر أنَّه أحزنه قرر أن يتواصل معه، لكنَّ توفيق لم يُجب على هاتف البيت، سأل عنه الشيخ «محمود» فأخبره أنَّه لم يره منذ فترة

طويلة، عادت «قمر» تُلحُّ عليه وطلبت منه أن يذهبا لزيارة «توفيق» في بيته، وكانت تلك هي المرَّة الأولى الَّتي يلمس فيها من ابنته هذا التعلُّق بشاب تقدَّم لخطبتها، فهناك صداقة بينها وبين أبيها من نوع خاصٍّ مبنيَّة على الصَّراحة المطلقة، وهو يعلم تهوُّرها وتسرُّعها الَّذي تسبب لها في بعض المشكلات خلال اختلاطها بزميلاتها بالمدرسة، فأظهر اللين لها ليراقبها من كثب، ووافق في النِّهاية بعد أن شرح لها باستفاضة أبعاد ارتباطها بشخص في حالته فأكَّدت له أنَّ الأمر لا يهمُّها على الإطلاق، فهاودها على أن يكون كلُّ شيء تحت عينه، سارا في الممرِّ المؤدِّي لباب البيت وكانت الأعشاب قد بدأت تنبت في الحديقة فسُرَّت «قمر» عندما رأتها. طرقا الباب فلم يُجبهما أحد، أوشك الدُّكتور «مودود» أن يطرق الباب مرَّة أُخرى ففُتح الباب على مصراعيه فجأة! أجفل وكاد ينصرف بابنته فالباب فُتح وحده، لكنَّه تجاهل ما شعر به وانتظر أن يظهر «توفيق» من خلف الباب لكنَّه لم يظهر!

كانت صالة البيت ظاهرة لهما بوضوح، أدهشهما الأثاث وكانت اللوحة الَّتي بجوار الباب جليَّة وواضحة، لم يظهر «توفيق» حتَّى الآن! بدأ الدُّكتور «مودود» يُناديه مرَّات ومرَّات، وعندما لم يُجبه قال لابنته بتوجُّس: «لننصرف الآن فصاحب البيت غير موجود».

- وكيف فُتح الباب؟
- لعلَّه الهواء، أو كان عالقًا وطرقي الخفيف ساعد في دفعه.
- لا يوجد نسمة هواء يا أبي!
- حسنًا.. لننصرف.
- لا.. لا.. دعنا ننتظر قليلًا.
- ما بك؟

لزمت الصَّمت على استحياء، واستمسك أبوها بوشائج الصَّبر وكان يخشى عليها من أن تتهوَّر وتلتقي «توفيق» خفيةً دون أن تُخبره، لهذا كان يحاول احتواءها فهي أحيانًا تتصرَّف وكأنَّها عاطلة عن كلِّ كِياسة، همست وهي تتمسَّك بذراعه: «هناك شيء غريب! ربَّما هذا البيت مسكون بالفعل».

- الآن بدأتِ تُخرِّفين، أفسدت روايات الرُّعب عقلك، لننصرف يا «قمر».

- لا.. أرجوك يا أبي، دعنا نجلس في الحديقة وننتظره.

- فضوليَّة!

صمتت لوهلة ودارت بعينيها في الحديقة وعادت تقول: «أخشى أن يكون فاقدًا للوعي بعد سقوطه فجأة واصطدام رأسه بالطَّاولة ويحتاج إلى المساعدة».

- ها هو الحسُّ الدراميُّ يظهر من جديد.

شعرت بالخجل فصمتت لبضع ثوان ثُمَّ هبَّت قائلة: «أبي.. لعلَّ لصًّا تسلل وضربه على رأسه ولا يزال اللصُّ بالدَّاخل».

- أنت الآن تشبهين تلك الكاتبة التي أهدانا صديقي الدكتور «لُطفي» رواياتها بعد عودته من الخارج لتقوِّي لغتك الإنجليزيَّة.

- من؟ «أجاثا كريستي!».

- نعم يا آنسة كريستي، توقفي عن تكهناتك، لعلَّه يبتاع شيئًا من البقَّال وسيعود بعد قليل.

وقفا أمام باب البيت وكلاهما لا يجرؤ على دخوله، وطال الانتظار، سألت «قمر» أباها: «هل هناك من نستطيع سؤاله عن الأستاذ «توفيق»؟».

- لا، المسكين غارق في وحدته.

- والشَّيخ «محمود»؟

- أنا أعرف عن «توفيق» أكثر مما يعرفه الشَّيخ «محمود».

قرر الدُّكتور «مودود» الدُّخول لإلقاء نظرة سريعة في أرجاء البيت على أن تنتظره «قمر» بالخارج، لكنَّها رفضت أن تترك أباها يدخل البيت وحده، دلفا معًا وسارا بحذر في صالة البيت، كان الدُّكتور «مودود» يُنادي «توفيق» باستمرار، انتهيا من البحث في الطَّابق السُّفليِّ وصعدا معًا إلى الطَّابق العلويِّ، دلفا معًا غرفة ثُمَّ غرفة ولم يجداه في أيِّ مكان، وصلا إلى غرفة «توفيق» العلويَّة، وقف الدُّكتور «مودود» يتأمَّل الحديقة الخلفيَّة من النَّافذة،

كان دُرج المكتب لا يزال مخلوعًا والرِّسالة على سطح المكتب، التقطتها «قمر» وقرأتها على عجل، قرأها أبوها أيضًا وقال بعد صمت قصير: «يبدو أنَّ مالك البيت الأصلي كان يُعاني اكتئابًا شديدًا بعد رحيل زوجته».

- وتلك الأشياء عن الكتب الَّتي ذكرها!

- وأين هي الكتب؟

كانت الكتب الَّتي تركها «توفيق» على المكتب غير موجودة! كرر الدكتور «مودود» نداءه على «توفيق» حتَّى إنَّه أخرج رأسه من النَّافذة وناداه ثُمَّ التفت لابنته قائلًا: «لا أثر لمخلوق هنا، يجب علينا الانصراف الآن».

- ولكن تلك الرِّسالة مُريبة يا أبي.

- أدري أنَّها مُريبة، ولكن ليس أمامنا سوى الخروج من هذا البيت.

أصرَّ الدُّكتور «مودود» على الانصراف مع ابنته، لعلَّ «توفيق» قد سافر لزيارة أقاربه لظرف طارئ، ظلَّت «قمر» تُردد أنَّها تشعر أنَّ «توفيق» ليس بخير، وأنَّ هناك شيئًا مريبًا، وصمَّمت على إغلاق نوافذ البيت كلِّها، عندما كانت تغلق نافذة المطبخ المطلَّة على الحديقة وجدت دفترًا يخصُّ «توفيق» كتب فيه شيئًا استوقفها فقرأته هامسةً: «صقر متين مهيب الطَّلعة، ذو ظهر أزرق ضارب إلى الرمادي الأردوازي، والجسد أسود يخرج منه جناحان مبرقشان، وذيل طويل ضيِّق مستدير عند نهايته، ذو طرف أسود وعلامة بيضاء على أقصاه. ويظهر أعلى رأسه على الجانبين لون أزرق بديع، ويمتد على الوجنتين كخطٍّ كما الشارب يتباين بشكل حاد مع جانبَي العنق الباهتين».

قرأتها مرَّة أخرى ثُمَّ نزعت الورقة من الدَّفتر ودسَّتها في جيبها بأنامل ترتعش، وأجابت نداء والدها الَّذي كان يتعجَّلها، خرجا معًا من البيت وأغلقا بابه بإحكام، ثُمَّ سارا بالممرِّ نحو الخارج وقلب «قمر» يخفق خفقًا، كانت تتلفَّت وتتفحَّص النوافذ لعلَّ وجهه يُطلُّ من هنا أو هناك، بينما كان هو في عالم آخر.

***

«توفيق»

دعاني السيِّد «شاهين» لمائدة الطَّعام مع جميع أفراد عائلته. كان شقيقا «الرَّماديِّ» يُشبهان أُمَّهما «الزَّعفرانية» بأعينهما الخضراء وأنوفهما المعقوفة، بيد أنَّ أحدهما بينما كان بدينًا وهو «أطلس» وهادئًا ولطيفًا، كان الآخر نحيفًا وطويلًا وهو «بُرهان»، وأمَّا «الرَّماديُّ» فيُشبه والده كثيرًا هو وشقيقته «القرمزيَّة»، الَّتي جلست في صمت وهي حالمة وعندما تحدَّثت مع والديها خرج كلامها منمَّقًا وكأنَّها تنشد الشِّعر، وكانوا جميعًا يعاملونها بحرص وكأنَّها قارورة ويخشون أن تتهشَّم.

سُررت بحديثي مع «أطلس» لكنَّه خرج لقضاء بعض شؤون والده. سألت «الرَّماديَّ» بفضول: «لماذا أسماؤكم مختلفة؟ أعني.. لم أنت «الرَّماديُّ» وشقيقتك «القُرمزيَّة»؟ هل وراء ذلك سرٌّ؟».

ضحك ثُمَّ أجابني قائلًا: «أنجب أبي «أطلس» و«برهان» في أوَّل زواجه بأمي واختار اسميهما بنفسه، وبعد خمس سنوات وُلدتُ أنا فأرادت أمِّي أن تختار اسمي بنفسها فأطلقت عليَّ «الرَّماديَّ»، ثُمَّ أنجبت أختي وأسمتها «القرمزيَّة»، أرادت تخليد اسم أبيها واسم أُمِّها، فقد كان جدِّي «الرَّماديُّ» شيخًا حكيمًا اشتهر بالإصلاح بين العشائر في مدينتنا».

كانت الجلسة لطيفة، وكُنت أشتاق لأجواء العائلة، أسرني «بُرهان» بحديثه العذب، شاب طويل ونحيف، لديه لحية خفيفة وفكٌّ بارز، وعينان خضراوان تزينان وجهه ذا الجبين العريض، بينما تُشعُّ نظراته بنباهة شديدة، سألني عندما انصرف الجميع وبقي «الرَّماديُّ» معنا: «هل أستطيع رؤية خريطتك؟».

- بالتَّأكيد.

أخرجتها وبسطتها أمامه، فعكف عليها يتفحَّصها بتركيز شديد، بدأ يقرأ أسماء المدن بصوت مسموع، ووجدته يقول «مدينة النَّحاس» فأجفلت واقتربت أتفحَّص الخريطة وأنا أصيح: «أين؟».

قال متعجِّبًا: «رأيتها للتوِّ هنا!».

أشار إلى بقعة خالية من الكلمات وقال: «كانت هنا، أقسم لك لكنَّها اختفت!».

قال «الرَّماديُّ» بثقة: «أخي «برهان» لديه ذاكرة ناسخة، يحفظ ما يقرأ فور رؤيته، لا ريب أنَّ «مدينة النَّحاس» في تلك البقعة الَّتي أشار إليها».

أسرع «الرَّماديُّ» وجلب ريشة هدهد ومحبرة فوضع «بُرهان» علامة على مكان المدينة، كانت تقع قُرب «بحر الظُّلمات» بعد حدود غابة «السِّنَّور»، فقررت أن أكثِّف البحث عن أسلحتي في «مدينة الرَّباب» لأرحل سريعًا إلى هناك، لعلِّي أستردُّ كلمات الكتاب!

مرَّ أسبوع آخر وأنا أتجوَّل في «مدينة الرَّباب» ولم يظهر لي سلاح أو أداة كما أخبروني، وكان الجميع في حيرة من أمري، أصابني مللٌ وإحباطٌ شديد، طلبت من «الرَّماديِّ» أن يحملني للقاء السيِّد «سُفيان» خارج حدود «مدينة الرَّباب»، وقبل انصرافنا مررنا على بُستان السيِّدة «مارماحوز» فألفيناها وهي تقف مُطرقة بين أشجارها وتعقد يديها خلف ظهرها، وفور أن رأتني قالت: «يبحثون عنك في الدِّيار».

- أنا! ومن سيفعل؟ ليس لي حبيب ليتفقَّد غيابي، لو مِتُّ ودُفنت هنا لن يعرف بأمري أحد!

- «قمر».

ارتجَّ قلبي في صدري وسألتها بتلهُّف: «ماذا؟ كيف؟».

اقتربت ورفعت يديها وأومأت إليَّ فانحنيت ومِلت برأسي تجاهها فتسلَّمتها ووضعت إبهاميها على جبيني فحدث لي كما كان يحدث في الرؤى الَّتي كُنت أراها بعينَي «الرَّماديِّ»، رأيتُ وصول «قمر» والدُّكتور «مودود» إلى البيت، وبحثهما في الغرف، وتجوالهما فيها، وسمعت صوتهما وهما يناديانني في أرجاء البيت فتلجلج في رأسي، وسمعت ما دار بينهما من حوار حتَّى انصرفا، وعندما أزالت السيِّدة «مارماحوز» إبهاميها بدأ يغمرني شعور بالسُّرور، يبدو أنَّ «قمر» تهتم لأمري بشكل ما، أردتُ أن تُعيد ما فعلته لأراها مرَّة أخرى لكنَّني خجلت من طلب هذا منها فقد كانت تتمعَّن في ملامحي بجديَّة وهي

تقول: «عليك أن تنهي مهمَّتك وتستردَّ كلمات الكتاب لتعود إلى الديار يا «توفيق»، فهناك من ينتظرك».

تبدَّلت مشاعري من حالٍ إلى حال آخر، الآن أيقظ الأمل في العودة إلى الدِّيار حماسي، ودَّعناها وابتعدنا وأنا أروي لـ «الرَّماديِّ» ما رأيته، فأخذ يُحدِّثني عن خطيبته وكأنَّني فجَّرت ينبوعًا للتوِّ ولم يتوقَّف عن الكلام فتركته يُفرغ ما بجُعبته من مشاعر، وأخيرًا عاد إلى هدوئه فسرنا شاردين، شعرت أنَّ الصَّداقة تزداد عُمقًا بيني وبينه.

سرنا شاردين لفترة طويلة، ثُمَّ حملني إلى السيِّد «سُفيان» في المكان نفسه الَّذي انتقلنا إليه من قبل عندما كان «أمان» مريضًا، فأخبرني أن عليَّ التجوال بخريطة «الشَّريف الإدريسيِّ» وأبدأ من حيث توقَّف الوميض فيها عند خروجي من غابة السِّنُّور، فعُدنا إلى «مدينة الرَّباب» أوَّلًا وجلستُ أمام السيِّد «شاهين» ورفاقه لأعطيهم عهدًا ألَّا أكشف سرَّ «مدينة الرَّباب» لأحد حتَّى أهلي بعد عودتي، ولا أرسم لها خريطة، فقلت لهم: «أنا وحيد، وليس هناك من أبوح له بذلك السرِّ»، أصرُّوا على أخذ العهد منِّي لخطورة الأمر وما عانوه من السَّحرة خارج مدينتهم، قبل أن أنصرف قال لي السيِّد «شاهين»: «احذر الخوف الشديد، والفزع الشديد، والانكباب على الشهوات، فعشائر الجنِّ المختلفة يطوفون في كلِّ مكان، ولهم القدرة على احتلال أجساد الآخرين عندما يتعرَّضون لهذه المواطن الثلاثة لأنَّهم يكونون في أضعف حالاتهم».

- وكيف سأنجو منهم؟

- حصِّن نفسك بذكر الله.

ودَّعتهم وأنا أحمل زادًا عجيبًا من الأعشاب التي منحها لي «حلتيت» وجَدَّته، وبعض الطَّعام من صُنع السيِّدة «الزَّعفرانة»، وخريطة «الشَّريف الإدريسيِّ»، وكتاب «أبادول» وقارورتين تحويان سائل الأشجار المباركة الأسود الَّذي أهداه لي «الوشق»، وأحجار الكريستال الَّتي أعطتها لي «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة».

***

«**قمر**»

كانت تقرض أظفارها وهي تقترب، مرَّت أيَّام وهي تكاد تنصهر قلقًا، جلست تُحدِّث أبيها في مواضيع شتى ليس لها علاقة ببعضها بعضًا، حتَّى إنَّها ثرثرت في شؤون المطبخ وهذا ليس من عادتها، وكان أبوها يطالعها من آن لآخر من فوق عويناته وهو يقرأ ما برأسها ويعلم بخبيئتها، وكان ينتظر سؤالها ليُجيبها، وأخيرًا تنهَّدت ثُمَّ سألته بخفوت: «هل من جديد عن «توفيق» يا أبي؟».

- لا.. ذهبت مرَّة أخرى مع الشَّيخ «محمود»، وطرقنا الباب ولم يُجبنا أحد.

- غريب.

- يقول الشَّيخ «محمود» إنَّه ذهب إلى المدرسة الَّتي يعمل بها فعلم أنَّه مُتغيِّب عن العمل منذ أسبوعين وقد يفقد وظيفته.

- هل كان الباب مفتوحًا عندما ذهبتما هذه المرَّة؟

- لا.

أسرعت إلى غرفتها وعادت تحمل شيئًا وقالت: «لديَّ ما أُخبرك به».

انتبه إليها أبوها وهي تقول: «أبي.. عندما كُنَّا في بيت «توفيق» وجدته قد كتب وصف الصَّقر الَّذي يقول إنَّه رآه في دفترٍ وتركه على طاولة المطبخ، وها هي صورته».

قلبت «قمر» اللوحة الَّتي كانت بين يديها فشخصت عينا الدُّكتور «مودود» وقال وهو يُحدِّق تجاهها: «الرَّماديُّ».

- ماذا؟

- هذا اسمه... أقصد هكذا يقول «توفيق».

- أظنُّه قد اختطفه يا أبي؟

- كُفِّي عن هذا الهراء! من المستحيل أن يكون «توفيق» في «مملكة البلاغة»!

- ماذا قُلت؟

- «مملكة البلاغة» هذا ما يُهيَّأ له، يتحدَّث عن عالم آخر، ألم أُخبرك؟ «توفيق» مريض يا بنتي ويحتاج إلى العلاج، وحتَّى وصف الصَّقر هذا من خياله، ولعلَّه الآن شارد في شوارع الفيُّوم وفقد عقله، لا بدَّ أن أُخبر الشُّرطة لعلَّهم يعثرون عليه.

شعرت «قمر» بالضِّيق من كلام أبيها، كانت قد رأت «توفيق» عندما جاء أوَّل مرَّة ليُنظِّف البيت قبل أن يسكن فيه، فقد كانت على مقربة من البيت ومرَّت بجواره دون أن يلتفت إليها، رأته وهو يُخرج القمامة مع العمَّال بكلِّ تواضع من الحديقة، حينها أمسك أحد العمَّال بقطَّة وكان يتهيَّأ لإلقائها خارج الحديقة فخرج «توفيق» فزعًا وهو يصيح: «لا تؤذِها أرجوك».

احتضنها «توفيق» ووقف العامل يراقبه متعجبًا وقال: «هل ستبقي عصابة القطط تلك هنا يا أستاذ «توفيق»؟».

- لا.. ولكن أخرجوهم برفق ولا تفزعوهم.

أدركتْ أنَّه قد اشترى البيت عندما لاحظت أنَّهم يسألونه ماذا نفعل بهذا وهذا، لم ينتبه لمرورها ولم يلتفت لعينيها العامرتين بالفضول، وكذلك لم ينبض قلبها في تلك اللحظة، ظلَّت تراقب البيت من بعيد لترسمه كعادتها، وخياله يلوح لها من خلف النَّوافذ، علمت بأمره بعد زيارة الشَّيخ «محمود» وسمعت البعض من قصَّته، وعندما زارهما بالبيت قررت أن تُخبره عن معنى الرَّمز الَّذي يظهر له بعدما رأته على الورقة في جيب قميص أبيها قبل أن تغسله، لم تكن تعلم أنَّ سهمًا سيخترق فؤادها في ذلك اليوم الَّذي أتى فيه وهو يُغطِّي إحدى عينيه ويُطالعها بعينه الأخرى الَّتي أخذت عقلها وقلبها، وتحديدًا عندما قال إنَّه رأى البيت مُتعبًا مثله، علق قلبها به وبنبرة صوته وهيئته ورصانته، حتَّى غموضه راقها، وصار قلبها يدور حوله كتلك الرُّموز الَّتي قال إنَّها تدور حوله، بدأ قلبها يخفق، آلمها قليلًا ولا تدري لماذا؟ لو كان بيدها أن تُخرج الحبَّ من قلبها لفعلت، ولكنَّها لا تملك هذا.

أين هو الآن؟

ومتى سيعود؟

وكيف السَّبيل لتطمئنَّ عليه؟

عادت تقف أمام أبيها وقالت والقلق يسكن عينيها: «أبي.. هناك شيء آخر».

- ماذا يا بنتي؟ «توفيق» مرَّة أخرى!

- وجدت هذه بجوار المكتب في الغرفة الَّتي كانت فيها الرِّسالة التي قرأناها هناك.

مدَّت يدها لأبيها وهي تُمسك بريشة طويلة، كان لون الرِّيشة أزرق ضاربًا إلى الرمادي الأردوازي، وكانت كبيرة الحجم! ليست بريشة طائر عاديٍّ، عندما وجدتها أخفتها تحت كمِّها فبلغ طولها طول ذراعها بأكملها! خلع الدُّكتور «مودود» عويناته وأمسك بالرِّيشة وأخذ يتأمَّلها، ثُمَّ أعادها إليها وأمسك برأسه بين راحتيه ولزم الصَّمت حتَّى ظنَّت ابنته أنَّه لن يتكلَّم، همست بخفوت: «أبي». لم يُجبها، ولم ينبس ببنت شفة، فانسلَّت بهدوء لغرفتها والقلق ينهش قلبها نهشًا.

٨

مدينة النَّحاس

عُدنا إلى حدود «غابة السِّنُّور» حيث حملني «الرَّمادي» إلى هناك لكي أواصل رحلتي من حيث انتهت بعد خروجي منها، طفقت الخريطة تومض بالفعل وأشار الوميض إلى جهة الشَّمال، فاتخذت هذا الاتجاه الَّذي دلَّتني عليه بإشارتها، بدأ «الرَّماديُّ» يُحلِّق على مقربة منِّي، ولأنَّه يشعر بي إن أحسستُ بالضِّيق أو التَّوتُّر، بدأ يُحدِّثني ليُخفف عنِّي فكُنَّا نتبادل الحوار بين فينة وأخرى، ران علينا صمت ثقيل قَطَعه قائلًا: ««توفيق».. إن انقطع الاتصال بيننا كما حدث وأنت في بحر الظُّلمات فاعلم أنَّني أبحث عنك في كلِّ بقعة أستطيع الوصول إليك فيها».

- المسافة بين قلوب المحبين قصيرة وإن طال البعاد.

- صدقت، ولكن أردتُ فقط أن أُخبرك أن..

لم يُكمل جملته فأدركت ما يعتمل في صدره فقلتُ لأُطمئنه: «أدري أنَّني سأكون وحدي من جديد».

- يحزنني هذا.

- لا أدري لماذا يحدث هذا على أرضكم، وأين الكُتب؟ لماذا لم تظهر أطيافها لتُساعدني مثلًا؟ ألم تُفزعني وتقض مضجعي في بيتي؟ ودفعتك لحملي إلى هنا؟

- لا تنس أنَّك هنا لأنَّها تحتاج إلى عونك يا «توفيق» وليس العكس.

- لم أنس وما زلت أُحاول، فقط ذلك الغموض يشوِّشني، وما يثير هواجسي أكثر هو كتاب «أبادول» الَّذي لم يُظهر حرفًا واحدًا حتَّى الآن!

- إنَّها «مملكة البلاغة» الَّتي تُخبِّئ تحت عباءتها الكثير من الأسرار.

لم تتأخَّر «مملكة البلاغة» في مفاجأتنا في أثناء تبادلنا لهذا الحوار، فقد هبَّت فجأة رياح ذاريات وأخذت ترشق وجهي بالرِّمال، اختفى «الرَّماديُّ» وما عُدت أراه فأخذتُ أناديه ولم يأتني جواب، وكأنَّ الرِّياح كانت تُنصت لكلماته الأخيرة، أو ربَّما شعر «الرَّماديُّ» بشيء ما فقال ما قاله قبل أن يُحال بيننا! وها قد صرت وحدي من جديد.

أحاطني السكون المهيب، وكأنَّني أتجوَّل على كوكب خالٍ من البشر، كنت أتلمَّس الطريق مترنِّحًا، أسير وأنا مبطَّن بالقلق، مجرَّد أن داهمتني الفكرة المروِّعة أنَّني الآن وحيد هنا أصابتني بهزَّة داخلية، فوقفت أتأمَّل السماء، وحاولت استعادة يقيني وانطلقت أدعو الله أن يثبِّت فؤادي، داهمني شعور بالرَّغبة الشَّديدة في العودة إلى دياري، وأخذت أُحدِّث نفسي بصوت مسموع، سَخِرتُ من نفسي وأنا الحريص على العودة إلى «الفيُّوم»!، فلماذا أرغب في العودة إليها؟ ينتظرني هناك بيت خالٍ من الأهل والأُنس، كم هو مقيت أن يشعر الإنسان بالغربة والوحدة.. تُرى هل أُريد العودة إلى العالم الَّذي ألفته ونشأت فيه وحسب؟

أم أُريد العودة إلى نفسي؟

وأنا أعلم يقينًا أنَّ أكثر الطرقِ مشقة هي التي سأقطعها عائدًا إلى نفسي الَّتي ضلَّت منِّي بين جنبيَّ.

***

«قمر»

كانت «قمر» تشتري بعض الخضراوات من السُّوق فساقتها قدماها إلى بيت «توفيق»، وقفت تراقب البيت الغامض من خلف السُّور والفضول يقرض رأسها قرضًا، لا يزال «توفيق» غائبًا ولم يظهر له أثر حتَّى الآن، وهذا يُخيفها ويُقلقها، كانت ترزح تحت موجة من الأفكار السوداويَّة، كادت تنصرف لكنَّ البوَّابة فُتحت لها من تلقاء نفسها، سرت القشعريرة في جسدها وظلَّت عيناها تتلجلجان في قلق، دلفت تجرُّ قدميها ووضعت أكياس الخضراوات على الأرض وسارت ببطء شديد، اقتربت من الباب وكان مُغلقًا كما تركاه من قبل هي والدُّكتور «مودود»، رفعت يدها وظلَّت تطرقه بأصابع مُرتعشة وهي تفكِّر في الكلمات الَّتي ستقولها لـ «توفيق» إن فتح لها الآن وأطلَّ بوجهه، ليته يُطلُّ وستقول أيَّ شيء، المهمُّ أن يظهر من جديد، خاب رجاؤها عندما لم يُجبها! توجَّهت نحو نافذة من النَّوافذ الَّتي تُطلُّ على الحديقة وألصقت أنفها بها وأخذت تُحدِّق من خلف الزُّجاج لتحاول أن ترى ما بداخل البيت، صُعقت عندما أتى صوت سيَّارة من خلفها وانتفضت وكأنَّ تيارًا كهربائيًّا سرى بساقيها، التقطت أنفاسها وعندما هدأت دقَّات قلبها ركضت نحو البوَّابة، وحملت أكياس الخضراوات وهي تتلفَّت وتحدِّق إلى النَّوافذ العُلويَّة، وانصرفت مهرولة نحو بيت أبيها، فانغلقت البوَّابة خلفها بهدوء.

***

«توفيق»

سرتُ طويلًا حتَّى أوجعتني قدماي وكدت أنسى أين أنا، وإذا بفرس بيضاء كالحليب تُهملج نحوي وخصلات شعرها الشَّهباء تموج على عنقها بدلال، وكأنَّها سحابة هشَّة بيضاء سقطت للتوِّ على الأرض! اقتربتْ بلُطف وتوقّفتْ أمامي طائعة وأحنت رأسها، مسحتُ على عنقها واقتربتُ فرأيتُ عينيها الرَّائقتين عن قُرب وقد جمعتا صورة المشهد خلف ظهري بأكمله، بدأت تصدر صوتًا يشي بسرورها وأُنسها بي، مرَّت دقائق وأنا أتأمَّل في حُسنها، سبحان من خلق هذا الجمال وسوَّاه! قفزتُ على ظهرها فانطلقت

تهملج ثُمَّ ركضت بسرعة شديدة فتمسَّكتُ بعنقها وخشيت أن أسقط، عصفت الرِّياح من جديد وبدأت تعوي في أذنيَّ، ثُمَّ ازدادت عنفًا فبدأت الفرس تُعاني وهي تتقدَّم، وانهمرت الثلوج في زخَّات سريعة منتظمة وقويَّة، فغمرتني بُرادة الثَّلج النَّاعمة. لمع البرق المعقرب في السَّماء مرَّات ومرَّات، ثُمَّ دوى صوت الرَّعد وكاد صدري ينشطر إلى نصفين من شدَّة الفزع، تكرر صوته الَّذي ارتجَّت له الأجواء وهطل المطر كأنَّه سِتار من ماء حاملًا معه ندف الثَّلج الباردة. ثُمَّ توقَّف المطر فجأة كما بدأ فجأة، وبقيت دقائق الثَّلج معلَّقة في الهواء.

وسط البياض الَّذي اكتنفني لاحت لي ظلال من بعيد، بدأت أتبيَّنها شيئًا فشيئًا عندما اقتربتُ منها فأخذت أحفِّز الفرس لتُسرع إليها لعلِّي أنعم بصُحبة، فرأيت جمعًا كبيرًا من الفرسان يمتطون خيولهم ويسيرون خلف بعضهم بعضًا، ووراؤهم كانت الإبل تسير محمَّلة بأمتعتهم، وقد غمرتهم الرِّياح ببرادة الثَّلج النَّاعمة ونثرتها فوق رؤوسهم كالطَّحين، نالني ما نالهم وكانت كلُّ خليَّة في جسدي ترتجف وتنتفض، وثيابي الَّتي ابتلت من المطر حملت الثَّلج عليها فصارت جامدة، وتحتها البرد القارس ينخر عظامي، تناقصت سرعة فرسي وكُنت أُشفق عليها، عندما اقتربتُ من الإبل الَّتي تتبعهم من الخلف أقبل أحد الفرسان الملثَّمين بجواده عائدًا تجاهي من المقدِّمة ثُمَّ سحب لجام فرسه فتوقّفتْ أمامي وقال وهو يتمعَّن في ملامحي: «السَّلام عليك يا أخا العرب».

أجبته بصوت مرتعش على إثر ارتجاف بدني: «وعليك السَّلام».

- من أين أتيت؟
- من المملكة المصرية.
- لعلَّك ضللت عن قافلة التُّجار الَّتي مررنا بها أمس يا مسكين.

صرتُ أتخبَّط في حيرة، هل أُخبره أم أكون حريصًا. قُلت بعد صمت قصير: «غادرتُ رفقتي بحثًا عن المغامرة والتَّرحال».

- هذا جنون، كيف تسير وحيدًا وسط تلك الأجواء؟
- لم أتوقَّع تغيُّر الأجواء، لهذا ندمت.

سألني وهو يتلفَّت: «ما اسمك؟».

- «توفيق».. وأنت؟
- «كِنان».
- إلى أين تسيرون؟
- إلى «فيافي الأندلس»[1].

اقترب بجواده حتَّى جاور فرسي وخلع دثاره وألقاه على كتفي وكان من الجلد المبطَّن بالفراء، فوجدت الدِّثار لا يزال يحتفظ بدفء كتفيه وكنت ممنونًا لذلك، ثُمَّ خلع وشاحًا من الصُّوف كان يلفُّ به رأسه ولفَّه على رأسي وغطى بطرفه فمي فرأيت مُحيَّاه الطيِّب ومنحني ابتسامة أشعرتني بالأمان. أخذ يتأمَّل الفرس وقال بإعجاب شديد: «ما أجمل هذه الفرس وما أبهاها! ما اسمها؟».

- لم أُطلق عليها اسمًا حتَّى الآن.
- عليك أن تفعل.
- هل أستطيع الانضمام إليكم؟
- هذا أكيد فلن نتركك وحيدًا هنا، أمهلني حتَّى أُبلغ القائد بانضمامك إلينا.

انطلق بجواده وركض نحو مقدِّمة المسيرة، وكنت أتبع الإبل خلفهم في ترقُّب، وعندما عاد «كِنان» كُنت أشعر بتخشُّب أطرافي من شدَّة البرد، قال بوجه متهلل: «أقبِل لأُعيرك دِثارًا آخر لتتلحَّف به ويقي ساقيك ذاك البرد، مرحبًا بك معنا».

انضممت إليهم وأعاروني دِثارًا كتيمًا آخر من الصُّوف، وفعلت كما يفعلون واتَّخذت من طرف الوشاح الَّذي أعطاه لي «كِنان» لثامًا لوجهي. أخبرني وهو يُخرج من متاعه دثارًا آخر ووشاحًا لنفسه غير اللذين أعارهما لي أنَّ الطَّقس كان معتدلًا خلال الأيَّام الماضية، لكنَّ تلك العاصفة هبَّت فجأة،

(1) فيافي الأندلس بالمغرب هي الآن مدينة «طنجة» التي تقع غرب المغرب.

لاحظتُ أسلحتهم فقُلت له: «وكأنَّكم تتجهَّزون لحرب! ليس هناك فارس منكم إلَّا ويحمل سيفين، وعلى ظهره قوسه وسهامه».

ضحك قائلًا: «وكيف يسير العربيُّ في البيداء بلا سيف أو سَمهريٍّ[1]؟ كما أنَّنا في مهمَّة رسميَّة».

- من أين أتيتم؟
- «القيروان»[2].
- منذ متى تسيرون؟
- منذ ثلاثة وأربعين يومًا، أوغلنا في طرق قد انطمست ومناهل قد اندرست وعفت فيها الآثار وانقطعت عنها الأخبار.
- إلى أين تذهبون بالتَّحديد؟
- خرجنا بعد وصول رسالة الخليفة «عبد الملك بن مروان»[3] إلى قائدنا ونحن نتجهَّز لتلك الرِّحلة منذ أربعة أشهر.

خفق قلبي خفقًا وتحوَّل مجال أفكاري قهرًا، وتذكَّرت ما قرأته من قبل في كتاب مُعجم البلدان وسألته: «هل قائدكم هو «موسى بن نصير»[4]؟».

- نعم هو.

---

(1) السَّمهريُّ هو الرُّمح الصَّلب العود، ويُنسب لرجل يُسمَّى «سَمهر» كان يقوِّم الرِّماح.

(2) القيروان أول المدن الإسلامية المشيدة في بلاد المغرب، انطلقت منها حملات الفتح نحو شمال إفريقيا وإسبانيا، دُفن بها عدد من صحابة رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم- ويُطلق عليها الفقهاء «رابعة الثلاث» بعد مكة والمدينة المنورة والقدس، وبها جامع القيروان الكبير الذي أسسه «عقبة بن نافع».

(3) عبد الملك بن مروان، الخليفة الخامس من خلفاء بني أمية والمؤسس الثاني للدولة الأموية.

(4) موسى بن نصير، قائد مسلم عربي وعسكري لعب دورًا بارزًا في انتشار الإسلام وتوسيع رقعة الدولة الأموية. شارك في فتح قبرص، ثم أصبح واليًا على إفريقيا، واستطاع أن ينهي نزاعات البربر المتوالية للخروج على حكم الأمويين، كما أمر بفتح شبه الجزيرة الأيبيرية، وهو الغزو الذي أسقط حكم مملكة القوط في إسبانيا.

أخذت أتخبَّط في حيرتي وشردتُ قليلًا وأخذت أُحدِّث نفسي: «*موسى بن نصير*»!

كيف هذا وقد مات منذ زمن؟

هل عدت بالزَّمن إلى قرون سابقة؟

لا لا.. ليس هناك ما يُسمَّى العودة بالزَّمن إلى الوراء!

أهذا معقول؟

أم أنا في حلم!

اقتربت منه وقُلت ورأسي ينبض من كثرة التَّفكير والتحليل: «أخبرني يا «كِنان» عن طبيعة مهمَّتكم لعلِّي أُشارككم».

التفت نحوي وقال وعيناه تلمعان من فوق لثامه: «أمرنا الخليفة «عبد الملك بن مروان» بالسَّير إلى «مدينة النَّحاس» ودخولها والكشف عمَّا بها من أسرار، يقولون إنَّها خالية من البشر ومليئة بالكنوز والخيرات».

عُدت إلى فقاعة الحيرة الَّتي ألوذ بها داخلي، كان حديثي مع نفسي لا ينقطع، قد أُصدِّق أنَّني رأيت الجنَّ، أو التقيت شابًّا يتحوَّل إلى صقر، ولكن أن ألتقي شخصًا قد مات بالفعل! فكيف هذا؟

ازدحم رأسي بالأسئلة، وددت أن أركض بفرسي نحو المقدِّمة لأرى «موسى بن نصير» بعيني لكنَّني من فرط الهيبة لم أجرؤ على فعلها كما أنني خشيت أن ألفت الأنظار فيرتابوا في أمري، لاحظ «كِنان» شرودي فسألني: «هل أنت بخير يا «توفيق»؟».

- نعم بخير، فقط أنا متعب من البرد.

توقَّفت القافلة فجأة ونادى منادٍ أنَّنا سنبيتُ ليلتنا هنا، وعندما ضُربت الخيام وشُدَّت أوتادها وأُشعلت النِّيران اقتربت منها ألتمس الدفء وأنا أتساءل هل أنا في كامل وعيي أم لا؟

تذكَّرت خريطة «الشَّريف الإدريسيِّ» الَّتي أعطاها لي الملك «زُريق»، كدت أخبر «كِنان» أنَّني أحمل خريطة قد تساعدنا، على الرغم من اختفاء اسم

مدينة النَّحاس منها لكنَّهم لا ريب سيعرفون ما حولها، ولكن كيف سأخبره بهذا؟ ونحن بين عام 685 م وعام 705 م، وتلك كانت فترة حكم الخليفة «عبد الملك بن مروان»! وخريطة «الشَّريف الإدريسيِّ» رُسمت بعد ذلك بكثير في عام 1154 م، كان رأسي مشوَّشًا وأكاد أفقد عقلي، قرَّبت إصبعي من النَّار فلسعني اللهب، فأدركت أنَّه ليس بحلمٍ أبدًا، أنا هنا بالفعل أتألَّم من لسعة النَّار، وها هم أمام عيني، ألف فارس من فرسان العرب كثيرًا ما حلمت بشرف لقائهم، هناك في نفسي الكثير من الفضول والنَّوازع وينبغي أن أُخفيها وأكون حكيمًا حتَّى أفهم. شعرت بضآلتي عندما قارنت حالي بحالهم، وأنا الخائف المتشكك وهم يسيرون بالشُّهور لمسافات طويلة لفتح البلاد ونشر دين الله بين العباد، مشقَّة فوق مشقَّة ولا أراهم يتململون مما يفعلون، جلست أراقبهم وهم يتناوبون على الحراسة، ولم يمنعهم البرد القارس ومشقَّة السَّفر عن قيام الليل فانضممت إليهم، وكان كتابي لا يزال خاليًا من الحروف والكلمات، وخريطتي تومض وميضًا واهنًا وكأنَّها في نزعها الأخير. راودتني فكرة مجنونة، ألم يُخبروني أنَّ الكتب حيَّة وتتنفَّس؟ ماذا لو كان كتابي قد مات؟ ربَّما فارق الحياة ولن يُظهر حرفًا واحدًا فكيف سأعرف هذا؟

داهمتني نوبة من السُّعال وآلمني جسدي كلُّه ثُمَّ أُصبت بحمَّى شديدة، لازمني «كِنان» تلك الليلة وكأنَّه أخي، أحضر لي دواء مرًّا فتجرَّعته على مضض، وأعدَّ لي حساء ساخنًا كما أطعمني بيده، قضينا اليوم في المكان نفسه وأبقاني المرض طريح الفراش طوال النَّهار. كان «كِنان» يُحسن إليَّ كما لم يُحسن إليَّ أحد قطُّ، اقتسم معي زاده كلَّه، وآثرني بطيِّب طعامه، وكان خير رفيق وكأنَّه أخي الذي لم تلده أُمِّي، وفي آخر الليل كُنَّا جميعا متعبين فخلد الجميع للنَّوم.

***

في اليوم التَّالي أيقظني «كِنان» برفق ومنحني قدحًا من حليب الإبل الدَّافئ فذُقته لأوَّل مرَّة في حياتي، وكانت الشَّمس قد أزاحت النِّقاب عن وجهها وأطلقت أنفاسها الدَّافئة في الهواء، وكأنَّ الأمس لم يكن باردًا ولم

تتساقط الثُّلوج خلال اليومين الماضيين، كُنت أفضل حالًا وهدأ السُّعال وما عدت أشعر بالمرض، بيد أنَّ حلقي ظلَّ يؤلمني. عدنا للمسير وعندما امتطيت فرسي لاح لي في الأُفق بريق عجيب أصفر كان يلمع ويتراقص فسألت «كِنان»: «ما هذا البريق العجيب؟».

- لعلَّها «مدينة النَّحاس»، فنحن نرى هذا البريق منذ خمسة أيَّام.
- ماذا قُلت؟ خمسة أيَّام!
- نعم خمسة أيَّام كاملة، حال بيننا وبين رؤيته سقوط الثُّلوج فقط، سنُسرع لعلَّنا نصل إليها اليوم قبل أن تهبَّ العواصف من جديد.

أكملنا المسير ليوم كامل، حتَّى وصلنا إلى أرض عامرة بالأشجار العجيبة، والأزهار الملوَّنة، والطيور الغريبة، تتوسَّطها بحيرة واسعة يفور ماؤها ويتلاعب وكأنَّها قدر عظيم تحته نار، بتنا تلك الليلة على شاطئ تلك البحيرة الدَّافئ ماؤها، فقد كُنَّا في حاجة إلى الرَّاحة كما كُنَّا في حاجة إلى مائها العذب، وفي الصَّباح التَّالي بدأ الجميع يُلاحظ البريق الذي يبدو كلَّما نظرنا إلى ماء البحيرة، وكأنَّ هناك شيئًا يعكس الضَّوء في قاعها فلفت أنظارنا إليه، وعلمتُ أنَّ من ضمن الفرسان عددًا كبيرًا من الرِّجال الَّذين يُجيدون السِّباحة ورأيتهم يغوصون في البحيرة ويخرجون منها الكثير من القماقم النحاسيَّة رأسها مختوم بخاتم من الرَّصاص، تناول «كِنان» واحدًا منها وفتحه ففزعنا جميعًا عندما خرج منه طيف لفارس يمتطي جوادًا ويحمل رمحًا ناريًّا وانطلق في السَّماء وهو يُردد: «يا نبي الله لا أعود».

أدركنا أنَّه يقصد نبيَّ الله «سُليمان» ثم غاص الرِّجال ثانية وثالثة فأخرجوا الكثير من القماقم وفتحوها وتكرر الأمر، تهيَّأ «كِنان» للغوص فيها فغلبني الفضول وقُلت في نفسي وما الَّذي سأراه أكثر مما رأيته في «بحر الظُّلمات»! خلعت ملابسي وقفزت في البحيرة مع «كِنان»، وعندما نزلتُ لقاع البحيرة رأيت الكثير من القماقم وكانت تبرق وتضوي، ولمحت قاورتين من زجاج مموه غير مختومتين بالرَّصاص، عليهما النَّقش الَّذي رأيته على الأحجار الَّتي كانت مُعلَّقة في القلائد الَّتي كان يرتديها «أصحاب القلانيس الزَّرقاء»،

فأدركت أنَّهما تخصَّانهم، وقد يكون ابن الملك «زُريق» محبوسًا في قارورة منهما، بدأ النقش الغريب عليهما يُومض وكأنَّه يُناديني، حملت القارورتين وخرجت من البحيرة وانصرفتُ لارتداء ملابسي فقد هبَّت الرِّياح من جديد، تفحَّصت كتابي وكان لا يزال خاليًا من الكلمات فشعرت بضيق شديد، أخرجت الخريطة وكانت العلامة لا تزال تومض في الاتجاه نفسه، انشغل الجميع بالقماقم فعرضت عليهم القارورتين المموهتين، لكنَّهم زهدوا فيهما ولم يهتم أحد بهما حتَّى «كِنان»، فقد كانتا منطفئتين بينما القماقم أكثر ثقلًا وبريقًا وجمالًا، تذكَّرت وعدي للملك «زُريق» فقررت فتحهما بنفسي لعلِّي أجد شيئًا ما، وكنت أتساءل لماذا لم تُختما بالرَّصاص كباقي القماقم؟ لعلَّ ذلك لأنَّهما من عهد حديث ولا تنتميان إلى باقي القماقم، وكان جميع الفرسان يلتفُّون حول أحد الغوَّاصين ويراقبونه وهو يفتح قُمقُمًا فلم ينتبهوا لي، انضمَّ إليهم «كِنان» أيضًا فصرت وحيدًا أمام الخيمة التي بتُّ فيها أمس، ذكرتُ الله وفتحت الزُّجاجة الأولى فخرج منها كيان شبيه بهؤلاء الذين رأيتهم من قبل في «بحر الظُّلمات»، طار بقلنسوته الزَّرقاء وهو يقبض على رمح طويل، قُلت في نفسي ربَّما ذلك ابن الملك «زُريق» المفقود الَّذي أخبرني أنَّ اسمه «القابض على رمحه»، أردتُ أن أتحدَّث إليه لكنَّه حدَّجني بنظرات غاضبة ومضى حتَّى تلاشى من أمام عيني، فتحتُ القارورة الأُخرى متعجِّلًا فخرج منها جنِّي آخر لكنَّ صورته وهيئته تختلفان، كان له ثوب طويل وفضفاض وكأنَّه من حرير أبيض ينساب عليه شعر رأسه الطويل ويموج معه في الهواء، وعلى رأسه تاج من لُجين في وسطه حجر فيروزيٌّ بارز وكبير، أخذ يتعملق ويعلو ورأسي يرتفع معه مما جعلني أتراجع للخلف لكي أراه بوضوح، حدَّق تجاهي ورأى القارورة الزُّجاجيَّة في يدي فأرسل شيئًا نحوها فتهشَّمت بين أصابعي ثُمَّ اختفى وتبخَّر في الهواء.

أقبل «كِنان» فسألته: «هل رأيت ذلك الجنِّي الَّذي خرج من تلك القارورة للتوِّ؟».

- لم أره... وانتبه ليدك حتَّى لا تُجرح فقد حطَّمت الزُّجاج.

- ما بال أولئك الجنِّ الذين يخرجون من تلك القماقم والقوارير ويطيرون؟
- لعلَّ هناك من حبسهم فيها، يقولون إنَّهم قد يكونون من الجنِّ الَّذين عاقبهم نبي الله «سُليمان»، لهذا توقَّفنا عن فتح القماقم وأعدنا أغلبها إلى البحيرة مرَّة أخرى بأمرٍ من القائد، وسنرحل الآن.

انطلقنا من جديد وتركنا البحيرة، وكانت الخيول تُهملج بنا وتُسرع، فبعد ما ذاقه الجميع خلال الأيام الماضية من برد شديد كُنَّا جميعًا نستمتع بالسير تحت أشعة الشَّمس الدَّافئة.

انتهينا إلى مكان فيه لوحات من الرخام الأبيض منصوبة ومثبَّتة بالأرض، وعليها كتابات مسماريَّة بالخطِّ المسند الحميريِّ[1] فأمر القائد بنسخها وترجمتها للعربيَّة، فانكب المترجمون على فحص النُّصوص وترجمتها. عادوا وأخبرونا أنَّها تحمل نقوشًا وكتاباتٍ تشير إلى أسماء الأنبياء والفراعنة والملوك القدامى، إلى جانب بعض الوصايا. وكان هناك لوحة من نحاس مرسوم عليها صورة لرجل يحمل شيئًا مكتوبًا عليه: «ليس ورائي مذهب، فارجعوا ولا تدخلوا هذه الأرض فتهلكوا».

عندما قرأ المترجم تلك الجملة بصوت مسموع كان هذا بمنزلة استفزاز للفرسان الأشدَّاء، فتقدَّم بعضهم وتخطَّى مكان اللوحة وهو يلوِّح بسيفه ولم يحدث شيء، وتبعه آخرون وفعلوا كما فعل وتقدَّموا للأمام حتَّى ساروا بين الأشجار، ثُمَّ فجأة اهتزَّت الأرض وارتجَّت وظهر لهم من بين الأشجار وحوش ضارية كأنَّها خرجت من كهوفها للتوِّ، رؤوس عظيمة وأفواه عريضة وأنياب بارزة، وكانوا يركضون بسرعة شديدة ويُصدرون أصواتًا تنخلع لها القلوب وتقشعرُّ لها الأبدان، مزقتهم وخيولهم إلى أشلاء. وعندما اقتربت تلك المخلوقات توقفت فجأة أمام الصورة النحاسية ولم تتخطها، وكأنَّ هناك حدودًا خفيَّة لتلك المنطقة قد حجزتهم وأوقفتهم، حدَّقوا تجاهنا وكنَّا قد تقهقرنا للخلف، وعادوا إلى وضعهم السابق واختفوا بين الأشجار، فتراجع

---

(1) خط المُسند: أو الخط الحميري يسمِّيه المستشرقون خط النصب التذكارية، وهو نظام كتابة قديم تطور في اليمن قرابة القرن (التاسع - العاشر) قبل الميلاد.

الجميع في ذهول وخوف فهم لم يروا مثلها من قبل! لم يجرؤ أحد على الدُّخول لجمع أشلاء من ماتوا لكي تُدفن، وابتعدنا عن المكان في حزن وكرب، فقلت لـ «كِنان»: «يبدو أنَّ تلك الوحوش تحمي شيئًا ما في هذه الأرض».

- لعلَّها كنوز أو قبيلة من الجنِّ تسكن تلك البقعة.

- ربَّما..

لاحظت حزنه فسألته: «لماذا أراك محزونًا يا «كِنان»؟».

- هؤلاء كانوا رفاقي، ويحزنني فقد الأحبَّاء.

سرت بجواره في سكون، يظلُّ الموت هكذا عندما يموت من لا نعرفهم، إن ذُكر في سعة ضيَّقها فالقلوب تزهد في الموجود، وإن ذُكر في ضيق وسَّعه فالعقول تزهد في المفقود، أمَّا عندما يسلبنا أحبابنا وأقاربنا فهو يعصر صدورنا عصرًا.

***

«قمر»

ظلَّت «قمر» تُحدِّق نحو الطَّعام ولم تمسَّه، وكان الدُّكتور «مودود» يكاد ينتهي من تناول غذائه، لاحظ شرودها فطرق على كفِّها برفق لتبدأ في تناول ما أمامها، فاستجابت وسألت أباها وهي تفتت الخبز وتعبث به: «أبي.. هل من جديد عن «توفيق»؟».

تنهَّد وقال بأسى: «لا يا بنتي، حتَّى رجال الشُّرطة لم يأتوا بجديد».

- ما رأيك أن نزور بيته مرَّة أُخرى.

- ليس من حقِّنا اقتحام بيت شابٍ غريب ليس بيننا وبينه صلة قرابة.

تململت وعادت تسأله: «هل عثرتم على ابن عمِّه؟».

- الشيخ «محمود» أرسل من يسأل عنه وعن «توفيق» قرب مسكنهما القديم، ولا أحد يعرف أين «توفيق»، لكنَّهم يقولون إنَّ قريبة لـ «وَهدان» تقول إنَّه سافر إلى إيطاليا، أظنُّها خالته، هكذا قالوا.

- أرأيت يا أبي؟ «وهدان» لديه خالة، وربَّما لـ «توفيق» خالات أو أيُّ أقارب غير هذا الوَهدان!

- للأسف لا.. أخبرني من قبل خلال زياراته أنَّ «وهدان» لديه الكثير من الأقارب من جهة والدته، أمَّا والدة «توفيق» فكانت وحيدة، كنت حينها أسأله عن أصدقائه وأقاربه ومن يختلط بهم.

- لعلَّ «توفيق» سافر إلى «إيطاليا» هو الآخر.

- لا أظنُّ يا بنتي، لقد وضع كلَّ ميراثه في هذا البيت، وكان يرغب في الزَّواج والاستقرار، وهو يُحبُّ عمله، ولم يُظهر أيَّ ميل للسَّفر والمغامرة.

- أليس من المحزن أن يكون الإنسان وحيدًا لدرجة أنَّه لو اختفى لا يجد حبيبًا ولا قريبًا يبحث عنه؟

- بلى.

رنت إلى والدها وقالت وهي تُخفض صوتها: «نستطيع ريَّ الحديقة على الأقل».

- سأكلِّف أحدًا بريِّها.

- أبي.. أرجوك.

لم يُجبها وتجاهل عينيها الجميلتين وهما تتوسَّلان إليه، لكنَّه فوجئ بها تتبعه عندما خرج من البيت قبل موعد عيادته بساعة كاملة، كانت تعلم أنَّه سيذهب لريِّ الحديقة بنفسه، لم يتمكَّن من فتح الباب ووقف أمامه ينظر إلى البيت في ضجر، لكنَّها عندما اقتربت فُتح الباب بين يديها بيسر وسهولة فوقف الدُّكتور «مودود» يُراقبها وهي تدخل وهو يتخبَّط في قلق وريبة. أمسك كلٌّ منهما برشَّاش للماء وانطلقا يرويان الحديقة وكان كلاهما يراقب البيت من آن لآخر على أمل أن يظهر «توفيق» من خلف إحدى النَّوافذ. لقد اكتشف الدُّكتور «مودود» أنَّه تعلَّق به هو الآخر، وكان بالفعل قلقًا عليه قلق الأب على ولده أكثر من قلق الطبيب على مريضه. عندما انتهيا توجَّها نحو الباب وطرقاه بقوَّة علَّه يُفتح كما حدث من قبل، لكنَّه لم يُفتح هذه المرَّة. خرجا من الحديقة محبطين وعادت «قمر» إلى بيت أبيها، وتوجَّه الدُّكتور «مودود»

إلى عيادته وهو يتساءل: أين اختفى ذلك الشَّاب الَّذي سرق عقل ابنته؟ وما سرُّ هذا البيت؟

***

«**توفيق**»

عدنا إلى سيرنا فرأيت البريق الأصفر ينعكس على سُحب السَّماء أمامنا فاصطبغ الأفق بصُفرة وكأنَّ عين القِطر قد سالت وانسكبت على خطِّه، مرَّت ساعات ووصلنا أخيرًا إلى أسوار «مدينة النَّحاس» والدَّهشة تعقد ألسنتنا، ألف فارس لم أسمع لهم صوتًا، وكأنَّ الطيور قد حطَّت على رؤوسهم وبقيت أصوات حوافر الخيول تتوالى وتدقُّ الأرض في إيقاع مهيب، يتزامن مع ضربات قلوبنا الَّتي تسارعت من هول ما نراه. أفزعنا منظر «المدينة» بسورها النَّحاسيِّ الهائل وامتلأت قلوبنا رعبًا من عِظمها وبُعد أقطارها.

همس لي «كِنان» قائلًا: «هذا ليس من صُنع البشر، لا ريب أنَّها من صُنع الجنِّ».

- ألم يصنع الجنُّ مَحَارِيبَ وتَمَاثِيل وجِفَاني كالجَوابِ وقُدُورًا رَاسِيَاتٍ بأمر من نبيِّ الله «سُليمان»؟
- بلى، وتلك الأسوار أمر يسير عليهم.
- انظر إلى علوِّ السُّور وانحنائه وكيف يبرق النَّحاس! يا إلهي!

بدأت أصوات الهمهمات تتعالى، واختلط الاندهاش والإعجاب بالخوف والتوجُّس في صدري، أعلم أنَّنا على مقربة من الجنِّ، الجنُّ مرَّة أخرى..

ولكن كيف هم سكَّان تلك المدينة؟

وماذا سيفعلون بنا؟

نادى منادٍ: «سننزل عند ركن المدينة الشرقيِّ».

ترجَّل الفرسان وبدأ العمل في الحال، الكلُّ يُشارك وكأنَّها خليَّة نحل وكلٌّ منهم يعرف دوره، دُقَّت أوتاد الخيام ونُصبت في نظام وأشعلوا النِّيران

وسطها التماسًا للضوء والدفء، ودعوني للطعام وبدأت أتعرَّف إلى بعضهم بشكل أعمق.

ألقى الليل بعباءته على المكان وأطبقها، صلَّينا العشاء وبتنا بأكثر ليلة مرعبة رأيتها في حياتي، فقد كانت الأصوات الَّتي تصدر من خلف أسوار «مدينة النَّحاس» مخيفة، صيحات ودقٌّ وصياح وعويٌّ وقهقهة، هبَّ بعض الفرسان وبدؤوا بترتيل القرآن فهدأت الأصوات، نمت ساعات قليلة بعد مشقَّة فعادت الأصوات من جديد، وعاد قرَّاء القرآن لترتيله، تقاربنا في المجالس وكُنا نطمئن ببعضنا بعضًا. قام أحدهم وأذَّن للفجر فسكن كلُّ شيء ووقفنا للصلاة، وجلسنا والوقت يمرُّ ببطء شديد، وعندما أشرقت الشَّمس أخذ الفرسان يكبِّرون الله استئناسًا بطلوع الصُّبح وسرورًا به.

لم يمنعهم هذا من محاولة اقتحام المدينة لكشف أسرارها، حاولوا بشتى الطرق العثور على مدخل أو باب في هذا السور ولكن دون جدوى. رأيت فارسًا ينصرف مع نحو مائة من رفاقه بأمر من قائدهم الَّذي كنت أتأمَّله من بعيد ولا أجرؤ على الاقتراب منه لهيبته، فقد طلب منهم الدَّوران حول «مدينة النَّحاس» ليحددوا أماكن بواباتها. كنَّا نراقب أسوار المدينة ببريقها الأخَّاذ ولا ندري من أيِّ مكان ندخلها، وعندما يحلُّ الليل كان يمرُّ ثقيلًا على الجميع، لولا الصَّلاة وذكر الله لانفطرت قلوبنا.

جاء أحد الفرسان وكان بارعًا في البناء والهندسة بفكرة الحفر تحت السور للوصول إلى المدينة، فهبَّ الجميع لتنفيذ فكرته وكان «كِنان» أوَّلهم، ولكن عندما بدؤوا في الحفر، اكتشفوا أن أساسات السور النحاسية كانت أعمق وأقوى مما توقعوا. قال أحدهم وهو يرفع ناظريه إلى قمَّة السُّور: «لنجمع متاعنا ونضعه فوق بعضه ونحمل بعضنا بعضًا ونصعد».

أعجب الجميع بفكرته، أخذوا يجمعون متاعهم ووضعوه فوق بعضه بعضًا وكنت أُساعدهم، ووضعوه بجوار السُّور ورتَّبوه بنظامٍ ليقفزوا فوقه ليحاولوا ارتقاء سور المدينة، لكنَّ الأمتعة المكدَّسة لم تبلغ ربع الحائط لارتفاعه الشَّديد وعلوه.

لم ييأسوا! وجرَّبوا صنع السَّلالم ووصلوها ببعضها بعضًا بالحبال، ونصبوها على حائط السُّور، وظلُّوا يصعدون، ويطيلونها ويصعدون مرَّة أخرى، وأمر القائد بعشرة آلاف درهمٍ فضيٍّ لمن يصعد إلى أعلى السُّور على هذا السُّلم ليرى ما خلف سور المدينة، فأسرع أحد الفرسان وتسنَّم السلَّم، فلما صار على سورها وأشرف على ما فيها أخذ يُحدِّق أمامه باندهاش شديد، ثُمَّ بدا عليه الخوف والرَّهبة، ثُمَّ أخذ يقهقه ضاحكًا بجنون ثم ألقى بنفسه إلى داخلها. اعتصر قلبي، وددتُ لو كان «الرَّماديُّ» هنا ليحملني وأُحلِّق فوقها وأرى ما بالدَّاخل وأُخبرهم، لكنَّني لا أدري أين اختفى!

غاب الفارس في الدَّاخل فنادوه قائلين: «أخبرنا بما عندك وبما رأيته».

لم يُجبهم ولم يُسمع له صوت، وكانوا جميعًا يقفون صامتين في ترقُّب ويميلون برؤوسهم ينتظرون سماع صوته، واندلعت ضجة عظيمة أثارت في أنفسنا الخوف والفزع واستمرت هذه الأصوات المرعبة طوال الليل ولم تنقطع، وعندما انتهت، بدأ «موسى بن نصير» ورجاله في الصياح باسم الرجل الذي قفز، لكن لا أثر له.

قال رجل: «هل سنتركه ونتخلَّى عنه؟».

قال آخر: «اصعد بنفسك وتفقَّد أمره».

فأجابه الأوَّل: «لا أستطيع تسلُّق الجدار مثلما فعل.. اصعد أنت».

قال ثالث: «هؤلاء نفر من الجنِّ ولا ريب أنَّهم قتلوه».

فقال «كِنان» في حزن وأسى: «وربَّما لا يزال على قيد الحياة وينتظر منَّا العون».

بدأ الجدال يحتدم بين الحضور وتعالت أصواتهم، وأعينهم عامرة بالفضول والقلق على رفيقهم، فقال «موسى بن نصير»: «سأجعل ألف دينار ذهبيَّة لمن يصعد ويأتينا بخبره».

تقدَّم فارس آخر قائلًا بجسارة: «سأصعد». وتسلَّم المال ووضعه في رحله وصعد، فلما استوى على السور حدَّق خلف السُّور، ثُم تغيَّرت ملامح وجهه وبدا عليه الاندهاش الشَّديد، ثُمَّ قهقه ضاحكًا ثم ألقى بنفسه كما فعل

الفارس السَّابق! وتكرَّر النِّداء ولم يُجب على رفاقه، ثم صعد ثالث فكانت حاله مثل حال اللذين تقدماه فامتنع الفرسان بعد ذلك إلى الصعود وأشفقوا على أنفسهم. أمَّا الرَّابع فقال: «اربطوني بحبلٍ فإن ألقيت بنفسي كما فعلوا اجذبوني بقوَّة»، فربطوه بالفعل وعندما بدأ يضحك ويقهقه جذبوه كما طلب منهم قبل أن يقفز، لكنَّهم شعروا بقوة شديدة تشد الحبل من الجهة الأخرى للسور، وفجأة انقطع جسد الرجل إلى نصفين، ليسقط نصفه العلوي داخل المدينة، بينما بقي نصفه السفلي معلقًا بالحبل أمام أعيننا، رأيت دماءه السَّوداء فدارت طواحين الهواء في رأسي، صوت خفيض تلجلج في رأسي ليخبرني أنَّني أشهد حياة أخرى في عالم آخر قد تتشابه أحداثه مع ما حدث بعالمي لكنَّهم ليسوا أنفسهم، تعالت الأصوات والصياح داخل المدينة، شخصت الأعين تجاه نصف الجسد وهو ينزف، واقشعرَّت الأبدان وصرخ أحدهم باكيًا من هول الصَّدمة، أدركنا أن الكيان الذي قام بهذا الفعل هو الجنُّ، مزيج من الخوف والحزن والقلق كان يعتمل في صدري وأنا أراهم يتخبَّطون في حيرة، ران علينا جميعًا صمت ثقيل وجلسنا ننتظر شيئًا ما لا ندرك ما كنهه!

أمضينا باقي اليوم ولا أحد يجرؤ على الصُّعود، بدأ بعض الفرسان في التململ وإظهار خوفهم من أن ينقطع بهم الزاد فأحدثوا جلبة، ومال الجميع إلى التراجع والرحيل، فأمرهم القائد «موسى بن نصير» بالاستعداد للرحيل والعودة إلى «القيروان» مرَّة أخرى، فخضع الجميع لقرار قائدهم، وبدؤوا يتجهَّزون للرَّحيل في حماس.

قررت أن أسأل المترجمين عن ريشة ومحبرة لأكتب أنَّ «مدينة النَّحاس» في تلك البقعة الَّتي أقف عليها، فأخرجت الخريطة أوَّلًا وفحصتها ففوجئت أنَّها تومض حيث وضع «بُرهان» علامته وحيث أقف الآن، ثُمَّ رأيت اسمها يظهر ويبرق وكأنَّه كُتِب بالذَّهب ثُمَّ يختفي، الآن أستطيع تنفيذ وعدي للملك «زُريق» عندما أردُّها له، فأنا لست على يقين أنَّ الَّذي خرج من القارورة هو ولده «القابض على رمحه» وقد يحتاج إليها، أعدتها إلى حقيبتي القماشيَّة فما عُدت في حاجة إلى الكتابة عليها.

سألت «كِنان» وهو يجمع متاعه ويُجهِّز فرسه: «ما تظن بأولئك الذين صعدوا السور؟ وكيف كان حالهم عندما ضحكوا بتلك الطريقة؟».

أجابني وكان محزونًا: «لا ريب أنَّهم فقدوا عقولهم وبُهتوا لأن بتلك المدينة جنًّا قد وكِّلوا بها».

- وأولئك الجنُّ الذين كانوا يخرجون من تلك القماقم الَّتي ألفيناها بالبحيرة وطاروا في الهواء؟ أتظنُّهم شاركوا في بناء تلك المدينة؟
- لعلَّهم من بنوها بالفعل، أو أيُّ شيء آخر. الأمر يبدو مريبًا بأكمله، منذ مرورنا بالبحيرة وأفضل رجالنا يتساقطون.

بدا لي أنَّ سؤالي قد أثار شجون «كِنان» فقد كان من تسلَّقوا من أقرب رفاقه وأحبَّهم إليه، شرد قليلًا ولمعت عيناه وكأنَّه يفكِّر ليتَّخذ قرارًا مهمًّا، صاح فجأة بانفعال شديد: «سأصعد لأتفقَّد من غابوا».

هاجوا وماجوا وحاولوا منعه وطال جدالهم ولم يرضخ لأحد منهم، أقبلتُ عليه لأمنعه قائلًا: «أمجنون أنت؟ لقد انقسم جسد الرَّجل إلى نصفين! وها هو نصف جسده لا يزال يتدلَّى والدماء تسيل منه، لو كانوا رجالًا لظهروا وبارزناهم بالسُّيوف، هذا عمل الجنِّ وألاعيبه يا «كِنان»».

- أكره أن أكون جبانًا.
- وكذلك أنا مثلك، لكنَّك ستُلقي بنفسك إلى المجهول!
- لن أتخلَّى عن رفاقي.
- لعلَّهم ماتوا جميعًا.
- أو بالدَّاخل ينتظرون الفرج.
- لعلَّك تعود إلى أهلك سالمًا.
- ليس لي أهل لينتظروني، أنا وحيد يا «توفيق»، وحتَّى لا يُقال لم يكن بينهم رجلٌ شجاع.

أوجعتني كلمات «كِنان» فوقفتُ أُراقبه وهو يتجهَّز لصعود السلَّم، قال وهو يخفف من ملابسه ليكون صعوده أسهل: «لستُ جبانًا لأخاف من الجنِّ، ولعلَّ رفاقنا الثَّلاثة بالدَّاخل ينتظرون العون».

وقفت أتخبَّط في حيرة، هل أصعد معه؟ أم لا؟

عندما تلاقت نظراتنا خجلت من نَّفسي، وأنا الَّذي كُنت أزعم أنَّني لا أخاف، اتَّخذت قراري سريعًا.. وقُلت: «سأصعد معك!».

التفتوا جميعًا تجاهي فمررت على وجوههم سريعًا واستقرَّت نظراتي على وجه «كِنان» الَّذي عانقني وقال وهو يُربِّت على ظهري: «أنت أخي.. أنت حقًّا أخي».

أثَّرت في نفسي كلماته كما أثَّر فيَّ عناقه، فمنذ وفاة أبي وأمِّي لم يعانقني أحد قطُّ، وكأنَّ النَّاس عزفوا عن عناقي لمجرَّد أنَّني في العشرينات من عُمري، نحن نحتاج إلى العناق أحيانًا لنضمِّد تلك الجراح الَّتي تُصيب أرواحنا، وقد يكون التَّربيت على الظهر وقودًا لنُكمل الحياة. بدأنا نتجهَّز لصعود سور «مدينة النَّحاس»[1] والجميع يقفون حولنا وكأنَّهم يودِّعوننا للأبد.

صعدنا السُّلم والدَّعوات تُلاحقنا بينما «كِنان» يتقدَّمني، وكلَّما رأيت قدميه تنتقلان كنت أتبعه، طفقنا نقرأ القرآن وكلَّما علونا كُنَّا نشعر بضيق أنفاسنا، حاولت أن أنظر تحتي فرأيت الفرسان وهم يراقبوننا فرجف قلبي، وعزمت ألَّا أنظر مرَّة أخرى حتى لا أشعر بالدُّوار، توقَّفت قليلًا وكنت أشعر بالرَّهبة، بقيت ساكنًا وثابتًا فسألني «كِنان» دون أن يلتفت نحوي: «ما بك يا «توفيق» ؟».

- دقَّات قلبي تتواثب بجنون.

(1) ذكر «ابن خلدون» و«ياقوت الحموي» وغيرهما قصَّة «مدينة النَّحاس» ورحلة «موسى بن نصير» لها في كتبهم، واعتبروها من الخيال. وهناك رواية تشير إلى وجود خمس وعشرين بوابة لمدينة النَّحاس، وأنَّ فارسًا واحدًا تمكن من التغلب على تأثير المدينة ولم يسقط داخلها وفتح الباب ليجدوا داخلها كنوزًا وجواهر والكثير من الذَّهب.

- هذا طبيعيٌّ لأنَّك خائف!

- وأنت يا «كِنان»، ألا تشعر بالخوف؟

- بلى، أنا خائف أيضًا.. ولكن على أيٍّ حال، ما دمنا نسعى في خير فلو وافتنا المَنيَّة سنكون على خير بإذن الله.

التقطتُ أنفاسي بصعوبة ثُمَّ قلتُ له: «صدري يؤلمني».

- هل ترغب في العودة؟

- لا.. فقط أحدِّثك بما يعتريني.

- إذن سنُكمل الصعود ولن ننظر إلى الخلف مهما حدث، ولنطمئنَّ بالله ثمَّ ببعضنا، فأنا معك وأنت معي يا صاح.

- اللهم قوَّة.

أكملنا الصُّعود وكان يزداد صعوبة كلَّما ارتفعنا، وعندما وضعنا أيادينا على حافَّة السُّور تذكَّرت دعاء فرددته مخاطبًا أرض «مدينة النَّحاس»: «يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما خُلق فيك ومن شر ما يدبُّ عليك وأعوذ بالله من أسد وأسود ومن الحية والعقرب ومن ساكن البلد ومن والد وما ولد»[1].

همس «كِنان» قائلًا في ذهول: «من هؤلاء؟».

نظرت وإذا بفتيات ساحرات جميلات بزينتهنَّ يطرن أمامنا في الهواء، أخذن ينادينني و«كِنان» بصوت مخمليٍّ وفاتن، وبدأ «كِنان» يضحك من فرط جمالهنَّ فوضعت كفِّي على عينيه وكررت الدُّعاء نفسه فردده خلفي فانصرفت الفتيات، قال «كِنان»: «والله لم أر في حسنهنَّ من قبل!».

- لو أطلت النَّظر لنالك ما نال من سبقونا.

- لا ريب أنَّهم قد فقدوا عقولهم، لكنَّني لا أرى رفاقي أسفلنا! ولا أرى أحدًا هنا.

(1) من دعاء النبي -صلى الله عليه وسلَّم- عندما كان ينزل بأرض غريبة.

بدت أمامنا المدينة بأكملها بقصورها البديعة الَّتي لم أر مثلها في حياتي فقد كانت كلُّها من النَّحاس الأصفر، وفوَّارات الماء النَّحاسيَّة في كلِّ مكان والماء الرقراق ينبثق ويفور منها ويبرق كاللجين فيها، وعلى جانبَي كلِّ بوَّابة من بوَّابات تلك القصور كان هناك تماثيل من نَّحاس لطواويس وأسود ونمور وغيرها، كلُّ شيء يبرق هنا تحت ضوء الشَّمس، لكنَّها كانت خالية من البشر، وكان فيها أشجار كثيفة ملتفَّة الأغصان، وتحتها الثِّمار قد تساقطت وغمرت الأرض بسخاء.

نظرت خلفي فأجفلتُ وقُلت لـ «كِنان»: «اختفى كلُّ شيء خلفنا!».

- ماذا!

فوجئنا باختفاء قافلة الفرسان بخيولها وإبلهم التي كانوا يحملون متاعهم عليها، وحتَّى السَّلالم المربوطة بالأحبال الَّتي صعدنا عليها اختفت، لم يكن خلفنا سوى الصَّحراء الخالية، همس «كِنان» قائلًا: «يا إلهي! أين اختفى كلُّ شيء!».

- بل كيف سنهبط؟ لو كان «الرَّماديُّ» هنا لحملنا.

- من «الرَّماديُّ» هذا؟

- صقر.

- هل فقدت عقلك يا «توفيق»؟ كيف سيحملنا صقر ضعيف؟

- لا تلتفت لكلماتي.. فقط تمسَّك جيدًا أرجوك.

حاولت أن أعصر ذهني عصرًا لعلَّني أشعر بـ «الرَّماديِّ» كما أخبرني أنَّه يشعر بي ويسمعني، لكنني لم أشعر بأيِّ شيء. كُنت قلقًا من أن أفقد توازني وأسقط أنا أو «كِنان»، ظهر لنا الجنِّي الَّذي خرج من القارورة بثيابه البيضاء وتاجه ذي الحجر الفيروزيِّ فقال «كِنان» بصوت مرتعش: «من أنت؟».

ثقبني الجنيُّ بنظراته سائلًا: «لماذا أتيت «مدينة النَّحاس» أيُّها الغريب؟».

أجابه «كِنان» بانفعال وظنَّه يسأله: «نرغب في فتح بوابات «مدينة النَّحاس» لرفاقنا».

- لماذا؟

- أمر الخليفة باستكشافها!

حملنا في غمضة عين إلى أرضها فوقفنا نتأرجح وكأنَّنا لا نُصدِّق أنَّنا على الأرض، اختفى الجنِّي ووقفنا نتلفَّت باحثين عنه، قررنا أن نسير معًا خطوة بخطوة ونلصق ظهرينا ببعضهما، بدأنا نسير ببطء ونتلفَّت ونراقب كلَّ شيء حولنا، دلفنا لأوَّل القصور وكان مليئًا بأرائك من نَحاس عليها نمارق من حرير أحمر وأصفر وأخضر، وهناك صناديق كبيرة ممتلئة بالحليِّ والذَّهب واللآلئ حتَّى إنَّها كانت منثورة على الأرض هنا وهناك تحت أقدامنا. وصلنا إلى درج نحاسيٍّ فصعدنا وكان هناك العديد من الغرف، دلفنا إليها تباعًا وكانت متشابهة، أسرَّة من نحاس عليها فرش من حرير والكثير من النَّمارق الملوَّنة، والصناديق المكتنزة بالذَّهب في كلِّ ركن فيها، والأبواب كلُّها من نَحاس، ووصلنا إلى أكبر باب بالقصر فوقفنا أمامه.

مددتُ يدي ودفعته وكان ثقيلًا جدًّا فتحرَّك مُحدِثًا أزيزًا مهيبًا، أجفلنا في البداية عندما لاحت لنا تماثيل من فرط إتقان نحتهم ظننّاها من البشر. رأينا تمثالًا لامرأة ممدَّدة على الفراش وعلى جانبيها حارسان كلٌّ منهما يحمل سيفًا ذا نصل مزدوج، يُخال إلى الرَّائي أنَّهم من البشر وقد جمدوا أماكنهم لسبب ما، قرَّب «كِنان» إصبعه وكاد يلمس رأسها فإذا بها تتحرَّك فانتفضنا وكأنَّنا أُصبنا بصاعقة، وقفت أمامنا وتحرَّكت تجاهنا وكُنَّا نتراجع إلى الخلف، قالت وهي ترمينا بنظرة فاحصة: «لو لمستني بطرف إصبعك لأطاح الحارسان برأسك».

صاح «كِنان» بصوت مرتعش: «عفريتة من الجنِّ!».

فتوقَّفت وقالت: «نعم أيُّها الإنسيُّ الجبان».

- لستُ جبانًا.

قالت بخيلاء وهي تبدو كذئبة فيها خبث ودهاء: «منذ زمن طويلٍ لم يزرنا أحد! ماذا تُريدان أيُّها اللصَّان؟».

قُلت وأنا أُراقب الحارسين وسيفيهما: «جئنا لنرى ما خلف أسوار مدينة النَّحاس لا أكثر».

- كاذب، قد يكون رفيقك هنا لهذا السَّبب، أمَّا أنت فلا، أنت هنا لسبب آخر لكنَّني لا أستطيع قراءة ذهنك.

سألها «كِنان»: «من أنت؟».

ضحكت طويلًا ثُمَّ أشارت بيدها فازدحم المكان بأشباهها وكأنَّه احتفال، كانوا يرقصون ويلهون ويصيحون حولنا فضجر «كِنان» بهم واقترب منِّي وهمس قائلًا: «علينا أن نخرج من هنا بسرعة».

أخفت المرأة كلَّ الحضور بإشارة أخرى وقالت وهي تخرج من الغرفة: «هل ترغب في رؤية من سبقوك يا «كِنان»؟».

عندما نادته باسمه اصفرَّ وجهه وأجابها وهو مقطِّب الجبين: «نعم.. أين هم؟».

- في الحديقة الخلفية.

وصلنا إلى الحديقة الخلفية فوجدنا الثَّلاثة الَّذين صعدوا هناك وحولهم تماثيل لحرَّاس يُشهرون سيوفهم تجاه أجسادهم، حتَّى نصف جسد آخر من تسلَّق كان موجودًا بجوارهم، لكنَّهم كانوا في حالة غريبة من الجمود، اقترب «كِنان» منهم وناداهم بأسمائهم وظلَّ يمسح على وجوههم وصدورهم لعلَّهم يُجيبونه، أقبلتُ أتفحَّصهم معه فلم أجد لهم نبضًا ولا نفسًا فأدركتُ أنَّهم قد ماتوا، قالت المرأة بصوت يشبه الفحيح: «هذا جزاء من يتسلل لمدينتنا!».

ندَّت دمعة من عين «كِنان». أشارت بيدها فوجدنا أنفسنا نُبعَد عنهم، وأشارت مرَّة أخرى فتحرَّكت تماثيل الحرَّاس ومزَّقوهم إلى أشلاء، سالت دموع «كِنان» والتفت نحوها حانقًا وقال: «سُحقًا لك!».

هدرت غاضبة فامتلأ المكان بمسوخ قبيحة لم أرَ في قبحها من قبل، أحاطونا من كلِّ الجهات، رأيتهم يمسكون بـ «كِنان» ويعلِّقونه في الهواء، وعندما أقبلوا عليَّ ظهر الجنِّي الَّذي أطلقته من القارورة من قبل وحال بيننا وبينهم وحرر «كنان» من سلطانهم وما عدنا نراهم، كان يرفع ذراعيه على

الجانبين وكأنَّه يبسط حجابًا ما ليُخفينا عنهم، أعاد سؤاله الَّذي طرحه علينا عندما أنزلنا من فوق السُّور وقال وهو يثقبني بنظراته: «لماذا أتيت إلى هنا يا «توفيق»؟».

- من أنت؟
- «زُهلول»[1].
- لماذا عليَّ أن أُجيبك؟
- أجبني.. فقد أعادني صوتك وأنت تُتمتم بالدُّعاء، أنت غريب عن أرضنا وبلادنا، فما الَّذي يدعوك لاقتحام «مدينة النَّحاس»؟
- أخبرني أنت من حبسك في تلك القارورة الَّتي عثرت عليك فيها؟
- عدو لدود، لهذا أنا مدينٌ لك بردِّ جميلك.

قال «كِنان» وهو يُحدِّق تجاهه: «ليس لك وجه ولا ملامح، لماذا تبدو وكأنَّك قطعة من الليل تتحدَّث؟».

التفتُّ تجاه «كِنان» وسألته متعجِّبًا: «هل هذا ما تراه؟».

- نعم.. أرى كيانًا لرجل طويل وكأنَّه الظَّلام يرتدي وشاحًا أسود، لا ملامح له، وتتدلَّى من عنقه قلادة بها ثلاث جماجم، وينبعث منه صوت أجش!
- لكنَّني لا أرى هذا!

تغيَّرت ملامح «زُهلول» وسألني وهو يقترب وكان حجمه يتضاءل: «أحقًّا ترى وجهي؟».

- نعم.
- صفني!

(1) زُهلول: هو الأملس النَّاعم من الشيء، وفرس زُهلول أي أملس الظَّهر. وهو أيضًا اسم لجبل أسود كما ذُكر في كتاب مُعجم البُلدان.

وصفت ملامحه وثيابه البيضاء وشعره الطَّويل وتاجه وحجر الزُّمرُّد الَّذي يتوسَّطه فبدت عليه الدَّهشة الشَّديدة وقال وهو يشير إلى الأسفل: «انظر تحت قدميك إذًا وأخبرني عمَّا تراه».

نظرت تحت قدمي فإذا بأرض مدينة النَّحاس كالبلور، وتحتها آلاف من الأعين المرعبة الَّتي تنظر تجاهي وتُحدِّق نحوي فأجفلت، كان صدري يهتزُّ على إثر تسارع دقَّات قلبي، سألت «كِنان» وأنا أحاول التقاط أنفاسي: «هل ترى ما أراه؟».

- أين؟
- الأرض تحت قدميك!
- لا شيء سوى الحصى والتُّراب.

قال «زُهلول»: «ما دام لم يتبيَّن ملامحي فلن يراهم».

- من هؤلاء؟
- قومي.. «المنبوذون»، هكذا يُطلقون علينا منذ أن اسودَّت وجوهنا في أعين الآخرين وما عاد أحد يرى ملامحنا منذ أمد بعيد.
- من فعل بكم هذا؟
- «الدَّواسر» قبل أن يحبسوا قومي هنا.
- ومن هم «الدَّواسر»(1)؟
- عشيرة من الجن كانت تعيث في الأرض هنا فسادًا، طغوا في بقاعها وأكثروا فيها الفساد لسنوات طويلة احتلُّوا أرضنا في البقاع الأخرى، فانتقلنا إلى هنا عندما علمنا بخلوِّ المدينة فتبعونا واحتلُّوا «مدينة النَّحاس» وحبسونا تحت الأرض، وكما ترى ما عاد أحد يرى ملامحنا إلَّا أنت! ولو أظهرتُك لهم الآن سيقتلونك وسيمزِّقونك إربًا كما فعلوا في جثث رفاقكما.

---

(1) الدَّواسريُّ أي الشديد القويُّ، والضخم الجسم، وجمعها الدَّواسر، وقد ذُكِروا في الجزء الثالث من سلسلة مملكة البلاغة.

كان «كِنان» يُنصت وملامحه تتأرجح بين الحزن والفزع، سألت «زهلول» وأنا في حيرة: «لماذا أرى وجوهكم؟».

- ربَّما لأنَّك غريب عن أرضنا وبلادنا! فقد تتبَّعت أثرك وعلمت بأنَّك وافد من ممالك أخرى.

سألني «كِنان»: «ماذا ترى بالضَّبط يا «توفيق»؟ وماذا يقصد بأنَّك وافدٌ من ممالك أخرى؟».

- كما وصفت أمامك، أرى وجهه وملامحه وملابسه بوضوح، كما رأينا جميعًا الجنِّي الَّذي خرج من القُمقُم الَّذي فتحته بنفسك يا «كِنان»!

هدر «كِنان» غاضبًا تجاه «زُهلول»: «دُلَّنا على الباب لنفتحه لرفاقنا ردًّا لجميل «توفيق» عليك».

- رفاقكما سيرحلون الآن بعد أن صلوا على موتاكم بأمر من قائدكم، حتَّى نصف الجسد المُعلَّق سقط من تلقاء نفسه ودفنوه، والفرقة التي كُلفت بالبحث عن بوابات المدينة عادت خائبة فرأى قائدكم أن ينصرفوا فورًا حتى لا يفقد المزيد من الرجال، وها هم الآن يعودون يائسين محزونين لما أصابهم، لذا سأخرجكما الآن لتلحقا بهم ولا تعودوا أبدًا.. أبدًا..

طاف حولنا ليحملنا لكنَّنا فوجئنا بطائفة من «الدَّواسر» تُحاصرنا من كلِّ حدب وصوب، كان لحضورهم أثر شديد علينا، بدأتُ أسمع صراخ «المنبوذين» تحت قدميَّ، سمعه «كِنان» أيضًا وأُصيب بخوف وفزع شديد، وكان صدري يضيق وكأنَّه يصَّعَّد في السَّماء، أخذوا يضربوننا في الأرض وفي بعضنا بعضًا، رأيت «كِنان» يرتفع في الهواء وكأنَّ أحدهم يحمله وتقوَّس ظهره، وكانت عيناه جاحظتين، حاولت أن أقترب لكنَّهم ثنوه فسمعت طقطقة عظامه وصرخت قهرًا، حينها ضربوا رأسي بالأرض فشُجَّت وسالت دمائي، فعاد «زُهلول» وحملنا معًا إلى خارج «مدينة النَّحاس» فاحتضنت «كِنان» الَّذي كان يئنُّ بين يديَّ، وانبثقت الدِّماء من جوفه على صدري، قال وهو يمسح جُرح جبيني بأنامله المرتعشة: «دماؤك حمراء!».

- وددتُ أن أُخبرك بهذا.

ظلَّ ينازع بين يدي، لقَّنته الشَّهادتين، ولفظ أنفاسه الأخيرة على كتفي فبكيته حتَّى بحَّ صوتي. البعض يُشعِروننا بأنَّنا منهم وننتمي إليهم، فينالون من أفئدتنا شيئًا ما، وعندما تُنزع الأرواح من أجسادهم وتسكن، يُنزع ذلك الشيء من صدورنا نزعًا فيؤلمنا للأبد.

لم يكن حولي أحد ليُساعدني، وكنت أرى أنه لم يعد هناك داعٍ من العودة إلى القافلة بعد أن مات «كنان»، فليس لديَّ الجرأة على شرح ما حدث له، فطلبت من «زُهلول» أن ينقلنا بجوار نهر لأغسِّله فنقلنا، غسَّلته وكفَّنته في ثيابه وبدأت أحفر له لحدًا ودموعي تسيل وكان «زُهلول» يُراقبني في صمت، في غمضة عين كان اللحد محفورًا فأدركت أنَّه ساعدني فدفنت «كِنان» ورمست قبره ودموعي تهمي، صلَّيت عليه وسِرت وكأنَّني لا أرى «زُهلول»، ضقت بحضوره وكُنت لا أدري لماذا يتبعني. التفتُّ نحوه وسألته: «لماذا تتبعني؟».

- لم أرد لك جميلك حتَّى الآن.
- لقد فعلت.
- لم أفعل!
- ألم تُخرجنا من «مدينة النَّحاس»؟
- بلى، لكنَّ ردَّ الجميل يعني أن أهبك شيئًا ثمينًا.. ولأنَّني استرددت قدراتي فور تحرري بفضلك فلديَّ هديَّة لك.
- لا أُريد شيئًا، لم أفعل شيئًا يستحقُّ هذا.. كلُّه بفضل الله!
- يجب أن تقبل لأنَّني سأظلُّ أسيرًا لجميلك وسأتبعك طوال الوقت.
- حسنًا، هات ما عندك.

أخرج خنجرًا عجيبًا له مقبض ذهبيٌّ بديع وقال وهو يُقدِّمه لي: «تفضَّل».

- خنجر! حسنًا قبلتُ هديَّتك.
- هذا ليس مجرَّد خنجر عاديٍّ!
- كيف؟

- ستقطع به مسافات طويلة.

- حسنًا، شكرًا لك.

- ستحتاج إليه على أرضنا! تستطيع الانتقال به.

- نعم نعم، سأحتفظ به في حقيبتي وأنتقل به في كلِّ مكان.

أبديت امتناني عندما أخذ يُكرر أنَّه خنجر مميَّز ليتوقَّف، فقد كنت محزونًا ولا طاقة لي بالكلام. أضاف وهو يشير إلى صدري وبدا لي أنَّه يعلم بأمر كتابي: «كتابات الأمير «أواوا»».

- نعم... أتعرفه؟

- لقد التقيتُه.

دُهشت عندما أخبرني بهذا، وبدأ يحكي لي ما يتعلَّق بما قرأته في الرِّسالة الَّتي وجدتها في قبو البيت، وكيف أنَّه كان يتسلل بين النَّاس دون أن يشعروا به ويُنصت لكلام الأمير «أواوا» وكانت تُعجبه حكمته، وأنَّه التقاه بعد أن هرب من سجنه قبل أن يقتلوه وكان معه خادمه «سربل» الَّذي كان يُدوِّن ما يقوله، ثُمَّ أضاف بصوت يشوبه الحزن: «لقد مات الأمير «أواوا» هو وخادمه «سربل» غرقًا، حملتهما بنفسي ووضعتهما في تابوتين كما يفعلون حيث نشأ وعاش هذا الأمير».

أدركتُ حينها أنَّه لم يتبعني لأنَّني حررته وحسب، بل لأنَّ لي علاقة بالأمير «أواوا» الَّذي أحبَّه، سألته وأنا أضع الخنجر في حقيبتي: «ماذا ستفعل مع قومك؟».

- سأعود لنجدتهم.

- وحدك؟

- لا بدَّ من هذا، فـ «الدَّواسر» يسحبون القوى ويمتصُّونها، وكلَّما قتلوا كيانًا ما تنتقل قواه إلى كياناتهم فتُعززها وتزيدها بأسًا.

- ألهذا قومك هناك تحت أقدامهم ليقتلوهم إن احتاجوا ويسلبوهم قوَّتهم؟

- نعم. وسألجأ للعشائر الأُخرى من الجنِّ لأطلب العون منهم.

- سيكون جيِّدًا أن تفعل هذا.
- سأستردُّ مُلكي بأكمله يومًا ما.
- هل لي بسؤال أخير؟
- نعم.
- هناك أمير من أمراء الجن خرج باحثًا عن «مدينة النَّحاس» واختفى وليس له أثر، وهو من عشيرة من الجنِّ تسكن «بحر الظُّلمات»، فهل تعرف عنه؟
- ذلك الأمير المغرور «القابض على رمحه» كان سبب حبسي في تلك القارورة.
- كيف هذا؟
- أتى ليحتلَّ «مدينة النَّحاس» وحده، من فرط غروره لم يصطحب معه أحدًا من قومه حتَّى لا يُشاركه في مُلكه، وظنَّ أنَّه يقدر على هذا، فدلف المدينة قبل مداهمة «الدَّواسر» لنا، فأخرجتُ الأمير «القابض على رمحه» من «مدينة النَّحاس» ودار بيني وبينه صراع طويل بجوار البحيرة، فبرز زعيم الدَّواسر «غيهبان»[1] وظلَّ يُراقبنا حين كُنَّا نتصارع وباغتنا وحبسني في قارورة وألقى طلاسمه عليها، ولم أكن على علم بأنَّه حبس الأمير أيضًا إلَّا بعد تحريري، لولا انشغالي بصراعي مع ذلك الأمير لانتبهت له وهزمته، فـ «غيهبان» يعلم أنني أقدر عليه، لهذا لجأ لحبسي خلسة ولم يجرؤ على قتالي وجهًا لوجه.
- لا ريب أنَّ غيابك قد أضعف عشيرتك.
- عندما أخرجتَني من القارورة على شاطئ البحيرة هرعت لـ «مدينة النَّحاس» لأتفقَّد أمر عشيرتي وأولادي فوجدتهم مسجونين تحت المدينة.

(1) الغيهب من الليل هو الشَّديد الظُّلمة والسواد.

- لقد تسبب غياب «القابض على رمحه» في ضياع مُلك أبيه، فقد سلبه أخوه ملكه!
- لا ريب أنَّه قد فعل، فـ «أصحاب القلانيس الزَّرقاء» لا يتَّخذون إلَّا ملكًا له أبناء من الذُّكور.
- هل أنت على يقين أنَّ الأمير الَّذي حَررتهُ قبلك بلحظات هو «القابض على رمحه»؟
- نعم هو، لقد رأيته بنفسي فور خروجي يطير أمامي ويتلفَّت، ولا ريب أنَّه بين أهله الآن، شكرًا لأنَّك حررتني، لقد أعاد هذا إليَّ قُدراتي ولهذا استطعتُ منحك تلك الهديَّة الَّتي تليق بك.

عاد من جديد لمدح هديَّته فاستفزَّني هذا وكدت أُلقي هذا الخنجر لكنَّني لزمت الصَّمت، أكره قبول الهدايا لهذا السَّبب، قال قبل أن ينصرف: «إلى اللقاء».

كدت أصيح أنني لا أرغب في «هذا اللقاء» مرَّة أخرى، انصرف «زُهلول» وبقيت وحيدًا وأنا أتفكَّر في حال الجنِّ وصراعات عشائرهم، رجوت الله ألَّا ألتقيهم مرَّة أُخرى أبدًا. كان الحزن على «كِنان» يُطبق على صدري، تذكَّرته وهو يُلقي بدثاره على كتفي عندما رآني أرتجف، وعندما لفَّ رأسي بوشاحه الدَّافئ، وعندما سهر بجواري وأنا مريض، وعندما أطعمني، وعندما عانقني لأنَّني قررت الصُّعود معه، وعندما مسح الدِّماء عن جبيني قبل أن يُغمض عينيه للأبد. بعضهم يموت فيُحيي فينا حنينًا لا ينطفئ، ووجعًا لا يُضمَّد، وذكريات لا تُنسى.

طال المسير وكُنت أُحدِّث نفسي بصوت مسموع حتَّى لا أفقد عقلي، وعندما حلَّ الليل أخرجت قطع الكريستال فأضاءت ظُلمتي، قرأت آيات من كتاب الله ومسحت على وجهي وجسدي، واستلقيت على ظهري ورحت أتأمَّل السَّماء ونجومها، أخرجتُ الخنجر وأخذت أتفحَّصه وأنا مُمدَّد على ظهري، كان له مقبض ذهبيٌّ منقوش ببراعة، أخذت ألوِّح به في الهواء وكُنت لا أزال أحدِّث نفسي بصوت مسموع، لا بأس ببعض اللهو حتَّى لا أفقد عقلي!

رددتُ أسماء الأماكن الَّتي مررت بها، أشرتُ بيدي يمينًا وقُلت: «بحر الظُّلمات»، ثُمَّ أشرت يسارًا وقُلت: «غابة السِّنُّور»، وعُدت أُشير يمينًا وقُلت: «مدينة الرَّباب»، وأخيرًا أشرت يسارًا وقُلت: «مدينة النَّحاس»، وكررتها مرَّة أخرى.. وتذكَّرت فجأة الشَّاطئ ذا الرِّمال السَّوداء المُطلّ على بحر الظُّلمات فقُلت وأنا أرفع الخنجر لأعلى: «الشَّاطئ الأسود».

وفجأة! انبثقت فجوة في الهواء، كانت تتلاعب وتموه وتدور أمام عيني، فوثبت واقفًا ونظرت إلى أوسطها فرأيت الشَّاطئ الأسود برماله السَّوداء أمام عيني، كان المكان يطفو حولي في تموُّجات هستيرية، وكان «بحر الظُّلمات» ساكنًا بلا موج كما رأيته أوَّل مرَّة، حملت صخرة من تحت أقدامي وألقيتها في الفجوة فرأيتها تستقرُّ هناك، تذكَّرت كلمة «زُهلول» عندما قال: «هذا ليس مجرَّد خنجر عاديٍّ، ستقطع به مسافات طويلة»، فأدركت ما كان يعنيه، حملت حقيبتي وما فيها ولملمت الكريستالات المضيئة وقفزت إلى داخل الفجوة فانتقلتُ إلى الشَّاطئ الأسود.

٩

الشَّاطئ الأسود

عندما وطئت قدماي الرِّمال السَّوداء انغلقت الفجوة المُعلَّقة في الهواء، وقفتُ أُحدِّق إلى الظَّلام وتذكَّرت الكريستالات المضيئة فأخرجتها لأُضيء ما حولي، كان البحر هادئًا لا موج فيه ولا صخب. انتبهت إلى أنَّني من فرط الانفعال كُنت أقبض على الخنجر بقوَّة شديدة حتَّى ابيضَّت أصابعي فأرخيتها ووضعته في حقيبتي.

تذكَّرت «بنات الرَّعد»، أردتُ أن أراها مرَّة أُخرى لكن أنَّى لي هذا وليس برفقتي ذلك الشَّاب الأمهق الأنور الذي كان يُرافق السيِّد «سُفيان» وكان البحر يسحب ماءه كلَّما كان يقترب منه! جلستُ أراقب قرص القمر وهو في كبد السَّماء، أخذت أنقل ناظريَّ بينه وبين صفحة الماء، كدت أنعس لولا هياج البحر فجأة، بدأ الموج يتوافد على الشَّاطئ واهنًا ناعمًا ثُمَّ اشتدَّ شيئًا فشيئًا وصار له زبدٌ كثيف، ثُمَّ بدأ يعلو ويعتلج، وقفت وأنا أترقَّب ظهور أيِّ شيء منه فقد صار الجنُّ يقفزون في وجهي من كلِّ حدبٍ وصوب، أو لعلَّه يظهر من جوفه فجأة كائن أسطوري مخيف فيداهمني بكلِّ المخاوف! انسحب الموج فجأة وبسرعة شديدة وكأنَّ البحر قد ابتلع ماءه ليُريني «بنات الرَّعد» وهي تُضيء وسط الظَّلام، اقتربتُ بخطى مترددة وسرت فوق الصُّخور الدَّاكنة

الَّتي برزت حتَّى وصلت إلى «بنات الرَّعد» وقلبي يخفق، كانت مُتشابهة فلم أدرِ على أيٍّ منها أمسح بيدي كما فعل السيِّد «سُفيان»، انحنيت على واحدة منها ومررت يدي عليها وأنا لا أدري هل ستُظهر لي قبسًا من الماضي أم لا؟ ظللت أمسح بيدي على كلِّ حجر أبيض مضيء تحت أقدامي، لم يظهر شيء! جلست على واحدة منها وهمست: «أريني شيئًا ولا تتركيني حائرًا، أو تحوَّلي إلى أيِّ شيء، وإن كان تحتك جنِّي فليخرج الآن! حدِّثيني بصوت مسموع ولن أخاف!».

لم يحدث شيء وبدأت أشعر بالبرد، وخشيتُ أن يبتلعني البحر فقمت لأنصرف، فارتجف الضَّوء المنبعث منها واشتدَّ حتَّى إنَّني غطَّيت عينيَّ من فرط قوَّته، ثمَّة أصوات لا أدري كنهها ولا مصدرها بدأت تخترق أذني في آن واحد، زئير مخيف، صراخ مكتوم، عواء، همهمات مروعة، سمعت صوت فتيات صغيرات ففتحت فرجة من بين أصابعي أمام عيني اليمنى بعد تردد فرأيتهنَّ على سطح «بنت الرَّعد» الَّتي كُنت أجلس عليها يركضن بين الأشجار بملامحهنَّ الغريبة، ويتوجَّهن ناحية جدول ماء ويقفزن فيه وينثرن على بعضهنَّ الماء، لم أرَ مثل تلك الوجوه من قبل! ما هذا الجنس العجيب؟ لهم أعين صغيرة وأفواه عريضة وأسنان دقيقة وأبدان نحيفة وبشرة شاحبة، بدا لي أنَّ هناك من يكبرهنَّ سنًّا وكأنَّهن مُعلِّمات لهنَّ يرشدنهنَّ وسط غابة مليئة بأزهار ألوانها بديعة وكان المشهد أخَّاذًا، انطفأ ضوء «بنت الرَّعد» ثُمَّ عاد يُضيء وعليه صورة مُعلِّمة من هؤلاء وكانت تحمل الملامح نفسها، بيد أنَّها كانت قلقة ومُتكدِّرة وكلتا عينيها الدَّامعتين تراقبان الفتيات من كثب، صاحت فجأة وقالت لهنَّ: «الآن!»، تفرَّقت الفتيات الصَّغيرات وسط الغابة وبدأت كلُّ واحدة منهن تتحدَّث بشيء وكأنَّها تدندن بأغنية ما! اختلطت أصواتهنَّ وبدا لي أنَّها بلغات لم أفهمها، ثُمَّ عاد ضوء «بنت الرَّعد» إلى انطفائه قبل أن يضيء من جديد.

رأيت وجه «الرَّماديِّ» وهو صغير، تعرَّفت عليه من ملامحه، كان يقف أمام أبويه وكانت تلك هي المرَّة الأولى الَّتي يتحوَّل فيها، رأيت الأجنحة وهي تبرز من تحت جلده، ورأيته وهو يبكي من الألم، وسمعت أباه وهو يُخبره بأنَّه

سيعتاد هذا ولن يشعر به مستقبلًا، توالت صور شتَّى لمحاولاته المتكررة أمام أبويه حتَّى رأيته وهو يقفز من فوق جبل ويتحوَّل إلى صقر ويطوف في أجواء مدينة الرَّباب، وتوالت صور لأسراب من الصقور، والغربان، وطيور غريبة الألوان والأشكال. ثُمَّ بدأت صور الملوك والملكات تظهر، هذا صراع بالسُّيوف على عرش والقصر يحترق، وهؤلاء فرسان يركضون بخيولهم، حروب مروعة تدور رحاها أمام عيني، قصور وقلاع ومعابد وبيوت، أهرامات وتماثيل عملاقة، حضارات تتوالى ومدن تحت الماء وأخرى منحوتة في الجبال، بشر يتحوَّلون إلى حيتان، وآخرون إلى ذئاب، وغيرهم يُشبهون الزَّواحف ويسيرون على قدمين وقد غطَّت الحراشف أجسادهم، وخيول مُجنَّحة تطير في السَّماء، ومدن معلَّقة بين السَّحاب، وأخرى من طوابق تحت الأرض، ومدائن مهجورة ليس فيها أثر للبشر، وجبال شاهقة وأرض مليئة بغيوم كثيفة وضباب!

ظلَّت الصُّور تتوالى أمام عيني، رأيت الكتب برموزها وحروفها وهي تُشكِّل أجسادًا كأجساد الرِّجال ويجتمعون فوق جبل أيهم قمَّته بيضاء تحلِّق حولها سُحب حمراء، ورأيت عمالقة على جبل آخر، وأقزامًا يعيشون في قرى أخرى، ووحوشًا ضارية تزأر في كهوف الجبال، انخلع قلبي عندما توالت صور الجنِّ بأشكالهم المختلفة، ثُمَّ تلاعب ضوء «بنت الرَّعد» فجأة، وبدأ يُظهر لي رموزًا وعلامات، تعرَّفت على بعضها فقد رأيتها في الكتب لكنَّني لا أجيد قراءتها، حروف مسماريَّة، ورموز هيروغليفيَّة، وعربيَّة، وبلغات أُخرى.

ثُمَّ ارتجَّ الحجر وبدأ يريني مشاهد مرَّ بها الوافدون قبلي، رأيتهم.. نعم رأيتهم وهم يمرُّون بما مررتُ به، رأيت السيِّد «سُفيان» ورفاقه وصُدمت لما رأيتهم، لماذا لم يُخبرني بكلِّ هذا؟ توالت صور لأهوال ودروب وممرَّات وخرائط وأرقام، وتكررت وجوه لا أعرفها لكنَّها تبدو وكأنَّها ترغب في البوح بشيء ما! وظهرت خريطة «الشَّريف الإدريسيِّ» أمامي كاملة بكلِّ تفاصيلها الدَّقيقة، ظلَّت تقترب وتبتعد، وكأنَّها عدسات تُقرِّب لي أسماء المُدن والأماكن لكي أقرأها، ثُمَّ عاد الموج يعتلج من جديد وغمر نصف جسدي فأسرعت نحو الشَّاطئ، وقفتُ وأنا أتأرجح من فرط الانفعال مما رأيته، أخذتُ أقدح

زناد فكري فهناك الكثير من الأشياء انكشفت لي، أرغب في إخراج عقلي من جمجمتي وفرزها لأربط بينها وأفكَّ شفرتها وأفهم سرَّ هذه المملكة العجيبة، كُنت مرهقًا للغاية لم أشعر بساقيَّ وشعرت بالهوان والضعف قبل أن أفقد الوعي وأسقط على رمال الشَّاطئ.

***

استيقظتُ على نداء «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة»، كانت تنزلق على الرِّمال بثوبها الفضفاض، قالت عندما رأتني أفتح عينيَّ: «ها قد أفقت أخيرًا!».

- ما الَّذي حدث؟
- سمعت صيحة ندَّت منك وجئت فرأيتك وظننتك قد مِت.
- يبدو أنَّني فقدتُ وعيي.
- لقد عاد أخي «القابض على رُمحه»، وأخبر أبي بما حدث عند البحيرة، وعلمنا أنَّك من حررته، ألم تنتبه لما حدث بالبحر منذ ساعة؟ لا ريب أنَّك سمعت الضَّوضاء، لقد ثار «أصحاب القلانيس الزَّرقاء» وحاصروا عمِّي في قصره بعد عودة أخي، ودارت بين جنود عمِّي وجنود أبي حرب طاحنة.
- كان هناك أمواج وقد انحسر ماء البحر بالفعل.
- لا ريب أنَّك رأيت «بنات الرَّعد»؟
- رأيتها... وليتني ما رأيتها.

ضحكت قائلة: «لا تظن أنَّك قد عرفت كلَّ شيء عن مملكتنا، هناك المزيد من الأسرار».

- وهل ترين شيئًا على «بنات الرَّعد»؟
- لا.
- وددت أن ألتقي أباك لأردَّ له الخريطة، لكنَّها تدلُّني على طريقي، وما زلت في بدايته.
- ألم يُظهر كتابك الكلمات حتَّى الآن؟

- لم يظهِر حرفًا وحدًا.

قالت وهي تُحدِّق إلى وجهي: «احتفظ بالخريطة وسأخبر أبي، وإليك المزيد من الأحجار لتُنير دروبك المظلمة».

- معي الكثير منها.

- وإليك المزيد، فاقبل هديَّتي واعلم أنَّنا في عونك إن احتجت إلينا، فقد حررت أخي وكان هذا سببًا في استعادة أبي لسلطانه وملكه تحت «بحر الظُّلمات»، «أصحاب القلانيس الزَّرقاء» مدينون لك.

- قبلتُ هديَّتك.

اختفت ثُمَّ عادت تُطلُّ من جديد فأجفلت، قالت: «ولكن أخبرني، لماذا لا أستطيع الوصول إلى «مدينة النَّحاس»؟ تتبعت أثر أخي بعد عودته ولم أصل إليها ولا إلى البحيرة، وخرج بعض جنودهم لتحري أمرها ولم يعثروا لها على أثر!».

كُنت أعلم أنَّ التَّنقل في أرجاء مملكة البلاغة لا يستغرق من الجنِّ لحظات، فأصابني الارتباك عندما أخبرتني أنَّ «مدينة النَّحاس» اختفت!

- لقد وضعت علامة على مكان «مدينة النَّحاس» بمساعدة صديق.

- أرني الخريطة.

أخرجتها وبسطتها أمامها، وفوجئت بأنَّ العلامة الَّتي وضعها «بُرهان» قد اختفت! قُلت في حيرة: «كانت هنا في مكان ما، وسط «فيافي الأندلس!»».

- عجبًا لتلك المدينة! تظهر وتغيب، وكأنَّها تعلم بأنَّ الجميع يبحثون عنها.

- هناك طائفة من الجنِّ محبوسة تحت أرضها يسمَّى أفرادها بـ «المنبوذين».

- لقد حبس زعيمهم أخي، سأنتقم منه يومًا ما، إيَّاك أن تتحدَّث مع أحد منهم، ولو رأيته فر منه كفرارك من الموت.

- لماذا؟ لقد تحدَّثت إلى زعيمهم بالفعل!

- أيُّها السَّاذج! قد تدفع حياتك ثمنًا لحديثك مع «المنبوذين»، أتظنُّ أنَّك شجاع لأنَّك تحدَّثت معه؟

- أحاول أن أكون شجاعًا.

- الجُبن أحيانًا يُنجي.

- وهل سيضيف الجُبن إلى حياتي حياة أُخرى؟

- يبدو أنَّ هناك بعض الخوف لا يزال عالقًا بصدرك، وعلى أيِّ حال أنت على صواب، فالذين يموتون بسبب مخاوفهم وجُبنهم أضعاف من يموتون في ساحات الحروب لشجاعتهم.

- أنا مُجبر أن أتعامل مع كلٍّ من ألتقيه في رحلتي هنا، أدري أنَّ هناك أشرارًا كما أنَّ هناك طيِّبين.

- بل هناك خير وشرٌّ في الشَّخص ذاته الَّذي تلتقيه، فلا تركن للضوء فقط فقد يلتهمك الظَّلام بغتة من حيث لا تدري، لو أظهرتُ لك وجهًا من وجوهي الأخرى لن تتحمَّل، لم أتحدَّث مع بشريٍّ قط كما أتحدَّث معك الآن، في العادة أستمتع بخنقهم ثُمَّ أنتزع أعينهم لألهو بها.

شعرت ببرودة تسري في جسدي، قالت بصوت خفيض: «لكنَّك تبدو مُختلفًا، كما أنَّنا كُنَّا في حاجة إلى عونك للبحث عن أخي».

- والآن ترغبين في قتلي بعد أن أنهيت لك المهمَّة، أليس كذلك؟

ران علينا صمت قصير أخافتني فيه نظراتها، انصرفت «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» فحمدت الله أنَّها لم تنتزع عينيَّ، وكان ذهني لا يزال في حالة ذهول، جلست ساكنًا حتَّى بزغ الفجر، وبعد أن صلَّيت هدأت أفكاري واستطعت أن أتخذ قرارًا مهمًّا، أخرجت خنجري ورفعته للأعلى وقُلت: «مدينة الرَّباب».

وانتقلت إلى هناك، وكان سكان المدينة لا يزالون غارقين في النَّوم، فجلست أمام بيت «الرَّماديِّ»، لكنَّ خفقان قلبي أيقظ «الرَّماديَّ» فورًا فخرج إليَّ متلهِّفًا للقائي.

كان ما أمرُّ به عصيًّا على الفهم، عصيًّا على الشَّرح، عصيًّا على التصديق، وصرت أحمل أكوامًا من مشاعر الحزن تقبع خلف أضلعي، عانقني «الرَّماديُّ» وجلس أمامي وسألني: «أين كنت يا صاح؟ لقد اشتقتُ إليك».

- أُريد أن أعود إلى بيتي.
- ماذا؟ لقد قطعت نصف الطريق!
- لم يبدأ الطريق أصلًا، كتاب «أبادول» لم يُظهِر حرفًا واحدًا حتَّى الآن.
- لنصبر قليلًا.
- لا.. لا.. ما عُدت أُطيق الانتظار.
- والغربان؟
- سأتدبَّر أمرها.
- ظننتُ أنَّك ستكون أكثر ثباتًا، لماذا تهرب يا «توفيق»؟
- لا أهرب! أنا مُتعب فقد مررتُ بالكثير ورأيت الكثير.
- لا بأس عليك.
- لقد مات «كِنان»!
- ومن هو «كِنان»؟
- شاب طيب التقيته وكان لي بمنزلة أخٍ لساعات كانت كافية لتمنحني الأمان.
- أسأل الله أن يرحمه، أشعر بحزنك الشَّديد في صدري، ولكن أليست تلك سُنَّة الحياة؟ والموت حقٌّ؟
- بلى، ولكنَّني أتألَّم.
- لا يوجد حياة خالية من الألم.
- أنا موجوع.. أتدري ما هو الوجع؟
- ربَّما لهول ما مررتَ به كان موت «كِنان» كتفريغ لتلك الضُّغوط الَّتي مررت بها، وكأنَّك بيضة كُسرت من أضعف أجزائها.

- ربَّما، لكنَّني أيضًا مشوَّش، رأسي يكاد ينفجر ويتفتت.

أقبل صقر عظيم وكان يحمل السيِّد «سُفيان» وفور أن أنزله عاد إلى صورته البشريَّة فأدركت أنَّه السيِّد «شاهين»، وقفا أمامي وتعجَّبا من حضوري داخل حدود «مدينة الرَّباب»، بعد أن تبادلنا التَّحيَّة، قال «شاهين» لابنه «الرَّماديِّ»: «ألم تُخبرنا أنَّك لا تشعر بوجوده؟ متى حملته إلى هنا؟».

- استيقظت ووجدته أمام البيت!

سألني السيِّد «سُفيان» بقلق: «كيف دخلت إلى «مدينة الرَّباب» دون أن يحملك «الرَّماديُّ»؟».

- لدي وسيلة تنقلني إلى أيِّ بقعة أشاء الانتقال إليها.

تبادل النَّظرات مع السيِّد «شاهين» وكانا في غاية الاندهاش، سألني «الرَّماديُّ» بفضول: «ما هي؟».

أخرجت خنجري وقلت لهم: «هذا الخنجر هديَّة من ملك من ملوك الجنِّ التقيته على حدود «مدينة النَّحاس».

- لماذا قبلت هديَّته؟

- وما العيب في ذلك؟

- سيتبعك، ولا بدَّ أن تردَّ الهديَّة بهديَّة أخرى.

- ولماذا لم تحذِّرني من قبول هدايا الجنِّ عندما أخبرتك عن قبولي لخريطة «الشَّريف الإدريسيِّ»؟

- هذه ليست هديَّة، لقد أعارها لك لتُساعده، وأنت وعدته بردِّها له.

- لكنَّني قبلت هديَّة من ابنته «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة».

أخرجت الكريستالات وفركتها فأضاءت، حدَّج «شاهين» ابنه بنظرات غاضبة وسأله: «هل كُنت تعرف؟».

- نعم.

- لماذا لم تُخبرني؟

قال «الرَّماديُّ» وهو يتخبَّط في ارتباك: «ظننتُ أنَّ السيِّد «سُفيان» رأى هذا على بنات الرَّعد فهي تُسجل كل ما يحدث للوافدين».

- الآن صار مدينًا لاثنين من الجنِّ وعليه ردُّ الدين لأنَّه قبل الهديَّة.

قُلت وأنا أُعيدها إلى حقيبتي: «لقد رددتها بالفعل وحررت شقيق «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة»، وبدت ممنونة لهذا، كما أنني أنقذت ملك الجنِّ أصلًا وكان مدينًا لي!».

- هل أخبرك أنَّها هديَّة؟

- نعم.

- كيف قبلت هذا؟

- لم أكن أعلم!

- هل التقيت «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» بعد عودة أخيها؟

- نعم.

- إيَّاك أن تكون قد قبلت شيئًا آخر عندما التقيتها؟

- المزيد من تلك الكريستالات!

ازدادت حيرتهم وطلبوا مني أن أحكي لهم ما مررتُ به بالتَّفصيل، فبدأت أسرد على الثَّلاثة تفاصيل رحلتي، وعندما علموا بوصولي إلى «بنات الرَّعد» استوقفني السيِّد «سفيان» وسألني: «ماذا رأيت؟».

- الموت!

- ماذا تعني؟ صف لي ما رأيته!

- ولماذا عليَّ أن أصف لك ما رأيته بينما لم تُخبرني بالحقيقة كاملة يا سيِّد «سُفيان»؟

- أيُّ حقيقة؟

- أنَّ الوافدين يُقدَّمون كقرابين للشياطين وولاء لهم لخدمة السِّحر الأسود، ويُذبَحون بوحشيَّة شديدة لتُجمع دماؤهم الحمراء لكتابة الطلاسم في

الكُتب الَّتي تستدعينا، وأنَّ السُّحب الحمراء التي تحيط بجبل عظيم هنا تكثَّفت من دمائهم.

- أردت ألَّا أُخيفك... كما أنَّ هذا لا يحدث للجميع.

- ليس هذا من العدل!

- لو أخبرتك ستخاف وأردتُ لك أن تبدأ وأنت مُطمئنٌّ بقدرٍ كافٍ لتؤدي مهمَّتك، فقد لمست فيك بأسًا وقوَّة.

- وأنا تعبت، لماذا عليَّ البقاء هنا وذلك الكتاب لم يُظهِر حرفًا واحدًا حتَّى الآن؟ لقد رأيت أشياء مُروِّعة لا أجد لها تفسيرًا، وجوه أُناس يريدون البوح لي بشيء لكنَّني لا أسمع أصواتهم، وسمعت أصواتًا متداخلة تُناديني.

- أنسيت أنَّك على أرضٍ كلُّ شيء فيها حيٌّ ويتنفَّس، حتَّى الأحجار ستُحدِّثك وتناديك.

- لا أرغب في الاستمرار.. يكفي ما مررتُ به، رؤية الجنِّ وجهًا لوجه ليست بأمر هيِّن.

- كلُّ ما مررت به سينفعك وإن أوجعك! كلُّ شيء يكتبه الله علينا له دور في حياتنا، قد لا نُدرك هذا حينها لكنَّنا ندرك لاحقًا وقد يكون هذا بعد سنوات طوال.

- وقد لا نُدرك!

- هذا صحيح.

- أنا في حاجة إلى العودة إلى واقعي الذي عشت فيه، أن أسير في شوارع بلدتي، أرى وجوه المارَّة التي لا أعرفها لكنَّها مألوفة لي بطريقة ما، أعود إلى عملي، أشتري الخبز والطَّعام وأعود لآكل وأنام، أرغب في الجلوس ساكنًا في بيت أبي، سأبيع هذا البيت الغريب وأستردُّ بيت أبي القديم البسيط، لقد تعبت، هناك شيء ما تحطَّم في داخلي، ما زلت في الخامسة والعشرين من عمري وأشعر أنِّي شيخ مُسنٌّ.

- وهدايا الجنِّ الَّتي قبلتها؟ هذا دينٌ عليك سداده.

- لا أريد الخنجر ولا حاجة لي بتلك الكريستالات، ألقوها في «بحر الظُّلمات» مع تلك الخريطة وستجدها تلك الجنِّيَّة الَّتي تزحف على الرِّمال.

- والغربان يا «توفيق»، لن تتركك!

- سأتدبر أمرها، سأنصب لها شباكًا، سأضع لها السُمَّ، سأشتري سلاحًا وأتصيَّدها.. لدي الكثير من الحيل، سُحقًا للغربان.. وسأبيع هذا البيت وأشتري أرضًا زراعيَّة.

رفع السيِّد «شاهين» يده واستوقف السيِّد «سُفيان» قبل أن يُكمل كلماته، هزَّ كلاهما رأسه للآخر بتفهُّم، ثُمَّ قال موجهًا كلامه لـ «الرَّماديِّ»: «حسنًا، أعد «توفيق» إلى بيته يا بنيَّ، هذا اختياره وسيتدبَّر أمر الغربان كما قال».

تمعَّر وجه «الرَّماديِّ» وظهر عليه الحزن وهو يتلقَّى الأمر من أبيه، حاول إثنائي عن قراري لكنَّني أبيت أن أتراجع، سرنا معًا ونحن صامتان، كان مُحبطًا للغاية وهو ينظر إلى وجهي قبل أن يتحوَّل ويحملني إلى دياري من جديد، كانت النوافذ مُغلقة وعندما اقتربنا من نافذة الغرفة العلوية فُتحت وحدها وأدخلني «الرَّمادي»، وقف على طرف النَّافذة وقال قبل أن ينصرف: «الغربان تنعق لتتواصل مع بعضها بعضًا، عندما ينعق زعيمهم ثلاث مرَّات مُتتالية فاحذر واختبئ».

- لماذا؟

- لأنَّ هذا يعني أنَّ الموت في الطريق، وأنَّهم جاؤوا لقتلك وليس لمهاجمتك وإخافتك وحسب.

- سأُعد لها شِباكًا و...

قاطعني قائلًا: «غربان مملكتنا لا تخشى الأصوات العالية كما هي غربان عالمكم، ولا تجذبها الأشياء اللامعة ذات البريق، وهم أذكياء للغاية».

- أخبرني إذًا كيف أُخيفهم؟

- لا شيء يخيفهم فهم الخوف نفسه.

- كيف أُبعدهم عنّي؟

- عروق الظَّيَّان!

- وكيف سأحصل عليها؟

- حديقتك ممتلئة بها، جفّفها واسحقها وانثرها على حوافّ النَّوافذ وعلى جسدك.

- لعلَّك تزورني من آن لآخر كصديق عزيز بعيدًا عن مملكة البلاغة.

شعرتُ بوخزة في قلبي عندما همس قبل أن يضرب بجناحه مُبتعدًا: «وداعًا يا صديقي».

ابتعد «الرَّماديُّ» ووقفت أشيِّعه بناظريَّ حتَّى ابتلعه الأفق، واستدرت لأنقل عينيَّ في أركان الغرفة، ثمَّة لمسة حزن شاجيٍّ تُظلل المكان، كان كلُّ شيء كما تركته لكنَّ الكتب الخالية من الكلمات غير موجودة، تحسست كتاب «أبادول» تحت قميصي وكنت لا أزال أرتدي قميص الكتَّان الَّذي ارتديته هناك وأنتعل الحذاء الغريب ذاته، هرولت نازلًا على الدَّرج وفتحت باب البيت وكانت النَّباتات قد بدأت تكبر، فوجئت بتربتها مبللة وكأنَّ هناك من رواها حديثًا، بحثت عن «عروق الظَّيَّان» وجمعت بعضها وعدت سريعًا إلى المطبخ لكي أبسطها على الطَّاولة لتجفَّ، كان الوقت عصرًا فتناولت الطَّعام بشراهة وكأنَّني أُسكن مع جوع بطني جوعًا من نوع آخر في نفسي وروحي، مررتُ أمام مرآة فتوقَّفت وعُدت إليها أتفحَّص صورتي وكنت في حالة من الكآبة وقد شعث شعر رأسي الَّذي كُنت أهتمُّ دائمًا به، ونبتت لحيتي فبدوت أكبر عمرًا، وبدت عيناي مُتعبتين للغاية، فركت جبيني المقطَّب ومسحت وجهي بكفيَّ لأحاول الاسترخاء. جلست أُخطط كيف سأنصب الشِّباك على النَّوافذ، وكيف سأضع فيها ما يجذب الغربان لأتصيَّدها، وكيف سأطحن «عروق الظيَّان» بعد أن تجفَّ وأنثرها على جسدي وعلى النَّوافذ، قد أضعها في الموقد فالحرارة ستُسرِّع من تجفيفها، نمت على الأريكة بالطَّابق السُّفليِّ بملابسي نفسها فقد كُنت مُتعبًا للغاية.

استيقظت مساءً على رنين جرس الباب ودقٍّ متواصل مما أفزعني، فتحت الباب وإذا بالدُّكتور «مودود» يقف أمامي، قال بتلهُّف وهو يتفحَّص ملابسي بعينيه الحاذقتين: «أين كُنت يا «توفيق»؟».

- مرحبًا يا دكتور «مودود» تفضَّل.

دلف والفضول يملأ عينيه وأعاد سؤاله: «أين اختفيت؟ ولماذا هناك جرح في رأسك؟ وما هذا اللون الأسود الَّذي يُخضِّب كتفك؟».

كدت أخبره بكلِّ شيء، كل ما مررتُ به، كل ما عانيته، عن الجنِّ وعن موت «كِنان» الَّذي قهرني وكيف مضغ الحزن قلبي، وأنَّ تلك دماؤه السَّوداء الَّتي جفَّت على كتفي، وكُنت في حاجة إلى إخراج ما بصدري، لكنَّني تراجعت، فهو لن يُصدِّقني. في اللحظة ذاتها انطلق رنين جرس الباب من جديد فأسرعت نحوه وإذا بها «قمر» فتسمَّرت قدماي بالأرض، وقفت تتأمَّلني على استحياء ولم أنطق بكلمة وكأنني ابتلعت لساني، فالتفتت لأبيها في خوف ووجل، قال وهو يشير إليها بيده لتقترب: «رأت «قمر» أضواء البيت من النَّافذة فأرسلت حارس البناية ليبلغني في العيادة فأسرعت إليك وسبقتها إلى هنا، أين كنت يا بنيَّ؟ وما هذه الملابس الغريبة؟».

ظلَّ الدُّكتور «مودود» يُطالع وجهي وينتظر الإجابات، وعندما لم أجبه دقق النَّظر إلى عينيَّ وسألني: «أتدري في أيِّ يوم نحن يا «توفيق»؟».

- الأربعاء.

- هل تعرف التَّاريخ؟

أخبرته بالتَّاريخ الهجريِّ والميلاديِّ ثُم أردفتُ: «أنا في كامل وعيي يا دكتور وذهني نشطٌ وحاضر فلا تقلق».

قال بعد صمت قصير: «كدت تفقد وظيفتك لولا تدخُّل زملائك، مدير المدرسة منحك إجازة، يبدو أنَّه يقدِّرك كثيرًا».

- حمدًا لله، ظننت أنَّ الأمر قد انتهى.

- لماذا لم تُخبر أحدًا أنَّك ستتغيَّب؟

- ومن سيهتمُّ لغيابي؟ كما أنني اضطررت إلى الرَّحيل عندما داهمتني الغربان.

- الغربان مرَّة أُخرى!

- أدري أنَّك لا تُصدِّق...

ابتسمتُ وخرج صوتي مذبذبًا وأنا أقول: «لو أخبرتك أنَّني عثرت على كتاب حيٍّ ويتنفَّس لكنَّه خالٍ من الكلمات، واستغاث بي لأستردَّ كلماته، وأنَّ الصَّقر الَّذي أخبرتك عنه حملني إلى عالم «مملكة البلاغة» العجيب وأنَّ هذه الملابس الغريبة الَّتي أرتديها من هناك، وقد مررت ببعض المخاطر والأهوال واخترت أن أعود فأعادوني.. هل ستُصدِّقني؟».

تبادل النَّظرات مع «قمر» وانتقل ليجلس بجواري وقال: ««توفيق».. لا بدَّ أن تبدأ العلاج حالًا أرجوك يا بنيَّ».

همست «قمر» قائلة: «أولى خطوات التَّعافي أن تعترف بينك وبين نفسك بحاجتك إلى العلاج، ما رأيك أن تُجرِّب؟».

- لستُ مريضًا!

- ربَّما تحلم وتتخيَّل، الأحلام تبدو حقيقيَّة عندما نكون بداخلها، لكنَّنا نكتشف أنَّها خُدعة عندما نستيقظ.

شعرت بسهم يخترق فؤادي، هي أيضًا تظنُّني مريضًا وأتوهَّم! ولم تكن مشكلتي في المرض ذاته، فالنَّفس تتعب وتمرض كما يحدث للبدن، وأستطيع تناول العلاج لإيماني أنَّ لكلِّ داء دواءً، ولكنَّني كنت محزونًا لأنَّ لا أحد يُصدِّقني! على الرغم من كلِّ ما شاهدته ورأيته وواجهته لا أستطيع إثبات وجود تلك المملكة وما فيها. قُلت وأنا أنقل عيني بين وجهها ووجه أبيها: «والرِّسالة الَّتي قرأتِها بنفسك يا آنسة «قمر»؟ وريشة «الرَّمادي» الَّتي أخفيتِها تحت أكمامك، والورقة الَّتي كنتُ قد كتبت فيها وصف مظهر الصَّقر بنفسي وأخذتِها من هنا معك؟».

فغرت فاها قائلة: «كيف تعرف بكلِّ هذا؟».

- لأنَّني علمتُ بوصولكما إلى البيت وأنا هناك، وسمعت حواركما وأنتما بالغرفة.

- هل كُنت مُختبئًا هنا؟

- لا.

- لعلَّ هذا له صلة بالجنِّ!

عندما سمع الدُّكتور «مودود» ابنته وهي تذكر الجنَّ وقف فجأة وكأنَّ أحدهم وخزه بإبرة وقال باستنكار: «هل فقدتِ عقلك يا «قمر»؟».

- أبي...

التفت نحوي قائلًا بجديَّة شديدة: «حسنًا، أنت بخير يا «توفيق»، وقد اطمأننت عليك، لا تخرج بهذه الثِّياب الغريبة من البيت وعُد إلى عملك غدًا بإذن الله واقطع إجازتك، وعندما ترغب في تناول العلاج تواصل معي».

التفت نحو ابنته وقال بحزم: ««قمر»! هيَّا بنا».

سارا نحو الباب وقلبي يزحف خلفهما، وعندما أغلقتَه خلفهما تناهى إلى مسامعي صوت نعيق الغربان فأجفلت، فأنا لم أستعد ولم أنصب الشِّباك ولم أجهِّز البيت لهجوم الغربان، هرولت إلى «عروق الظَّيَّان» بالمطبخ وكانت لا تزال غضَّة طريَّة، قبضت منها قبضة وملأت جيوبي وأسرعت نحو الغرفة العلويَّة، تناولت الكتاب ودسسته تحت قميصي مرَّة أخرى وانتعلت الحذاء، أغمضتُ عيني وكانت دقَّات قلبي تتسارع وكأنَّها طبول حرب تدق بين أضلعي، وفجأة شعرت أنَّني أسمع دقَّات قلب آخر تتزامن مع دقَّات قلبي، وسمعتُ أنفاسًا متسارعة فأدركت أنَّها أنفاس «الرَّماديِّ» التي تخترق أُذني، علا صوت أحد الغربان وأصدر نعيقًا حادًّا لثلاث مرَّات متتابعة فأدركت أنَّ الموت قادم..

رددتُ في ذهني مُحدِّثًا «الرَّماديِّ»: «تعال بسرعة». في غمضة عين كان يقف على نافذتي، لم أفتح فمي فقد فهمني دون أن أنبس ببنت شفة وحملني في الحال، وعُدت إلى مملكة البلاغة من جديد، فلا مناص من طريقي هذا.

لن يُصدِّقني أحدٌ هنا، حتَّى «قمر»! ولا بدَّ من أداء تلك المهمَّة لأرتاح من هذا الضَّجيج الَّذي زلزل حياتي.

***

في تلك اللحظة كانت «قمر» تقف مشدوهة مع أبيها في ممرِّ الحديقة وهي ترفع رأسها نحو السَّماء، فقد استوقفهما صوت نعيق الغربان، رأت «الرَّمادي» وهو يحمل «توفيق» ويرتفع به لأعلى، همست لأبيها في خفوت: «أبي.. هل ترى ما أراه؟».

رمش بعينيه وقال في ارتباك: «نعم يا بنتي.. «الرَّماديُّ»!».

***

١٠

أرض الأقواس

كانت عودتي إلى «مملكة البلاغة» فاترة، لم يكن لديَّ وقود نفسيٌّ لأناقش أحدًا في قرار عودتي، وقد رفقوا بي ولم يلمني أيٌّ منهم بالفعل، صار «الرَّماديُّ» يلازمني ويهتمُّ بي هو و«أمان» الَّذي أقام معنا لثلاث ليالٍ كُنت أنام فيها كثيرًا وكأنَّني أهرب من هذا العالم، لكنَّ الكوابيس لم ترحمني، كُنت أرى الشَّياطين وهي تُطاردني لكي يسلبوني كتابي، وتكررت رؤيتي لوجوه «المنبوذين» وهم تحت أرض «مدينة النَّحاس» وأعينهم تُحدِّق تجاهي. كان «بُرهان» يأتي ليتحدَّث معي ويجلب الكُتب ويريني فيها ما يُسلِّيني، أراني كُتبًا بلغات غريبة وعديدة، وعلمت أنَّه يعكف على تعلُّم اللغات وترجمة الكتب، توطَّدت علاقتي بالشَّباب الثلاثة وكأنَّني عثرت على عائلة جديدة، سألت عن «أطلس» فأخبروني أنَّ والده كلَّفه بمهمَّة خارج المدينة. زارنا السيِّد «سُفيان» مرَّة أخرى وكان لنا حديث طويل روى لي خلاله كيف أنَّ فقدانه لرفاقه قد آلمه بشدَّة، لم يكن معهم لحظة موتهم لكنَّه رآها تتكرر مرَّات ومرَّات على صفحة «بنات الرَّعد»، بدا عليه الحزن وهو يصف لي كيف عانى وكيف اتَّخذ القرار ليحمل على عاتقه مسؤوليَّة استقبال الوافدين بعد ذلك. نصحني أن أخرج من «مدينة الرَّباب» وأتَّبع خريطة «الشَّريف الإدريسيِّ» لأنَّ عدم ظهور كلمات

الكتاب سيُعرِّضني للخطر وسيجعلني فريسة سهلة للسَّحرة وأتباع الشياطين فسألته: «لماذا أرى للسِّحر أذرعًا قويَّة على أرض «مملكة البلاغة»؟».

- السِّحر هنا واقع وقائم ويُمارسه البعض بسجيتهم، والأغرب أنَّك ستلتقي أناسًا لهم قُدرات خارقة لن تستطيع تفسيرها، وليس لديك الوقت لتقف وتبحث وتناقش، والجنُّ هنا عشائر وقبائل وبينهم صراعات شتَّى.
- لا ريب أنَّ هناك طيِّبين.
- ستجد الخير والشرَّ في كلِّ جنسٍ وعشيرة، وهناك قلَّة يواجهون كلَّ من يُمارس السِّحر الأسود، يسيرون على حدِّ السَّيف، كالسيِّدة «مارماحوز» مثلًا.
- ألا يُعرِّض هذا الإنسان للفتنة؟
- بلى يا «توفيق»!
- ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[1].
- هؤلاء يدفعون بعضهم بعضًا، وكما أخبرتك هذا واقعهم.
- علينا إذن أن نريهم الحقيقة.. لا سُلطان للسِّحر على النُّفوس العامرة بالإيمان.
- صدقت، وهذا جزء من مهمَّتك على الدَّوام.
- وهل تثقون بالسيدة «مارماحوز»؟
- هذا أكيد، ولتعلم أنَّها فقدت زوجها وولدها الوحيد وزوجته بسبب مواجهتها للسِّحر الأسود، فكلُّ من يواجه تلك الفئة الضَّالَّة يفقد حبيبًا للأبد، هكذا ينتقمون منهم.
- ما زلت أتريَّب التَّعامل مع السَّحرة.

رفع حاجبيه قائلًا: «كلُّ شيء له تفسير منطقيٌّ إلَّا على أرض «مملكة البلاغة»».

---

(1) [سورة طه، آية 69].

- وكأنَّها صندوق الدُّنيا المليء بالمفاجآت!

- حسنًا، ها هي أدواتك، ولتعلم أنَّ خنجرك لم يعمل معنا فقد جرَّبناه، وهذه خريطة «الشَّريف الإدريسيِّ» لم تُطلق وميضها في غيابك.

أمسكت الخريطة وبسطتها أمامي فبدأت تومض من جديد، لكنَّني لاحظت أكثر من وميض، على مكان «غابة السِّنُّور»، و«بحر الظُّلمات»، و«مدينة النَّحاس» التي ظهرت علامتها من جديد! قال السيِّد «سُفيان» وهو يفرك جبينه: «هذا يعني أنَّك ستعود إليهم مرَّة أخرى لسبب ما».

- لا أرغب في العودة إلى «مدينة النَّحاس» مرَّة أخرى.

- أحيانًا تردُّنا أقدارنا إلى طرق مررنا بها من قبل وكرهناها كما نكره الموت، وعندما نعود نولَد من جديد!

- «إذا لم يكن إلا الأَسِنَّة مركبٌ فلا رأي للمحمول إلا ركوبها».[1]

انبثق وميض قويٌّ على بقعة ما في الخريطة، قرأت الاسم الذي يُشير إليه بصوت مسموع: «تا - سيتي»!

قال السيِّد «سُفيان» وهو يتفحَّص الخريطة معي: «بأيِّ لغة تلك؟».

- الهيروغليفيَّة.

- هل تعرف معناها بالعربيَّة؟

- «أرض الأقواس».. وهي بلاد النُّوبة.

فور أن نطقت باسمها بالعربية تبدَّلت الحروف وكُتبت أمامي بالعربية: «أرض الأقواس».

رأى السيِّد «سفيان» اسمها وهو يظهر على الخريطة فقال: «رحلتك إلى جنوب «مصر» وشمال «السُّودان»».

- أجل فبلاد النُّوبة قديمًا كانت تشملهما معًا.

---

(1) من أشعار الكميت بن زيد الأُسديِّ، ومعناه إذا سُدت الأبواب في طريقك ولم يبق إلا باب لا تُطيقه فأنت مضطرٌّ إلى دخوله.

- ما دامت «تا - ستي» تعني بالهيروغليفيَّة أرض الأقواس، فتذكَّر أنَّ المصريين القدماء أطلقوا على مصر اسم «كِمت»[1] فانتبه لهذا.

لملمت أدواتي ووقفت أمامهم بعد أن ودَّعتهم ورفعت خنجري إلى أعلى وقُلت: «أرض الأقواس»، فانبثقت الفجوة في الهواء وهي تتلاعب وتدور وكانوا يُراقبونها في اندهاش، سألت «الرَّماديَّ»: «هل ستتبعني؟».

- سأحاول القفز خلفك.

قفزت من خلال الفجوة إلى طريق خالٍ من البشر، فانغلقت خلفي في الحال وأحدثت دويًّا مهيبًا، ومرَّة أخرى أصبحت وحدي بلا رفيق، فـ «الرَّمادي» لم يتبعني.

سرت طويلًا وأنا لا أدري إلى أين وجهتي، عليَّ فقط أن أخالط النَّاس وأتحلَّى بالكثير من الصَّبر حتَّى تبدأ كلمات الكتاب في الظُّهور، عندها سأعرف أنَّني في البقعة المناسبة، وعليَّ البقاء هناك لأساعد أحدهم، فالكتاب يحكي قصَّته. مررت ببستان عامر بالنَّخيل وكنت أسير على مهل وأتفحَّص الكتاب بين فينة وأخرى، وخرجت منه لأرض عفراء تمتد فيها قبضة العشب البريِّ بشكل عشوائيٍّ، ومررت ببستان آخر وتوالت البقع دون أن ألتقي شخصًا واحدًا يؤنسني أو حتَّى يُطاردني، حتَّى الجنُّ غابوا! وكُنت أترقَّب ظهورهم دون خوف، فقد اعتدت تراقص أخيلتهم في الهواء. مضى النَّهار وبقي أقلُّه وهبَّت رياح محمَّلة بطنين الطيور والهوام، كاد ستار الليل أن يُسدل فأسرعتُ أسابق شريط الضَّوء الشَّاحب وهو ينسلُّ نحو الأفق، وأخيرًا لاح لي على مقربة منِّي حطَّابٌ يسير مع غلام نحيف وكلاهما يحمل على ظهره الأغصان الملفوفة بعناية بعد قطعها، انتبهت لملابسهما التي تُشبه ثياب المصريين القدماء، فبينما هما يلفَّان نصفهما السفليَّ بالطريقة نفسها، يتدثَّران بقماش كتيم نظرًا لبرودة الجوِّ، وينتعلان في أقدامهما أحذية كتلك الَّتي رأيتها في

(1) «كِمت» هو اسم مصر الذي عُرفت به في عصر المصريين القدماء، وتعني الأرض السَّوداء نسبة إلى تربة وادي نهر النيل التي تختلف في لونها عن تربة الأراضي الصَّحراويَّة.

المتحف المصريِّ بالقاهرة، بدا لي جليًّا من لون بشرتهما أنَّهما قد يكونان من النُّوبة، والرَّمز على كتابي لرقم نوبيٍّ، اهتزَّ الكتاب في حقيبتي فأخرجته لأتفحَّصه ووجدت جملة قد ظهرت..

«قبل أن تشحذ سيفك وتلبس درعك لتنطلق في الطريق إلى المعارك، قف على ما تؤمن به وإن كنت وحيدًا، فليست العبرة بكثرتهم على طريقك، وإنَّما العبرة في الطريق نفسه».

أدركت أنني على أوَّل الطريق فهرولت نحوهما وألقيت السَّلام وأنا لا أدري هل سيتحدَّثان معي بالعربيَّة أم لا! قرَّب الرَّجل الشُّعلة الَّتي أضاءها للتوِّ استعدادًا لظلام الليل المهرول نحونا وطالع وجهي بفضول وهو يسأل بالعربيَّة الفصيحة: «من أين أتيت أيُّها الغريب؟».

- من الشَّمال.
- ماذا تفعل هنا بملابسك الغريبة تلك؟

قُلت وأنا أقبض على قميصي الكتَّانيِّ في توتُّر: «أتيتُ من الشَّمال بحثًا عن أعشاب نادرة».

- مرحبًا بأهل «كِمت»، ولكنَّ شمال البلاد عامر بالزروع والنباتات! ما اسم الأعشاب التي تبحث عنها؟

وجدتُني أُردد أسماء أحفاد السيِّدة «مارماحوز» فقلت بثقة: «أبحث عن «الحلتيت»، و«البرشاوشان»، و«الماميران»».

- ماذا! لم أسمع بأسمائها من قبل، ولكن لماذا تقطع كلَّ هذه المسافات من أجلها؟
- أحتاج إليها بشدَّة، وهي أعشاب طبيَّة.
- ما اسمك؟
- «توفيق».
- وأنا «أمروس»(1).

---

(1) «أمروس» اسم نوبي معناه قوس المطر (قوس قزح).

سألت الغلام عن اسمه فابتسم قائلًا: «كو»[1].

قال «أمروس» وهو يُعدِّل الحطب الَّذي يحمله على ظهره: «التُّجار الذين يأتون من شمال «كِمت» يرتدون ثيابًا تختلف عن ثيابك!

- استعرتها من صديق خلال رحلتي لحاجتي إليها.
- ستشعر بالبرد فنحن في الشِّتاء.
- سأتدبَّر أمري.
- أنت إذن تُداوي النَّاس بالأعشاب.
- أحاول وأجتهد. لقد انتشرت أمراض كثيرة ولا بدَّ من البحث عن أسباب للشفاء منها.

بدأنا المسير معًا، أطرق «أمروس» قليلًا ثُمَّ قال: «لا تظن أنَّ الشفاء من الأعشاب، فهي سبب فقط».

- أدري أنَّ كلَّ شيء بإرادة الله وحده.

توقَّف ووجدته يستبشر قائلًا: «الله! أنت إذًا من أتباع النَّبي الَّذي يقولون إنَّه ظهر في شمال البلاد؟».

- وهل تعرف عنه؟
- وصلت إلينا أخباره، لا ريب أنَّك التقيته ورأيته أو سمعت حكمه وأقواله، أخبرني بشيء لأتعلَّمه وأدوِّنه.
- لم ألتقِه.. لكنَّني على يقين أنَّه يدعو النَّاس للخير.
- اليقين! ظننت أنَّني لن ألتقي من يتحلَّى به، لقد أصابني اليأس من شباب مدينتنا.
- هل أنتما ذاهبان إلى «أرض الأقواس»؟
- نعم..

---

(1) «كو» اسم نوبيٌّ معناه الأسد.

بدأ الرَّجل يسألني عن طبيعة الحياة في الشَّمال وكُنت أُجيبه بما أعرفه من معلومات عن مصر القديمة، فقال متعجبًا: «ولكن لماذا تبحث عن الأعشاب في «أرض الأقواس» بالذَّات؟».

- وما العيب في ذلك؟

- لعلَّك تبحث حولها، الزَّرع على ضفاف النَّهر ينمو بغزارة، لدينا حقول واسعة من قمح وشعير وأرز وقطن مثل الشَّمال تمامًا، أمَّا تلك الأعشاب الغريبة فلا!

قال الغلام وهو يُقرِّب الشُّعلة الصغيرة الَّتي يحملها من وجهي وكان لصوته عذوبة: «ابحث في «غابة البيلسان» يقولون إنَّ بها الأعاجيب من الأشجار والنَّباتات العطريَّة».

نهره والده وقال لي بحزم: «لا تُنصت إليه فتلك الغابة فيها مرض ووباء».

كان الفضول ينقر رأسي وأنا أقول: «يقولون إنَّ سكان «أرض الأقواس» ماهرون في الرَّمي بالأقواس وبارعون في الصيد، حتى إنَّهم يتصيَّدون الأسود بسهامهم، فهل هذا صحيح؟».

- لدينا أمهر صُنَّاع الأقواس، وأمهر الرُّماة، وأبرع الصَّيادين، حتَّى النِّساء ماهرات في ذلك.

صاح «كو» بصوته اللطيف: «وأنا كذلك، علَّمني أبي الرَّمي بالأقواس، هل تُجيد الرَّمي بها؟».

- لا، لكنَّك ستُعلِّمني.. أليس كذلك؟

- بلى.

بدأت أضواء الشُّعل الموزَّعة على أطراف أرض الأقواس تُطلُّ من بعيد وسط العتمة، توقَّف الرَّجل وحدَّجني بنظراته ثُمَّ قال: «اخلع ملابسك».

- لماذا؟

- سنبدِّل ملابسنا، لو دخلت أرض الأقواس بتلك الهيئة سيقبض عليك جنود الملك في الحال.

- وماذا عنك لو ارتديتها؟ ألن تكون عُرضة للأمر نفسه؟

- لديَّ غيرها، وهذا من أجل حمايتك، فأنت غريب أمَّا أنا فلا.

خلعتُ قميصي وأعطيته له فشقَّه ولفَّه على جسده، وأعارني حذاءه ولم يُعجبه حذائي فوضعته في حقيبتي فنصحني أن أتخلَّص منه ففعلت، وقرر «أمروس» أن يُكمل طريقه حافي القدمين. حمل الحطَبَ مرَّة أخرى على ظهره وطلب من «كو» أن يعطيني ما كان يحمله من حطب لأدخل به «أرض الأقواس»، وأشار نحو أضوائها وقال لي: «سِر مباشرة في هذا الاتجاه وستصل إلى هناك».

- ظننتُ أنَّكما ستدخلانها معي.

- ليس الآن، لدينا مهمَّة سنُنجزها أوَّلًا.

أعطاني الشُّعلة الَّتي كان يحملها وقال مُحذِّرًا: «لا تُخبر أحدًا أنَّك التقيتنا، لو علم جنود الملك بهذا سيطردونك».

- لماذا؟

تبادل النَّظرات مع الغلام ولم يُجب عن سؤالي، لكنَّه قال وهو يصرف نظراته عنِّي: «ليتك لا تدخلها وتبيت ليلتك في العراء، وتستكمل طريقك غدًا لأيِّ أرض أُخرى».

- هل هناك ما يريب؟

- الخطر قابع في قصر الملك.

- أتعني أنَّه ملكٌ ظالم؟

قال بخفوت: «انتبه لنفسك».

- شكرًا لك على أيِّ حال، فقد سررتُ برفقتكما.

- وأنا.. وكأنَّني أعرفك من قبل! لقد استرحت للحديث معك كثيرًا، وأرجو ألَّا أندم لأنَّني دللتُك على الطريق.

- قلبي ينبئني أنَّنا سنلتقي مرَّة أخرى.

مسحتُ على رأس الغلام وقلت له: «إلى اللقاء يا «كو»».

انصرفا فسرت ببطء وأنا أتحرَّى أين أضع قدمي فالطريق وعر وذلك الحذاء لا يُساعدني، اهتزَّ كتابي فخفق قلبي وأسرعت أُخرجه، ظهرت كلمات جديدة فيه، قرأتها وأنا أتأمَّل معانيها..

«الشجاع يهزم الأعداء قبل لقائهم، ويحوز النَّصر في عقله قبل أن تدور رحى المعارك، فالأفكار أقوى من الجيوش، وهيبة الشُّجعان تهزم الجبناء».

فور أن أنهيت قراءتها فزعت عندما سمعت صوت صياح، وبدا لي أنَّ هناك رجلين يقتتلان، ثُمَّ اخترق أذنيَّ صراخ الغلام «كو»، فأسرعت عائدًا أبحث عنهما، تناهى إلى مسامعي صوت ركض خيول فأدركت أنَّ هناك من يفرُّ بجواده، وجدت الغلام، وأبوه مُمدد على الأرض والدماء السَّوداء تتدفَّق من جرحه، و«كو» يصرخ وينوح ويُردد: «قتلوه.. قتلوا أبي».

غرزت الشُّعلة بالأرض، وكان الرَّجل لا يزال على قيد الحياة بينما الدماء تسيل بغزارة من وسط صدره، ضغطت على جرحه لأوقف نزيفه لكنَّه كان عميقًا، طلبت من «كو» إخراج زجاجة راتنج الأشجار الأسود من حقيبتي وبدأ يقطر في جرح أبيه لكنَّه لم يُساعده، أشار لي «أمروس» بطرف عينه فاقتربت منه فهمس بصعوبة قائلًا: ««كو».. أبي».

فطنت لمراده وطمأنته فهزَّ رأسه وندَّت دمعة من عينه، لفظ أنفاسه الأخيرة بين يديَّ، وانخرط الغلام يبكي في نشيج مسموع، احتضنته وقلبي يعتصر ألمًا، ها هو الموت يُبرز سحنته القميئة من جديد.. لماذا عليَّ أن أشهد تلك اللحظات؟ انتبهت لشيء جعلني أتحفَّز فربَّما القاتل لا يزال على مقربة منَّا، كُنت أتلفَّت وأُحدِّق إلى كلِّ الجهات، مرَّ وقت ونحن على حالنا، استعدتُ رباطة جأشي وقلت للغلام: «أين جدُّك يا «كو»؟».

- يعيش فوق هذا الجبل.

- أين؟

أشار غربًا وقال: «على الطَّرف الآخر من هذا الوادي، إنَّما مررنا من هنا لندلَّك على الطَّريق».

- هل رأيت القاتل؟

- نعم، وهو من جنود الملك «يويا»، الملك الجديد الَّذي تولَّى الحُكم بعد الملك «كاشتا».

تذكَّرت ما كُنت قد قرأته عن الملك «كاشتا» في الرِّسالة الَّتي كتبها عالم الآثار قبل انتقالي إلى هنا، فسألته: «وأين الملك «كاشتا» الآن؟».

- مات بعد مرض طويل.

اهتزَّ الكتاب فأخرجته لأقرأ ما ظهر به من كلمات وكانت..

«موت الشرفاء في معارك الحياة ليس بهزيمة، فقد تكون دماؤهم سببًا لانقشاع سُحب الجهل، وانكشاف غبار الفتن، وخمود نيران الغاصبين».

رنوت إلى «أمروس» الغارق في دمائه، وتذكَّرت «كنان» فاعتصر قلبي، أغلقت الكتاب وأعدته إلى حقيبتي وقُلت للغلام «كو»: «حسنًا، سأحمل أباك ودُلَّني على الطريق للكهف الَّذي يسكنه جدُّك».

حملت أباه على كتفي، وسار أمامي يحمل الشُّعلتين ودموعه تهمي، طلبت منه إلقاء واحدة من الشُّعلتين ليخفِّف عن نفسه الحِمل فأبى، وكأنَّه أراد أن يسير بجثَّة أبيه في مشهد ملحمي تكريمًا له، كان يرفع رأسه ويسير مُستقيمًا أمامي، ويرفع الشُّعلتين وكأنَّه طرح المخاوف الَّتي كان يختبئ منها في حِضن أبيه بعد وفاته، فقد نزح الحزنُ الخوفَ من صدره، أشفقتُ عليه فقد انفطر فؤادي لوفاة والديَّ وأنا شاب، وهو لا يزال غلامًا ضعيفًا، قُتل أبوه أمام عينيه وتركه في عُمرٍ ليس هو بصغير لينسى، ولا كبير ليتحمَّل ألم الفراق. بينما كنت أتلفَّت من آن لآخر لمراقبة الطَّريق خلفنا، فقد كُنت قلقًا من تتبع القاتل لنا، سألته: «هل لك أشقَّاء يا «كو»؟».

- لا.

- هل أُمُّك فوق الجبل مع جدِّك؟

- لا.

- أين هي؟

- أسرَ جنود الملك «يويا» أُمِّي منذ شهور قليلة وسجنوها لتهديد أبي وجدِّي.

كُنت أعلم قصَّة الأمير «أواوا» وما حدث له مما قرأته في الرِّسالة، لكنَّني أردتُ أن أتأكَّد أن «يويا» ابن الأمير «أواوا» فسألته: «هل الملك «يويا» ابن الملك «كاشتا»؟».

- لا.. فقد كان «كاشتا» عقيمًا، لهذا تولَّى الأمير «يويا» الحكم، فالملك «كاشتا» عمٌّ والده «أواوا» الَّذي اختفى منذ سنوات في غموض، فانتقلت ولاية العهد إلى الشخص الوحيد المتبقِّي من نسلهما وهو «يويا».

تذكَّرت الجُمل الَّتي قرأها عالم الآثار على التِّمثال الخزفيِّ المحطَّم الرَّأس، أدركت حينها أنَّني أمام قضيَّة تخصُّ أوراق البرديِّ الَّتي عثر عليها عالم الآثار في النُّوبة.

عاد الغلام إلى البكاء فتوقَّفت عن طرح الأسئلة، أكملنا صعود الجبل ووصلنا أخيرًا إلى الكهف، كان ضوء النَّار الموقدة تحت كوَّة فتحة الكهف يرجف مع مرور نسمات الهواء ويلقي بضوئه الأحمر على الجدران من الدَّاخل راسمًا خيالات ترجف وكأنَّها أشباح تلوح وتتحرك. بينما هرول الغلام «كو» ودلف إلى الكهف كُنت أنزِل جثَّة أبيه عن كتفي، خرج يصيح وسقط على ركبتيه قائلًا: «جدِّي مريض ولا يستطيع السَّير!».

هدَّأته ودخلتُ معه فرأيت جده، شيخ مهيب له عينان عميقتان ولحية طويلة بيضاء كالحليب، وأنف رفيع وطويل وفم واسع، خطَّت السنون على وجهه خريطة لحياة عامرة بالشَّقاء، توسَّد الحزن في عينيه فبدت نظراته وكأنَّها تحتضن من يُطالعهما في أسى، كانت أهداب عينيه تتذبذب في قلق وهي ترسل الدُّموع الَّتي تنساب على لفافة من الكتان كان يتوسَّد بها، عندما رآني فزع وانتفض جسده فطمأنته، قال بصوت مبحوح وواهن وضعيف: «هل حقًّا مات ولدي؟».

- نعم يا سيِّدي.

قال باكيًا: «كُنت أشعر بهذا، أودُّ أن أراه لكنَّني لا أستطيع النُّهوض».

- سأحملك إليه.

حملته وأدركت عندما لمسته أنَّه مُصاب بالحمَّى، أخرجته ووضعته بجوار ابنه وأسندته إلى صدري لكي يستطيع رؤيته، ظلَّ يتشمم ابنه ويقبِّل رأسه ودموعه تهمي، عندما هدأ قليلًا همس قائلًا: «كُنت أعلم أنَّهم سيقتلونه».

صرخ «كو» وقال بحُرقة: «لقد جرح أبي أحدهما في ذراعه، كان أبي شجاعًا، كادوا يقتلونني لكنَّه حماني».

التفت الشيخ نحوي وسألني: «من أنت؟».

- «توفيق»، عطَّار وأتيت من الشَّمال.

- هل رأيت قاتله؟

- لا، كُنت قد فارقتهما وعُدت عندما سمعت صراخ «كو».

طلب الشيخ من حفيده الماء فدخل الكهف ليحضره، فهمس لي الشَّيخ وهو يستند على صدري: «أشعر بدنوِّ أجلي، فهل أستطيع أن أُوصيك بشيء يتعلَّق بـ «كو»؟».

- تفضَّل.

- ارحل به إلى الشَّمال من حيث أتيت، خُذه معك ليعمل معك في أيِّ حرفة، فجنود الملك سيقتلونه.

- لماذا؟

- لأنَّه يحفظ رسائل الأمير «أواوا»، وكذلك كان أبوه.

كان «كو» قد عاد بالماء، شرب الجدُّ وكان ينتفض من الحمَّى، داهمه ألم شديد في صدره، جلست أراقبهما وهما يبكيان على فقيدهما، أشفقتُ على الغلام فهمست سائلًا: «أين سندفنه؟».

أشار الغلام إلى بقعة أسفل الجبل وقال: «هناك دفن أبي رفاقه».

أدركتُ أن تلك الميتة سبقتها ميتات أخرى فسألته: «هل قتلهم جنود الملك أيضًا؟».

- نعم.

حملت أباه وهبطنا من جديد وتركنا الجدَّ بعد أن سكن ألم صدره، عندما انتهيتُ من الحفر وبعد أن دفنت «أمروس» وقف ابنه يُحدِّثه وكأنَّه أمامه ويسمعه، انتظرت حتَّى انتهى من حديثه ودعائه، وعندما عاد إلى البكاء أخبرته أنَّ علينا العودة إلى جده المريض، فصعدنا الجبل وأنين صدر الغلام لا ينقطع، ازداد الحزن وتضاعف فقد ألفينا الجدَّ وهو يقبض على صدره ويتألَّم بشدَّة، ولفظ أنفاسه الأخيرة على صدر حفيده، أخذ الغلام يصرخ فاحتضنته وبكيت معه، تكوَّر في حضني واستمرَّ يبكي في نشيج مسموع فأرسل الله النَّوم رحمةً به وكان له غطيط من أثر البكاء.

غلبني النَّوم أنا أيضًا وسقط رأسي وبعد ساعة استيقظت على صوت «كو» وهو يهزُّ كتفي قائلًا: «هيَّا لندفن جدِّي قبل أن يبزغ نور الفجر، فلو رآنا جنود الملك سيمثِّلون بجثَّته».

- ألهذه الدَّرجة!

- وأكثر.

كان صوته واهنًا ومُشبَّعًا بالحزن، قمت على الفور وحملت جده وسرت خلفه وهو يحمل الشُّعلة ليُضيء لي الطَّريق، وصلنا إلى حيث دفنت أباه، ودفنت جده بجواره، وعندما انتهيت كان الغلام يقف أمامي كخرقة بالية من فرط البكاء والتَّعب، ما عاد لديه القوَّة لينتحب وبدت عيناه متورِّمتين، قال بهوان: «شكرًا لأنَّك هنا، سأظلُّ مدينًا لك للأبد».

- والآن لنعد إلى الكهف لننال قسطًا من الرَّاحة يا «كو»، وسندخل غدًا «أرض الأقواس» للبحث عن أقاربك.

قال بفزع: «لا أريد الدخول!».

- ما الَّذي يخيفك هكذا؟

- كان جدِّي من الحكماء السَّبعة الَّذين طُردوا من «أرض الأقواس» من قبل أن يتولَّى الحاكم الجديد «يويا» مقاليد الحكم، وبعد موت الملك الظالم عُدنا إليها، فطردنا «يويا» من جديد وأمر جنوده بحبس أمِّي.

- لماذا؟

- يكره «يويا» ميراث أبيه من الحكمة! وعندما يُردد العامَّة اسمه يكون ساخطًا وحانقًا عليهم، وقد بدأ بطمس سيرته، فقد وصلت كتابات أبيه الأمير «أواوا» إلى رفاقه الحكماء السَّبعة، وقسَّموها بينهم ليحفظوها، واستكملوا كتابتها مما روته زوجته وابنته الأميرة «فاتي»، أمَّا الملك «يويا» فيبغض كلَّ حرفٍ منها، فهو يرى أنَّ أباه ضيَّعهم وأنَّه لم يُحقق منها شيئًا في حياته وكان سببًا في سجنهم معه، لهذا أمر جنوده بإتلاف أوراقها، وعندما فشل في إخفاء أثرها نظرًا لانتشارها بين عامَّة النَّاس قرر استخدام أمهر الكتبة ليُغيِّرها بالتَّزوير، لقد ورث «يويا» الظُّلمة والقتامة عن قريبه «كاشتا»، حتَّى إنَّه يُشبهه.

- غريب أمره.

- جميع من بـ «أرض الأقواس» يعلمون بقصَّة الأمير «أواوا» واختفائه مع عائلته في ظروف غامضة، وعندما لم يره أحد وطال غيابه بدأ الرَّعية يتساءلون عن مكانه وماذا حدث له، ولهذا طُرد جدِّي من «أرض الأقواس» لأنه خرج للبحث عنه في جماعة من الشُّرفاء فقد كان صديقًا لهم، لم تظهر زوجة «أواوا» مع ابنها وابنتها إلَّا بعد وفاة الملك الظالم، وكان ابنها قد صار شابًّا فتيًّا ولهذا صار الوريث الوحيد للحكم، استبشر أبي وجدِّي بهذا وعدنا للإقامة في بيتنا القديم بأرض الأقواس، وفور وصول الخبر إلى الملك طردنا مرَّة أُخرى، لولا شقيقته الأميرة «فاتي» الَّتي أجارتنا في قصرها لقتلنا كما قتل الآخرين، وها هو أبي قد قُتل، ومات جدِّي حسرة عليه.

- ألا ترغب في رؤية أُمِّك؟

- أرغب في رؤيتها وتحريرها، ولكن خفية دون أن يعرف أحد، فهل تستطيع مُساعدتي في التسلل إلى قصر الأميرة «فاتي»؟ فهي الوحيدة الَّتي ستُساعدني.

- حسنًا سأُساعدك، دعنا نذهب الآن إلى قصرها.

- لا، عليَّ أن أُخفي كتابات جدِّي أوَّلًا وأُخرجها من الكهف.

- لنفعل هذا.

دسَّ كفَّه في كفِّي وسرنا معًا وعُدنا إلى الكهف، نام الغلام في فراش جده، ونمت بجواره وقد قررت أن أخبره عن خنجري في الصَّباح، لعلَّنا ننتقل به إلى قصر تلك الأميرة مباشرة.

«قمر»

عاد «توفيق» لتغيُّبه فازداد قلق «قمر»! فمنذ أن رأت الصقر مع أبيها وهو يحمله لم يظهر مرَّة أخرى ولم يذهب إلى عمله، كان الدكتور «مودود» قد عاد إلى بيت «توفيق» مع الشيخ «محمود» ودخلاه معًا وتأكَّدا من غياب «توفيق»، لم يجرؤ الدكتور «مودود» على إخبار الشيخ «محمود» بأنَّه رأى الصَّقر بأمِّ عينه وهو يحمله، لكنَّه أراد أن يستأنس بوجوده معه، طافا بكلِّ الغرف وعندما انتهيا من البحث عن أيِّ أثر له أغلقا النَّوافذ والباب جيدًا.

رجع إلى البيت غارقًا في حيرته، وعندما أخبر ابنته «قمر» بما حدث وعلمت منه أنَّه استطاع فتح الباب بأداة حادة ورفيعة دفعها الفضول والتَّهوُّر للذَّهاب وحدها مرَّة أخرى، لم تكن لديها الحكمة لتعلم أنَّ هذا فعل خاطئ لا يليق بها، كانت مندفعة وعاطلة عن كلِّ كِياسة. وضعت حقيبتها على الأرض بعد أن أخرجت منها أداة حادة ووقفت تعبث في باب البيت لتحاول فتحه، ظلَّت تدخِل فيه ما جمعته من مفاتيح قديمة لعلَّ أحدها ينجح في فتح الباب، غمر العرق جبينها رغم برودة الجوِّ وهي لا تزال تُحاول، أصابها اليأس فجمعت أدواتها لترحل، وفجأة فُتح الباب بيسر وسهولة فسقطت حقيبتها على الأرض وتسارعت دقَّات قلبها بجنون! دخلت بساقين من عجين وخرج صوتها مرتعشًا وهي تنادي توفيق: «أستاذ «توفيق» هل أنت هنا؟».

كررت النداء فلم يأتِها ردٌّ، كادت تنصرف فأُغلق الباب خلفها فجأة وأصدر دويًّا ارتجَّ له قلبها، هرعت إليه لتحاول فتحه لتخرج لكنَّها لم تنجح قط! بدأت الثُّريَّات تهتزُّ فوق رأسها فوقفت تنتفض كورقة شجرة في مهبِّ الرِّياح،

مضت دقائق وهي تُحدِّق إلى أركان البيت في رعب شديد، برز «الحوذانيُّون» أمامها بأطيافهم الملوَّنة من كلِّ مكان وداروا حولها فصرخت صراخًا شديدًا ثمَّ حُبس صوتها فأغمضت عينيها ووقفت ترتجف، شعرت بتيار هواء قويٍّ ففتحت عينيها ورأت نفسها تدور وتلتفُّ في ممرَّات حلزونيَّة ملوَّنة ففتحت فمها لتصرخ لكنَّها لم تستطع، فأخفت وجهها بيديها! في غضون لحظات سقطت على أرض حديقة السيِّدة «مارماحوز» التي وبَّخت «الحوذانيين» فور أن رأت «قمر» أمامها وسط الحديقة وقالت بصوت غاضبٍ ارتجَّت له الأجواء: «أيُّها الأغبياء! كيف تحضرونها إلى هنا؟».

وقفت «قمر» بصعوبة وسألتها وشفتاها ترتعشان: «أين أنا الآن؟ وكيف جئت إلى هنا؟ وأين أستاذ «توفيق»؟».

تجاهلت السيِّدة «مارماحوز» أوَّل سؤالين وأجابت الثالث قائلة: ««توفيق» ليس هنا الآن».

ثمَّ أحنت رأسها وهي تحدِّق إلى عينيها وكأنَّها تعلم ما يجول بخاطرها وأضافت: «وهو بخير».

اقتربت منها خطوة فتقهقرت «قمر» للوراء في خوف، كان أحفاد «مارماحوز» الثَّلاثة يراقبون «قمر» في فضول، قال «حلتيت»: «وجودها سيُلهي «توفيق» وسيشغله عن أداء مهمَّته».

أضافت «برشاوشان»: «لم يستدعها كتاب لتستردَّ كلماته!».

اقتربت «ماميران» من «قمر» وقالت لها: «لا تخافي منَّا فنحن أصدقاء «توفيق»».

سألتها «قمر» وهي لا تزال ترتجف: «أين نحن الآن؟».

- في «مملكة البلاغة»!

عندما سمعت «قمر» اسم «مملكة البلاغة» فقدت وعيها في الحال وسقطت على الأرض، قالت السيِّدة «مارماحوز» وهي تتفحَّص أنفاسها: «سنُخفي الأمر عن «توفيق»».

سألها «حلتيت»: «و «الرَّمادي»! هل سنُخبره؟».

- ليس هناك داعٍ لإخباره، سأعيدها إلى البيت حالًا، فلو علم الغربان بوصولها هنا قد يختطفونها لتهديده!

فتحت السيِّدة «مارماحوز» نافذة من نوافذها المعلَّقة في الهواء، ودلفت منها لبيت «توفيق»، حملت الشقيقتان «قمر» وتسلَّمتها جدتهما «مارماحوز» منهما ووضعتها على الأرض برفق، ثمَّ أخرجت من جيب ردائها حفنة من «عروق الظَّيَّان» ونثرتها فوقها وهي تهمس: «لتُبعد الغربان عنكِ يا مسكينة».

أشارت «مارماحوز» بيدها ففُتح باب البيت وهبَّت رياح باردة ضربت بذيل ردائها، بدأت «قمر» تفيق ورأتها وهي تعبر من خلال نافذتها المعلَّقة في الهواء، استدارت «مارماحوز» ورمتها بنظرات يحفُّها القلق، ثُمَّ أغلقت نافذتها فانطلقت «قمر» تركض في تخبُّط وهربت من البيت وتعثَّرت مرارًا حتَّى خرجت من البوَّابة الخارجيَّة ودقَّات قلبها تضرب بصدرها كطبول حرب وشيكة، انغلق الباب خلفها بقوَّة فهرعت نحو عيادة أبيها ولفتت أنظار النَّاس في الشَّارع وهي تبكي، دخلت غرفته بلا استئذان وكانت في أسوأ حالاتها فاحتواها في حضنه وأغلق الباب لتروي له كلَّ شيء بتلعثم، مدَّت يدها إليه بعشبة «عروق الظَّيَّان» فخلع عويناته ونظر إليها في حيرة وأسى، أراد أن يلومها ويُعنِّفها فقد أخطأت ولكنَّه رأى الوقت غير مناسب، كان عليه أن يعطيها دواء ليُهدِّئ من روعها، رافقها إلى البيت وقضى ليلته يتفكَّر فيما مرَّت به، توالت الأسئلة على رأسه كالبروق المتوالية، كان قد رأى «الرَّماديَّ» بأمِّ عينه، والآن تزعم ابنته أنَّها انتقلت إلى «مملكة البلاغة» وعادت!

هل حقًّا تلك المملكة موجودة؟

هل ما رآه مع ابنته صقر كبير بالفعل أم خيال وهلوسات!

أم أصابها الجنون كما أصاب «توفيق»؟

وما حقيقة ذلك العالم الذي يُسمَّى «مملكة البلاغة»!

***

«توفيق»

استيقظ «كو» قبلي وكان يجمع أوراق جده ويُرتِّبها ويلفُّها في أوراق أشجار عريضة حيث كانت مُكدَّسة في أحد أركان الكهف، لفَّها بعناية وكأنَّه يلملم فيها ذكرياته، تأمَّلته وكان لطيف المُحيًّا له استدارة وجه أبيه وعينا جده بأهدابهما الكثيفة، لاحظ استيقاظي فأسرع بسكب الماء في قدح فخَّاريٍّ ووضعه أمامي مع قطعة خبز يابسة وبعض العسل في وعاء صغير، وعاد إلى ما كان يفعله، أشفقتُ عليه وأردتُ أن أسليه فدعوته للانضمام إليَّ، حاولت أن أمهِّد له لكي يستقبل أمر الخنجر فسألته: «هل سمعت من قبل عن أناس يتنقَّلون من مكان إلى آخر بطرق عجيبة؟».

- كيف؟

- يطيرون في الهواء مثلًا، أو على بساط سحريٍّ، أو من خلال فجوة معلَّقة في الهواء.

- أخبرني أبي أنَّ الجنَّ كانوا ينقلون النَّاس في عهد نبيِّ الله «سُليمان»، حتَّى جدِّي أخبرني أنَّ هناك أطفالًا يختفون فجأة بين فينة وأخرى في «أرض الأقواس».

- إذًا هو ممكن!

هزَّ كتفيه قائلًا: «ربَّما، فقد سمعت النَّاس يقولون إنَّ الأمير «أواوا» انتقل إلى مكان آخر بطريقة خفيَّة».

صمت هنيهة وأضاف: «بعض النَّاس يظنُّون أن الآلهة الَّتي يعبدونها تنقل النَّاس، أمَّا نحن فنؤمن بالله الواحد الأحد».

- أحسنت يا «كو»، لكي أُساعدك سأنتقل معك إلى داخل «أرض الأقواس»، ولكن بطريقة قد تكون غريبة.

- ماذا تعني.

- ثق بي وأحضر كتابات جدِّك واقترب.

حمل لفافة أوراق البرديّ وربطها على ظهره ووقف بجواري يترقّب، أمسكت بيده وقُلت بحزم شديد: «تمسَّك بيدي ولا تتركها أبدًا.. مهما حدث».

- حسنًا.

- أين يقع بيتكم القديم بـ «أرض الأقواس»؟

- شمالًا على حدودها خلف السُّوق، بجوار محاجر الحجارة البيضاء.

- ماذا أقول لو أردت أن أنتقل إلى هناك تحديدًا؟

- بيت جدِّي.

- ما اسم جدِّك الَّذي يُعرف به هناك؟

- «أبادول».

أجفلت وسألته: «ماذا قُلت؟».

- «أبا.. دوول» هكذا كان الجميع يُنادونه!

بدأ قلبي يخفق خفقًا، صرت على يقين أنني أمضي في الطريق الصَّحيح، رفعت خنجري في الهواء لأعلى وفجأة! وقبل أن أنطق بكلمة دلف إلينا رجلان ضخمان يزومان كثورين هائجين، فأدرت خنجري تجاههما، انقضَّا عليَّ وطرح أحدهما خنجري من يدي بغتة فارتطم بالجدار وسقط بعيدًا عنِّي، وتوالت الضَّربات والرَّكلات فبدأت أردُّها وكان «كو» يصرخ من شدَّة الفزع، لم يتوقَّعا أنَّني سأصمد أمامهما، فبينما تراجع أحدهما للخلف كنت ألفُّ ذراعي على عنق الآخر وأعصره، التقط الآخر خنجري وبدأ الاقتراب من «كو»، فألقيت عليه رفيقه وخرجت مع «كو» من الكهف، لاحقنا وسدد ضربة عنيفة بقبضته على ظهري فاستدرت ودفعته فسقط وانحدر على سفح الجبل حتَّى حجزته صخرة كبيرة لولاها لهوى على رأسه ومات، كان «كو» خلفي وهو يحمل أوراق جده وقد لفَّها في ثوب مرقَّع، على الرغم من هول الموقف لم يتركها فعلمت أنَّها مهمَّة له، سحبته من ذراعه وقلت له: «قف هنا وسأعود للبحث عن خنجري».

- لا تعُد أرجوك وابق معي، فهذان هما الجنديَّان اللذان قتلا أبي.

- لن نستطيع الانتقال دون خنجري.

رفعت رأسي فرأيت رجلين آخرين يدخلان الكهف، قال «كو» وهو يتعجَّلني: «اتبعني لنهرب من هنا».

كنت لا أزال أحمل حقيبتي بما فيها، بيد أنَّني فقدتُ خنجري ولم أدرِ ما سأفعل دونه، تسللنا بين الأشجار ووصلنا إلى أرض شديدة الانحدار، التفت «كو» نحوي وقال: «افعل مثلما سأفعل وسنصل إلى حدود «أرض الأقواس» في غضون دقائق، وعندها سنتسلل لقصر الأميرة «فاتي»».

لم يُمهلني لأسأله عن شيء، فقد احتضن لفافة البَردِيَّات وضمَّها بقوة إلى صدره وتمدد على الأرض وقلب جسده وتدحرج بسرعة شديدة، فعلت مثلما فعل «كو» وضممت ساعديَّ إلى صدري واستلقيت وبدأت أدور بجسدي، وكان الانحدار شديدًا وخطرًا للغاية، شعرت بدوار وأُصبت بجروح وخدوش في وجهي وظهري الذي كان مكشوفًا لأنَّني كنت لا أزال أرتدي ملابس «أمروس» الَّتي منحها لي دون أن أضع الدثار فوقها. عندما وصلت إلى أسفل المنحدر كان «كو» يقف متأهِّبًا وأرشدني لجهة لكي نتسلل من خلالها، لاحظت الأحجار البيضاء الَّتي تُحيط بـ «أرض الأقواس»، ورأيتها من قبل تُحيط بـ «غابة السِّنور»، وتحيط بـ «مدينة الرَّباب»، و«مدينة النَّحاس»، تخطَّاها «كو» أمام عيني واستدار ووقف ينتظرني لأتخطَّاها وأتبعه، وعندما وضعت قدمي على «أرض الأقواس» شعرت بصاعقة تجتاح جسدي كلَّه، وقفت أتألَّم وأنا أشعر بشيء ينخر عظامي، صاح «كو» فزعًا وكأنَّه رأى شيطانًا وقفز مبتعدًا عنِّي وقال: «أبَّبا...!».

- ما بك يا «كو»؟

أشار نحو صدري وقال بصوت يرتعش: «أبادول»!

أردت أن أتوجَّه نحوه لأطمئنه، فأحنيت رأسي لأتفحَّص ما يشير إليه فألفيت لحية طويلة بيضاء تتدلَّى على صدري، كان «كو» لا يزال يرتجف أمامي، قُلت له وأنا أتحسس ذراعي مذهولًا بعد تغيُّر لون بشرتي: «كيف هذا!».

وكان هناك جرح في يدي ينزف فقال «كو» بذهول: «دماؤك حمراء!».

- أردتُ أن أُخبرك بهذا ولكن...

قاطعني قائلًا والذُّهول لا يزال عالقًا بعينيه: «أخبرني أبي أنَّك من الوافدين».

اقترب منِّي ولمس ذراعي وأضاف: «قال إنكم تتجوَّلون في أنحاء البلاد لتدوين الكتب، وقال إن دماءكم حمراء».

حمدت الله أنَّ أباه قد علم بأمر الوافدين قبل أن يموت وأخبره بهذا فقُلت له: «نعم أنا منهم».

- لقد أصبحت صورة من جدِّي، بيد أنَّك لا تزال تحتفظ بنبرة صوتك الدَّافئة!

- لا ريب أنَّ هذا سيزول قريبًا وسأعود إلى صورتي.

لاح على وجهه شبح ابتسامة وقال بخفوت: «ولعلَّك ستظلُّ هكذا «أبادول» وتبقى معي».

أصابني الخوف من أن أظلَّ هكذا للأبد فاستدرت وخطوت فوق الأحجار خارجًا من «أرض الأقواس» وراودتني الصَّاعقة من جديد فتحسست بشرتي الفاتحة وبحثت بأصابعي عن اللحية البيضاء فلم أجدها فأيقنت أنَّ هيئتي قد عادت إلى طبيعتها فاطمأنَّ قلبي وأدركت أنَّه أمر عارض من خبايا «مملكة البلاغة»، قال «كو» بحماس وهو يشير إلى جواره: «عُد إلى هنا مرَّة أُخرى».

خطوت فوق الأحجار داخلًا في نطاق «أرض الأقواس» فداهمتني الصَّاعقة نفسها وشعرت بالألم نفسه، وبرزت اللحية من جديد وعاد لون البشرة

الدَّاكن، فابتسم «كو» وهزَّ رأسه من فرط الاندهاش، قُلت له وأنا أعبث بلحيتي البيضاء: «لو لم يحدث هذا أمام عينيك ما كنت لتصدِّقني.. أليس كذلك؟».

- بلى!

اقترب وتحسس جلدي وقال: «كدت أفقد عقلي لوهلة لولا حقيبتك الَّتي رأيتها على كتفك ونبرة صوتك المميزة».

- لا ريب أنَّ هذا يحدث لسبب ما، فلتنادِني كما كُنت تنادي جدَّك ولا تُخبر أحدًا عن أمري حتَّى نُحرر والدتك ونخرج من هنا.

- حسنًا يا «أبادول»!

ثُمَّ ابتسم قائلًا: «أتدري؟ تبدو أقوى من جدِّي بظهرك المستقيم وعينيك المفعمتين بالقوَّة، فحاول أن تنحني قليلًا وتفتعل بعض الضَّعف ليُصدِّقك النَّاس ولا بأس ببعض السُّعال ولا تنسَ أنَّ صوت جدِّي مبحوح».

قوَّست ظهري وسرت خلفه فرأيت خيالي على الأرض أمامي وقد كانت أشعة الشَّمس من خلفي ترسمه على الأرض، فرأيت حدود جسدي لكنني أجفلت عندما رأيت خيالين! توقَّفت وبدأت أحرِّك ذراعيَّ وأراقبهما، فهمس «كو»: «ما بك؟».

- هناك ظلَّان!

- هكذا ظلالنا على أرض الأقواس.. مزدوجة.

- كيف هذا؟

- لكلٍّ منَّا ظلَّان.

- هذا غير منطقيٍّ! الضوء يسير في اتجاه واحد.

هزَّ كتفيه وقال في عفوية: «أخبرني أبي أن أحد الظلين ليس كما نظنُّ وأنَّ لا علاقة له بالضَّوء».

- كيف هذا؟

- لا أدري!

وقف يُحرِّك جسده ويراقب ظلَّيه قائلًا: «كما ترى أحدهما أصغر من الآخر».

- وكيف أميِّز ذلك الظلَّ الذي لا علاقة له بالضَّوء؟

- لن تستطيع! لم يتمكَّن أحد من التفريق بينهما.

أكملت السير وأنا أراقب الظلين أمامي وكنت في حيرة من أمرهما، اهتز الكتاب في حقيبتي فأخرجته، وكانت جملة جديدة..

«لن تكون مُحاربًا بحق إن لم تكن شجاعًا، ولن تكون شُجاعًا إن لم تكن قويًّا، ولن تكون قويًّا إن لم تكن قوَّة روحك التي بين جنبيك تفوق قوَّة جسدك».

مُحارب! علقت الكلمة في رأسي، هل أنا حقًّا محارب؟ سرت خلف الغلام وأنا ساهم، كان النَّاس نيامًا وأبواب البيوت مغلقة، سلكنا طريقًا ضيِّقًا خلف البيوت، وسريعًا ما لاحت الحقول الخضراء أمامنا، بدأت أشعر بشيء غريب يحدث لي، فهناك الكثير من الذِّكريات والمشاهد والمعلومات تفد لرأسي تباعًا كالبروق المتوالية، أدركتُ منها أنَّ ظلًّا من الظلَّين أمامي قد يُغادر جسدي ليلًا ويطوف في «أرض الأقواس»، وإن تبعت ظلِّي الهارب قد يُعرِّضني هذا للخطر! سرت وأنا أتفكَّر في حالي و«مملكة البلاغة» تلقي في وجهي بمفاجآتها من آنٍ لآخر.

قُلت وأنا أُشير إلى حقول مررنا بها: «هذه الحقول كانت لكم، لكنَّ الملك سلبكم إيَّاها».

فغر الغلام فاه وسألني: «كيف عرفت؟».

- أظنُّ أنني بدأت أكتسب ذاكرة «أبادول»!

ثُمَّ أضفت هامسًا: «البيت خلف تلك الحقول، سنختبئ هناك حتَّى يحلُّ الليل».

- يا إلهي! حتَّى هذا تعرفه!

انتابني الفضول لرؤية وجهي، تمنَّيت لو كان معي مرآة، أو أن نمرَّ بجدول ماء لأرى انعكاس صورتي عليه، وصلنا إلى البيت فأزاح «كو» بابه بهدوء، كان البيت واسعًا ومبنيًّا من الأحجار البيضاء، له سقف من جريد النَّخل المصفوف بطريقة هندسيَّة بديعة، فور أن دخلته شعرت بالسَّكينة، وكان «كو» يتنقَّل فيه بنشاط وكأنَّه يُحاول استرداد شيء فقده من فرط حزنه الليلة الماضية، كان يفتِّش عن الأمان في أرجائه، يتحرَّى موضع قدم أبيه، ورائحة ثوبه، وطيب أنفاسه، تركته يدور حتَّى سكنت جوارحه، فعاد ينظر إلى وجهي وهمس بخفوت: «هل أنت حقًّا «أبادول»!».

- اثبت يا «كو»، أدري أنَّك تتألَّم، أمُّك المسكينة تحتاج إليك وستُنجب لك أخًا أو أُختًا وستكبر عائلتكم من جديد بإذن الله.

- ستحزن أُمِّي كثيرًا عندما تعلم بوفاة أبي وجدِّي.

هرع نحوي وعانقني فأجلسته بجواري وحدَّثته عن أبي وأمِّي وكيف أنَّهما توفيا وتركاني وحيدًا لأشاركه حزنه، كنَّا متعبين والنَّهار طويل فقررنا أن نخلد للنَّوم حتَّى يحلَّ الظَّلام، نام الغلام وبقيت أراقب الظلين المرسومين أمامي وتوافدت مشاهد من ذاكرة «أبادول» التي اكتسبتُها عن تلك الظلال لرأسي.

***

بيت العائلة

«الفيوم»

كان «أنس» ينتظر عودة أفراد العائلة فقد طلبوا وقتًا مستقطعًا لتناول شيء يسير من الطعام وإطعام أولادهم، وعندما انتهوا وعادوا إلى مجالسهم قال «خالد» متعجبًا: «عندما زرت مملكة البلاغة كزائر وحللت في جسدَي «ساهور» و«سنمار» لم أحتفظ بصوتي، ولم تظهر صورتهما على وجهي وأنا هناك، بل كنت داخلهما بطريقة ما وكأنني أسير خلف ظهرهما بشكل

خفيٍّ، لكنَّ «أبادول» حمل ملامح ذلك الشيخ وذاكرته وبقي صوته كما هو، وكان الأمر منوطًا بالحدود، فما الذي حدث له؟ هل هذه رتبة أخرى من رتب المحاربين؟».

قال «أنس»: «كان الأمر يُحيِّرني كما يُحيرك الآن، ولكن وبعد ما أخبرني به جدي عن رحلاته المختلفة أراه كان يحمل بين جنبيه العديد من رتب المحاربين، وذاك من ميزاته الخاصَّة».

فغر «خالد» فاه وسأله: «هل هذا يعني أنَّ الأمر تكرر معه في رحلات أخرى لبقاع أخرى؟».

- نعم، ودخل بقاعًا متعددة بصور أناس آخرين.

سأله «حمزة» في تلهُّف: «وهل خاض مغامرة من مغامرات «المستكشفين» لبيت من البيوت العجيبة؟».

- نعم، وله صولات وجولات مع الشعوب المنسيَّة، وخطوب مع البيوت المهجورة بالفيوم وغيرها.

وقف «سليمان» من فرط الاندهاش وسأله: «وهل كان يستطيع الطَّواف مثل «الطوَّافين» الذين يطوفون «أرض الرَّافدين»؟».

- نعم، ولكنَّ رتبة «الطوافين» لم تدم معه طويلًا.

- يا إلهي! وماذا أيضًا؟

- استدعته كتب أخرى واستردها يا «سليمان».

قالت «فرح» في اندهاش: «معقول! يجب أن تحكي لنا كلَّ مغامراته يا أبي».

- ذاك أمر يحتاج إلى جلسات طويلة، دعوني أكمل لكم رحلته الأولى، وبعدها قد أفكِّر في إخباركم ببعض من خبايا «أبادول» وأسراره.

ابتسم وهو يرى مزيجًا من الفضول والغضب اللطيف في أعينهم، وانطلق يكمل الحكاية على لسان «أبادول»...

١١

"توفيق"

استيقظنا قبل أن يحلَّ الظَّلام على صوت أنثوي يقول: «لقد عاد «أبادول»».

كان باب البيت مفتوحًا بينما امرأة تقف وتحجب بجسدها الممتلئ بقايا أشعة الشَّمس المتسللة، بينما رأيت ظلَّها الأصغر وهو ينزلق على سقف الغرفة انداح ظلُّها العملاق على الأرضية وهي تتحرَّك تجاه «كو» لتنحني وتجذبه بيد واحدة وتحتضنه وتطبع قبلة على خده وهي تقول: «اشتقت إليك أيُّها العفريت الصَّغير».

وقف «كو» يفرك خده من رطوبة قبلتها وكان في غاية الانزعاج، ضمَّت المرأة يديها وألقت عليَّ التَّحيَّة قائلة وهي تضيِّق عينيها: «حلَّت البركة بعودتك يا «أبادول»، لقد سررت عندما رأيت النافذة مفتوحة، كنت في طريقي إلى الحقل، وعندما عُدت طرقت الباب وأظنُّكما كنتما نائمين فأسرعت لإعداد الخبز لكما».

أدركت أن «كو» قد فتح نافذة من النوافذ، وجدتني أناديها باسمها وكأنَّني أعرفها منذ زمن: «مرحبًا يا «دهيبة»»، وبدأت ذكريات «أبادول» الَّتي تخصُّها تتوالى على رأسي، دلف ثلاثة رجال من باب الدَّار، كان هذا هو زوجها برفقة شقيقيها، أدركت هذا أيضًا من الذِّكريات التي تتواثب في جمجمتي، وقفوا

أمامي وحيُّوني فوقفت لأردَّ التَّحيَّة احترامًا لهم، فجذبني «كو» وهمس لي: «لا تقفز هكذا! أنسيت أنَّك شيخ كبير!».

انتبهت فقوَّست ظهري وجلست مسرعًا، وقبع «كو» بجواري في ترقب وكان الحزن لا يزال عالقًا بعينيه، قال أحدهم: «تبدو في صحَّة جيدة يا «أبادول»، وكأنَّ وزنك قد ازداد قليلًا! حتى صوتك تغير وصار مفعمًا بالحيويَّة».

ثُمَّ مسح على رأس «كو» وسأله: «أين أبوك أيُّها الصَّغير؟».

صاح «كو» بانفعال شديد وكأنَّه ضغط على جرح يؤلمه: «مات أبي!».

ندَّت منهم صيحات فزع فأضاف «كو»: «قتله جنود الملك «يويا» وكادوا يقتلوننا».

بكت «دهيبة» وانتحبت، وانتزعت «كو» من جواري واحتضنته بقوَّة مرة أخرى، وأجهش الرِّجال الثَّلاثة بالبكاء، تصفَّحت وجوههم فأدركتُ أنَّهم يحبُّون تلك العائلة بصدق ويحزنون لحزنها، أسرع أحدهم وجلب لي الماء ظانًّا أنَّني في حالة صدمة ولا أستطيع البكاء من فرط الحزن، ثُمَّ سألني: «لماذا عُدت يا «أبادول»؟ ألا تخشى بطش الملك؟».

نهره رفيقه قائلًا: «أين سيذهب بالغلام أيُّها الأحمق؟».

قال الثالث: «لعلَّه خشي أن يقتلوه ثُمَّ يذبحوا الغلام».

صاحت «دهيبة» في فزع: «هل فقدت عقلك يا «أوندي»؟ كيف تقول هذا أمام الغلام؟».

رشقها بنظرة حانقة فاحمرَّ وجهها وظلَّت تعتذر منه في انكسار، كان «أوندي» نحيفًا جدًّا وله شعر مجعَّد كالفرشاة، هبَّ واقفًا من شدَّة غضبه على زوجته فعادت لاحتضان «كو» وكأنَّه درعٌ لها تحتمي به وقالت بتأثُّر: «لن يمسَّه أحد بسوء، سأعتني به».

مرَّ برأسي مشهد زواجهما وتوالت الذِّكريات الخاصَّة بهما على رأسي، بدؤوا يتجادلون جميعًا، وكلَّما ذكروا حادثة مرَّ بها «أبادول» كنت أراها في

ذهني، أدركتُ أن «أبادول» كان يقرأ على الناس حكم الأمير «أواوا» ويرددها علانية، وكثيرًا ما واجه الملك «كاشتا»، وما خرج من «أرض الأقواس» إلَّا لخوفه على ولده وحفيده من بطشه، طفق الرِّجال الثَّلاثة يلومونني مرارًا على قولي للملك كذا وكذا، وبدؤوا يسردون الأحداث وكنت أُنصت إليهم بتركيز شديد وساعدني هذا على اجترار ذكريات «أبادول». اتفقت معهم على إخفاء خبر وصولنا حتَّى نتمكن من الوصول إلى قصر الأميرة «فاتي»، انصرفوا لأعمالهم وعادت «دهيبة» وزوجها بالخبز والطَّعام وبعض الفاكهة وقالت وهي تضع الصحون أمامي: «بالهناء والشِّفاء يا سيِّدي».

قال «كو» على استحياء: «سلمت يداك يا خالة «دهيبة»».

قالت وهي تبتسم في ودٍّ: «لو احتجتما إلى أيِّ شيء ستجدانني تحت طوعكما، وكذلك «أوندي»».

ثُمَّ زمَّت شفتيها وأضافت وهي تُحدِّق بعينيها: «فهو لا يفعل شيئًا سوى الجلوس أمام الدَّار».

انصرفا أخيرًا فتنفَّست الصعداء، قال «كو» وهو يُحكم إغلاق الباب خلفهما: «كان جدِّي يُحبُّهما».

- يبدوان طيبين.
- أجل، ولكن لو توقَّفت الخالة «دهيبة» عن تقبيلي واحتضاني سيكون هذا رائعًا.

ابتسمت عندما تذكَّرتها وهي تكاد تلتهم وجنته، تأمَّل وجهي وسألني: «هل علينا إخفاء الأمر عن الجميع؟».

- لن يُصدِّقك أحد يا «كو».. لو أقسمت لهم إنني رجل آخر تتغيَّر صورته فور أن يضع قدمه على أرض الأقواس لرموك بالجنون.
- ربَّما نذهب إلى حدود «أرض الأقواس» لنريهم هذا! تخطو فوق الأحجار أمامهم عدة مرَّات ويرونك كما رأيتك.

- من الحكمة أن ننتظر ونصبر، فقد يكون ظهوري بشكل جدِّك سببًا لحمايتك أنت ووالدتك من خطر وشيك.

اقترب وتحسس جبهتي ثُمَّ أمسك بلحيتي وجذبها وسألني: «هل تشعر بألم؟».

- لا.

- ربَّما لأنَّك لا تمتلك لحية طويلة كلحية «أبادول»!

- لكنَّني أملك ذاكرته.

قرصني في ذراعي وقال والمكر يُطلُّ من عينيه: «أتشعر بهذا؟».

- نعم.

تركته يعبث بوجه جده الَّذي صرت أُحمله وأنا لا أجد تفسيرًا لهذا سوى أنَّها مملكة البلاغة بغموضها وعجائبها التي تلاحقني منذ وصولي. أخذت أخطط لما سأفعله مع الغلام، لا بدَّ أن أُسلِّمه للأميرة «فاتي» لتحميه وهذا هو الصواب، أمَّا ما طلبه جده من نقله إلى الشَّمال ليتعلم حرفة ويعيش هناك فهذا مستحيل لأنني لن أبقى هنا، قُلت له وأنا أُبعد يده عن وجهي: «قصر الأميرة «فاتي» بعيد عن هنا».

- يبدو أنَّك تملك ذاكرة جدِّي بالفعل لاحظتُ هذا عندما عرفتَ اسم «دهيبة» دون أن أُخبرك.

- بدأت الذِّكريات تتوالى على رأسي يا «كو»، أود أن أرى الكثير من الأماكن والأشخاص هنا.

- أتدري أنَّك أكثر رفقًا بي من جدِّي الحقيقيِّ؟ لم يتركني لأعبث بلحيته هكذا قط.

- هل كان قاسيًا عليك؟

- لم يضربني قطُّ ولكنني كنت أخشى الاقتراب منه فقد كان يُبعدني بطريقة ما.

- قد يُظهر الآباء بعض القسوة حتَّى ينشأ الأبناء على الخشونة وخصيصى لو كان هناك خطر يتربص بهم، وكذلك الأجداد يفعلون.

- لكنَّ أبي لم يكن هكذا! كان أبي حنونًا ورحيمًا للغاية، وكان يلهو معي ونتسابق في الرَّمي بالأقواس.

أردت أن ألهيه عن الحديث عن والده فأخذت أمزح معه حتَّى عادت الابتسامة إلى وجهه، أطلق تنهيدة وقال: «حسنًا، لا بدَّ أن نقطع «أرض الأقواس» بطولها لنصل إلى قصر الأميرة «فاتي»».

- سيعرِّضك هذا للخطر، فحتَّى لو تسللنا سيرانا «العسَّاسون» الَّذين يطوفون الشَّوارع ليلًا.

- ليس أمامنا سوى الانتظار لآخر الليل.

حاولت تشجيع «كو» لكي يأكل وشاركته الطَّعام، وكانت تلك هي المرَّة الأولى الَّتي أتناول فيها الشَّعير المطبوخ، عاد إلى الحديث عن أبيه، أشفقت عليه كثيرًا فقد كان الحزن باديًا على عينيه المنكسرتين، وآلمني صوته المقهور. تذكَّرت «كِنان»، و«أمروس»، و«أبادول» الَّذي حمَّلني أمانة حفيده، لقد دفنت ثلاثة رجال منذ وصولي وكان هذا يؤلمني، قُمت للصَّلاة فراقبني «كو» وأنا أُصلِّي وحاول تقليدي، لكنَّني وجدته ينسى كلَّ ما أخبره به عن الصَّلاة وكأنَّه يُمحى من ذاكرته ويعود فيراقبني من جديد في فضول. فحصت كتابي ولم أجد غير الجُمل الَّتي ظهرت، بينما وميض الخريطة لا يزال متذبذبًا فوق «أرض الأقواس»، تمنَّيت لو لم أفقد خنجري في أثناء فرارنا من جنود الملك، وعادت الأسئلة تدور في ذهني المُتعب...

تُرى هل ستظلُّ هيئتي هكذا؟

وحتَّام سأبقى «أبادول»؟

كان ذلك الرَّجل حكيمًا وواعظًا وعاقلًا لكنَّه لم يكن مقاتلًا ولم يُحسن الرَّمي بالقوس كولده «أمروس»، وكان جافًّا ويرفض العناق، فهل عليَّ أن أتعامل مع النَّاس مثله؟

لكنَّني لا أطيق هذا الطبع ولم أعتده!

وماذا سيفعل أهل أرض الأقواس لو رأوني وأنا أعود إلى وجهي الحقيقي فجأة؟

انتبهت لغياب «كو» من أمامي فألفيته في غرفة أخرى وقد أزاح بساطًا من الجلد المدبوغ كان على أرضيَّة الغرفة، فأدركت أنَّه يفتح الخزانة السِّريَّة ومرَّ بخاطري ذكريات تخصُّها، بدأ يرفع الأحجار المصفوفة بانتظام ليظهر تحتها مخبأ سريٌّ في حجم صندوق مربع، وضع فيه أوراق البردي الخاصَّة بجده الَّتي أحضرها من الكهف، استوقفته وطلبت منه قراءتها، عندما فتحتها فوجئت بخلوها من الكلمات، كان «كو» يرتجف وهو يفتحها تباعًا واحدة تلو الأخرى، سألني في حسرة: «كيف اختفت؟».

- ليس علينا القلق من هذا أبدًا.
- كيف؟
- توجد نسخ أخرى يا «كو».
- أين هي؟

أشرت إلى رأسه قائلًا: «هنا»، ثُمَّ أشرت إلى رأسي وقُلت: «وهنا».

- هل تملك ذاكرة جدِّي بأكملها؟
- لا أظن ذلك، يبدو أنني لا أحفظ جميع ما دونه، فأنا لا أجد في ذاكرتي ما يتضمنه هذا الكتاب.

أخرجت له كتابي ووضعته بين يديه، فتحه وقرأ ما ظهر فيه من جُمل وقال: «ليس هذا مما أحفظه! لم أر تلك المواعظ من قبل! لعلَّها مما دوَّنه أحد رفاق جدِّي من الحكماء، فقد كانوا سبعة ومنهم جدِّي، أنا أحفظ ما جمعه جدِّي منها فقط».

- لكنَّ الكتاب باسم جدِّك!
- «أبادول» تعني الجدَّ الأكبر، لعلَّ الأمير «أواوا» كتب شيئًا من الحكم والمواعظ من جدٍّ لأحفاده.

جلست حائرًا! الجدُّ الأكبر! لماذا إذن أنا في صورة جدِّ «كو»؟ ورد على خاطري شيء، طلبت من «كو» أن يكتب جملة من الجمل التي ظهرت في كتابي وقرأها بخطٍّ يده على الأتربة التي غطَّت طاولة خشبية منخفضة كانت في الدَّار، فبدأ يكتبها وصُدمت عندما رأيت الحروف التي يكتب بها!

إنَّه يكتب بالحروف النُّوبيَّة!

يقرأ بلغته وحروفه، وأقرأ بلغتي وحروفي، ولعلَّه يتحدَّث بها فأسمع صوته بالعربيَّة، وقد يسمع ما أردده بالنوبيَّة!

كدت أفقد عقلي! غريب أمر «مملكة البلاغة»، تذكَّرت ما قاله لي السيِّد «سُفيان» عن ميزات الوافدين، لعلَّ ظهوري بهيئة «أبادول» ميزة لسبب ما، لكي أدخل «أرض الأقواس» بسهولة، وأستردَّ كتابي وأساعد «كو» وأنقذه، وربَّما يتشابه مضمون الكتاب مع ما سيمرُّ به.

مرَّت برأسي بعض المشاهد لأبيه وجده وهما يُلقنانه الحكم والمواعظ والقصص، فأدركت حينها لماذا يريده الملك «يويا»، قُلت وأنا أمسح على رأسه: «أنت «ذكيٌّ» يا «كو»، لديك كنز في رأسك، لهذا يُريدون النيل منك يا مسكين».

غضَّن جبينه قائلًا: «لا يعلم أحد بحفظي لها، سأرحل مع أُمِّي من هنا».

لملم البَردِيَّات الفارغة وصفَّ الأحجار فوقها بنظام، وغطَّاها بالبساط الجلديِّ، وجلس بجواري في سكون فسألته: «لماذا لم تخف منِّي؟».

- عندما تركناك أخبرني أبي أنَّك من الوافدين، وقال إنك لا تحمل خبثًا.
- وكيف عرف هذا؟
- كان أبي يتمتَّع بالفراسة، أخبرني أنَّك شاب سليم الطويَّة، فقد اختبرك عدَّة مرَّات خلال حواركما القصير، وأنا أثق في فراسة أبي، وقد لاحظ كتابك والرَّقم «ويرا» منقوشًا على طرف غلافه، لكنني أظنُّه لم ير اسم الكتاب، لهذا بدَّل معك الملابس ليحميك بعد أن اطمأن لك وأحبَّك.
- لماذا لم يُصرِّح لي بأنَّه يعلم عن أمر الوافدين؟

- عندما سألته: لماذا لم تدعُه للصعود إلى جدِّي ما دمت قد علمت بأنَّه من الوافدين؟ أخبرني أنَّ هناك من يتبعك.

- يتبعني أنا؟ من؟ وكيف لم يُحذِّرني منه؟

- كاد يُخبرني لولا ظهور من قتلوه.

عاد الحزن إلى وجهه، شردتُ قليلًا وران علينا صمت ثقيل، أضاف «كو» قائلًا: «**قال عنك إنَّك تبدو كمحارب، وأراد أن أكون قويًّا مثلك**».

- محارب!

- نعم.. هكذا قال أبي عنك، أنت مُحارب بالفعل.

هزَّ رأسه بعفويَّة وأضاف: «رأيتك وأنت تُصارع الجنديين فوق الجبل، أنت قويٌّ يا سيِّد «توفيق»، ويومًا ما سأكون مثلك».

- ألم نتفق ألَّا تناديني باسمي؟

- حسنًا يا «أبادول».

أدركتُ أنَّني اكتسبتُ صديقًا جديدًا وبدأ الخوف ينقر صدري خوفًا عليه من الموت، قررتُ أن أحميه ما استطعت. اهتزَّ الكتاب من جديد وبرزت جملة جديدة..

«لن تُلبس حلل الشَّجاعة إن لم تكن يومًا خائفًا، فالقلب الخالي من الخوف خالٍ من الحياة، فاصنع من مخاوفك شعلة تضيء بها الطريق نحو دروب الشَّجاعة، ضوؤها يخفت كلَّما تقدمت».

عدنا إلى صمتنا وانتظرنا ليغمر الظَّلام أكناف «أرض الأقواس» لنتسلل لقصر الأميرة «فاتي»، وفجأة لاحت أضواء الشُّعل من خلف خشب النَّوافذ ومن فرجة الباب وتعالت أصوات همهمات وكان هناك صهيل خيول، نادى أحدهم بصوت غليظ وقال: ««أبادول».. اخرج أيُّها الجبان».

كان «كو» ينتفض بجواري، تعرَّفت على صوت المتحدث الَّذي كان يُخيف «أبادول» وهمست لـ «كو» والصَّدمة تعتريني: «هذا صوت الملك «يويا»».

خرجت لهم واختبأ «كو» خلفي وكانت السَّاحة أمام البيت محتشدة بالجنود، بعضهم على الخيول، وآخرون يحيطون بالبيت، وكلٌّ منهم يضع السَّهم في كبد قوسه ويوجهه نحونا، بدأ «يويا» يروح ويجيء بخيلاء وعليه ثياب مرصَّعة بالجواهر، وحول عنقه عقد من الذَّهب الخالص، وكان تاجه العظيم يعكس أضواء الشُّعل وكأنَّه جمرة تشتعل فوق رأسه، أشار إلى أحد جنوده قائلًا: «أحضروا الغلام».

صرخ «كو» فأدخلته البيت وأغلقت الباب ووقفت متأهِّبًا لأدفعهم بكلِّ ما أوتيت من قوَّة، نسيت أنَّ صورتي كشيخ واهن وضعيف لا تُناسب مهاراتي القتاليَّة، وبدأت أركل وأضرب كما اعتدت حتَّى إنَّني استخدمت رأسي وضربت اثنين منهما بجبهتي، وقف الجميع في اندهاش شديد مما أفعله، حتَّى «يويا» نفسه كان مشدوهًا ولهذا أشار إلى حاملي الأقواس ليخفضوها، وظلَّ يُرسل الجنود نحوي واحدًا تلو الآخر، وكلَّما انتهيت من أحدهم وطرحته أرضًا كان يرسل غيره وكأنَّه يستمتع بمشاهدة هذا، احتشد أهل المدينة وأقبلوا من كلِّ حدبٍ وصوبٍ وأحاطوا بنا، وكنت أشعر أنَّ «الأدرينالين» يُضخُّ في عروقي بسخاء، ترجَّل «الملك» عن فرسه وسحب سهمًا من كنانة سهام أحد جنوده ووضع السَّهم في كبد قوسه وقال: «أين نظرات الرُّعب الَّتي كانت تملأ عينيك عندما تراني؟».

- اطرح القوس وأقبل لنتقاتل كرجلٍ لرجل!
- يبدو أنَّك تناولت شراب الشَّجاعة أيُّها الجبان.
- لستُ جبانًا!
- كيف تقف هكذا! ومن أين لك بهذه العافية؟

لم أُجبه فقد كانت الدماء تغلي في عروقي، جذب السَّهم للخلف وقال وهو يُغلق عينًا ويستعدُّ لإطلاقه: «لنرتح منك للأبد».

كاد يرشقني بسهمه فانحنيت وإذا بسهم آخر أتاه بغتة فجرح أصابع يده فانتفض ألمًا وطرح القوس، التفت الجميع نحو الرَّامي وكانت فتاة مليحة الوجه لها جبين عريض ورأس شامخ تُطلُّ منه عينان سوداوان بنظرات

واثقة، سحبت من كنانة سهامها المعلقة على ظهرها سهمًا آخر ووجهته نحو الملك وهي تقول: «جرِّب مرَّة أخرى يا «يويا»!».

قبض «يويا» على أصابعه المصابة وهدر غاضبًا: «أيَّتها الحمقاء!».

- المرَّة القادمة سيقع السَّهم في بطن كفِّك لا على أطراف أصابعك.

كانت نبرة صوتها تشي بأنَّها تعني ما تقوله، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منها، فتلك هي شقيقة الملك «يويا» الأميرة «فاتي»، خرج الغلام «كو» من البيت وركض نحوها فمدَّت ذراعها له ورفعته خلفها على الجواد فصحتُ أناديها قائلًا: ««كو» في أمانتك يا سموَّ الأميرة».

تلاقت نظراتنا فهزَّت رأسها بتفهُّم ورفعت صوتها قائلة: ««كو» في جواري، وإن مسَّه أحد بسوء فسوف أقتله».

علت دمدمات الجنود واكفهرَّ وجه الملك «يويا» وكأنَّ أفعوانًا قد لدغه للتوِّ، همس له أحد قادة الجند بكلمات فهزَّ رأسه في تفهُّم وأرسل خمسة من الجنود هجموا عليَّ في آن واحد فأمسكوا بي بعد مقاومات ومناوشات منِّي وساقوني إلى السِّجن، رأيت الجنديين اللذين داهمانا في الكهف خلال سيري معهم وكان خنجري يتدلَّى من حزام أحدهما، عزمتُ على استرداده في وقت لاحق. في طريقنا كان أهل المدينة يتهامسون حولي، سمعت أحدهم يرفع صوته قائلًا: «من أين له بتلك القوَّة؟ وكأنه عاد شابًّا!».

أجابه آخر: «لا ريب أنَّه قد شرب من ماء النَّهر الأخضر!».

ظلَّت الذِّكريات تتقلَّب في رأسي وذقت مرارة كلِّ لحظة مرَّ بها «أبادول» على «أرض الأقواس»، حين سُلبت منه بساتينه وحقوله، وحين طُرد من المدينة وكان يخشى على ولده، وحين أُلقي ابنه «أمروس» في السِّجن مرَّات ومرَّات. عندما وصلنا إلى السِّجن كُنت متعبًا للغاية، ألقوني في زنزانة مع شاب آخر لم أتبيَّن وجهه من شدَّة الظَّلام، لكنَّني سمعت أنينه وأدركتُ أنَّه مُصاب.

فور إغلاق باب الزنزانة رفعتُ صوتي سائلًا: «من هنا؟».

- «سونو».

كانت المشاهد تتوالى على رأسي كلّما استفزّها عارض كصوت أحدهم أو وجهه أو اسمه، أدركت أنَّه ذلك الشَّاب الذي كان يزور «أبادول» طالبًا مشورته، مرَّت صورته بذاكرتي وهو يشكو له ما يعانيه من أثر حبِّه للأميرة «فاتي» وكانت لا تعلم عنه شيئًا، وقد شعر أخوها «يويا» بهذا فتربَّص له وسجنه لسبب آخر وهو عصيانه لأمرٍ ملكيٍّ وجهه إليه وكان على يقين بأنَّه سيرفضه، سألني: «من أنت؟».

- «أبادول»!

دبَّت الحياة في صوته الواهن وهو يقول: ««أبادول»، ظننتهم قتلوك!».

كدت أخبره أنَّ «أبادول» قد مات بالفعل، وكنت في حاجة إلى الحديث مع شخص ناضج لأبوح له بسري، فـ «كو» لا يزال غلامًا لا يملك الخبرة والحكمة، لكنَّني أحجمت عن إخباره وقُلت له: «قتلوا «أمروس»».

- يا إلهي! وأين «كو»؟

- في حماية الأميرة «فاتي».

ارتعشت نبرة صوته وهو يسألني: ««فاتي».. كيف حالها؟».

- لقد أنقذت «فاتي» حياتي اليوم، صارت ماهرة في الرَّمي بالقوس، يبدو أنَّ تدريبك لها أتى بثماره.

- مرَّ عام، لا ريب أنَّها قد نسيت أمري.

صمت «سونو» لوهلة وأضاف: «أتدري أنَّهم يرفضون وضعي مع الآخرين في زنزانة واحدة؟ يصرون على إبقائي وحيدًا هنا، وكأنه عقاب لأنَّ المساجين الآخرين يحبُّونني! ويسمحون لي بالخروج لوقت قصير، مللتُ من خلوتي ووحدتي».

- وما حاجتك إلى كثرة الخروج وفي خلوتك مع الله فُسحة أمل!

- هذا ما أتصبَّر به مع بعض الخيال لأنتشل نفسي من ظلمتي هنا.

- الخيال أحيانًا يُحررنا من الأسر، نتجاوز به الحدود ونخترق الجدران، لن يملك أحد أن يُقيِّد أرواحنا!

- أترقَّب ضوء الشَّمس الواهن الذي يتسرَّب من النَّافذة الصَّغيرة كلَّ صباح ليزحف على الجدار وأظلُّ أعلِّق نظري به حتَّى تغرب الشَّمس.

- اليقين أنَّ هناك شمسًا تشرق كلَّ يوم في الوقت نفسه وانتظار شعاعها عبادة.

- صحيح.. هل توقَّف «يويا» عن قتل الموحِّدين؟

- لا، لكنَّهم يقولون إنَّ هناك نبيًّا بُعث في شمال المملكة ويدعو لعبادة الله الواحد الأحد.

- لعلِّي أرحل إلى هناك عندما أخرج لألتقيه.

عاد يئنُّ من جديد فسألته عمَّا يؤلمه، فأخبرني عن جرح بقدمه، تذكَّرت الكريستالات الزَّرقاء وكنت قد نسيت أمرها تمامًا، فقبل خروجي من البيت مع «كو» كنت قد أخفيت الحقيبة تحت ملابسي، وكان الجنود يجرُّونني جرًّا وسط الزِّحام ولم يفتشوني وكان هذا من لطف الله ليظلَّ كتابي معي، فأخرجت واحدة منها من حقيبتي وفركتها بيدي فأنارت الزنزانة، تملَّكت الدهشة «سونو» وسألني عنها فأخبرته أنَّها أُهديت لي، أخبرني أنني في حال أفضل مما رآني عليه عندما زارني قبل أن يُسجن، وأن صوتي المبحوح صار مفعمًا بالحياة، رأيت وجهه وكان متعبًا للغاية، تفحَّصت جرح قدمه وأخرجت زجاجة الراتنج الأسود وقطرت منها في جرحه، وجلست أتأمَّل سمات وجهه وملامحه، بدا مفعمًا بالقوَّة والرُّجولة فرثيت لحاله، كيف يُحبس فارس كهذا هنا بين أربعة جدران؟ أليس من الأولى بـ «يويا» أن يتَّخذه قائدًا لجنده! وقد كان «سونو» من جند الملك «يويا» بالفعل، وظل مقرَّبًا منه حتَّى رفض قتل رجل لم يرتكب جرمًا غير غيرته على زوجته من أحد وزراء الملك، فغضب «يويا» وأمر بحبسه وتعذيبه لعصيانه للأمر. سألني بفضول فقطع شرودي: «هل عاد الحكيم «سامي كول» إلى «أرض الأقواس»؟».

- لا.

- لو كان هنا لعمل على إخراجي من السِّجن.

حضرت صورة الحكيم «سامي كول» في ذاكرتي بأحداثها فأجبته قائلًا: «التقيته خارج «أرض الأقواس»، وعاد ليقيم مع ابنته في «غابة البيلسان» مرَّة أخرى».

- المسكينة، تعيش هناك منذ سنوات ولا تجرؤ على الخروج من حدودها.
- لو خرجت ستكون عرضة للموت كما تعلم يا «سونو».
- ألم يكتشف أحد الأطبَّاء دواء لمرضها؟
- حاولوا ولم ينجح أيٌّ منهم.

بدأ «سونو» يُحرِّك قدمه وكان الألم قد سكن فاستراحت ملامحه وقال مستطردًا حديثه عن معلِّمه الحكيم «سامي كول» الذي يُحبُّه كثيرًا منذ صغره: «ظنُّوا في البداية أنَّ زواج الحكيم «سامي كول» من أرض أُخرى هو سبب مرض ابنته، كانوا يتنمَّرون على زوجته بسبب لون بشرتها البيضاء، وعندما كثر عدد المولودات بالأعراض نفسها توقَّفوا عن الثرثرة».

- علَّقوا الذَّنب برقبة أمِّها فقهروها حتَّى رحلت إلى بلادها.

كانت المشاهد تومض في رأسي بوضوح فأجدني أعلم كلَّ شيء عنها فقلت: «عندما بلغت ابنتها الخامسة من عمرها حملتها ورحلت، وكان من الجيِّد أن ترحل في هذا الوقت لتلتقي هناك نطَّاسيًّا(1) من «أرض الرَّافدين» كان يزور مدينتها وأخبرها أنَّ ابنتها تمتلك جسدًا يُشبه في تركيبه جسم الفراشات، ونصحها أن ترحل بها إلى «غابة البيلسان» الَّتي زارها ودرس أشجارها وأزهارها، فقد كان يتجوَّل في البلاد باحثًا عن هؤلاء الفتيات وألَّف كتابًا عنهنَّ. أتدري ما هو أكثر ما يسعدني يا «سونو»؟ أنَّها صارت تجهر باسمها الذي اختارته لها أمُّها لتُنادى به مثل سائر الفتيات.. «الحوراء»! أليس رائعًا؟».

(1) النطاسيُّ هو العالم الماهر والطبيب الحاذق.

- بلى، ما زلت أذكر عينيها الرَّائعتين عندما كنَّا نركض في طفولتنا بين الحقول، لقد أذوها كثيرًا حينها وكنَّا صغارًا إلى ذاك الحدِّ الذي لا يسمح لنا بإدراك اختلافها، كان الأطفال يرددون أنَّها مسخ من مسوخ الجنِّ!

- لا أدري متى سيتوقفون عن معاملة تلك الفتيات بوحشيَّة لمجرَّد اختلافهنَّ في الملامح، صار إطلاق الأسماء عليهنَّ مجلبة للمصائب، حرموهنَّ حتَّى من الاسم!

- أسمعت عمَّن باعوا بناتهنَّ للسَّحرة؟

- سمعت ولا أدري ما السبب وراء هذا؟ وللأسف بعض الآباء يهملون بناتهم عندما يرونهنَّ كذلك ويتركوهن حتَّى يمتن! إلَّا الحكيم «سامي كول» فقد أخبر الجميع عما علمه من زوجته من كلام النَّطَّاسيِّ، ورحل مع زوجته وابنته إلى «غابة البيلسان» مع عائلتين لديهما فتيات بالحالة نفسها، وأقاموا معهنَّ لفترة طويلة، لقد صارت «الحوراء» في التاسعة عشرة من عمرها الآن.

- نعم.. فهي تصغرني بأربع سنوات.

أردتُ أن أُصلِّي فتيممت وصلَّيت وكان «سونو» يُراقبني في فضول شديد، وتكرر الأمر كما حدث مع «كو»، أحدِّثه عن الصَّلاة وأشرحها له فينسى، وأعود فأعلِّمه فينسى!

وصلت إلى حالة من التَّسليم أمام غرائب «مملكة البلاغة»، توسَّدت حقيبتي وحاولت أن أنام لكنَّني تذكَّرت شيئًا ما! لقد رأيت وجه فتاة تُشبه ملامح ابنة الحكيم «سامي كول» التي مرَّت بذاكرتي المستعارة وهي صغيرة على صفحة «بنات الرَّعد»، وددت لو كان خنجري معي الآن فأنتقل إلى الشَّاطئ الأسود لأعيد قراءة الماضي من جديد على صفحة «بنات الرَّعد».

ترى أين خنجري الآن؟

***

اقتحم الجنود الزِّنزانة وأحدثوا جلبة شديدة، قيَّدوا يدي خلف ظهري، وسحبوني من ذراعيَّ إلى ديوان الملك «يويا»، عندما وصلنا حاولوا إجباري

على الرُّكوع أمامه فأبيت، فبدؤوا يضربونني على ساقي فأثاروا غضبي فوثبت بخفَّة وبدأت أركلهم بساقيَّ كما كنت أتمرَّن كثيرًا من قبل، بدأ «يويا» يضحك كالمجنون ووقف يُراقبني ثُمَّ اقترب منِّي وسألني ساخرًا: «هل شربت إكسير الحياة أيُّها الـ «أبادول»؟ أم حقًّا هي بركة ماء النَّهر الأخضر؟ أخبرني بالسرِّ.. هيَّا.. هيَّا!».

- ليس لديَّ سرٌّ لأخبرك به.

ظلَّ ينقر بإصبعه في صدري وهو يقول: «بل هناك سرٌّ! عندما أخرجتك من «أرض الأقواس» كُنت ضامر الجسد وهالكًا وصوتك مبحوح كفحيح أفعى فحملوك حملًا وألقوك خارجها، وها أنت تقف أمامي بجسد مفتول العضلات وبساقين من حديد، وصوت مُفعم بالحيويَّة وما يحول بيني وبين قتلك هو أنَّني أرغب في معرفة سرِّك! لم أذق طعم النَّوم مذ رأيتك أمس وأنت تطرح جنودي أرضًا، حتَّى خوفك منِّي ومن سياط جنودي تلاشى من عينيك! أُريد أن أكون هكذا لآخر عمري».

- عمرك! أخبرني حتَّام ستعيش؟

أجفل عندما سألته وقال وهو يتراجع للخلف: «سأعيش طويلًا أيُّها الأحمق».

- هل تملك أن تدفع الموت عندما يأتيك؟

- أحمق!

صفعني على وجهي وكانت يدي لا تزال في القيد، كدت أنشطر من الغضب إلى نصفين، رشقته بنظرة حانقة فسدد ضربة قويَّة بقبضته لفمي، حاولت ألَّا أغضب لكنَّني لم أستطع كبح جماح نفسي فركلته في بطنه فسقط على ظهره وكان سيف قائد الحرس على عنقي في الحال ويكاد يذبحني لولا صرخة ندَّت من «يويا» وهو يقول: «لا».

رفع قائد الحرس سيفه عن عنقي في الحال وشخص كلاهما نحو فمي، قال «يويا» وحدقتاه متَّسعتان على وسعهما: «دماؤه حمراء!».

كانت الدِّماء تسيل من فمي بسبب ضربة «يويا»، وقفوا جميعًا يُراقبون دمائي، أراد قائد الحرس المزيد فخدش ذراعي لتسيل الدِّماء من جرح آخر، قال «يويا» وهو يمسح دمائي بأطراف أصابعه: «هذا ما أخبرني عنه «سورنجان»».

قال قائد الحرس وهو يضغط على جرح ذراعي: «ولكن كيف و«أبادول» من أرض الأقواس وليس بوافد كما يزعمون؟»

ثُمَّ أضاف وهو يتلمَّظ: «لنُرسل إلى «سورنجان» ونخبره، لعلَّ أحدًا من أعوانه يُفيدنا في هذا الأمر».

- ادعوه لزيارتنا.

ثُمَّ أضاف «يويا» وهو ينظر إليَّ بازدراء: «ألقوه في غيابة السِّجن».

اقترب جنود الملك ليسحبوني من جديد وكانوا يتهيَّبون الاقتراب منِّي حتَّى لا أركلهم، سار أحدهم أمامي فتبعته وسار خلفنا الآخرون في صمت، عدت إلى «سونو» وفوجئت بوجود شاب جديد معنا، كان وجهه مليئًا بالنَّدبات التي شوَّهت ملامحه، رويت لـ «سونو» ما حدث فأصغى إليَّ بتركيز شديد قبل أن يُعيد إليَّ حقيبتي التي كانت معه في أثناء غيابي ويطرح السؤال نفسه الذي يُحيِّر الجميع هنا: «لماذا دماؤك حمراء يا «أبادول»؟».

وددتُ أن أجيبه، ولكن لو أخبرته أنَّني أتحوَّل إلى «توفيق» عندما أغادر أرضهم وأعود لأتحوَّل إلى «أبادول» بعد أن أدخلها هل سيُصدِّقني؟ قُلت له لأريح شتات فكره: «لا أجد تفسيرًا لما يحدث لي، الأمر غريب كغرابة هؤلاء الفتيات اللاتي يولَدن على أرض الأقواس!».

كنت غاضبًا للغاية، ما زالت يداي ترتجفان من فرط الانفعال، فقد صفعني الأحمق «يويا» على وجهي، طفقت أكزُّ على أسناني حتَّى آلمتني، عالجت جرح ذراعي بالرَّاتنج الأسود لعلَّه يُفيدني، لكنني لم أجد ما أضمِّده به، استدرت ووليتهما ظهري وأغمضت عيني حتَّى يظنَّا أنني قد نمتُ ولا يُحدثانني، فلا طاقة لي بالحديث الآن، هدأت نفسي وانشغل الشَّابان بالحديث مع بعضهما، اهتزَّ الكتاب ففتحته لأقرأ...

«حربك مع نفسك أكثر ضراوة من حربك مع الآخرين، فإن لم تنتصر عليها لن تنال النصر أبدًا».

قرأتها مرارًا وأعدت الكتاب إلى الحقيبة، غلبني النَّوم وكنَّا لا نزال في أوَّل النَّهار.

مرَّ اليوم ثقيلًا وكنت قلقًا على «كو»، عندما هبط الظَّلام أخرجت حجرًا ليضيء المكان، ظننت أنَّ هذا سيلفت أنظار حراس السِّجن عندما يتسلل إليهم الضَّوء لكنَّهم لم يقتربوا من باب الزنزانة ولم نسمع لهم صوتًا، حدَّثنا الشَّاب الجديد عن سبب حبسه وأدركتُ أنَّه لصٌّ، كان يتلعثم في حديثه، سألته وأبديت اهتمامًا: «متى أصبت بتلك النَّدبات على وجهك؟».

ظننت أنَّه أصيب بها خلال سطوه على النَّاس، قال وهو يمرر أطراف أصابعه عليها: «عمِّي!».

- ولم فعل هذا؟

- بعد وفاة والديَّ انتقلت إلى بيته وكنت في السَّابعة من عمري، وكان يؤدِّبني بالكيِّ بالنَّار.

- لماذا؟

- لأنَّني صرت أتلعثم. أغضبه تلعثمي ولم يقف ليتساءل عن السبب، وأنا الذي كنت بليغًا قبل أن يرحل والداي، لا أذكر أنَّه احتضنني ولو لمرَّة واحدة.

- ما اسمك يا فتى؟

- وما حاجتي إلى اسم وكلٌّ من يصفني يقول الشَّاب الأبله الأثول الذي يتلعثم ويتهته!

- أحبُّ أن أناديك باسمك.

بدا عليه التَّأثُّر، قال في ارتباك: «اسمي «نوب»[1]».

---

(1) كلمة «نوب» تعني الذهب لوجود أكبر مناجم الذهب في أرضها قديمًا، وكانت تسمَّى «أرض الذَّهب».

- ما أجمل اسمك!

فُتح باب «الزِّنزانة» ببطء شديد، أطلَّ جنديٌّ وأشار إلي لأتبعه، عندما خرجت وجدتُ الأميرة «فاتي» تنتظرني بالخارج وكانت ترتدي ثياب العامَّة من نساء «أرض الأقواس»، تعجَّلتني لكي ننصرف بسرعة فاستوقفتها قائلًا: «لن أرحل دون رفيقيَّ».

- سيكون هذا صعبًا يا «أبادول»! أسرع قبل أن يكتشف أحدهم غيابك.

- «سونو» بالدَّاخل.

استدارت وكأنَّ صاعقة أصابتها وقالت في تعجُّب: «ماذا؟ «سونو»! ظننته قد رحل من «أرض الأقواس»».

- كان مسجونًا طوال الوقت.

- أخبرني «يويا» أنَّه رحل بإرادته كما رحل آخرون!

أشارت إلى الجنديِّ الذي أخرجني من الزِّنزانة فانصرف ليحضر «سونو» و«نوب»، كان حرَّاس السِّجن في حالة من الخدر وبعضهم يهلوس فأدركت أنَّهم دسُّوا لهم شيئًا في الطَّعام أو الشَّراب، سألتها: «ما بهم؟».

- دسسنا «العاكوب»[1] في الطَّعام.

أدركتُ حينها سبب عدم انتباه الجنود لأضواء الأحجار الزَّرقاء، خرج الجنديُّ ومعه «سونو» الَّذي أجفل عندما رأى «فاتي» تقف أمامه، تأمَّلته وكان في حالة مزرية وقد طال شعر رأسه ولحيته بشكل كبير، همست بخفوت: «كدت لا أعرفك يا «سونو»!».

كان في غاية الحرج ولم ينبس ببنت شفة، تبعنا الجنديَّ ليدلنا على الطريق في صمت، بينما كنَّا نهرول خلفهم همس لي «نوب»: «هل أرحل الآن؟».

- لماذا سترحل؟

- أستطيع أن أهرب الآن إلى مدينة أخرى.

---

(1) العاكوب أو الإرغوت هو فطر أسود ينمو على القمح يسبب الخدر والهذيان والهلوسات وتشوشًا في الحواس.

- خرجنا معًا وسنظلُّ معًا.

- أنت ذو قيمة لديهم لعلمك، و«سونو» كذلك، ولن يكترث أحد لأمري فأنا لصٌّ.

- لصٌّ تائب يا «نوب»! أليس كذلك؟

- صدقني لن يهتم بي أحد يا «أبادول».

- لكنَّني أهتمُّ.

أمسكتُ بيده وسألته: «نسيت أن أسألك عن عمرك».

- خمسة وعشرون قهرًا ومذلَّة!

كانت نظراته تحمل مسحة انكسار، بدا وكأنَّه غاص في مستنقع حزن وكآبة فقلت له وقد اعترتني حالة من تقمُّص دور الأب: «سر بجواري ولا تلتفت لأحد يا بنيَّ».

شعرت أن «أبادول» الحقيقيَّ قد ألقى بعباءته على كتفيَّ فصرت أعامل شابًّا في عمري وكأنَّه ولدٌ لي، يبدو أنني أتحوَّل شيئًا فشيئًا إلى شيخ كبير.

وصلنا إلى القصر فاستقبلنا «كو» وركض نحوي وتعلَّق بي فاحتضنته وهمست له أسأله: «هل بُحت بسرِّنا؟».

- نعم.

أجفلت وسألته: «يا إلهي! أخبرت من؟».

- الخالة «دهيبة» وزوجها.

- وماذا قالا؟

- لم يُصدقاني، ظنَّا أنَّني أخرِّف من فرط حزني، وقضينا الليلة والخالة «دهيبة» تطعمني حساء الشَّعير ليزيل الحزن عن قلبي.

- نعم هو يُزيل الحزن بالفعل، «**إنَّه لَيَرْتو فؤاد الحزين ويسرو عن فؤاد السَّقيم**»[1].

داعبته قائلًا: «لا ريب أنَّها أمطرتك بالقبلات».

قلب شفتيه وأومأ برأسه في عذوبة، لقد سكن ذلك الغلام اللطيف غرفة من غرف قلبي الأربع!

كان قصر الأميرة «فاتي» لا يختلف عن قصر أخيها «يويا»، طراز البناء واحد، بيد أنَّه يُمثِّل قلعة النُّور في «أرض الأقواس». لاحظت كثرة الحرَّاس حوله وأيقنت أنَّ هناك الكثير من الرِّجال خلف تلك الأميرة ويرجون بدعمهم لها أن ينتهي طُغيان أخيها. بدأ جرح ذراعي يؤلمني ولم يتحسَّن عندما طببته بالرَّاتنج الأسود، بيد أنَّه أفاد جرح أقدام «سونو»، قررتُ أن ألقي عليهم الخبر قبل أن يلاحقوني بالسُّؤال فقلت للأميرة «فاتي»: «أريد أن أرى طبيبًا فلديَّ جرح في ذراعي ودمائي حمراء».

تعالت صيحات التَّعجب من الحضور، توجَّهت الأنظار نحو جرح ذراعي، قالت الأميرة «فاتي»: «لعلَّ هذا ما جعلك أكثر شبابًا وأقوى! حتَّى صوتك المبحوح تغيَّر!».

أقبل كهل كان يُلازم الأميرة «فاتي» وكان قد وقع في نفسي أنَّه وزيرها الذي تثق به وقبض على ذراعي وعصره على حين غفلة منِّي فسالت الدِّماء، أراد أن يراها بنفسه ويريها للجميع، أصابني هذا بألم شديد وشعرت بالضِّيق مما فعله فدفعه «نوب» بعنف وقال له متلعثمًا: «كيف تفعل هذا به؟».

- أغلق فمك أيُّها الحقير!

ثُمَّ استدار نحو الأميرة «فاتي» وقال لها: «كيف تحضرين لصًّا إلى قصرك؟ جميعنا يعرف الأثول صاحب النَّدبات هذا، إنَّه حتَّى لا يُحسن الكلام!».

أغضبني هذا فقلت بحزم شديد: ««نوب» تاب ولن يسرق بعد اليوم!».

---

(1) كان رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- إذا أخذ أهلَه الوَعْكُ، أمر بالحَسَاءِ فصُنِع، ثم أمرهم فحَسَوْا منه وكان يقولُ: إنه لَيَرْتُو فؤادَ الحزينِ، ويَسْرُو عن فؤادِ السقيمِ كما تَسْرُو إحداكن الوَسَخَ بالماءِ عن وجهِها.

قال الكهل وهو يرشق «نوب» بنظراته الناريَّة: «ليرحل من بيننا فنحن لا نأمنه».

- إذًا سأرحل معه.

أطبق الصَّمت على الجميع، قبض «نوب» على يدي بانفعال وهمس لي: «سأرحل يا «أبادول»».

قالت «فاتي» وهي تحدِّجه بنظراتها: «لا ترحل، ولكن لتعلم أنَّك مُراقب».

استعرت منديلًا من الكتَّان من «دهيبة» لأُضمِّد جرحي فساعدتني في ذلك وأخبرتني وهي تضمِّده لي أنَّ «كو» بسبب تغيُّر لون دمائي هذا أصيب باللوثة والوهم ويظنني شخصًا آخر.

اقتربت الأميرة «فاتي» وجلست أمامي بتواضع وسألتني: «متى سنجمع كتابات أبي يا «أبادول»؟ أرغب في نشرها في أرجاء «أرض الأقواس» إكرامًا لاسم أبي».

أجبتها بعد غوص في ذاكرتي المستعارة: «لو جمعنا البَردِيَّات الآن سيجمعها أخوك ويزيِّف ما بها».

- أين افترق رفاقك الستة؟ وهل لا يزالون على قيد الحياة؟

- أرسل أخوك خلفهم من ترصَّدوا بهم فقتلوا ثلاثة منهم، لكنَّ البَردِيَّات الَّتي كانت معهم في أمان.

بدأت المشاهد تتوالى على ذاكرتي، رأيت الأماكن الَّتي أخفى بها «أبادول» وابنه «أمروس» أوراق البرديِّ، كان «كو» يرتجف، فقد أخبره أبوه ألَّا يُخبر أحدًا أنَّه يحفظها عن ظهر قلب، قالت الأميرة «فاتي» بعد أن أطلقت تنهيدة: «صرت أخشى من أخي، لم يستمع لتوسُّلات أمِّي قبل أن تموت، أشعر أحيانًا أنَّه مُصاب بلعنة أو سحرٍ ما!».

- ليس من الضروريِّ أن يُصاب الإنسان بلعنة ليظهر الجانب المظلم منه، أحيانًا تكون النَّفس الخبيثة أخطر من ألف شيطان مريد.

- كان لطيفًا ونحن صغار.. إنَّه أخي!

- كلُّ الأطفال لطفاء، وإنَّما يُبرز الشرُّ أنيابه عندما نكبر وتستيقظ الشَّهوات، وأخوكِ يشتهي المُلك والتَّاج والجاه والسلطان.

- هو ملك لـ «أرض الأقواس» بالفعل فلماذا يفعل هذا؟

- لكنَّه لم يبسط مُلكه على قلوب أهلها، ولم ينل ذلك المنصب لأنَّه يستحقه بل ورثه فقط وهو يعلم يقينًا أنَّه أضعف من أن يحكم «أرض الأقواس».

- كان ينصت لأبي وهو يقصُّ علينا العبر والحكم في حكايات، وكانت تعجبه.

- بعد اختفاء أبيك وخروجكم من السجن بدأ يكره كلَّ كلمة كتبها أبوكِ لأنَّه ظنَّ أنَّها كانت السبب في إلقائكم في السِّجن وحرمانكم من حياتكم وحرِّيتكم، ولا يزال ساخطًا وناقمًا عليه لأنَّه اختفى فجأة ولم يعد قط.

- هل من الممكن أن يكون أبي على قيد الحياة؟

تذكَّرت ما قاله لي «زُهلول» الجنيُّ الذي منحني الخنجر بعد خروجي من مدينة النَّحاس عن موت الأمير «أواوا» وخادمه «سربل» بالغرق وكيف أنَّه دفنهما في تابوتين بشكل يليق بهما، لكنَّني لم أرغب في قهر ابنته فقلت لها: «بحثنا عنه ولم نجده في أيِّ مكان، جُبنا القرى والمدن وسلكنا دروبًا لا نعرف عنها من قبل ولم نجد له أثرًا».

سالت دموع الأميرة «فاتي» وقالت وهي تكفكفها: «بقاؤك هنا خطر للغاية يا «أبادول»، قد يُرسل أخي جنوده في أيِّ وقت ليقتلوك، سأرسلك الآن وقبل طلوع الفجر أنت و«كو» لبعض الأصدقاء ليعتنوا بكما حتَّى أستطيع إخراج أم «كو» من السِّجن قبل أن تضع مولودها الجديد».

قُلت وأنا أشير إلى «كو» ليقترب: «ظننتُ أنَّ المكان الوحيد الآمن لـ «كو» هو أن يكون معك، فقد كان أخوك يحفظ لك مكانتك ولكن بعد مواجهتك له وتهديدك إيَّاه بالقوس أظنُّه سيُغيِّر طريقة تعامله، أليس كذلك؟».

- بلى وقد يقتحم القصر في أيِّ وقت.

- لهذا من الحكمة أن تفرِّقي بيننا، أنا في مكان و«كو» في مكان آخر، فإن وقعت في يد الملك فالغلام آمن وليرحل من أرض الأقواس إلى أيِّ مكان ولتكن «غابة البيلسان» فأنا أثق بـ «سامي كول»، وإن أمسك الملك بالغلام سأقدم نفسي فداء له.

قال «سونو»: «سأرافقك ولن أتركك تخوض هذا وحدك».

- بل سأضع «كو» في عهدتك يا «سونو» فأنا أثق بك وبهذا لن يستطيع الملك النيل منه بسهولة.

قال «نوب» على استحياء وهو يخشى أن أرده: «سأرافقك أنا إن قبلت».

- فليكن هذا.

قالت الأميرة «فاتي»: «لك هذا وعلينا أن نسرع».

- ليتك تقبلين بمرافقة «دهيبة» و«أوندي» مع الغلام لرعايته حتَّى يلتقي أمَّه فهذا سيُساعده كثيرًا.

راق الأميرة اقتراحي فقالت بعد صمت قصير: «ليكن هذا يا «أبادول»».

تعلَّق «كو» برقبتي فاحتضنته طويلًا، وقبل أن أنصرف همس لي: «هل سترحل الآن وتخرج من أرضنا للأبد يا سيِّد «توفيق»؟».

- لا، لديَّ مهمَّة كما أخبرك والدك، أنسيت أنني من الوافدين؟

- لم أنس ولن أخبر أحدًا وسأحفظ السرَّ.

- اعتنِ بنفسك وثق بـ «سونو» ولا تنفر من «دهيبة» فهي تحبك.

قال وهو يُخبِّئ رأسه في صدري: «وددتُ لو كنت جدِّي بحقٍّ، عناقك له رائحة الأمان».

تركت قطعة من فؤادي معه، ودَّعتهم وخرجت أنا و«نوب» مع الحرَّاس ليوصلونا إلى بيت من البيوت الَّتي تثق بها الأميرة «فاتي»، وانصرف «سونو» مع «كو» و«دهيبة» وزوجها إلى مكان آخر. كنَّا نسير مع الحرَّاس في صمت، مررنا في طرقات ملتوية وطال بنا المسير، هبَّت ريح محمَّلة بروائح العطن

والملوحة فدخلت الرِّيبة في نفسي، أخذونا إلى أكواخ الصيَّادين ذات الجدران المتشققة والمضروبة بالطِّين، سألت أحدهم: «لماذا نسير من هنا؟».

وكنت أعرف معالم «أرض الأقواس» من ذاكرتي المستعارة، حكَّ جبينه وطالعني ببلاهة وقال في تهكُّم: «ستعرف كلَّ شيء!».

فصلوني عن «نوب» وكنت أراه لكن المسافة بيننا تمنعني من الحديث إليه، حاولت أن أكون رصينًا وهادئًا قدر استطاعتي، مررنا ببيوت حجريَّة بالقرب من المناجم والمحاجر على حدود «أرض الأقواس»، وعندما وصلنا إلى غايتهم استقبلونا بهدوء ثمَّ انقضَّ عليَّ ثلاثة رجال منهم فجأة وأمسكوا بي وثبَّتوني، خاب أملي فهؤلاء لم يكونوا أهلًا لتلك الثِّقة التي أخبرتنا عنها الأميرة «فاتي»، فقد قيَّدونا بعد انصراف حرَّاس الأميرة وساقونا أمامهم إلى قصر الملك «يويا» في الحال، وكأنَّ الله قد كتب عليَّ أن أمسح «أرض الأقواس» ذهابًا وإيابًا تلك الليلة، وبينما نسير في الطَّريق ظهر خمسة من الرِّجال يرتدون عباءات مزركشة وملوَّنة وعلى وجوههم أقنعة غريبة من النحاس المطروق والملون، طافوا حولنا ورددوا كلمات لم أفهم كنهها، ثُمَّ هجموا فجأة على الرِّجال الثلاثة الذين قيَّدونا وضربوهم على رؤوسهم فوقع أحدهم فاقدًا لوعيه وفرَّ اثنان كفأرين جبانين، أزاح أحد هؤلاء الأشخاص قناعه وهمس لـ «نوب»: «كيف أنت يا صديقي؟».

أدركت أنَّهم رفاق «نوب»، ظننتهم لصوصًا وقطَّاع طرق ولكنَّهم كانوا لصوصًا من نوع آخر.

***

«العسَّاسون»

وصلنا إلى مكان واسع وغير مسقوف في بقعة مهجورة على أطراف «أرض الأقواس»، رأيت في أركانه الأربعة خيامًا كبيرة من الجلد المدبوغ حيث ينام هؤلاء الرِّجال في فقر مدقع وسط القطط الَّتي تملأ المكان، بدأ «نوب» يُحدِّثني عنهم وهو يناولني قدحًا مكسورًا به عدس مطبوخ وساخن

ومعه كسرة خبز قاسية، أخبرني أنَّهم من أصدقائه وأنَّنا في أمان، فالنَّاس يخافونهم ويظنُّون أنَّهم يمارسون السِّحر والشَّعوذة وأنَّ تلك الأرض مسكونة. تحفَّزت الذَّاكرة المستعارة من «أبادول» ومرَّ برأسي مشاهد لهم، علمت أنَّهم يخبئون وجوههم خلف تلك الأقنعة ويسيرون في «أرض الأقواس» ليرقصوا في مناسبات عديدة، عندما يسقط المطر، وعندما تهبُّ الرِّياح، وفي موسم الحصاد، وفي أعياد غريبة أخرى لهم تتعلَّق بتاريخ أرض الأقواس وانتصارات جيشها، وحتَّى في حفلات الزَّواج يظهرون، أمَّا في جنازات الموتى فيسيرون في صمت مهيب مما يُخيف النَّاس منهم. ويلقي أهل المدينة لهم المال أمام أقدامهم أجرًا لأفراحهم المصطنعة، وأحيانًا يمنحونهم المال خوفًا ومهابة منهم ليأمنوا شرَّهم الذي يتوهَّمونه. تعرَّفت على وجه أحدهم وكان يزور «أبادول» وقد تردد عليه أكثر من مرَّة طالبًا منه المال لأمر ضروريٍّ فرفض «أبادول»، وقد منحه «أمروس» القليل من المال حينها. قال «نوب»: «أليس من المحزن أن يخبِّئ الرَّجل وجهه خلف قناع ليجمع المال لأبنائه بتلك الطَّريقة؟».

- السرقة والتسول أمران مؤلمان.
- كيف تقول عنها سرقةً وتسوُّلًا والنَّاس يعطونها لهم طواعية؟
- هذا تسوُّل أنيق فهم قادرون على العمل، كما أنَّ اصطناع الفرحة للغير سرقة لعواطفهم، فهم يجبرونهم على إخراج النقود من جيوبهم حرجًا دون إشهار سلاح في وجوههم.
- بل هم يصطنعون الفرحة حفظًا لماء وجوههم يا «أبادول»! جرِّب أن تحتاج وتعيش في العراء وتبيت جائعًا ومقهورًا على جوع أولادك من شدَّة الحاجة.
- على أهل المدينة أن يساعدوا العاجز منهم عن العمل بالمال، وعلى القادرين منهم أن يعملوا بأيِّ حرفة لكسبه، لماذا لا يعملون في الزراعة أو صناعة الفخَّار؟

- أنسيت أنَّ أهل المدينة يرفضون أن يعمل هؤلاء لديهم خوفًا من الملك يا سيِّدي؟

- لم أنس، فبعضهم كان يعمل في الحقول الَّتي سطا عليها الملك «كاشتا»، وكان يأمر بسجن من يستعملهم في حقله.

- والآن الملك «يويا» يسلك مسلكه، بل هو أكثر بطشًا وظلمًا منه.

- لكنَّهم تسببوا بأنفسهم فيما آلت إليه أمورهم يا «نوب»، يخطئ الرَّجل عندما لا يردُّ ما يُقال عنه زورًا، فصمته إقرار بصحَّة ما يُشاع عنه من باطل، كما أنَّ الأقنعة وترديدهم لكلمات غير مفهومة وكأنَّها طلاسم سحريَّة أضفت عليهم شيئًا من الغموض وزد على ذلك أنَّهم يطوفون ليلًا فقط!

أطرق «نوب» للحظات وكان يتفكَّر في كلماتي، قال بتلعثم وكنت أصبر عليه طوال الوقت لأتبيَّن كلماته: «وحتَّى لو دافعوا عن أنفسهم فلن يُصدِّقهم أحد، أتدري أنني صرخت حتَّى احترق حلقي عندما اتُّهمت بالسَّرقة لأوَّل مرَّة ولم يُصدِّقني أحد!».

- لكنَّك للأسف سرقت بعد ذلك فأعطيتهم دليلًا على صدق الإشاعات، أليس كذلك؟

طأطأ رأسه في خجل وقال: «أصابني اليأس، لقد دفعوني دفعًا لأعيش في غياهب الخطأ وظلمته».

ثُمَّ أضاف بنظرة غاضبة وخبيثة: «ما دمت سأظلُّ لصًّا في أعينهم فلأسرق وأستمتع».

- وأين الله مِن فعلك هذا؟

أجفل ثُمَّ نكَّس رأسه وبدا الحزن على وجهه وهو يقول: «أعدك أن أحاول ألَّا أعود إليها».

بدا النَّدم الشَّديد عليه، حاولت تغيير مسار حديثنا لأخفف عنه فسألته: «أين ذهب أولاد «العسَّاسين» وزوجاتهم؟ كانوا يقيمون معهم هنا!».

- أمرت الأميرة «فاتي» ببناء ملاجئ لهم، فقد فاوضت شقيقها على هذا فوافق لكنه أبى أن تضمَّ الرِّجال إلى تلك الملاجئ.

أكملتُ حديثي مع «نوب» مستعينًا بما يرد على خاطري من معلومات فقلت له: «لا تزال «فاتي» تقف له كشوكة في حلقه، ظنَّ أنَّها ستخضع له بعد أن منحها الذَّهب والأموال، وعندما انتقلت إلى قصرها واطمأنَّت لجندها ووزيرها بدأت تتصدَّى له، لكنَّه لا يزال على جبروته».

- سرَّني أنَّك رددت عنِّي عندما وبَّخني وزيرها، لم يفعل أحد معي هذا من قبل، كنت أراك سابقًا ولا أقترب منك ظانًّا أنَّك جافُّ الطِّباع كما يقولون يا «أبادول».

- نخطئ عندما نحكم على الآخرين دون أن نعاشرهم.

- هكذا رآني ذلك الوزير دون أن يعاشرني، وددت لو أنَّ الأميرة «فاتي» وبَّخته على إهانتي.

- فلتنسَ هذا.

- لا أستطيع، أنا أذكر كلَّ كلمة ذكرني فيها أحد بسوء، صراع دائم يعتمل في صدري.

- سيتوقَّف الصِّراع عندما يتلاشى الكره والغضب من صدرك، ولن يتلاشيا إلَّا عندما تتوقَّف عن إشغال عقلك بمن أساؤوا إليك، أنت تستحقُّ أن تشغل نفسك بكلِّ جميل يُسعدك.

- كيف أنسى؟

- حاول أن تتناسى! انفض رأسك من الذِّكريات المؤلمة، واصنع ذكريات سعيدة لتحتفظ بها مكانها.

تنهَّد «نوب» وقال بنبرة تحمل الكثير من الألم: «أترى تلك النَّدبات على وجهي؟ لديَّ ندبات أعمق منها في قلبي».

- يقولون إنَّ الحبَّ يداوي كلَّ هذا.

- أخبرني أنت يا «أبادول» بعد عمرك الطَّويل هذا.. هل حقًّا الحبُّ يُداوي النفوس المتعبة؟

تذكَّرتُ «قمر» وقلبي الذي خفق لها، هربت كلُّ الكلمات منِّي فقلت له: «عليك أن تتزوَّج أيُّها الشَّاب».

- ومن سترضى بالزواج بشاب قبيح يتلعثم؟ أنت لم تسمع «العسَّاسين» بالأمس وهم يتنمَّرون على حالي.

- لا تلتفت لأحد، وعدني ألَّا تسرق مرَّة أُخرى.

- أعدك.

اهتزَّ كتابي فأخرجته لأرى إن كان قد أظهر شيئًا جديدًا فوجدت جملة..

«الشجاعة لا تعني أن تهيم على وجهك، تفعل ما تريد بلا ضوابط، وتذهب أينما تشاء بلا قيود، فحياتك أثمن من أن تذهب سُدى».

مضت الليلة ثقيلة على نفسي، فمنذ وصولي إلى أرض الأقواس وأنا في صراع مستمرٌّ، دلفنا أنا و«نوب» خيمة من الخيام الأربع وكانت رائحة الرُّطوبة تفوح في أجوائها، وسريعًا ما غطَّ «نوب» في نوم عميق، كنت أتفكَّر في طباع ذلك الشَّيخ الَّذي دفنته والآن أحمل صورة وجهه وذاكرته، وبدا لي أنَّ له طباعًا تختلف عن طباعي وبعضها ترك أثرًا في نفوس الآخرين، فعلى الرغم من توقيرهم واحترامهم له كان هناك شيء يُبعدهم عنه. أقبلت هرَّتان سمينتان قبعت إحداهما فوق قدميَّ والأخرى على ذراعي فدفَّأتني، كُنت قلقًا على «كو»، ماذا لو سلَّمه من أُرسل إليهم للملك «يويا» كما كاد هؤلاء أن يفعلوا بنا؟

ظلَّ القلق ينخر رأسي حتَّى شعرت أنَّ عقلي تخدَّر فأخذ الكرى بمعاقد جفنيَّ.

***

أيقظت «نوب» قائلًا: «أرغب في استعارة قناعٍ ووشاحٍ من أصدقائك».

فرك عينيه وقال في اندهاش: «ألم تكن الأقنعة فكرة سيئة بالأمس؟».

- بلى، ولكنَّني في حاجة إليها لكي أطمئنَّ على «كو»، ماذا لو فعلوا معه مثل ما فعلوا معنا وأخذوه إلى قصر الملك «يويا»؟
- لكنَّ العسَّاسين لا يطوفون نهارًا.
- سنطوف نحن نهارًا يا «نوب»! لتكن تلك هي المرَّة الأولى.
- سنجلب الأنظار إلينا.
- سأخرج وحدي وابق أنت هنا.

استجاب «نوب» لطلبي بعد جدال طويل، واستعرنا قناعين ووشاحين من «العسَّاسين»، أسكنت شعر رأسي ولحيتي بالدهن حتَّى لا يتعرَّف أحد علي، وكان الوشاح طويلًا فغمر جسدي بأكمله، وخرجنا وسط تعجُّب «العسَّاسين» منَّا لنطوف بأرض الأقواس، استوقفني أحدهم قائلًا: «لماذا سترتدي قناعًا يا «أبادول»؟ أين ما رددته على مسامعنا من حكم وأقوال عن الشَّجاعة؟».

استدرت نحوه فتعرفت على وجهه، إنَّه «سيدون» وكان يتردد على «أبادول»، قُلت له وأنا أقترب منه: «تعلمون أنَّ الملك «يويا» يرغب في النيل منِّي، و«كو» في خطر!».

- ألم تقل إنَّ هيبة الشُّجعان ترهِب الوحوش؟
- بلى، ولكنَّ الشَّجاعة دون الحذر حماقة! وهناك غلام لا حيلة له يحتاج إلى الحماية.

دار بيننا حوار قصير كشف لي مدى معاناة «سيدون» والبقيَّة وكيف أنَّهم يرغبون في العيش بسلام مع زوجاتهم وأبنائهم. علمتُ منهم أنَّهم قد يخرجون أحيانًا بالنَّهار ولكن لا يُحدثون جلبة برقصهم أو ترديد تلك الصيحات التي يطلقونها، فانطلقت في طريقي ومعي «نوب». فوجئت بازدحام أسواق المدينة وكان النَّاس يُراقبوننا بأعين يملؤها الفضول ويبتعدون عنَّا رهبة منا، حتَّى بعض جنود الملك «يويا» مرُّوا بجوارنا دون أن يقتربوا منَّا قيد أُنملة، على الرغم من معرفتهم أنَّ «العسَّاسين» من هؤلاء الفلاحين الذين سُلبت أراضيهم فإنَّهم كانوا يهابونهم ويخشون ممارستهم للسِّحر المزعوم عنهم بسبب ما يُرددونه وإن كانت هرطقات وثرثرة لا معنى لها، وكان هذا من

أكثر حيل «العسَّاسين» ذكاء، فقد صنع لهم هالة من الغموض أوقفت النَّاس عن تتبُّعهم ومنعتهم من أذيَّتهم. الغموض نوع من الكتمان يُخيف الآخرين فيُبعد عنَّا أذاهم، وصمتٌ حكيم يُلقي المهابة في قلوب من حولنا فيدفعهم للتراجع حتى لا يتخطوا الحدود التي وضعناها لهم، أو يبتعدوا عنا خوفًا مما وراء الأقنعة التي نخفي بها خصوصيَّتنا، وسِتر نخفي به أخطاءنا، ودرعٌ نحمي به قلوبنا من الكِبر والرِّياء عندما نواري به أعمالنا الصَّالحة، ليس من الضروريِّ أن نخبر الآخرين بكلِّ شيء عنَّا. أكملت سيري في الطرقات وكنت أراقب النَّاس وأجترُّ المشاهد من ذاكرتي المستعارة، كان الطريق طويلًا لقصر الأميرة «فاتي» لهذا مررنا بالكثير من البيوت وأسواق مختلفة، طفقت أراقب التُّجار وهم يعرضون بضائعهم المختلفة، كنت أخفي اندهاشي مما يُباع فالمشاهد تتوالى على ذاكرتي، لكنَّني في النِّهاية شاب من الفيوم ولم أر مثل تلك البضائع من قبل، الذَّهب هنا بين أياديهم بكثرة وكأنَّه شيء عاديٌّ، وكيف لا وبلاد النُّوبة هي بلاد الذَّهب، رأيت العديد من النِّساء يبعن الحليَّ المصنوعة من الأحجار الكريمة، وبعض الحرفيين يعرضون بضائعهم من الذَّهب المطروق، وكانت تماثيل العاج تملأ الحوانيت، حتَّى التمر والعديد من الفواكه كانت تُباع في السُّوق ذاتها. مررنا بحوانيت البرديِّين وهم يجففون البرديَّ ليصنعوا منه الورق للكتابة. أمَّا ما استوقفني فكان حانوتًا لبيع قوارير تحنيط الموتى التي يُحفظ بها المخ والأحشاء وغيرها وتُدفن مع المومياوات، مرَّ مشهد برأسي عن هذا الحانوت وكيف شارك «أبادول» بنفسه في تحنيط أحد الموتى، رأيته يُراقب ثلاثة أشخاص وهم يمارسون التحنيط، وكيف نقعوا الجسم المفرغ في الملح ليُجفف، وكيف يضعون الزيوت والراتنجات على الجلد الذي كان قد جفَّ بالفعل بعد تمليحه قبل أن يلفُّوه بعشرات الأمتار من قماش الكتان وهم يتلون التعاويذ ويمارسون عليها الطقوس الغريبة قبل الدفن، وأخيرًا يدفنونها في رمال الصحراء المترامية بعيدًا عن الأنهار، تراءت لي المقابر المشيدة بأشكال مختلفة، كان «أبادول» حينها يُراقبهم ليتعلَّم منهم ويبدو أنَّ هذا حدث له في شبابه. انتزعت نفسي من فقاعة الذِّكريات تلك فقد ضاق صدري بما اجتررته من صور، وعدت أراقب الحانوت من

الخارج، شعرت بالرهبة عندما لاحت لي إحدى المومياوات وكانوا يضعونها في تابوت مزيَّن بالذَّهب والألوان، همس لي «نوب» ليتعجَّلني: «لنُسرع فقد يخرجون الآن في موكب لدفن هذا الرَّجل».

خرج أحد الرِّجال من الحانوت بالفعل وضرب على قرص كبير من النُّحاس مُعلَّق على الجدار فأصدر رنينًا عاليًا فاجتمع النَّاس حوله، وبدؤوا يُرددون أناشيد تخصُّ الموتى، كدنا ننصرف لولا وصول البعض من جنود الملك على خيولهم، بدا لي أنَّهم يرغبون في إفساد موكب هذا الرجل وتفريق النَّاس، حتَّى إنَّهم عبثوا بالتَّابوت والمومياء ليهينوها، برزت فتاة شابَّة من بين النَّاس تعرَّفتُ على وجهها من ذاكرة «أبادول» وأدركت أنَّ صاحب المومياء هو أبوها، وكان بينه وبين «أبادول» عداوة وخلافات طويلة، صرخت على الجنود ليبتعدوا عن موكب أبيها فضربها أحدهم بسوطه فأسقطها على الأرض وترجَّل عن فرسه وأقبل يُهينها ويضربها، رفعت صوتها وهي تسبُّ الملك «يويا» فأقبل باقي الجنود واجتمعوا عليها فتفرَّق النَّاس وهربوا وخلت السَّاحة من البشر، دفعهم الخوف والجبن للفرار من سياط الجنود، حتَّى «نوب» ابتعد مهرولًا وبقيت وحدي أراقبهم وهم يضربونها، مزَّق أحد الجنود ملابسها وكشف جسدها وكان صراخها لا ينقطع، أقبلت لأمنعهم فرفع أحدهم سوطه ليضربني فأمسكت السوط بيدي وتحمَّلت جلدته على ذراعي وألقمته ضربة في فكِّه تراجع على إثرها للخلف وكان القناع لا يزال على وجهي، اجتمع البقيَّة معه فأدركت أنَّني سأعود إلى السِّجن إن لم أصمد أمام الثَّلاثة، فرفعت صوتي مرددًا ما أخبرني به «الرَّماديُّ» من أسماء لأعشاب بريَّة علَّمه إيَّاها «حلتيت» ليُرددها ويُخيف رفاقه الذين يؤذونه وهو صغير: «خامادريوس، خافور، خركوش، خندريلي»، ظللت أُرددها وأكررها وأغلظ صوتي وأرفعه وأنا أُحدِّق تجاههم وأتقدَّم نحوهم وافتعلتُ حركات بيديَّ فتراجعوا وانصرفوا وهم يظنُّون أنني ألقيت عليهم طلسمًا سحريًا، وبقي صوت حوافر خيولهم يتردد في الأجواء الخالية وكأنَّنا في مدينة مهجورة وخالية من أنفاس البشر! خلعت عباءتي وألقيتها على تلك الشَّابَّة فتدثَّرت بها ونهضت واثبة وجذبت

قناعي لترى وجهي، صاحت في اندهاش شديد: «أبادول»! أعدتُ القناع إلى وجهي مسرعًا وقُلت لها: «اهربي بسرعة فقد يعودون».

- وأبي؟

- سيدفنه الرِّجال.

ركضت هاربة واختفت عن ناظري فهرولت نحو «نوب» الذي كان يقف خلف جدار ليراقبني ويتعجَّب مما فعلته وأصرَّ على عودتنا إلى مقرِّ «العسَّاسين» قبل أن ينتشر جنود الملك من جديد بحثًا عنِّي، عاد أصحاب الحانوت وحملوا تابوت المومياء وخرجوا لدفنه دون موكب وبلا طقوس كما اعتادوا، فعُدنا وقلبي لا يزال قلقًا على «كو».

الرِّياح تضرب بأشجار الغابات وتجلدها بلا هوادة، تسقط أوراقها الخضراء وتنثر أوراقها اليابسة التي سقطت سابقًا لترشق بها وجوه العابرين وكأنَّها شفراتٌ حادة، وتكوِّر بعضها لتدحرجه على الأرض في دوَّامات وكأنَّ هناك يدًا خفيَّة تتلاعب بها، الرِّياح غاضبة وكيف لها ألَّا تغضب والشَّر يجول في أنحاء مملكة البلاغة. لم يُسكن غضبها إلَّا فارس نبيل وصقر يحمل بين جنبيه روح فارس آخر يضاهيه في نبله، وعندما شعرت بهما سكن صفيرها ورفعت يدها عن الأشجار.

كان «الرَّماديُّ» يُحلِّق في السَّماء بينما «أمان» يركض بجواده في سرعة شديدة، أرادا أن يصلا إلى أرض الأقواس بحثًا عن «توفيق»، توقَّف «أمان» وترجَّل عن جواده فهبط «الرَّمادي» ووقف أمامه على الأرض وقد ضمَّ جناحيه ولملم ريشهما وقال له: «لماذا توقَّفت؟ ألسنا نسير حسب الخريطة التي رسمها «برهان»؟».

- بلى.

بسط «أمان» الخريطة على الأرض وجلس يتفحَّصها وقال: «حمدًا لله أنَّ «بُرهان» قد حفظها، تبدو وكأنَّها تُطابق خريطة «توفيق»، بيد أنَّها أبسط منها».

- خريطة «توفيق» تُشبه الكتب هنا، تتنفَّس وتشعر بمن يحملها.

- لا ريب أنَّها قد دلَّته على الطريق الصَّحيح.

حرَّك «الرَّماديُّ» جناحيه وقال: «وددت لو استطعت الولوج إلى الفجوة معه، لكنَّ الأمر لم ينجح معي».

- أُدرك شعورك جيدًا، عندما افترقنا بـ «غابة السِّنور» شعرت وكأنَّ هناك من اقتلع شيئًا من صدري، هناك شيء غريب في «توفيق» يُجبرك أن تتعلَّق به.

- تشعر وكأنَّه من أهلك، أليس كذلك؟

- بلى.

- لو رأيت وجهه عندما رآني أتحوَّل وأعود إلى هيئتي البشريَّة! كان خائفًا منِّي.

ضحكا وقال «أمان» وهو يربت على رأس «الرَّماديِّ»: «حتَّى أنا خفتُ منك عندما رأيتك لأوَّل مرَّة حين استطعتُ دخول «مدينة الرَّباب» بمساعدة «مارماحوز» لأتجاوز الضَّباب».

- كان أبي يروي لي كيف أنَّ والدك كان من الفرسان الذين اخترقوا الضَّباب دون أن يموتوا ووصلوا إلى حدود مدينة الرَّباب بسلام، لم يحتاجوا إلى عون «مارماحوز».

- لكنَّه حذَّرنا من ولوج الضَّباب فرادى.

- لا تزال «مارماحوز» تساعد الفرسان، فهي حريصة على أرواحكم.

- ولكن هل ستصمد وحدها أمام هؤلاء السَّحرة؟

- لا تستهن بها! تلك العجوز تستطيع فعل الكثير.

عاد «أمان» إلى جواده وطوى الخريطة وهو يقول: «فلنكمل طريقنا إذن لعلَّنا نصل إلى أرض الأقواس قبل حلول الظَّلام».

انطلقا ليكملا طريقهما وهما لا يعرفان أنَّ «توفيق» هناك بوجه آخر وملامح أخرى لشيخ يُدعى «أبادول»!

***

عندما عدنا إلى مقرِّ «العسَّاسين» كان الكثير منهم لا يزال نائمًا، فهم يسكنون نهارًا ويسيحون في الأرض ليلًا، استقبلنا بعضهم وهم يتعجَّبون من عودتي دون عباءتي التي استعرتها فبدأ «نوب» يروي لهم ما حدث. تساءل أحدهم متعجبًا: «أنت! أنت يا «أبادول» تدخَّلت لتستر امرأة عاقبها جنود الملك بنفسك!».

كُنت أدري مما يتوافد على رأسي من ذكريات ومشاهد أنَّ «أبادول» كان لا يكترث لأحد، فإن مرَّ بجنود الملك وهم يفعلون مثلما فعل هؤلاء بتلك الشَّابة كان يمضي ولا يلتفت، فما يهمُّه هو تسجيل العلم في برديَّات فقط، ظلَّت أعينهم عالقة بوجهي فسألت من قال تلك الكلمات: «وما الغريب في ذلك؟».

- أنا أعرفك! لم تفعلها من قبل!

قال «نوب» وهو يبتسم: «لقد ألقى عليهم طلاسم جعلتهم يفرُّون منه كالفئران».

- ليست طلاسم يا «نوب».

- فما هي إذن؟

- أسماء لنباتات وأعشاب طبيَّة.

ضحك ساخرًا وهو يتريَّب في صدق كلامي، وكنت قد اعتدت نظرة الاندهاش كلَّما فعلتُ شيئًا مخالفًا لطباع ذلك الشَّيخ الذي كان يحفظ ويدون الحكم والعبر لكنَّه كان يعامل النَّاس بجفافٍ وقسوة! وددت أن أخبرهم بكلِّ ما يعتمل في صدري، وأنَّني شابٌّ مثلهم في الخامسة والعشرين من عمري، وأنَّني هنا لمهمَّة وسأعود إلى وطني، وأنَّ كتابي أظهر بضع جملٍ فقط وهذا يُقلقني، ولكنَّني لا أستطيع أن أبوح بأيٍّ من هذا لأحد. خرج «العسَّاسون» ليلًا فخرجت معهم ورافقني «نوب» الذي تعلَّق بي وكان يشعر بالامتنان لكوني أعامله باحترام وأصبر على تلعثمه لأتبيَّن كلامه، كان يعاملني كأبٍ له وكنت أحاول تناسي أننا في المرحلة العمرية نفسها حتى لا ينكشف أمري. شعرت أنَّني أرتدي قناعين أحدهما ملتصق بجلدي! سرت بين «العسَّاسين» وهم يطوفون في الطرقات، لم يتركوا ركنًا إلَّا وجابوه، رقصوا لزواج أحدهم وألقى

لهم أهله بالمال، واحتفلوا بميلاد طفل لرجل آخر، بعد انتهاء جولتهم وصلنا إلى الملجأ الذي يقيم فيه النساء والأطفال فأدركت أنَّهم يقسِّمون أنفسهم وكلٌّ ليلة يزور بعضهم أهله ويعود قبل أن يبزغ نور الفجر، عندما وصلت إلى حدود الملجأ وكان بجوار قصر الأميرة «فاتي» وقفت أراقبه والقناع الملوَّن على وجهي، كنت قلقًا على «كو»، كدت أقترب لولا «نوب» الذي كان يتابعني فاستوقفني قائلًا: «لا تقترب يا سيِّدي».

- يجب أن أطمئنَّ على «كو».

- اتركني إذًا لألتقط الأخبار بطريقتي.

خلع قناعه وعباءته وأعطاهما لي وتوجَّه نحو القصر، طال غيابه فابتعدت وكان من معنا من «العسَّاسين» بداخل الملجأ عند نسائهم وأطفالهم، خرج «سيدون» مبكرًا فأقبل عليَّ لينتظر خروج رفاقه، وكان أربعينيًّا له هيبة فلم أره يشاركهم الرَّقص وترديد ما يُرددونه وكان يحفظ وقاره، عندما جلس بجواري قال: «كان عليك البقاء بالجبل مع حفيدك».

- كيف هذا يا «سيدون» وقد أرسلوا من يقتلوننا؟

- أتظنُّ أنَّك ستنجو منهم هنا؟ سيقتلوننا على أيِّ حال.

مرَّ في ذاكرتي حوارات لنا فسألته: «كم عمر ابنتك المريضة الآن؟».

- على وشك أن تتمَّ السَّادسة.

- لماذا لم تخرج بها إلى «غابة البيلسان»؟ ألا تخشى عليها الموت؟

- سأفعل قريبًا.

- ألم تفكِّر في الخروج بعائلتك بأكملها من هنا يا «سيدون»؟

- أخشى عليهم من وعورة الطريق، يقولون إنَّه مليء بالمخاطر والوحوش، لو أملك فقط أن أُخرج ابنتي لفعلت.

صمت هنيهة وعاد يسألني: «لماذا رفضت منحي بعض المال عندما أتيتك؟ كنت في حاجة شديدة إليه!».

طاف بذاكرتي لقاء ذلك الرَّجل مع «أبادول» حين طلب منه المال ليترك عائلته ويخرج بابنته إلى «غابة البيلسان»، وعلمت أنَّ «أبادول» يُخفي صندوقًا مليئًا بالذَّهب تحت شجرة ببستانه الذي سلبه إيَّاه الملك، لكنَّني لا أملك أن أعطيه منه شيئًا فهذا الذَّهب لـ «كو»، سألته وقد آلمني أنَّ هذا قد حدث: «كم تُريد من المال؟».

- ما يكفي عائلتي حتَّى أعود، فلو خرجت إلى «غابة البيلسان» قد يطول الغياب.
- سأحاول جمع المال لك يا «سيدون».
- كان لديك المال حينها ولم تفعل!
- سأفعل بإذن الله.
- كيف أصبحت أكثر شبابًا وقوَّة؟ لقد خرجت من هنا بجسد ضامر وكنت ضعيفًا!

أجبته بصدق عن حالي كـ «توفيق» وقلت له: «اهتممت بطعامي وزدت في التَّمرين وكنت أسير لمسافات طويلة».

- لا ريب أنَّك شربت من ماء النَّهر الأخضر لكنَّك لا ترغب في كشف السرِّ.

لزمت الصَّمت، لا بأس ببعض الغموض. كان يبدو عليه الحزن الشديد، جلسنا نتحدَّث طويلًا عن «أرض الأقواس» وما يدور فيها، عاد «نوب» بعد عودة الجميع وكان قد تأخَّر حتَّى ظننته لن يعود! سألته في فضول: «لماذا تأخَّرت؟».

- تسللت إلى حديقة القصر خلسة وبقيت أُراقب الحرَّاس حتَّى رأيت الحارسين اللذين كلفتهما الأميرة «فاتي» بمرافقة «كو» فربضت لهما خلف شجرة حتَّى انصرف أحدهما وبقي الآخر وحيدًا فأظهرت نفسي له ورويت له ما حدث معنا، وطلبت منه إبلاغ الأميرة في سريَّة أننا بخير فأخذني لها ورويت لها ما حدث، وسألتها عن «كو» فقالت إنَّه بخير وفي أمان لكنَّها رفضت إخباري عن مكانه هو و«سونو».

- هل أخبرتها أين نختبئ؟

- لا.. رأيت أنَّ هذا ليس من الحكمة!

- أنت رائع يا «نوب»، أحسنت أيُّها الذَّكيُّ.

انفرجت أسارير «نوب»، فقد أسعدته كلمتي للغاية وكأنَّه طفل صغير، كانت الندوب على وجهه عميقة، تخيَّلت عمَّه وهو يكويه بالنَّار بسبب تلعثمه فأشفقتُ عليه، لقد حوَّله بقسوته إلى وحش ولصٍّ وقاطع طريق! عاد يرتدي قناعه وعباءته والابتسامة لا تغادر شفتيه على إثر كلماتي..

مسحت على ظهره متناسيًا أنَّني من عمره وأسمعته من الكلام الحسن ما طيَّب نفسه. قد تكون سببًا في نزع بؤرة الشر والحقد من صدر أحدهم بكلمة واحدة تُطفئ لظى النَّار المتَّقدة في قلبه، فالغضب يُحوِّل الطيبين إلى وحوش، والنَّار التي تخرج من القلب المطعون تحرق الجميع.

حمدتُ الله على سلامة «كو»، وعدنا إلى مقر «العسَّاسين»، كان «سيدون» يسير بجواري طوال الوقت، قررت أن أساعده على جمع المال لعائلته ولكن كيف؟ كان هذا ما يُحيِّرني.

كانت الأميرة «فاتي» قد أرسلت «كو» مع البقيَّة إلى مصبغة قديمة يملكها رجل كان يُكنُّ لها الكثير من الاحترام والتَّقدير، دلفت وهي تتخفَّى لتطمئنَّ عليهم بعد مرور يوم كامل على بقائهم هناك، جلست وسط السَّاحة الواسعة والأقمشة حولها تتدلَّى وتقطر الماء الملوَّن بعد أن أغرقوها بالأصباغ البرتقالية والصَّفراء والحمراء، تسللت أشعة الشَّمس الدافئة من النوافذ ونثرت دنانيرها الذَّهبية لتتراقص على أرضية المكان صانعة مع خليط الألوان منظرًا بهيجًا، استندت الأميرة «فاتي» على حافَّة الشُّرفة وأرسلت نظراتها الشَّاردة نحو الأفق المظلل بجريد النَّخل وكأنَّه سحاب أخضر، شعرت برجيف قلبها عندما سمعت صوت «سونو» وهو يقترب، التفت قلبها نحوه قبل أن تلتفت بوجهها لتراه وهو مقبل وقد اغتسل وتطيَّب وحلق شعر رأسه الذي كان منتفشًا كشجيرة فوق رأسه وكذلك لحيته التي بدت ملبَّدة بالأمس، فدلف ساحة المصبغة وكأنَّه الفهد في حضوره. وقف يُحييها فهشَّت له وبشَّت

ثمَّ تعللت بإصلاح ثوبها لتُخفي اضطرابها. كان «كو» برفقته فأشارت إليه ليقترب، سألته عندما رأت الحزن يلوح في عينيه: «ما بك يا صغيري؟».

- اشتقت لـ «أبادول».

- سيعود جدُّك قريبًا، أرسلته إلى مكان آمن حتَّى لا يؤذيه «يويا».

- لماذا كان عليكِ التفريق بيننا؟

- كان هذا اختياره كما سمعت منه!

سألها «سونو»: «هل من أخبار عن «أبادول»؟».

أومأت إليه ففطن أنَّ هناك خبرًا سيئًا لا ترغب في سرده أمام «كو»، صمتت هنيهة وعادت تسأله: «كم قضيت في السِّجن يا «سونو»؟».

- عامًا بأكمله، لم يُخرجوني من زنزانتي إلَّا مرَّة واحدة ليبدِّلوها.

- أحقًّا سُجنت لأنَّك رفضت قتل رجل أظهر غيرته على زوجته من أحد وزراء أخي «يويا»؟

- نعم.

- وهل قتلوا ذلك الرَّجل؟

- نعم، أمام عيني وفور رفضي للانصياع للأمر.

- مسكين.

- من يموت غيرة على زوجته ليس بمسكين، تلك مكرمة لا ينالها إلَّا الرِّجال بحقٍّ.

- كُنتَ قد أخبرتني قبل اختفائك أنَّ لديك خبرًا سارًّا، فما هو؟

كان «سونو» قد قرر طلبها للزَّواج من «يويا» فأخبره أنَّها رفضته، راودته الشُّكوك أنَّها لا تعلم فقال لها: «ألم يُخبرك «يويا» بشيء يخصُّنا؟».

- لا!

كان مترددًا في إخبارها، لكن سؤالها عن هذا الأمر بالذات أشعره أن أمره يهمها بالفعل، وأنها لم تنسه كما كان يظن، شجعه ذلك على البوح بحقيقة

ما حدث، كيف لا؟ وهي تسأله عن شيء أخبرها به قبل عام كامل وما زالت تتذكره! أدرك هذا فقال بصوت خفيض: «لقد طلبتك للزواج و...».

- وماذا؟

- أخبرني «يويا» برفضك!

- كاذب! لم يُخبرني أصلًا.

- وقد علمتِ الآن فما هو جوابك؟

شعرت بارتباك شديد وتنبَّهت لوجود «كو» بينهما، الذي كان يتابع الحوار وينقل عينيه بين وجهيهما فمسحت على رأسه قائلة: «سأجيبك يا «سونو» ولكن بعد أن نساعد «كو» ونخرج أمَّه من السَّجن».

كانت تخشى أن يقتل أخوها «سونو»، أرادت أن تأمن مكره أولًا حتَّى لا يحرمها من الشَّاب الوحيد الذي خفق قلبها حبًّا له، قرأ «سونو» ما تفكِّر به على قسمات وجهها فقال: «تخشين «يويا»؟».

- بل أخشى عليك من «يويا».

كانت كلماتها تلك كترياق شفى جراح قلبه وأنساه كلَّ ما لاقاه خلال العام المنصرم، كاد يقول شيئًا لولا دخول «دهيبة» عليهما وهي تتأرجح في مشيتها بقوامها الممتلئ وفي يدها وعاء عميق به شعير مطبوخ، قالت وهي تقترب منهما: «هرب منِّي «كو»، كنت أطعمه الشَّعير ليُذهب حزن قلبه، هكذا اعتدنا أن نفعل!».

صاح «كو»: «أرجوك يا خالة «دهيبة» يكفي ما تناولته».

- ليس قبل أن تُنهي ما بالوعاء.

- لقد انتفخ بطني.. كرهت الشَّعير.

- والله إنَّه لذيذ! لقد شكَّلته لك في كرات.

ثُمَّ التفتت نحو الأميرة «فاتي» وقالت: «يجب أن تذوقيه يا مولاتي».

ولم تمهلها لتفصح عن رغبتها وسارعت بدسِّ كرة في فمها، ثُمَّ التفتت نحو «سونو» وقالت له: «وأنت يا عزيزي.. يجب أن تعوِّض ما حُرمت منه في السِّجن».

ركض «كو» خارجًا من ساحة المصبغة فهرولت «دهيبة» خلفه، سأل «سونو» الأميرة بتلهُّف: «ما الذي حدث لـ «أبادول»؟».

- كادوا يسلِّمونه لأخي «يويا» لكنَّه تمكَّن من الهرب مع «نوب».

- وأين هو الآن؟

- لا أدري، زارني «نوب» في قصري ليلًا وأبلغني بما حدث ولم يُخبرني عن مكان اختبائهما.

ران عليهما صمت قصير كان لقلبيهما فيه حوار صامت، قالت وهي تستعدُّ للرَّحيل: «لن أزوركم مرَّة أخرى، أخشى أن يصل إليكم أخي عن طريق تتبُّعي».

- كوني في أمان يا مولاتي.

انصرفت الأميرة «فاتي» وقلبها يرفرف بين جنبيها بين وجيف ورجيف، وأسرع «سونو» ليكون الغلام تحت عينه كما وعد جده.

في اللحظة ذاتها وفي مكان آخر كان «أمان» قد وصل إلى حدود «أرض الأقواس» برفقة «الرَّماديِّ» وكان متعبًا للغاية، قرر دخولها زاعمًا أنَّه يعمل بالعطارة ويبحث عن رفيقه الذي ضل منه، افترق عن «الرَّمادي» الذي بدأ يطوف بالأرجاء ليتعرَّف على المكان على وعد باللقاء كلَّ يوم في البقعة نفسها بعد حلول الظَّلام. عبر «أمان» حدود «أرض الأقواس» بجواده، وسار ببطء في الطرقات وكان لافتًا للنَّظر نظرًا لاختلاف شكله وهيئته عن أهلها، راقبه الجميع بنظرات يملؤها الاندهاش، وكان يجول بعينه في المكان وعيناه تعكسان اندهاشًا أكبر بما يراه، همس قائلًا وهو يُفتِّش بين الوجوه: «أين أنت يا «توفيق»؟».

***

«توفيق»

خرجتُ مع «نوب» و«سيدون» في جولة بأقنعتنا للبحث عن عمل بأيٍّ طريقة لنعين «سيدون» على الرَّحيل بابنته قبل أن تموت، أشار «نوب» لقناعي قائلًا: «كيف سنعمل بهذه الأقنعة؟».

- لا أدري ولكن يجب علينا كسب بعض المال.
- فلنفعل كما يفعل «العسَّاسون» وسنحصل على المال بسهولة.
- أتريدني أن أرقص!
- يكفي أن تردد شيئًا وترفع يديك كما فعلت في السُّوق أمام حانوت التحنيط وستكسب المال يا «أبادول»!
- بل سأخسر خسارة فادحة، عندما يُهدر الرَّجل كرامته من أجل المال يخسر الكثير وإن حاز أكوامًا من الذَّهب، وما فعلت ما فعلته إلَّا لأنقذ الفتاة وأدفع الجنود للرَّحيل وليس لكسب المال.

قال «سيدون» موافقًا لكلامي: «لهذا لم أشاركهم قطُّ في الرَّقص، ولكنَّهم كانوا لا يبخلون عليَّ ببعض المال وخصيصى عندما علموا أنَّ زوجتي قد وضعت مولودًا للتوِّ».

قال «نوب» وهو يزفر في ملل: «لنذهب إلى الجهة الغربية من أرض الأقواس، هناك حدَّادون وحرفيُّون وأغلبهم من كبار السنِّ، فهناك سنستطيع خلع أقنعتنا لنعمل لديهم».

وصلنا إلى هناك بالفعل وتوجَّهنا إلى ورشة حدَّاد لم يتعرَّف على أيٍّ منَّا، فحياتهم هناك معزولة عن أجواء أرض الأقواس وما يدور فيها، قال الحدَّاد وهو يتمعَّن في ملامحي: «أنت شيخ كبير ولن تقوى على العمل في الحدادة».

- جرِّبني واحكم بنفسك.

قال على مضض: «ليكن هذا ولكنني سأجرِّبك اليوم بلا أجر».

- حسنًا.

بدأت أعمل لدى الحدَّاد مع «سيدون»، أما «نوب» فعمل لدى صانع للأقواس في حانوت آخر، ظل الحدَّاد يُلاحقني بكلمات لاذعة، كان يستثقل وجودي، غضبت وفارت دمائي، كدت ألقي ما بيدي وأرحل، لكنَّني رأيت حقيبتي تهتزُّ فأسرعت أخرج الكتاب فقد شعرت أنه بدأ يُخاطبني بطريقة ما، وقرأت جملته الجديدة التي أرسلها...

«لا شجاعة بلا غضب، ولكنَّه غضب في حقٍّ، فاحذر الغضب في غير محلِّه، فالغضب آلة عمياء تعطِّل العقل فلا تفرق بين الحق والباطل، هناك صراعات لا تستحقُّ أن تقف بها فارسًا شجاعًا ومغوارًا، فاربأ بنفسك عن خوضها».

يبدو أنَّ كتابي قد شعر بغضبي وما يعتمل في نفسي فأرسل كلماته في الوقت المناسب! فعقلتها وتبخر غضبي وانشغلت بما أفعله، وكان العمل شاقًّا ومرهقًا أمام الكِير وناره اللافحة، عملنا طوال النَّهار وساعدنا الحداد في الكثير من الأعمال وكان الجميع يتعجَّب من قوَّتي البدنيَّة ويتساءلون كيف لي هذا وملامح وجهي لا تشي بذلك؟ وكان هذا عصيًّا على الشَّرح فصرت أتجاهل تعليقاتهم، بين الخناجر والسيوف والحراب مرَّ اليوم مختلفًا، تذكَّرت خنجري وكنت أرغب في استرداده، بعد انتهاء العمل فوجئت بالحداد يمنحني أجرتي وهو يظهر إعجابه بقوَّتي، حمل كلٌّ منَّا أجرته وكانت عملة «أرض الأقواس» تحمل صورة الملك، أعطيتها لـ «سيدون» كاملة فسألني متعجبًا: «ألا ترغب في استبقاء شيء منها؟».

- لا.

- عجيب أمرك يا «أبادول»! كان لديك الذَّهب وبخلت عليَّ باليسير منه، والآن لا تملك شيئًا وتمنحني كلَّ ما معك!

- كم من المال ستحتاج لتتركه لزوجتك وأولادك قبل أن تخرج بابنتك لغابة البيلسان؟

- حسب أجرتنا اليوم علينا أن نعمل لأسابيع لكي نجمع المال.

- ستكون ابنتك عرضة للخطر، ما رأيك أن تخرج بابنتك وسأتكفَّل بعائلتك حتَّى تعود؟

قال «نوب» بحماس: «وسأساعده».

انفرجت أسارير «سيدون» وكأنَّ حملًا بثقل الجبال أُزيح عن كتفيه، عدنا إلى ساحة «العسَّاسين» وفتحت كتابي لأتفحَّص كلماته، لا يزال يبخل عليَّ بإظهار حروفه الجديدة، لعلَّ مهمَّتي تحتاج إلى المزيد من الجهد والوقت. تناولت الطَّعام الذي اشتراه «نوب» بكلِّ ما معه من مال وأثنيت عليه وأخذت أشجِّعه أنا و«سيدون» على الاستمرار، توجَّهت للنَّوم وكنت متعبًا للغاية فوجدت الهرَّتين السَّمينتين في انتظاري.

***

١٢

"سورنجان"

كان الملك «يويا» يجلس على عرشه عندما ظهر «سورنجان» أمامه فجأة في قلب ديوانه دون سابق إنذار، شعر «يويا» وكأنَّ آلاف الإبر قد غُرزت للتوِّ في جلده، تذبذبت مقلتاه بحثًا عن قائد حرسه بجواره دون أن يجرؤ على تحريك عنقه فألفاه وقد شخصت عيناه هو الآخر تجاه السَّاحر المقيت نفسه الذي يظهر لهما فجأة ويختفي فجأة بوجهه الكالح وجلده الغليظ الشبيه بجلد الإوزَّة، عاد «يويا» ليطالع وجه الساحر وقال بصوت مرتعش: ««سورنجان»! لماذا تأخَّرت؟».

كان ضامر الشَّفتين له لحية كثيفة قد جمع شعرها في ثلاث جدائل رفيعة، وعينان مكحولتان لا أهداب لهما، وأذنان كبيرتان يتدلَّى من كلٍّ منهما قرط طويل ملون. أغمض عينيه فارتجف شيء بين حاجبيه وكأنَّه عين ثالثة تتراقص مقلتها تحت جلده وقال: «أخَّرتني الكتب ودواهيها».

همس «يويا»: «الوافدون من جديد؟».

- نعم، وهنا على «أرض الأقواس»!

- كيف هذا؟ لا وجود للغرباء بيننا!

قال «سورنجان» ساخرًا: «هل أنت على يقين؟».

- سأرسل الجنود للتفتيش عنهم في جميع أنحاء أرض الأقواس.

أشار «سورنجان» بإصبعه قائلًا: «هو شابٌّ واحدٌ ويُدعى «توفيق»، كنت قد أرسلت من يتتبَّعه وعثر عليه بالفعل، ولكنَّه ضلَّ عنه في الحال وكأنَّه تبخَّر في الهواء، ثُمَّ عاد وشعر بدخوله إلى أرض الأقواس لكنَّه عَمي عنه بعد ذلك!».

- ألم تخبرني أنَّ أتباعك من الجنِّ يستطيعون تتبع أيِّ رجل تكلفهم بالعثور عليه؟

- بلى، وقد دلونا على مكان «أمروس» من قبل بعد أن حصلت على أثر منه، لكنَّهم لا يرون ذلك الوافد الذي يدعى «توفيق»! ولتعلم أنَّ وجوده هنا خطر على أرض الأقواس وأهلها وعليك!

تمعَّر وجه «يويا» وهو يقول: «عاهدتني أن تقدِّم لي الحماية وقدَّمت إليك فروض الولاء، وأديت جميع الطُّقوس اللازمة فكيف تتركوني ومنصبي ومُلكي عُرضة للخطر؟».

- سنعثر عليه، ولكن لماذا أردت التواصل معي؟

- أنا؟

- نعم! ألم تُردد اسمي في ديوانك خلال حوارك مع قائد حرسك الرِّعديد هذا يا.. «جلالة الملك يويا»؟

تمعَّر وجه قائد الحرس لكنَّه لم يجرؤ على النطق بكلمة واحدة، حتَّى «يويا» شعر بالتَّهديد فهو لا يدري هل لقب «جلالة الملك» من السَّاحر يُعدُّ سخرية وتهكُّمًا أم لا؟ أجاب وهو يتبادل النَّظرات مع قائد حرسه: «بلى رددته، فقد عاد «أبادول» إلى أرض الأقواس بعد قتل ابنه، وعندما اعتقله الجنود وأحضروه إلى قصري جُرح وسالت دماؤه وكانت حمراء!».

انتفض «سورنجان» وحدَّق بعينيه تجاه «يويا» مما أرعبه، قام وتوجَّه نحوه وهو يهدر قائلًا: «أين هو؟».

تمتم «يويا» في خنوع وقال: «للأسف استطاع الهروب من السِّجن».

- هل كان وحده؟

- كان معه شابان، «سونو» وكان من جنودي، وشاب آخر وهو لصٌّ محتال ومجهول الهوية لا يعرف أحد من الجنود اسمه، يُناديه النَّاس بالأثول، وقد ألقوا القبض عليه وهو يُحاول سرقتهم ولم يبقَ بالزنزانة سوى ساعات قليلة.

- وأين «كو»؟

- مع أختي «فاتي».

- دماء الوافدين حمراء، فكيف استحالت دماء «أبادول» إلى هذا اللون؟

- لا أدري! أتيت بك لتجيب عن هذا السُّؤال، فقد صار قويًّا فتيًّا وكأنَّ شبابه قد عاد إليه، بيد أن وجهه لا يزال هرمًا وجلده لا يزال ضامرًا، وشعره لا يزال مشيبًا.

- سأقلب أرض الأقواس بحثًا عنه في كلِّ مكان، أريد أثرًا منه ومن رفيقيه.

قال قائد الحرس وهو يقترب بخطوات مترددة: «الزنزانة التي حُبسوا بها فيها أثر للدماء على أرضها».

- أين تقع الزنزانة؟

- في القسم الخاص بالمتمرِّدين، سأرافقك إليها.

لم يُمهله «سورنجان» ليكمل جملته، فقد اختفى فجأة ثُمَّ عاد وقال: «لاَ أثر للدماء على أرض الزنزانة، وكأنَّها غُسلت من أيِّ علامات تشير إلى من بقوا فيها».

- «سونو» عاش هناك لشهور طويلة! كيف هذا؟

- لا ريب أنَّهم من الجنِّ، ولهذا سأستدعي «الدَّواسر».

- لا لا.. لا أرغب في دخول تلك العشائر من الجنِّ إلى «أرض الأقواس»، لقد أخبرتني أنَّهم جبابرة.

- «الدَّواسر» لا ينتظرون الإذن منك ولا منِّي لدخولها.

أجفل «يويا» وسرت القشعريرة في جسده، أضاف «سورنجان» وهو يُحرِّك رأسه ليهتزَّ القرط في أذنيه: «لو استطعنا الوصول إلى ذلك الوافد ستحوز تأييد الملك «قَتام» وابنه الأمير «القلقديس»».

- ومن هما؟

- «قَتام» هو حاكم مملكة الدَّيجور المعظَّم، و«القلقديس» ابنه ووليُّ عهده، وهذا شرف عظيم لو نلته ستملك نفوذًا قويًّا بين الملوك.

لمعت عينا «يويا» وهو يقول: «حسنًا، ماذا عليَّ أن أفعل؟».

- لم يُفلح تتبع الأثر لزواله، فلترسل جنودك للتَّفتيش عن «أبادول»، والوافد «توفيق».

- أمَّا «أبادول» فجميعنا يعرفه، ولكن «توفيق» لم نر وجهه من قبل فصفه لنا.

- شاب عشرينيٌّ قويُّ الشَّكيمة، شجاع كأسد، صلب عنيد كصخرة، يركض سريعًا كركض النُّمور في البريَّة، له دهاء ثعلب وغموض ذئب، لا يُخيفه الموت ولا يرهبه الظَّلام، يحمل كتابًا خاليًا من الكلمات عنوانه باسم ذلك الشيخ الخرف الذي يرغب في تخليد كلمات أبيك.

همس «يويا» بخفوت: «ماذا؟ عنوان كتابه «أبادول»؟».

- نعم.

شعر «يويا» بالاضطراب من وصف «سورنجان» لـ «توفيق» فسأله بضيق وضجر: «لم أطلب منك مدحه! أعطني وصفًا لملامحه!».

- طويل القامة، مفتول العضلات، قمحيُّ البشرة، له شعر أسود قصير وعينان واسعتان وحاجبان كثيفان متَّصلان وأنف أقنى.

انتبه قائد الحرس وأقبل قائلًا: «أخبرني أحد الجنود أنَّ شابًّا بتلك السمات كان يُرافق «كو» حفيد «أبادول» فوق الجبل لكنَّه لم يظهر مرَّة أخرى، لا ريب أنَّه ذلك الوافد.. كيف لم أنتبه لهذا إلَّا الآن!».

قال «يويا» وهو يرشقه بنظرة قاتمة: «لأنَّك أحمق!».

ثُمَّ ضربه في صدره وهو يقول: «لماذا لم تخبرني بوجود شاب غريب مع «كو»؟».

- ظننته قد رحل! فلم يره أحد برفقة «أبادول» و«كو» وهما يدخلان بيتهما في أرض الأقواس.

احتقنت الأجواء، كان «يويا» يشعر وكأنَّ رأسه كالقدر الذي يغلي بالدِّماء من شدَّة الغضب، أضاف وهو يجذب قائد الحرس من تلابيبه: «هروب «أبادول» ومن معه من السِّجن كان خطأك، فلتصلحه الآن!».

قال قائد الحرس وهو يخلِّص نفسه من قبضة «يويا»: «نستطيع استدراج «أبادول» عن طريق حفيده بكلِّ سهولة».

صفَّق له «سورنجان» ثُمَّ اختفى، وانصرف قائد الحرس مع «يويا» لمداهمة قصر أخته «فاتي» لانتزاع «كو» منها، لكنَّه لم يعثر عليه في القصر فغادرها وكانت حزينة للغاية.

***

كان «أمان» في ضيافة أحد صُنَّاع الفخَّار الذي عرض عليه المبيت في غرفة من بيته بعد أن جال معه في طرقات الجهة الغربيَّة من «أرض الأقواس» باحثًا عن «توفيق» حيث حلَّ الظَّلام وقد فشلا في العثور عليه، وصادف دخول «أمان» وصول قافلة تجاريَّة جاءت محمَّلة بالبضائع أدخلها جنود الملك «يويا» بعد جدال طويل من سكان «أرض الأقواس» الذين رغبوا في شراء التوابل النَّادرة والأقمشة الحريريَّة منهم على ألَّا يُغادروا تلك الجهة من المدينة وإلَّا سيلقون القبض عليهم، فوافقوا فقد كانوا في حاجة إلى حمل بضائع أرض الأقواس من ذهب وعاج وأحجار نادرة وعالية الجودة من المحاجر المنتشرة فيها، فقد اشتهرت «أرض الأقواس» بها. قضى ليلته واستيقظ مبكرًا في الصَّباح التَّالي وترك جواده في أمانة هذا الرَّجل وخرج باحثًا عن «توفيق» من جديد، بدأ يتجوَّل وهو يتفحَّص الوجوه ويراقب النَّاس لعله يعثر عليه.

***

«توفيق»

ما زلت أطوف بالقناع وقد اعتدت ارتداءه، أُخفي به ملامح «أبادول» وأختبئ وأنا لا أدري حتَّام سأظلُّ هكذا، فقد كنت أنتظر ظهور كلمات الكتاب لتدلَّني على أوَّل الخيط ولكن خاب ظنِّي. ولكن!

هل كتابي يحكي قصَّة؟

أم يسرد حكمًا وأقوالًا؟

أم قوانين وأشياء أخرى؟

قررت أن أتسلل إلى قصر الأميرة «فاتي» لأتعجَّل إنقاذها لأمِّ «كو» وتحريرها من سجن الملك «يويا»، لعلِّي أخرج بهما من «أرض الأقواس» بسلام، وربَّما هذا هو دوري هنا، فكتابي يحكي قصة «أبادول» ولا ريب أنَّ أمر عائلته مهمٌّ لكي تتمَّ مهمَّتي، سأخبر «نوب» و«سيدون» الليلة بما عقدتُ النيَّة عليه. انتهينا من عملنا مبكرًا وكافأنا الحدَّاد فزاد من أجرتنا، مرَّ بذاكرتي اسم تلك العملات.. «كشتان»، وكان الكشتان يساوي ستين «كشتالًا»، قلت لـ «نوب» وأنا أتفحَّصها: «علينا العمل لجمع الكثير من «الكشاتين»».

- يقول «سيدون» إنَّك كنت ثريًّا يا «أبادول»!

هززتُ رأسي ولزمت الصَّمت، مرَّ بذاكرتي المكان الذي أخفى فيه «أبادول» الذَّهب، فأحجمت عن ذكر مكانه حفاظًا على إرث «كو»، قُلت وأنا أمرر إصبعي على صورة الملك «كاشتا» المنقوشة على الكشتان، وددت لو كان التكريم لرجل عظيم بدلًا من الملك «كاشتا» فهو لا يستحقُّ التكريم والتخليد. كدنا نخرج من الحانوت لولا دخول طفل تسلل وترك يد أمِّه وركض بيننا واقترب من الكِير وأحدث جلبة وكادت جمرة متَّقدة تحرق وجهه فمددتُ يدي وأبعدتها عن وجهه فأصيبت كفِّي بحرق شديد، مرَّت عليَّ لحظات صعبة ذقت فيها أشدَّ أنواع الألم وكأنَّها إشارة ليتجدد التنبيه، فالألم هو البرهان الأصدق أننا على قيد الحياة، وأننا لا نزال نعيش الواقع، وهو الدليل الملموس على يقظة عقولنا! دهن الحدَّاد موضع الحرق بخليط دسم اعتاد استخدامه كلَّما أصيب بحرق وأخبرني أنَّ الألم سيسكن بقدر كافٍ لأتحمَّله بعد حين.

انصرفنا وأمُّ الصَّغير تسير خلفنا، كان وجهها يحمل مزيجًا من الامتنان وتأنيب الضَّمير، وظلَّت تعتذر مني فأخبرتها أنَّني بخير لكي تنصرف راضية وهي تحمل ابنها.

سرنا طويلًا وعندما وصلنا إلى السُّوق بدأ ألم الحرق يزيد، قال «سيدون» وهو يراقبني وأنا أحرِّكها في الهواء: «يبدأ ألم الحرق عظيمًا ثُمَّ يفتر».

- أرجو هذا.
- ما زلت أتعجَّب كيف التقطت الجمرة قبل أن تصل إلى ذلك الطفل!
- تخيَّل لو سقطت عليه.
- لقد وضع الله في قلبك الرَّحمة أخيرًا يا «أبادول»!
- لماذا تكررون هذا؟
- كنتَ لا تكترث لأحد! تروي الكثير من العبر والدروس والحكم وعلى الرغم من هذا كان بك شيء من الغلظة والقسوة.

أكملنا الطريق وما زالت الأقنعة على وجوهنا، والهواء يتلاعب بأوشحتنا والنَّاس يبتعدون عنا وكأننا لسنا من البشر، لاحظتُ ازدحام الطرق بالغرباء من ذوي البشرة الفاتحة فأخبرني «نوب» أنَّهم من قافلة تجاريَّة وصلت اليوم إلى أرض الأقواس. شردت وأنا أتأمَّل حالي وكيف صرت أجوب تلك الأرض من شرقها إلى غربها للعمل، وأنا الذي ظننت أن كتابي سيُطلق كلماته فور دخولها، انتشلني «نوب» من شرودي وهو يقول: «أتدري يا عمَّاه؟ أريد أن أتزوَّج!».

انفجرت ضاحكًا وكانت تلك هي المرَّة الأولى التي أضحك فيها منذ وصولي، وأنا أيضًا أُريد أن أتزوَّج بالفتاة التي خطفت عقلي وقلبي «قمر»، لكنَّني لا أستطيع البوح له بهذا، رفعت رأسي باحثًا عن القمر فعلقت عيناي به وتذكَّرت وجهها بملامحه البريئة، علقت في فقاعة الذِّكريات فسرت معهما مخدَّر العقل، كنت أجترُّ لحظات حياتي منذ أن بعت بيت أبي وانتقلت إلى البيت الجديد. تبعثرت أفكاري فجأة عندما رأيت «أمان» يسير مع أحدهم ويتنقَّل بين تجار القافلة التي وصلت إلى أرض الأقواس للتوِّ! هرولت نحوه

وكنت أناديه باسمه مرارًا فتلفَّتَ باحثًا عن مصدر الصوت ونسيت أنَّ القناع لا يزال على وجهي ولهذا لم ير من يناديه وسط الزحام، وحتى إن نزعت القناع فهو لا يعرف وجه «أبادول» الذي أحمله! كدتُ أصل إليه لولا امتلاء المكان بجنود الملك «يويا» فجأة، نفخ أحدهم في بوق فسكن الجميع وعمَّ الصَّمت، غاب «أمان» عن عيني فاضطربت، بدأ أحد قادة الجنود يُحدِّثنا قائلًا: «الملك «يويا» يأمركم بتسليم الشَّاب الغريب ذي الدماء الحمراء في الحال».

تسمَّرت قدماي بالأرض، أضاف وهو يرفع صوته أكثر: «اسمه «توفيق»، شاب طويل قمحي البشرة له شعر قصير أسود».

وقع قلبي بين أضلعي، لا أحد يعلم بحقيقتي سوى «كو»! ولكن لماذا «أمان» هنا؟ تلفَّت الحضور وأشاروا تجاه تجار القافلة بتشكك، بدأ الجنود يلقون القبض عليهم، صاح أحد الرجال من وسط جرار الفخار التي يبيعها قائلًا وهو يشير إلى أحدهم: «هذا الشَّاب أتى بالأمس ومنذ وصوله وهو يبحث عن شاب آخر يُدعى «توفيق»».

تبيَّنت من يشير إليه فوجدته «أمان»، أحاط جنود الملك بـ «أمان» في الحال فاستلَّ سيفه وبدأ يبارزهم، طاردوه وكان النَّاس في ذهول مما يرونه، استطاع الرَّكض وكاد ينجح في الخروج من السُّوق، وثب أحد الجنود بخفَّة فوق سقف بيت من البيوت وسحب سهمًا من كِنانة سهامه ووضعه في كبد قوسه وتتبع «أمان» وهو يركض هاربًا منهم فرماه بالسَّهم ليصيبه في ذراعه، وسريعًا ما حاصروه، توجَّهت نحوه وكنت أدفع النَّاس دفعًا لأراه، سمعتُ أحد الجنود يقول: «دماؤه ليست حمراء!».

قال آخر: «يُشبه الشَّاب الذي وصفه لنا القائد بيد أنَّ شعره أكثر طولًا».

قال ثالث: «ما دام يبحث عن الوافد منذ الأمس فلا تتركوه».

ألقى الجنود القبض على «أمان» وحملوه إلى قصر الملك «يويا»، بقي قائد الجند ومعه العديد منهم يراقبوننا، انصرف الجنود وبقيت وقلبي يخفق بين أضلعي.

تراجعت للخلف وإذا بـ «نوب» يضع يده على كتفي ويسألني: «من هو «أمان»؟».

وقفت حائرًا هل أخبره بحقيقتي أم لا.

وصل «أمان» إلى قصر الملك «يويا» الذي كان في ديوانه ينتظر وصول الجنود ومعهم الشَّاب الذي ألقوا القبض عليه في السُّوق، وثب فور أن رآه وكان جرح ذراعه لا يزال ينزف بالدِّماء، بدت على وجهه علامات الحسرة عندما رآها دماء سوداء فقد خاب ظنُّه، لطم الجندي الذي كان يقوده وهدر قائلًا: «ألم أخبركم أنَّ الوافدين دماؤهم حمراء؟».

- أدري هذا يا جلالة الملك، لكنَّه أتى ليبحث عن «توفيق».

اقترب «يويا» من «أمان» وضغط على جرح ذراعه فانبثقت الدِّماء السوداء منه وكأنَّه أراد أن يتحقق أكثر أنَّه ليس «توفيق»، سأله وهو يرشقه بنظرة متشككة: «ما اسمك ومن أين أتيت؟».

- اسمي «أمان» وأتيت مع القافلة التِّجاريَّة التي وصلت أمس.

- لماذا تبحث عن «توفيق»؟

- التقيته خارج «أرض الأقواس» فأردت البحث عنه.

- لماذا؟

حاول «أمان» أن يُظهر لهم أنَّه لم يتبع «توفيق» إلَّا لفضوله فقال: «سمعتُ أنَّه من «الوافدين» فدفعني الفضول لأعرف ما الذي يفعلونه».

- ممن سمعت هذا الكلام؟

- من رجالٍ لا أعرفهم.. قالوا إنَّ دماءهم حمراء فأخذني الفضول.

تفرَّس «يويا» في ملامحه وعاد يسأله: «كيف علمت بوصوله إلى أرض الأقواس؟».

- مرَّ بأرضنا وكان متعبًا وبدا أنَّه قد قطع مسافات طويلة واستراح ثُمَّ رحل، وعندما سمعت كلام هؤلاء الرِّجال أتيت باحثًا عنه فقد سألني عن «أرض الأقواس» قبل أن نفترق.

برز «سورنجان» فجأة وسار نحو «أمان» وقبض على عنقه ورفعه في الهواء فازرقَّ وجهه واحتقنت عيناه ثُمَّ ألقاه على الأرض وقد فقد وعيه، قال للملك «يويا»: «كاذب! لا تقتلوه، سيأتي «توفيق» للبحث عنه».

- وما أدراك أنَّه سيكترث لأمره؟

- الوافدون يخلصون لحلفائهم، وهذا الشَّاب من حلفائه.

تبادل قائد الحرس النَّظرات مع الملك «يويا»، استدار القائد وقال لجنوده: «ألقوه في السِّجن».

«توفيق»

كان عليَّ الذَّهاب مع «نوب» و«سيدون» إلى حدود «أرض الأقواس»، سألني «نوب» في حيرة: «ما بك يا «أبادول»؟ لماذا أحضرتنا إلى هنا؟».

- اصبر وسترى.

قال «سيدون»: «لم تُجب عن سؤالنا.. من هو «أمان»؟».

- عليكما أن تريا شيئًا بأعينكما أولًا.

عبرت الحدود أمامهما فعادت إليَّ صورتي فانتفضا وتراجعا للخلف وأمسك كلٌّ منهما بيد الآخر، عدت وعبرتها داخلًا إلى حيث يقفان وقلت لهما: «أعلم أنَّكما خائفان، لكنَّها الحقيقة، لستُ «أبادول» الحقيقيَّ، أنا «توفيق» من الوافدين».

قال «سيدون» بصوت يرتجف: «كيف هذا!».

همس له «نوب»: «لعلَّه من الجنِّ، أو هو ساحر».

- لست بساحر يا «نوب»! أتيت إلى هنا لأستردَّ كلمات كتاب.

- كيف هذا؟

- الكتب هنا حيَّة يا «نوب»، تستدعي الوافدين لاسترداد كلماتها، لهذا دمائي حمراء.

سألني «سيدون» وهو يقترب خطوة: «كيف وصلت إلى أرض الأقواس؟».

- التقيت «أمروس» و«كو»، وسرت معهما قبل أن يقتل جنود الملك «يويا» «أمروس» أمام ولده، فساعدت الغلام وحملت أباه إلى الجبل حيث يسكن جده وساعدتهما في دفنه فقد كان الجدُّ يعاني حمَّى شديدة، وعندما عدنا كان «أبادول» قد مات على إثر مرضه، فدفنته وأتيت لأرافق «كو» إلى قصر الأميرة «فاتي» لترعاه وتسلِّمه لأمِّه بعد خروجها من السِّجن، فتغيَّرت صورتي فور عبوري لحدود «أرض الأقواس».

همس «نوب»: «أتزعم أنَّ «كو» لم ينتبه لذلك ولم يرك بينما تتبدَّل ملامحك؟».

- رآني «كو» بأمِّ عينه وعبرت الحدود أمامه مرارًا.

- ألم يخف؟

- الغلمان خيالهم واسع وقد تقبَّل الأمر بصدر رحب وراقه، واتفقنا أن يخفي الأمر حتى أسلِّمه للأميرة «فاتي».

قال «سيدون»: «هذا يفسِّر سبب قوَّة بدنك، لن يتخيَّل أحد هنا أنَّك لست «أبادول» فوجهك مطابق لوجهه تمامًا.. ولولا صوته المبحوح منذ سنوات لانكشف أمرك بسبب صوتك».

قال «نوب»: «لم تُجب عن سؤالنا.. من هو «أمان»؟».

- صديق لي ويعلم أنني من الوافدين وأتى ليطمئنَّ عليَّ فقد علم بذهابي إلى أرض الأقواس.

قال «سيدون» وهو يقترب ليلمس كتفي: «لهذا طباعك تختلف، أنت أكثر حنانًا وعطفًا من «أبادول»».

ردَّت كلماته الأمان لـ «نوب» الذي تغيَّرت ملامحه من الخوف إلى ابتسامة خفيفة، عبرت الصُّخور المصفوفة على الحدود أمام أعينهما مرَّات ومرَّات لكي يطمئنا أكثر، تحمَّلت تفحُّصهما لجلدي ووجهي وتكرار جذب اللحية وجذب ذراعي، حتَّى الحرق الحديث في كفِّي تفحَّصاه، وعندما ضجرت بتشككهما قُلت لهما: «ما بالكما؟ عشت بينكما ونمت في خيامكما وأكلت من طعامكما ولم أوذِ أيًّا منكما!».

قال «سيدون» وهو يفرك جبهته: «وأنا الذي كنت أتعجَّب كيف يلتقط «أبادول» جمرة بيده، كنت أنت طوال الوقت!».

عقد ذراعيه وأضاف: «وكنت أمينًا على «كو» فقد عرَّضت نفسك للخطر لكي تسلِّمه للأميرة».

سألني «نوب»: «كيف تعرف تفاصيل حياة «أبادول»؟».

- لم أحمل ملامحه فقط بل ذاكرته أيضًا.

انطلقا يسألانني عن موطني، أخبرتهما بالقليل ولم أخبرهما عن مدينة الرَّباب والصُّقور، حملا الكتاب وأخذا ينقلانه بينهما، قرأت لهما الجمل القليلة التي ظهرت فيه فراقتهما، وقد ظنَّا سابقًا أنِّي أكتب به شيئًا ما، أخبرتهما عن الخنجر الذي فقدته وكيف أنَّه ينقلني من مكان إلى آخر، ولم أبيِّن لهما من أين حصلت عليه فهمس «نوب»: «هذا سِحر! أنت ساحر! وافد لكنَّك ساحر أيضًا».

- لستُ ساحرًا!

- والكلمات التي رددتها في السُّوق يا «توفيق»؟

تمعَّر وجهه ووقف متشككًا من جديد، فقلت له وأنا أربت على كتفه: «أقسم لك إنَّها نباتات، ولا تنادِني باسمي يا «نوب»، لا تنسَ أنَّني «أبادول»!».

قال «سيدون» وعيناه تبرقان: «لو كان معنا ذلك الخنجر لنقلتُ ابنتي إلى غابة البيلسان في الحال، وسينتقل العسَّاسون إلى الملجأ بسهولة ليتفقَّدوا أسرهم».

- الخنجر لا يعمل إلَّا في يدي، ولكنني أعدك أن أنقل ابنتك إلى الغابة إن استطعت استرداده.

- أخشى أن يكون الموت أسرع إليها منَّا، ستُتمُّ السَّادسة قريبًا وحينها سينهار جسدها سريعًا.

طلب منِّي «نوب» أن أصف له الخنجر فأخذت أصف له نقوشه الذَّهبيَّة، عُدنا إلى مقرِّ «العسَّاسين» ولم يتوقفا عن الأسئلة طوال الطريق.

لم أذق طعم النَّوم طوال الليل قلقًا على «أمان»، خرجت من الخيمة وجلست بجوار النَّار التي لا تُطفأ وسط تلك البقعة التي يسكنونها، اهتزَّ الكتاب ففتحته لأقرأ جملته الجديدة...

«من الشَّجاعة أن تُدرك متى تنفض يديك عن معارك الحياة، حتَّى لا تزهق روحك في طلب المستحيل. أمَّا صعب المنال فتمسَّك به، فالصَّعب يلين بالعزيمة، ويسهل بالإصرار».

وكنت أعلم أن مهمَّتي صعبة المنال، فبالكاد قد ظهرت جمل قليلة لا تملأ صفحتين، لكنني سأكمل.. نعم سأكمل بعون الله.

شعر «نوب» بغيابي فأقبل يتفقَّدني وسألني: «ما بك يا صاح؟».

- لا بدَّ أن نُحرر «أمان» من السِّجن، أخشى أن يكون جرحه عميقًا وخطرًا.

- يبدو أنَّه صديق مقرَّب لك.

- وكذلك أنت.

قال بتأثُّر: «حقًّا؟ هل تراني صديقًا مقرَّبًا يا «توفيق»؟».

قالها بتلعثم شديد وقطَّع حروفها فأدركت أنَّه ليس بخير، قلت لأطمئنه: «أنت أخي وصديقي يا «نوب»».

- أين التقيت «أمان»؟

- يكفي أن تعلم أنَّه عرَّض حياته للخطر من أجلي.

لمعت عيناه وهو يقول: «لا يعرِّض أحد نفسه للخطر إلَّا من أجل من يُحبُّ ويُقدِّر».

- وإن كان لم يعرفني من قبل فهو يحمل الكثير من الشَّهامة والمروءة.

- كيف سننقذه؟

- سأذهب بنفسي إلى الأميرة «فاتي» لتُرسل من يُخلِّصه كما فعلت معنا.

- هل ستُخبرها بحقيقتك؟

- لا.. يكفي أنت و«سيدون»، وأرجو ألَّا تفشيا السرَّ.

- لنذهب الآن تحت جنح الظَّلام.

خرجنا بعد أن أيقظنا «سيدون» لنبلغه فرافقنا ليتسلل للملجأ المجاور لقصر الأميرة «فاتي» ليطمئنَّ على أسرته ويتفقَّد حال ابنته، خلعنا أقنعتنا وربضنا خلف الأشجار ننتظر أن يفترق الحرَّاس حتَّى لا نُحدث جلبة، ولخوفنا من وجود عيونٍ للملك «يويا» بين حرَّاس قصر أخته، استطعنا التسلل ووصل «نوب» إلى الحارس الذي حدَّثه المرَّة السَّابقة فقال له فور أن رآه إنَّ الأميرة «فاتي» أخبرته أن يُدخله فورًا إن عاد إلى لقائها وأن يُخفي أمره ويبلغ وصيفتها، توجَّس «نوب» من ردِّ فعله وحماسه المبالغ فيه فطلب منِّي أن ننصرف لكنَّني رفضت فاحتضنني وكأنَّه يودِّعني ثُمَّ أخبرني أنَّه سينتظر بالخارج ليُراقب الطريق وتركني أدخل مع الحارس وحدي، الذي أبلغ وصيفة الأميرة المقرَّبة بوصولي فصحبتني للقاء الأميرة، ووقع ما كُنت أخشاه، فقد داهم بعض الجنود ديوان الأميرة «فاتي» وألقوا القبض عليَّ، قالت «فاتي» بصوت يحمل الكثير من الحزن والانكسار: «سامحني يا «أبادول»، لم أتمكَّن من حماية «كو»».

- ماذا فعلوا به؟

أتى صوت «دهيبة» من خلفي حزينًا وهي تقول: «انتزعوا «كو» من حضني وأخذوه إلى قصر الملك «يويا»».

التفتُّ نحوها فألفيتها مصابة فأدركتُ أنَّها أصيبت وهي تحمي «كو»، وأيقنت أنَّ هناك من خان ثقة الأميرة «فاتي»، دفعني الجنود أمامهم بعد أن جرَّدوني من حقيبتي وأدواتي، كانت «دهيبة» تلاحقنا ركضًا وتسبُّ الجنود وتلعنهم، علا صياح الجنود عليها فرفعت صوتها عندما ابتعدنا قائلة: «الفهد لا يزال طليقًا».

فأدركت أنَّ «سونو» قد نجا منهم، وكانت قد سمعتني وأنا أخبر «كو» أنَّ «سونو» شجاع كالفهد وسيحميه. سرنا إلى قصر الملك والظِّلال السَّوداء تتكاثف حولنا في كلِّ مكان، على الطريق وفوق البيوت وبيننا ونحن نسير خطوة بخطوة، كنت أفتِّش بعيني عن «نوب» ولم أجد له أثرًا.

لم أدر هل كانت غفوة قصيرة أم أنني قد فقدت وعيي بعد أن ألقى بي الجنود في الزِّنزانة التي حُبست فيها من قبل، كنت وحيدًا والظلمة تُحيط بي وما عدت أملك أحجاري المضيئة، بدأ نور الفجر يتسلل من النَّافذة، بعد تمام شروق الشمس أخرجوني إلى مكان مليء بالأعمدة وكأنَّه معبد وكان أمامه ساحة واسعة يحتشد النَّاس حولها، علَّقوني من قدميَّ بحبل غليظ وأخذوا يدفعون بي ويلهون بجسدي ويلفُّونه يمينًا ويسارًا فيدور الحبل بي مما أصابني بدوار شديد، حضر الملك «يويا» ومعه قائد حرسه فأجفل الجميع وتعالت الصَّيحات ثم سكنت، اقترب الملك «يويا» ليسألني: «أين «توفيق»؟».

بحثتُ عن إجابة تُحيِّره فقلت: «لا يثبت على حال».

- كيف؟

- يتنقَّل أحيانًا على قدميه ويطير أحيانًا ويغوص بالماء!

اكتسى وجهه بالحيرة فانتقل إلى السؤال الذي ملّته: «كيف صارت دماؤك حمراء؟».

- فعلها «توفيق»، يبدو أنَّه يستطيع فعل أشياء غريبة!

أشار بيده فأحضروا حقيبتي، أخرج منها الخريطة وبسطها لأراها وقال ساخرًا: «تقضي وقتك في رسم خريطة لأرض الأقواس!».

تعجَّبت عندما رأيتها وقد اختفت كلُّ تفاصيلها! قلب «يويا» حقيبتي على الأرض فتناثرت الأحجار وكان لونها قد استحال أسود وكأنَّها قطع من الفحم، قال ساخرًا من جديد: «لماذا تحمل الفحم في حقيبتك أيُّها الأحمق؟».

قال قائد الحرس وهو يقترب: «لعلَّه يستخدمه في الكتابة».

أجفلت عندما لم أرَ كتابي! فقد كان الكتاب بحقيبتي مع «خريطة الإدريسيِّ»، وكنت قد تفحَّصته قبل خروجنا إلى قصر الأميرة «فاتي»، سألني وهو يضرب جبهتي: «هل رأيت كتاب «توفيق»؟».

- نعم وكان خاليًا من الكلمات.

تراجع خطوة إلى الخلف ووقف حائرًا وسألني: «أين تُخفي كتابات أبي يا «أبادول»؟ البَردِيَّات التي دلَّنا «كو» عليها ببيتك كلُّها خالية!».

أدركتُ أنَّهم فتشوا البيت، وأنَّ «كو» لم يُخبرهم عنِّي، فقلت وكان رأسي يؤلمني بسبب تعليقي مقلوبًا لفترة طويلة: «لن تستطيع الوصول إليها ما دمت على قيد الحياة».

- حسنًا لنقتلك!

- ستجدها إذن تتردد في كلِّ بيت وعلى كلِّ لسان، أنت تعرف هذا جيدًا وكما حدث من قبل حين اختفى أبوك سيتكرر الأمر إن قتلتني وسيتناقلها سكان أرض الأقواس ويعلِّمونها لأولادهم، لهذا ترغب في الحصول عليها لتشويهها وقلب الحقائق، فقتلي سيضرُّك ولن ينفعك.

- أحمق.

- لماذا أنت حانق على أبيك؟ لقد أحبَّك كما لم يُحبك أحد قطُّ.

مرَّ بذاكرتي صوت «أبادول» وهو يُردد كلمات ويدوِّنها، وجدتني أُردد تلك الكلمات: «قلوب الآباء هي منارات تضيء صدور أبنائهم، ولا ينطفئ ضوء قلب الأب إلَّا بعد انطفاء جميع القلوب».

- هراء.. وأين هو الآن؟

- اقرأ كلماته وستجده بين جنبيك!

- يكفي ما عرفته عندما حُبست معه، كان يردد خرافات وثرثرة.. لطالما رأيته ضعيفًا!

- بل كان صادقًا والصدق منتهى القوَّة، فالإنسان يكون في أقصى حالات ضعفه عندما يكذب! أنصت لصوت والدك.

- لا أرغب في سماع اسمه فما بالك بأقواله وكتاباته!

- جرِّب لعلَّك تعثر على روحه بين السُّطور.

قال والكره يُطلُّ من عينيه: «يكفي أن أعرف أنَّه تركنا وحدنا ورحل».

- لعلَّه رحل ليحميكم من القتل، ألم يعف عنكم الملك «كاشتا» بمجرَّد اختفائه؟ أليست تلك تضحية منه من أجل سلامتكم؟

- مات «كاشتا»، فليعُد الآن إذن!

- لو استطاع لعاد.

بسط ذراعيه وقال في خيلاء: «لا حاجة لي بحبِّ أبي، أنا محاط بالحبِّ من كلِّ جانب!».

- حبُّ الغرباء فيه سلب وعطاء، والسَّلب فيه أكبر من العطاء، أمَّا حبُّ الوالدين فهو عطاء بلا حدود، كالسيل الجارف لا تملك أن توقفه.

- توقَّف السيل كما ترى! ولم يبقَ إلَّا حبُّ الغرباء.

- لا يخدعنَّك من حولك، هؤلاء لا يحبُّونك بل يخافون من بطشك يا «يويا».

- حفنة من المال تكفي لإدارة عقولهم، الحبُّ بضاعة تُباع وتُشترى.

- مهما فعلت لن تستطيع اختراق صدر فرد واحد من رعيَّتك لتُجبره على حُبِّك والولاء لك، فإن لم يسلِّمك أهل أرض الأقواس مفاتيح قلوبهم بأنفسهم فأنت خاسر.

تلفَّت ورأى النَّاس وقد سكنوا جميعًا وكانوا ينصتون لحوارنا، بدأ يتميَّز غيظًا، أشار بيده فأحضر الجنود زوجة «أمروس» وكانت آثار الحمل بادية عليها، جرُّوها جرًّا ولم يستجيبوا لتوسُّلاتها وكانت تبكي بحرقة، صاحت فور أن وقعت عيناها عليَّ وأنا معلَّق أمامها من قدميَّ: «مات «أمروس» يا «أبادول»، مات ابنك الذي تُحبُّه!».

أشار «يويا» بيده مرَّة أخرى فأحضروا «كو» وألقوه أمام أمِّه فانكبَّت عليه تقبِّله وتحتضنه وتبكي، قال «يويا» وهو يلطمني على وجهي: «إن كان موتك سيضرُّني كما تقول فسأبقيك على قيد الحياة! وليكن الموت من نصيب حفيدك وأمِّه!».

كانت عيني على «كو» وأمِّه وهما يبكيان، مسح «كو» وجهه ونظر تجاهي وغمز لي بعينه قبل أن يقوم ويلتقط الأحجار ويضعها مع الخريطة في

حقيبتي ويحتضنها ويعود إلى جوار أمِّه، لم يأبه أحد لفعله وظنُّوا أنَّه مجرَّد غلام يحمل حقيبة جده، لكنَّه كان يدري أنَّ كلَّ ما في الحقيبة مهمٌّ لي، قال «يويا» وهو يشير إليهما: «حياتهما مقابل ما دوَّنته من كتابات أبي».

هدرت غاضبًا: «ستندم إن مسست شعرة من رأسيهما!».

في تلك اللحظة اخترق سهم مجهول المصدر الحبل الغليظ الَّذي كنت معلَّقًا به، فسقطتُ على رأسي وشعرت بألم شديد، ضجَّ المكان بالجنود وأحاطوا بالملك ليحموه، اقترب «كو» مع أمِّه وحاولا حلَّ قيد يدي، وبقي قيد قدميَّ وكان معقَّدًا، أتاني صوت «نوب» من بين الزِّحام وهو يصيح: «أبادول»!

التفتُ نحوه فدفع خنجرًا على الأرض فانزلق تجاهي فالتقطه ومزَّقت قيد قدمي في الحال، صُعقت عندما رأيت المقبض الذَّهبيَّ واكتشفت أنَّه خنجري! وقفت لأردد وأنا أرفعه في الهواء: «بستان «سُفيان»»، انبثقت الفجوة وبدأت تتلاعب في الهواء أمام الجميع، ابتعد الجميع عنَّا في خوف وحذر، رأيت البستان في الجهة الأخرى، قلت لأمِّ «كو» وهي لا تزال تظنني حماها «أبادول»: «سندخل تلك الفجوة، وعليك أن تتبعينا».

حملتُ ابنها «كو» وخطوت داخل الفجوة أمامها فتبعتني وهي تصرخ من شدَّة فزعها وتلهُّفها على ابنها، وفور أن وطئت قدماها أرض البستان سقطت على ركبتيها، انغلقت الفجوة فانطلقت تصرخ بلا انقطاع عندما رأت وجهي وقد تغيَّرت ملامحه أمام عينيها، تركت «كو» يُحدِّثها ويخبرها بما حدث، لم تلتقط أذناها غير خبر موت «أبادول» فانطلقت تبكيه كما بكت زوجها من قبل.

أقبل السيِّد «سُفيان» ومن معه من الفرسان، قضيت هناك بعض الوقت ورويت له ما مررتُ به وأبلغته أنني سأعود إلى أرض الأقواس لإنقاذ «أمان» وللبحث عن كتابي، تركت «كو» وأمَّه في حماية السيِّد «سُفيان»، وأخبرني أحد الفرسان بالبستان أنَّه سيحضر إليها من يعتني بها من النِّساء حتَّى تلد بسلام. قبل انصرافي أخبرني السيِّد «سُفيان» أنَّ «الرَّماديَّ» مصاب، فقد رماه أحد سكَّان «أرض الأقواس» بسهم أصابه بجرح خطير..

لقد صار أصدقائي أهدافًا للرماة من أهل «أرض الأقواس»!

«أمان» ثمَّ «الرَّماديُّ»!

رفعت خنجري في الهواء ورددت وقلبي يخفق: «مدينة الرَّباب».

عندما وصلت إلى «مدينة الرَّباب» وجدت نفسي في بُستان «مارماحوز» حيث يوجد كوخها المخفيُّ خلف ستار معلَّق بالهواء! وقفتُ حائرًا وكانت أزهار الحوذان تتلفَّت تجاهي، لم أستطع محاكاة صيحة «الرَّماديِّ» التي كان يطلقها لكي تخرج له، لكنَّها كانت تعلم بوصولي فأظهرت كوخها وخرجت من بابه وهي تقول: «لماذا أتيت إلى مدينة الرَّباب يا «توفيق»؟».

- أرغب في الاطمئنان على «الرَّماديِّ».

- ستكون المدينة بأكملها عرضة للخطر، هناك نفر من الجنِّ يبحثون عنك، ووراؤهم ساحر، كان عليك ألَّا تأتي إلى هنا.

- سأزور «الرَّماديَّ» وأرحل فورًا.

- أسرع قبل أن يحلَّ الظَّلام.

رفعت خنجري فاستوقفتني ودلفت كوخها وعادت تحمل قارورتين وحفنة من الزُّهور وقالت: «هذا مسحوق حجر الأبسوس»، تستطيع إشعال النَّار به، وهذا مسحوق حارق انثره على من يُهاجمك، وتلك الزُّهور من أجل الغربان، ما دمت تحملها في حقيبتك سيبتعدون عنك».

- عروق الظَّيَّان؟

- هي يا بنيَّ.. لكنَّها لن تبعِد عنك الجنَّ فانتبه لنفسك.

سألتني وهي تراقب يدي وأنا أضع الزُّهور في حقيبتي: «ما بال يدك؟».

- أحرقتها وأنا أحمي طفلًا من جمرة كادت تسقط عليه.

جذبتني من يدي وهي تقول: «دعني أضمِّدها لك».

أدخلتني الكوخ ودهنتها بزيت أسكن الألم وضمَّدتها جيدًا وأعطتني قارورة رفيعة من ذلك الزَّيت لأعيد دهان حرق يدي إن احتجت، قالت قبل أن أنصرف: «ما زالت «قمر» قلقة عليك وتتردد على البيت باستمرار وتقف

لتطرق الباب، تارة وحدها، وتارة مع أبيها، ولا يزالان يرويان الحديقة على أمل أن تظهر من جديد».

استقبلت كلماتها بابتسامة، كان هذا بمنزلة حقن أوردتي بالأمل وكنت في حاجة إلى هذا بشدَّة. تركتها وانتقلت مباشرة إلى بيت «الرَّمادي» بخنجري، طرقت الباب فاستقبلني «برهان» بترحاب شديد وصحبني حيث كان «الرَّمادي» يرقد في فراشه ويعاني جرحًا بليغًا في كتفه، كنت أحتاج إلى رؤيته والحديث معه، جلسنا في قلق على «أمان»، أخبرته أنني سأعود لإنقاذه، بسطتُ خريطة الإدريسيِّ أمام «برهان» وفوجئت بعودة تفاصيلها، أخبرني «برهان» أنَّها مطابقة للصورة التي رآها أول مرَّة.

عندما أرخى الليل رداءه المعتم ودَّعتهما ورفعت خنجري في الهواء وقُلت وأنا أتأهَّب لما سألقاه: «أرض الأقواس».

وصلت إلى «أرض الأقواس» وعادت لي ملامح «أبادول» من جديد، برزت الظلال السَّوداء من كلِّ حدب وصوب وأحاطت بي، وقفتُ حائرًا في كينونتها هل هي من الجنِّ؟ أم ماذا؟ كُنت أقف وحدي خارج ملجأ العسَّاسين في بقعة خالية من البشر، حدَّثت الظِّلال قائلًا: «من أنتم؟».

لم يأتِني الرَّد، بدأت تدور حولي وتزداد وتتكاثف، عدت أسألهم: «ماذا تريدون منِّي؟».

أصختُ السَّمع ولم يأتِني همس ولا هسيس، اصطفَّت الظلال في صفين أمامي، وكنت أحدِّق إلى ظلمتها وأنا حائر، أشار أوَّلها بذراعه وكأنَّه يطلب منِّي المرور من بينها، فمررت، وكأنَّهم يحتفون بعودتي! عندما مررت بآخرها اختفت وتلاشت من الهواء وعادت تفترش الأرض فرأيت لنفسي الكثير من الظلال وليس ظلًّا واحدًا كما اعتدت في موطني، ولا اثنين كأهل «أرض الأقواس»! بينما مرَّ وقت قبل أن تختفي تباعًا كنت أتقدَّم في طريقي.

دخلت ملجأ «العسَّاسين» فوجدت «سيدون» يجلس في انتظاري أمام الخيمة ومعه «سونو»! علمتُ أنَّ «سونو» هو من قطع الحبل الذي كانوا يعلِّقونني به بسهمه، وأنَّه فعل هذا بعد أن حرر هو و«نوب» «أمان» الذي

خرج من «أرض الأقواس» بعد استرداد جواده ولم يبقَ بعد علمه عن انتقالي بالخنجر، سألتهما: «هل إصابة «أمان» خطيرة؟».

أجابني «سونو» قائلًا: «لا.. فقد أصيب بجرح سطحيٍّ في ذراعه وضمَّدته له قبل أن ينصرف».

- الحمد لله.

- أين «كو» وأمُّه؟

- في عهدة من أثق بهم.

ران علينا صمت قصير، الآن صار «أمان» يعلم أنني أظهر بهيئة أخرى، وصار «سونو» يعلم أنني لست «أبادول» وإنَّما أنا وافد غريب، و«نوب» هو من جمع بينهما وأخبرهما بالحقيقة، ولكن.. أين «نوب»؟

تلفَّتُّ باحثًا عنه وسألت «سيدون» فطأطأ رأسه وقال: «ألقى جنود الملك القبض عليه بعد اختفائك؟».

- يا إلهي! رأوه وهو يدفع الخنجر لي!

مدَّ «سيدون» يده بالكتاب لي وقال: «أخبرني أنَّه سرق منك كتابك لأنَّه شعر أنَّ حارس الأميرة سيغدر بك، وحاول منعك من الدُّخول لكنَّك أبيت، أراد أن يكون غياب الكتاب سببًا لنجاتك فالملك لن يأمر بقتلك ما دام لم يحصل على الكتاب».

قال «سونو» وهو يهزُّ رأسه في أسى: «ربض فوق شجرة طوال ساعات الفجر الأولى يُراقب الجنود باحثًا عن خنجرك، وعندما رأى أحدهم يعلِّقه ويتباهى به وقد بدأ مقبضه الذَّهبيُّ يبرق تحت ضوء الشَّمس صمم على الاندساس بين الجنود الذين احتشدوا عندما أحضروك إلى السَّاحة، ربض بالقرب من الجندي الذي يحمله وتحيَّن اللحظة المناسبة فانتزعه منه بخفَّة ودفع به نحوك على الأرض».

أدركت أنَّ «نوب» يحمل بين جنبيه الكثير من الخير والنُّبل والشَّجاعة على عكس ما يظنُّه الآخرون به. فتحت الكتاب بعد اهتزازه وإذا بالجُمل تظهر فيه

تباعًا، ارتجَّ قلبي في صدري وأنا أراها تظهر أمام عيني، العديد من الأقوال والحكم والنَّصائح لشيخ كبير يحكي عنه الأمير «أواوا» ويسردها على لسانه لأحفاده، وقفت أقرؤها وأتساءل..

متى سيُكمل الكتاب إظهار باقي جمله؟

وهل أوشكت مهمَّتي على الانتهاء أم لا؟

انتشلني «سونو» من شرودي وسألني: «إن كُنت تعلم أين أخفى «أبادول» كتابات الأمير «أواوا» قبل أن يموت عليك أن تسلِّمها للأميرة «فاتي»».

- ليس الآن.
- حتَّام إذن؟
- لو سلَّمتها لها الآن سيحصل «يويا» عليها بسطوته ويُدمِّر كلَّ ما فيها، وستغرق أرض الأقواس في ظلمات.
- لن يتركك «يويا» تعيش بسلام.
- علينا أن ننقذ «نوب» أوَّلًا وقبل أيِّ شيء، لكنني لا أدري إلى أيِّ زنزانة عليَّ أن أنتقل الآن.
- عودتك إلى السجن مرَّة أخرى ستُعرِّضك للخطر!
- لن أتركه وحيدًا وأنا قادر على تحريره!
- حسنًا، سأذهب معك، فقد عشت في هذا السِّجن لفترة طويلة وأعلم خباياه.

سألني «سيدون» على استحياء: «هل تستطيع نقل ابنتي إلى «غابة البيلسان» بواسطة الخنجر؟ فأنت تعلم أنَّ حياتها في خطر».

- بالتَّأكيد، لنذهب الآن قبل أن ننتقل لإنقاذ «نوب».

انتقلنا نحن الثَّلاثة إلى الملجأ الذي تقيم فيه أسرته بواسطة الخنجر، دخل «سيدون» بيته وغاب لدقائق ثم عاد مرَّة أخرى وطلب مني إمهاله وقتًا يسيرًا وإعطاء الفرصة لزوجته لتوديع ابنتها كما يجب، فهو لن يُخبرها عن كوني من الوافدين ولا عن الخنجر والفجوة حتَّى لا تفزع، أراد أن يبيت معهم

الساعات المتبقية من الليل فتركته وخرجت مع «سونو» لنستعد للانتقال إلى سجن الملك لنحرر «نوب»، ولكن قبل انصرافنا كان عليَّ أن أُخفي الكتاب في مكان أمين حتى أعود.. وقد فعلت!

رفعت خنجري وفُتحت الفجوة وفور أن مررت منها انغلقت خلفي دون أن تسمح لـ «سونو» بالولوج، أدركت أنَّ هناك من أغلقها وشعرت بشيء يجذب الخنجر من يدي كالمغناطيس وفوجئت بجسدي يُعلَّق في الهواء، كان هناك رجل قاتم الوجه يقف أمامي ويرفع يده تجاهي بينما خنجري في يده الأخرى، وكان قائد حرس الملك بجواره، قال الرَّجل بصوته الأجش: «لقد عاد «أبادول»!».

تساءل قائد الحرس متعجبًا: «وما الذي دعاه للعودة وقد رحل مع حفيده وأمِّه؟».

- لا ريب أنَّ هناك سببًا وجيهًا!
- وما هو؟
- سنعرف الآن.
- كيف ينتقل بذلك الخنجر يا «سورنجان»؟
- لا ريب أن الوافد أهداه له.

حاول «سورنجان» التلويح في الهواء بيده وكرر اسم «قلعة الملك «قَتام»» عدَّة مرَّات ولم تظهر له الفجوة، ثم أخذ يُحدِّق إلى الأجواء حوله كالمجنون، قال قائد الحرس وهو يرميني بنظرات متشككة: «ربَّما هو ساحرٌ مثلك ولديه أتباع من الجنِّ».

التفت «سورنجان» نحوه وهدر غاضبًا: «لا وجود لأيِّ ساحر آخر على أرض الأقواس، ولن أسمح بوجوده!».

أرسل القائد من يُخبر الملك أن «أبادول» عاد، أخفض «سورنجان» يده فهوى جسدي أرضًا، أطلَّ نفر من الجنِّ حوله، كانوا «الدَّواسر» الذين رأيتهم في «مدينة النَّحاس»! طافوا حولي واقتربوا من جسدي فذكرت الله

وكان هناك ما يدفعهم عنِّي، ظننت أنَّهم سيتعرفون عليَّ، فقد رأوني بمدينة النَّحاس لكنَّهم لم يعرفوني، عادوا إلى جوار «سورنجان» ونطق أحدهم قائلًا: «لم أتمكَّن من اختراق جسده، لا ريب أنَّ هناك من يحميه».

اقترب الجنود وفتشوني وأخرجوا الخريطة فتفحصوها وطرحوها أرضًا عندما وجدوا أنَّها لأرض الأقواس ولم يكترث أحد لباقي ما عثروا عليه في حقيبتي من أشياء كالقوارير والأحجار.

عاد «سورنجان» يرفعني في الهواء، قال قائد الحرس له بصوت لا يخلو من السخرية: «أهذا فقط ما تستطيعون فعله له؟».

أسقطني «سورنجان» على الأرض من جديد، ولولا تكوين جسدي العضلي لكانت عظامي محطَّمة من تلك السَّقطات التي صرت أتلقَّاها هنا! قال وهو يرشق القائد بنظراته القاتمة: «لا تنسَ أنَّه كان يلازم وافدًا غريبًا لديه من يرافقه ويحميه بإخفاء أثره طوال الوقت، ولا ريب أنَّه يحمي «أبادول» أيضًا، فعنوان الكتاب باسمه!».

- ألم تُخبرني أنَّ من معك من الجن يقدرون على قلب أرض الأقواس رأسًا على عقب في ثوانٍ للبحث عن الوافد وعن «كو» وأمِّه؟
- بلى.
- أين هم؟ وأين الكتاب؟
- لم نعثر للغلام وأمه على أثر هنا، والجن لا يملكون تتبع تلك الكتب، لهذا لن يظهر إلا مع الوافد الذي كلَّما تتبعنا أثر ظهوره يزول فجأة وكأنَّ هناك من يمحيه ويخفي أثره عنا كما أخبرتك.

دلف الملك «يويا» وكان غاضبًا، أخذ يذرع الغرفة ويروح ويجيء أمامي وهو يعقد يديه خلف ظهره، لم يلتفت لقائد حرسه ولا إلى السَّاحر «سورنجان»، وقف أخيرًا أمامي وسألني: «كان بإمكانك الهروب مع «كو» وأمِّه، فما الذي دعاك للعودة؟ هل عدت بسبب ذلك الأثول الذي سرق الخنجر ورده لك؟ هل يستحق ذلك اللص العناء؟».

لم أُجبه فزفر حانقًا وقال لقائد الحرس: «لا تحتجزوه مع رفيقه، فرِّقوا بينهما ولا تخرجوهما من الزنازين حتَّى نصل إلى مكان الوافد، أريد الكتاب الذي يحمله الوافد مهما كان الثمن».

قال قائد الحرس وهو يتعجَّب: «كتاب الوافد؟ ظننت أننا نبحث عن كتابات والدك يا جلالة الملك».

- كتاب الوافد أهمُّ، لنهتمَّ بأمر الكتاب الذي يحمله، سيُغيِّر التاريخ كلَّه إن استطعت أن أخلِّد فيه اسمي، سأكون أنا الجدَّ الأكبر والأعظم «أبادول»، سيحكي قصَّتي أنا!

- لكنَّك لا تزال شابًّا يا جلالة الـ.....

قاطعه قائلًا: «أيُّها الأحمق! سأكون أنا البداية، سأكتب عن نفسي أسطورة يُخلِّدها التَّاريخ، ولن تُنسى أبدًا».

التفت الملك نحو «سورنجان» ومدَّ يده طالبًا الخنجر، بدا «سورنجان» وكأنَّ كلام «يويا» لم يُعجبه، أعطاه الخنجر فقال له: «أبلغ أميرك «القلقديس» أنَّ الكتاب لي ولن أتنازل عنه!».

أدركتُ أنَّ هناك صراعًا بين الملك «يويا» وأمير آخر يُسمَّى «القلقديس» على كتابي، انصرف الملك في الحال، واختفى «سورنجان»، حلُّوا وثاقي فجمعت ما كان في حقيبتي وحملتها فقادوني إلى زنزانة أخرى، ألقوني في غيابتها وحيدًا وكنت حزينًا لأنني لم ألتقِ «نوب» لأطمئنَّ عليه.

كان ضوء الفجر الشَّاحب يتسلل من النَّافذة، سمعت أنَّات مكتومة، وكأنَّ أحدهم يتألَّم، مضى وقت وأنا أتتبع الأصوات حتَّى فُتح باب زنزانتي وأطلَّ «سونو»، لم أتعرَّف عليه إلَّا من صوته فقد كان يخفي ملامح وجهه بالألوان!

خرجت معه ووجدت «نوب» في انتظاري، كان هناك ثلة من الشَّباب يعتلي اثنان منهم أسوار السِّجن بقوسيهما ويصوِّبان سهميهما تجاه القسم المقابل من السجن، علمت بعد خروجنا أنَّهم من العسَّاسين وقد استطاع «سونو» إقناعهم باقتحام السِّجن لتحريري مع «نوب». قال «سونو» ونحن في طريقنا إلى مقرِّ العسَّاسين: «لم يتخيَّلوا يومًا أنَّهم يستطيعون ذلك! كلمات بسيطة

كانت كافية لبعث الحماس في صدورهم، خلعوا أقنعتهم ورموها وتأهَّبوا، لكنَّهم ينتظرون منك المقابل».

- وما هو؟

- ستعرف عندما نصل.

- هل استعنت بجنود الأميرة «فاتي»؟

- لا، تراودني الشكوك فيمن حولها، ولا أثق أنَّها في أمان.

قال «نوب» في خوف وقلق: «لا ريب أنَّ الملك سينشر جنوده في أرض الأقواس فور أن يعلم بخروج «أبادول»».

- الجميع يرغبون في استرداد أراضيهم والعيش بسلام مع عائلاتهم، ملُّوا من الطواف بأقنعتهم ليلًا والتسلل وكأنَّهم لصوص ليروا أبناءهم.

كان «نوب» يتعلَّق بذراعي، وكنت ممتنًّا لكونه بخير، همس لي قائلًا: «لا تظن أنني عُدت إلى السرقة يا «توفيق»! فما سرقت الخنجر إلَّا لأرده لك، والكتاب لأحميك».

- أعلم يا «نوب»، ولا تُناديني باسمي كما اتفقنا أرجوك.

وصلنا إلى مقرِّ العسَّاسين، كان الشباب الذين خرجوا مع «سونو» قد عادوا بعد نجاح تلك الهجمة على السِّجن ومن يحرسونه، احتشد العسَّاسون أمامنا، برز من بينهم شاب وقال وهو يلوِّح بقوسه: «الآن جاء دورك يا «أبادول»».

- أنا؟

- نعم، لم نعرِّض أنفسنا للخطر من أجلك! عليك أن تسلمنا كتابات الأمير «أواوا» لنُساوم الملك عليها، أنت مدين لنا بهذا.

التفتُّ نحو «سونو» وكنت في حيرة من أمري، قال شابٌّ آخر وهو يلوِّح بقبضته في الهواء: «من حقِّنا الحصول على ما نحمي به أنفسنا وأهالينا».

قال ثالث لـ «سونو» وهو يرميني بنظرة متشككة: «سمعنا أهل المدينة يقولون إنَّ «أبادول» أخرج حفيده وأمَّه من أرضنا بطريقة لم نشهد مثلها من قبل، كما أنَّه ليس «أبادول» الذي يعرفه الجميع، لقد تغيَّر!».

قال «نوب» بانفعال: «لو أراد الخروج معهم لفعل، لكنَّه عاد من أجلنا!».

- عليه إذن أن يثبت لنا ذلك!

كان عليَّ أن أتَّخذ القرار في الحال، فليس معي أوراق لأسلِّمها لهم، لكنني أحفظها أنا و«كو»، فإن مِتُّ أنا فهو سينقلها، لكنني شعرت بكونها أمانة في رأسي وعليَّ تسليمها لهم، قلت لهم وأنا أنقل عيني بين وجوههم: «أحضروا أوراقكم وأقلامكم، فقد حان وقت التدوين».

اجتمع العسَّاسون أمامي وجلسوا على الأرض وكلٌّ منهم يضع أمامه ما استطاع أن يجمعه من أوراق البردي والكرانيف وبعض ألواح العظام العريضة ليكتبوا عليها، بدأت أملي عليهم الحكم والأقوال والقصص التي كان «أواوا» يصيغها في إطار أدبيٍّ قصصيٍّ قبل اختفائه، فقد كان يهتم بالإنسان وكيف يُبنى من داخله، عن نفسه ونوازعها، وسلوكه وأخلاقه، وكيف يعيش نافعًا لنفسه وللآخرين، عندما رددت مقولة له وقف «نوب» وهو يسمعها:

«كن أنت الشَّخص الوحيد الَّذي يُعامل السيئين برفق، كن بقعة الضوء الوحيدة وسط ظلمتهم، امنحهم الأمل بأنَّ هناك صالحين على هذه الأرض».

أراد أن يقول شيئًا لكنَّه عاد إلى جلوسه وكتبها في صمت، قضينا النهار بأكمله ولم أنقطع عن السَّرد إلَّا لدقائق كنت أرتاح فيها ثُمَّ كنت أعود في كلِّ مرَّة فأجدهم يقبلون على التدوين في حماس. لا يزال مقرُّ العسَّاسين بعيدًا عن أعين سكان أرض الأقواس، فلا أحد يرغب في زيارة تلك البقعة النائية على أطرافها بوحشتها الشَّديدة ولما أشيع عنها من حكايا مخيفة، لهذا لم نشعر بما فعله الجنود بالملجأ الذي يعيش فيه أولادهم وزوجاتهم، فقد أرسل الملك «يويا» جنوده ليفتِّشوه بحثًا عنِّي وعن «نوب»، ولم نعرف إلَّا عندما تأخَّر من خرجوا لزيارة أهاليهم في العودة، وكنت أنتظر عودة «سيدون» فقد وعدته أن أعود إليه لنقل ابنته بالخنجر إلى «غابة البيلسان» لكنَّه لم يعُد.

١٣

"السيدة الملونة"

مات «سيدون» كما مات اثنان من العسَّاسين، وقع الخبر علينا كالصَّاعقة وأحزننا جميعًا، دفنهم جنود الأميرة «فاتي» بطريقة تليق بهم في حضور عائلاتهم، كانت تعلم أنَّ العسَّاسين لن يستطيعوا الحضور لدفنهم وكانت قد بدأت التشكك فيمن حولها وما عادت تثق بأحد. انتظرنا حتَّى سكن الجنود وتوقَّفوا عن التجوال لنذهب إلى المقابر لنرى بأعيننا قبورهم والأسماء عليها وكان هذا ديدن أهل أرض الأقواس. دلفت المقابر مع «نوب» باحثًا عن قبر «سيدون»، كان المكان خاليًا ومخيفًا، رأيت امرأة تجلس أمام أحد القبور وتبكي، لم ندرِ هل هي زوجة «سيدون» أم لا، فـ «نوب» لا يعرفها. وقف «نوب» خلف مقبرة على الحدود ليُراقب الطريق وسرت نحوها، كانت تضع رأس ابنتها على فخذها وتغطِّيه وتمسح عليه في أسى، اقتربت منهما وخلعت قناعي حتَّى لا تهابني فتعرفت عليَّ وقالت المرأة في سخرية ومرارة: ««أبادول»؟ يرتدي قناعًا مثل الفقراء! ويسير معهم ويأكل معهم! كيف أصبحت صديقًا لزوجي أيُّها الشَّيخ؟»».

ثُمَّ أضافت بصوت يمزِّقه القهر: «مات «سيدون»».

رجف قلبي فقد كان الحزن على موته يعصر قلبي عصرًا، داهمتها موجة بكاء حارة قالت بعدها: «قتله الجنود بثلاثة سهام وكأنَّهم يقتلونه ثلاث مرات بعدد أولادنا!».

جلست أواسيها وكانت ابنتها ترتجف من أثر الحُمَّى، كشفتْ عن رأسها فبدت ضئيلة الحجم صغيرة الرأس ضعيفة البنيان وكأنَّها جراب من الجلد المعروق يحوي هيكلًا عظميًّا صغيرًا، انخرطت أمُّها في البكاء بنشيج مسموع فأشفقتُ عليها، قالت وهي تكفكف دموعها: «كانت في حضنه عندما أصابته السِّهام!».

- انتبهي فهي ترتجف.

- إنَّها محمومة، المرض يشتدُّ عليها.

- ألم تسقِها دواء للحمى؟

رفعت عينيها الكابيتين تجاهي وقالت: «لا دواء يشفي هذه العلَّة، ستموت ابنتي خلال يوم أو يومين كما ماتت الأخريات».

كنت أعلم أنَّهم لا يُطلقون أسماء على بناتهن المريضات لهذا لم أسأل «سيدون»، لكنَّني كنت أعلم بحنوه ورحمته لهذا كنت على يقين أنَّه أطلق عليها اسمًا خفيًّا فسألت زوجته: «ما اسمها؟».

همست وهي تدنو برأسها وكأنَّها تخشى أن يسمعها أحد: «السيِّدة الملوَّنة»، ثُمَّ أضافت بخفوت: «لا تُخبر أحدًا أننا أطلقنا عليها ذلك الاسم، فأهل «أرض الأقواس» يرون هذا شؤمًا»، وأضافت ودموعها تهمي: «أطلق «سيدون» عليها هذا الاسم بالذَّات لأنَّها تُحبُّ الألوان، أراد أن يشعِرها أنَّها سيِّدته وملكته، كان يصنع لها الأصباغ بيديه ويتركها تلهو بها كما تشاء، أرجوك لا تخبر أحدًا».

- لن أخبر أحدًا، أردتُ فقط أن أتحدَّث إليها وأناديها باسمها لأخفف عنها.

رفعت حاجبيها وتأمَّلتني متعجِّبة وقالت: «لم تكن لطيفًا هكذا من قبل يا «أبادول»! لقد رفضت منحنا شيئًا من مالك عندما لجأ إليك زوجي».

- أعتذر عن هذا وأعدك أن أرسل إليك المال ما استطعت.
- لقد كبرت يا «أبادول»، لن تعيش طويلًا لتعينني في تربية أبنائي، عليَّ أن أجد عملًا مناسبًا.

أدركتُ أن «سيدون» لم يُخبرها بحقيقتي، عادت تتفحَّص حرارة ابنتها بخدِّها وظلَّت تلثمها على جبينها ودموعها تهمي ثُمَّ قالت في يأس وخنوع: «لماذا خلقها الله هكذا؟».

- لحكمة يعلمها ولا نعلمها!
- وددتُ أن أعرف الحكمة من خلق ابنتي هكذا.
- لعلَّه لطف الله الخفيُّ، فقد تكون على حالٍ تكرهينها لو كانت سليمة!
- هناك الكثير من الفتيات سليمات وليس بهنَّ سوء!

أضافت بتحسُّر وهي تقلِّب كفَّيها: «قضيت عمري أعبد الإله الواحد ولم أخطئ أو أوذِ أحدًا، كنت دائمًا أتعفف، لم أسرق ولم أزنِ ولم أجرح أحدًا بكلمة، وها قد مات زوجي وستموت ابنتي، وأرى الفاسقات يقدِّسن الآلهة التي يزعمونها ويتبعن الشيطان وهنَّ أسعد منِّي حالًا ويعشن في نعيم ولا يعانين مثلي! الدنيا تفتح لهنَّ أبوابها على مصاريعها!».

- وما أدراكِ أنَّهن أسعد منك حالًا؟ لعلَّ هذا استدراج من الله حتى لا يشعرن بمعاناة فيلجأن إلى الله!
- وما في ذلك؟
- اللجوء إلى الله في حدِّ ذاته أكبر النِّعم! وربَّما لكفرهنَّ بالخالق الواحد الأحد حرمهنَّ من هذا اللجوء، هناك لذَّة في انكسار العبد أمام خالقه وهو يتألَّم، نوع من العبادة الرُّوحيَّة تقع في القلب ولا توصَف!
- وماذا عن هؤلاء اللاتي يعبدن الإله الواحد ولديهنَّ كلُّ شيء!
- ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله يعوِّض عبده الصَّابر في الحياة الآخرة بخير مما فقده في حياته هنا.
- من أين أتيت بتلك الكلمات يا «أبادول»!

- أنتِ تعرفينها جيِّدًا، أحيانًا نحتاج إلى من يكرر على مسامعنا ما نعرفه ونؤمن به لتزول غشاوة الألم والمعاناة عن أعيننا ونجدد الإيمان كما نجدد الثوب المهترئ.

- كيف أخفف من ألم فؤادي المكلوم؟

- الله قدَّر لابنتك هذا ورَضِيه لها أفلا ترضين؟

- بلى أرضى.

- من اليقين إذن أن نؤمن بأقدار الله ونقبلها كما هي، لأنَّنا نثق أنَّه لن يختار لنا إلَّا الخير.

- لعلَّ الله يريني علامات لحكمته.

- ليس من الضروريِّ أن نرى علامات لنكون على يقين أنَّ أقدار الله خير لنا، بل نكون على يقين وحسب وعندها لن نحتاج إلى أيِّ علامات.

قالت بأسى: «قلبي يوجعني عليها».

- والله أرحم بها منكِ.

حرَّكت الصَّغيرة رأسها وفتحت عينيها فدنوت منها وسألتها: «كيف حالك أيَّتها السيِّدة الملوَّنة؟».

تأمَّلت وجهي وهمست: «أشعر بالبرد ورأسي يؤلمني بشدَّة».

- ستكونين بخير بإذن الله.

رفعت يدها وتحسست لحيتي وقالت: «ألست الحكيم «أبادول»؟».

- بلى.

- أخبرنا أبي عنك وعن العم «نوب».

تلاقت نظراتنا ثُمَّ سريعًا ما عقدت حاجبيها الرقيقين من الألم وهمست: «كان أبي سيحملني إلى «غابة البيلسان» لأستريح من هذا الألم لكنَّه مات».

قالت أمُّها بصوت متحشرج من كثرة البكاء: «لو كان أخوكِ شابًّا لحملك إلى هناك».

ثُمَّ التفتت نحوي قائلة: «لولا ولدي الرَّضيع لحملتها بنفسي إلى هناك».

ارتجَّ قلبي بين أضلعي، قررت أن أخرج من «أرض الأقواس» لأحمل تلك المسكينة إلى «غابة البيلسان» مهما كانت الظروف ثُمَّ أعود لأهتمَّ بأمر كتابي، قلتُ لأمِّها وأنا أعيد القناع إلى وجهي: «سأحملها بنفسي إلى «غابة البيلسان»».

توقفتْ عن البكاء وحدَّقت تجاهي قائلة: ««أبادول»! أنت! ستخرج وتسير كل هذه المسافة من أجل ابنتي؟ حقًّا؟».

- وما الغريب في ذلك؟

- الغريب أنَّك كنت دائمًا حكيمًا وخطيبًا مفوهًا، ولكنَّ المروءة والتضحية بالنفس لم تكونا من سماتك! حتَّى إنني تعجَّبت عندما أخبرني زوجي أنَّك أعطيته أجرك كاملًا وقلت له إنَّك لن تستمرَّ في هذا، والآن لا أُصدِّق أنَّك ستحمل ابنتي إلى «غابة البيلسان»!

- سأحملها إلى هناك بإذن الله.

- لكنَّك شيخ مُسنٌّ ولن تتحمَّل الطريق.

رفعت قبضتي ملوحًا في الهواء وسألتها: «ألم يخبرك زوجك أنَّني صرت أقوى؟».

قالت وعيناها معلَّقتان بقبضة يدي: «بلى، وكان يتعجَّب من هذا كثيرًا! يقول إنَّ دماءك صارت حمراء!».

- سأحملها إذن إلى هناك.

انتفضت ابنتها وعلا أنينها فضمَّتها إلى صدرها وقالت: «حسنًا.. لا مناص من المحاولة، يبدو أن شُربك من ماء النَّهر الأخضر لم يُغيِّر جسدك وحسب، بل طباعك أيضًا حتى صوتك صار أكثر حنوًّا من ذي قبل.. ولكن كيف سأطمئنُّ أنَّك وصلت بها ولم تهلكا في الطريق؟».

- ليكن بينكما كلمة سرٍّ تُخبرني بها ابنتك عند وصولنا، وسأبلغك بها فور وصولي!

- صحيح.. أخبرني «سيدون» أنَّ حفيدك في خطر، وهذا يزيد تعجُّبي يا «أبادول»! ستترك حفيدك وترحل من أجل ابنتي؟

- «كو» في أمان، لا تخافي عليه، المهم.. قابليني على حدود «أرض الأقواس» بعد منتصف الليل، سأكون ملثَّمًا حتَّى لا يتعرَّف عليَّ جنود الملك «يويا»، سأغطِّي وجهي تمامًا.. أفهمتِ؟

- سمعت أنَّ الملك خصص مكافأة مالية لمن يعثر عليك.

أصابني الخبر بالارتباك، فقد يراني أحدهم ويُبلغ الملك طمعًا في المال، قررت أن أخبر «نوب» ليحتاط لأمره، طفقت «السيدة الملونة» في البكاء من آلام جسدها فقلت لأمِّها قبل أن أنصرف: «دثِّريها جيدًا فالأجواء باردة وأظنُّها ستمطر ونحن في الطريق».

- وهل تعرف الطَّريق؟

- نعم أعرفه.

تركتهما وانصرفت مسرعًا، كان عليَّ فحص خريطة «الشَّريف الإدريسيِّ»، وعندما فحصتها رأيت علامة تومض فوق «غابة البيلسان»، فأدركتُ أنَّ قرار خروجي من «أرض الأقواس» لم يكن خاطئًا.

حملت جرابًا فيه تمر وقربة من الماء وعلَّقتهما مع حقيبتي على كتفي وودَّعت «نوب»، كدت أنصرف فاستوقفني وسألني: «لماذا ستحملها وأنت تعلم أنَّ الطريق مُميت وليس لك رفقة؟».

- كيف أتخلَّى عنها؟

- لستَ مطالبًا بهذا فهي ليست من أهلك؟

- وهل ينبغي أن نفعل الخير لأهلنا فقط؟ أليست يتيمة؟

أطلَّ الخوف من عينيه وهو يسألني: «ألا تخشى الموت؟ يقولون إنَّ الطريق إلى هناك مليء بالأخطار».

- إن أدركني الموت.. فلعلي أموت على دربٍ من دروب الخير! وأنت تعلم أنَّ «سامي كول» ومن معه وصلوا إلى هناك بسلام.

- كان عددهم أكبر ومعهم خيول، وكانوا يحملون أسلحة يُدافعون عن أنفسهم بها، أمَّا أنت فوحدك ولا تملك سلاحًا.

تذكَّرت خنجري فلو كان معي لنقلتها في ثوانٍ، قُلت له وأنا أتحسس خنجرًا آخر أردت شراءه من الحدَّاد لكنَّه أهداه لي: «هذا الخنجر يكفيني».

- سأعمل من أجل كسب المال للإنفاق على أسرة «سيدون».

- حقًّا يا «نوب»؟

- نعم، وسأخبر الآخرين لعلَّنا نعين عائلات من ماتوا معه.

خفت أن تخونه نفسه وهو حديث عهد بتوبته ولاحظ هذا خلال كلامي عندما سألته: «هل حقًّا ستستمرُّ في العمل من أجل أبناء «سيدون»؟».

- أتخشى أن أتخلَّى عنهم وأعود إلى ضلالي؟

لزمت الصَّمت فقال بعينين دامعتين: «لقد ذقت الحلال يا «أبادول»، كان الطعام الذي اشتريته بمال من عرق جبيني شهيًّا ولذيذًا، أعدك أنني لن أعود».

- وأنا أثق بك. وإن تعبت ورأيت من نفسك ضعفًا اذهب إلى الأميرة «فاتي» واطلب منها المال من أجلهم، حاول أن تختفي عن الأنظار، ولتقم عند الحدَّاد ولا تعد كلَّ ليلة، فقد يضع الملك مكافأة لمن يدلَّهم عليك.

- لا أظنُّ أنَّه سيفعل، ربَّما المكافأة لمن يدلُّهم عليك، أمَّا أنا فلا قيمة لي.

- كفَّ عن ترديد هذا وتذكَّر أنَّ نفسك التي بين جنبيك أغلى من الذَّهب يا «نوب»!

أدركتُ أنَّه حزين لرحيلي، أمسك بذراعي قائلًا: «لم يشعرني أحد بآدميَّتي سواك، رأيت وجهي في عينيك بلا ندوب، لم يُنادني أحد باسمي منذ سنوات حتَّى ظننت أنَّ الصَّواب هو «أثول» لا «نوب»، الآن صار «العساسون» يُنادونني باسمي ويصبرون على تلعثمي حتى أنهي كلماتي كما تفعل، لقد رددت إليَّ شيئًا من روحي وكرامتي يا «توفيق»».

- ألم أخبرك ألَّا تناديني باسمي؟

تعانقنا من جديد وخرجنا تحت ستر الليل، كان على «نوب» أن يُحضر الصغيرة لي فالجميع يبحثون عني من أجل المكافأة، وكان قد غيَّر مظهره وحلق شعر رأسه وارتدى ثياب الأطباء الخاصَّة، وكان لهم زيٌّ مميَّز يختلف عن ثياب أهل أرض الأقواس العاديَّة، فلو لم يُفلح في التسلل سيزعم أنَّه أتى لفحص الفتيات المريضات حتى لا ينتشر الوباء. وصلت إلى حدود «أرض الأقواس» بعد منتصف الليل وجلست أنتظر وصول «نوب» وهو يحمل ابنة «سيدون» وكنت أتوقَّع إصرار أمِّها على الحضور معها وقد حدث بالفعل ورأيتها تقترب معه وهي تحملها وقد لفَّتها بدثارٍ من الصُّوف الكتيم، وقف «نوب» على مسافة ليُراقب الطريق وتركها تسلِّمها لي، كنت قد أخفيت وجهي بلثامٍ فأحكمته حتَّى لا تراه عندما تتغيَّر ملامحي، وحمدت الله أنني أرتدي ثيابًا تقيني من البرد والمطر فقد اشتدَّت العاصفة، وهكذا لن تلاحظ تغيُّر لون بشرتي عندما أتحوَّل، همست لها قبل أن أخطو فوق الأحجار البيضاء المحيطة بـ «أرض الأقواس»: «سأعود لأطمئنك بإذن الله».

ضمَّت ابنتها لصدرها وأغرقتها بالقبلات المبللة بالدُّموع، ورفعت عينيها تجاه عيني في توسُّل وهمست: «اعتنِ بها وضمها إلى صدرك لتتدفَّأ بأنفاسك».

ناولتني ابنتها لأحملها فربطتُها بحزام على صدري، وكانت المسكينة لا تزال تعاني الحمَّى، خرجت بها من حدود أرض الأقواس فشعرت بالصَّاعقة الَّتي تجتاح جسدي عندما أخرج منها، بعد أن اختفى ألم الصَّاعقة تمامًا سرت عدَّة خطوات مبتعدًا قبل أن أستدير تجاهها وخفَّضت رأسي لأتفادى النَّظر إلى عينيها، لوَّحت لـ «نوب» وابتعدت أكثر ثُمَّ أضأت شعلتي من واحدة من الشعل الكبيرة المثبَّتة خارج الحدود، وقفت الأم تُشيِّعنا وهي تنتفض من شدَّة البكاء، عندما ابتعدنا بقدرٍ كافٍ بدأت أتحدَّث مع «السيِّدة الملوَّنة» وقلت لها ملاطفًا: «أنت خفيفة كفراشة!».

- أخبرني أبي بهذا.

- هذا لأنَّه كان يعلم أنَّك جميلة مثل الفراشات.

كانت واهنة وتتحدَّث ببطء وقد أغلقت عينيها، قُلت لأطمئنها: «ستكونين بخير عندما نصل إلى «غابة البيلسان» فعلاجك هناك، «الحوراء» مثلك وهي الآن تعيش في سلام مع رفيقاتها».

زاد أنينها وتوجُّعها فأضفت وأنا أضمُّها إلى صدري: «سأسرع وسنصل في الوقت المناسب بإذن الله، حاولي أن تنامي يا صغيرتي وثقي بأنَّني سأبذل قصارى جهدي لكي نصل بسرعة».

أكملت طريقي وغلبني الحماس فكنت أسير بسرعة شديدة، آلمتني ذراعي من حمل الشُّعلة وكنت أستبقيها لأشعل منها النَّار للتدفئة إن احتجت لكنَّني ألقيتها وأخرجت حجرًا من أحجار الكريستال وفركته لينير لي الطريق، وانتظرت النَّهار وكلِّي أمل أن يهوِّن الله علينا طول الطريق، لكنَّ النهار أطلَّ بمعاناة أخرى، فقد هبَّت عاصفة شديدة، وصلت أخيرًا إلى النَّهر الأخضر فوقفت أتأمَّل ماءه الذي أخبروني مرارًا أنَّه سبب قوَّة بدني التي يظنون أنني اكتسبتها بمجرَّد شربي منه، أنزلتُ «السيِّدة الملوَّنة» وأزحت الوشاح عن وجهي ومددت يدي في ماء النَّهر الأخضر وشربتُ منه حتَّى ارتويت وغسلت وجهي وملأت قربة الماء، وعندما التفتُّ تجاه «السيِّدة الملوَّنة» لأسقيها من ماء النَّهر أجفلت وصرخت قائلة: «من أنت؟».

تنبَّهت إلى كونها لم ترَ وجهي إلَّا الآن فقلت لها: «اسمي «توفيق»».

- هل ستقتلني؟

- لا لا!

كانت ترتجف من شدَّة الخوف لكنَّها لا تملك أن تركض وتهرب، قُلت لأُطمئنها: «أنا صديق لوالدك وللحكيم «أبادول»، وسأحملك إلى «غابة البيلسان»».

ظلَّت على خوفها فجلستُ أحدِّثها حتَّى هدأت، أخبرتها أنَّ علينا أن نكمل الطريق، حملتها من جديد وكانت تُحدِّق إلى ملامحي طوال الوقت، أمطرت السَّماء فغطَّيت رأسها وكانت ترفع الغطاء من آن لآخر وتنظر إلى وجهي، لجأنا لشجرة عظيمة وارفة الظلال وجلسنا تحتها حتَّى توقَّف المطر، فاحت

رائحة الدبال والرُّطوبة في الأجواء وكان البرد شديدًا، عدت من جديد للسير بسرعة فقد كان الإعياء الشَّديد يبدو عليها. كان علينا المرور فوق جسر طويل بدا لي متهالكًا، خطوت نحوه وبعد أن وصلت إلى منتصفه ارتجَّ وكأنَّ زلزالًا أصابه فارتعدت فرائصي، جلست ببطء شديد وسكنت كالتمثال حتَّى توقَّف عن الاهتزاز، نظرت أسفلي فرأيت أننا على ارتفاع شاهق، قمت لأكمل المسير خطوة بخطوة وبحذر شديد وأنا أنظر إلى الأمام حتَّى لا يتسرَّب الخوف إلى نفسي، عاد يرتجُّ من جديد ويتأرجح وكأنَّه حيَّة تتلوَّى وترغب في إسقاطنا من فوق ظهرها، شعرت باضطراب شديد عندما أدركت أنَّني خائف من جديد كخوفي حين سقطتُ في «بحر الظُّلمات» وكنت أكره هذا، أكره الخوف من الظَّلام والمجهول والجنِّ والقتل والموت، فتَّشت في قلبي عن يقيني بالله من جديد لأنزح عن صدري أيَّ خوف غير خوفي من لقاء الله، الآن أنا وحيد هنا وعلى جسر هالك ويهتزُّ بجنون وقد أسقط في غمضة عين وألقى حتفي هنا، وردت على خاطري كلُّ لحظة في حياتي عصيتُ الله فيها، ماذا لو مت الآن فكيف سألقى ربِّي؟ تذكرت قول «كِنان» عندما كنَّا نتسلَّق سور «مدينة النَّحاس»: «ما دمنا نسعى في خير فلو وافتنا المَنيَّة سنكون على خير بإذن الله»، فشعرت بالثَّبات. لاحظت «السيِّدة الملوَّنة» صمتي الطويل فسألتني: «ما بك؟».

- لا شيء.
- لماذا توقَّفت عن المسير.

أحكمت الغطاء على رأسها حتَّى لا ترى الارتفاع الشَّاهق تحتنا، همست من تحته: «أين نحن الآن؟».

- فوق جسر وسنعبره قريبًا.
- صوت دقَّات قلبك وأنفاسك المتسارعة ينبئان بخطب جليل.

أخرجت رأسها ونظرت إليَّ وأجفلت فقلت لأطمئنها: «لا تخافي سنعبر بأمان.. ما رأيك أن نناجي الله معًا؟».

- حسنًا.. سأقول شيئًا مما علَّمني أبي.

- هيًّا وسأردد خلفك.

وبدأت تناجي الله بصوتها العذب وكنت أردد خلفها وعيناي على ما تبقَّى من الجسر، سحبتُ قدمي وجررتها جرًّا وأنا أحتضن «السيِّدة الملوَّنة» بقوَّة وكأنَّني أستمدُّ منها الأمان، عبرنا الجسر بسلام فهويت على ركبتيَّ وحمدت الله أن أنجانا، جلست لأستريح وكان معي بعض من خليط لبرادة حجارة «الأبسوس» كانت السيِّدة «مارماحوز» قد جمعتها لي في زجاجة صغيرة، وهو حجر يُشبه البارود، فوضعت البرادة بين حجرين كما أخبرتني وضربت عليها حتَّى أشعلتُ نارًا وكان للبرادة رائحة البارود، قرَّبتُ «السيِّدة الملوَّنة» لأُدفِّئها وجلست بجوارها. أخرجت الخريطة لأتفحَّصها وكان هناك غابة كبيرة لم أجد لها اسمًا مدوَّنًا، أمَّا «غابة البيلسان» التي أرجو الوصول إليها فكانت خلف جبل عظيم اسمه على الخريطة «أمانوس»، ولكي أصل إليه عليَّ المرور بتلك الغابة الغريبة التي قبله.

الغابة المسحورة

كان عليَّ الإسراع قبل أن يهبط الظَّلام فحملت «السيِّدة الملوَّنة» من جديد ودلفت تلك الغابة، اقشعرَّ بدني عندما توغَّلت فيها، فكلَّما مررتُ بنبتة كانت تلتفت نحوي وتتحرَّك، أجفلت عندما رأيت وشائج الأشجار تمتدُّ وتلتفُّ وتملِّس على بعضها بعضًا، كان هناك دويٌّ لتلك النَّباتات وكأنَّها تقول شيئًا. شعرت بالخوف على «السيِّدة الملوَّنة» وخشيت أن يطلَّ الجنُّ من أيِّ مكان فجأة ليؤذيها.

رأيت شجرتَي بَلُّوط عظيمتين لكلٍّ منهما جذع عريض جدًّا وفروع كثيفة ومتشابكة، ووشائج طويلة تمتد فوق الأرض بينهما، وكان لهما ثمرٌ غريب، رفعت عيني أتأمَّل الأغصان المتشابكة أعلى رأسي وأشعة الشَّمس تتسلل من بينها وكأنَّها مظلَّة سندسية تتراقص ألوان الضوء من بين فتحاتها على الأرض، جلست في ظلِّهما وأنزلتُ «السيِّدة الملوَّنة» وأخرجت خريطة «الشريف الإدريسيِّ» من جديد، بدأت أسمع هسيسًا وكأنَّه حوار بين رجل وامرأة، توجَّست خيفة فقمت مسرعًا وحملت «السيدة الملونة» دون أن أربطها

على صدري وأسرعتُ في السَّير وكان الهسيس يلاحقني، شعرت وكأنَّ الأرض تدور تحت قدمي فقد كنت أجد نفسي أعود إلى البقعة نفسها بين الشَّجرتين وكأنَّني أدور في دوائر مغلقة! أردتُ أن أخرج من تلك الغابة بسرعة ولم أدرِ في أيِّ اتجاه ينبغي لي أن أسير، وقفت حائرًا وإذا بتيَّار هواء دافئ يخرج من فتحة بإحدى الشَّجرتين حمل أوراق الأشجار الجافَّة المتناثرة تحت قدميَّ، راودني شعور أنَّه زفير فأجفلت وفوجئت بعينين عظيمتين تظهران لي من جذع شجرة منهما من خلف جفنين غليظين فتراجعت للخلف ليصطدم ظهري بالجذع الآخر حيث وجدته يفتح عينيه هو الآخر، خفق قلبي في صدري ففتحت «السيِّدة الملوَّنة» عينيها عندما شعرت بي ورأت وجهي فأدركتْ أنَّ هناك ما يخيفني، فأخرجتْ رأسها من تحت غطائها وصرخت عندما رأت العينين الكبيرتين وكان كلانا يرتجف وينتفض، امتدَّت الوشائج والتفَّت حول ساقيَّ وأسقطتني أرضًا وأتت وشائج أخرى وانتزعت «السيِّدة الملوَّنة» من بين ذراعيَّ ورفعتها بين أغصانها فبدأت المسكينة تصرخ ثمَّ انقطع صراخها فجأة وكأنَّ هناك ما أسكتها. ألقت الشَّجرة الأخرى بوشائجها لتثبِّت ذراعيَّ أيضًا فشلَّت حركتي بالكامل، حتَّى رأسي مرَّت من فوقه وشيجة طويلة وثبَّتته، نطق صوت ذكوريٌّ أجش وسألني: «من أنت؟».

- اسمي «توفيق».

- لماذا مررت بغابتنا؟

- أردت الوصول إلى «غابة البيلسان» من خلال المرور بالغابة هنا.

ران علينا صمت ثقيل، شعرت بالحرارة تجتاح جسدي كلَّه وبدأت أتعرَّق بشدَّة على الرغم من برودة الأجواء، حاولت التخلُّص من الوشائج وكلَّما جذبت ذراعي تزداد تضييقًا عليه وتعصره، توقَّفت لألتقط أنفاسي وعدت أقاومها فجاء صوت الشَّجرة الأخرى أنثويًّا وهي تقول: «لقد تعبت، أذرعي تؤلمني للغاية!».

نطق الصوت الآخر ونهرني قائلًا: «توقَّف!».

توقَّفت عن المقاومة فقال عندما رأى سكوني: «من أين أتيت؟».

- أرض الأقواس.
- لماذا تحمل تلك الصَّغيرة؟
- لأنَّها مريضة والأجواء خارج «غابة البيلسان» لا تناسبها وقد تموت في أيِّ لحظة.
- هل هي ابنتك؟
- لا.. مات أبوها.

بدأت الوشائج تنحلُّ وتتسع حول ذراعي عندما بدأ الصَّوت الأنثويُّ يقول بحنان وتأثُّر: «المسكينة.. أريدها يا «بلُّوط»».

- لك ذلك حبيبتي «سنديانة».

نظر «بلُّوط» إليَّ بعينيه الواسعتين وقال وهو يحرِّك ساقيَّ في تهديد: «ارحل من هنا واترك الصَّغيرة لنا».

- مستحيل!

ضاقت الوشائج حول ذراعيَّ من جديد وكانت أشدَّ، نطقت «سنديانة» بصوتها الأنثويِّ قائلة: «ستكون ابنتي من اليوم، سأرعاها وأربِّيها حتَّى تكبر وتكون أميرة لغابتنا».

- ليس من حقِّكما انتزاعها منِّي، هذه أمانة وعليَّ إيصالها لتعيش بين شبيهاتها في «غابة البيلسان».
- ستكون بخير، سأصنع لها سريرًا بين أغصاني، وعرشًا لتجلس عليه، وإكليلًا لترتديه فوق رأسها، سأطعمها من ثماري وستصبح أميرة غابتنا، سنحميها ونلفُّها بعنايتنا لنُسعدها.
- لا.. لقد قطعتُ وعدًا أن أحملها إلى هناك وأعود لأطمْئن أمَّها على حالها.

أرخت «سنديانة» وشائجها مرَّة أخرى وسألتني: «أين أمُّها؟».

- لن تستطيع تحمُّل وعثاء السَّفر ولديها طفلٌ رضيع.

تغيَّرت نبرة صوتها وقالت في عصبيَّة: «وأنا أيضًا أريد طفلة مثلها وتلك ابنتي! سأسقيها من عروقي».

- ليست فسيلة ولا بذرة، هذه من لحم ودم! كما أنَّ تلك الفتاة لها أمٌّ بالفعل.

هدرت «سنديانة» غاضبة: «وها هي قد تخلَّت عنها وألقت بها لغريب».

- كانت مضطرَّة إلى هذا وإلَّا ستموت الصغيرة بين يديها.

همست بصوت ناعم وهي تُحرِّك «السيِّدة الملونة» بين أغصانها: «لن تموت أبدًا، ما أحلاها! سأرعاها بنفسي».

- لو لم أكن مقيَّدًا لانتزعتها منكما!

غضب «بَلُّوط» فوخزني بشوكة طويلة ومدببة برزت من وشائجه الملتفَّة حول ساقي فسالت دمائي، فلمَّا رآها قال وكان صوته يحمل الكثير من الاندهاش: «دماؤك حمراء!».

مللت من هاتين الكلمتين، لقد كرهت هذا اللون القميء.

- هل أنت من هؤلاء الوافدين؟

صرخت حانقًا: «نعم أنا وافد أحمق أتى ليتجوَّل بكتاب خالٍ من الكلمات، هيَّا اقتلني وعلِّقني من قدميَّ لتأكلني الذِّئاب».

قالت «سنديانة» ببرود: «لماذا أنت غاضب هكذا!».

- وكيف لا أغضب؟

سألني «بَلُّوط»: «من أين أتيت؟».

لم أُجبه، قضيت دقائق وأنا أشعر بالعجز واليأس والهوان، على الرغم من قوَّة بدني هناك ما يحول بيني وبينها كما حدث في بحر الظُّلمات، أدركت أنَّ سرَّ بقائي على قيد الحياة هنا هو ستر ولطف من الله وليس لأيِّ سبب آخر، حمدت الله أن لساني لا يزال حرًّا طليقًا فبدأت أتمتم بالدُّعاء، كنت أسمع أنفاس «بَلُّوط» وأرى عينيه وهما تتحرَّكان، وفمه وهو يتلمَّظ، ضاقت أنفاسي وشعرت وكأنَّني سأفقد الوعي، عاد «بَلُّوط» يسألني: «من أين أتيت أيُّها الغريب؟».

- من عالم مليء بالكتب والكلمات لكنَّ أهله لا يُدركون قيمتها، بينما ضاعت عقولهم على الرغم من وجود الكتب، ضاعت الكلمات هنا على الرغم من وجود العقول.

- وكيف ضاعت عقول النَّاس؟

- من التيه بين ما يلهي العقول ويجذب الأعين ويلعب على أوتار الشهوات.

- هذا ديدن الكون كلِّه، الشَّهوة نقطة ضعف كل المخلوقات.

- صار الناس جائعين لكلِّ شيء، ويستعجلون كل شيء، ويتعلَّقون بكل شيء إلا من تعلقهم بالله، وكلما ازداد تعلقهم بالشهوات زاد التِّيه.

- تتحدَّث عنهم وكأنك ملاك نزل من السَّماء!

- لست ملاكًا ولا شيطانًا، أنا نفس تدور في متاهات الحياة وما زلت أبحث عن الطريق.

- هل حقًّا خاطبك كتاب كما يُشاع في الأجواء؟

- نعم.

- كيف ستسترد كلماته؟ هل ستكتبها بنفسك؟ أم ستنبت على السُّطور كما ينبت الزَّهر على الغصون؟

- أنَّى لي أن أكتب شيئًا كتبه غيري؟ إنَّما أنا هنا لأمدَّ يد العون لأحدهم وعندها ستظهر الكلمات من جديد.

- عليك أن تعمل بطريقتك، لتزهر الكتب بطريقتها.

- اسحب وشائجك وحررني من أغلالك إذن لأفعل ذلك!

دمدم وكأنَّه لم يسمع آخر كلماتي ثمَّ قال: «منذ متى وأنت هنا؟».

- ما عُدت أحصي الأيَّام، كدتُ أنسى من أنا! لكنني على يقين أنَّني سأؤدي مهمتي وأعود إلى موطني.

- هل حقًّا لديك يقين؟ أم تزعم هذا؟ أم تُجرِّب؟

- أعوذ بالله! الرَّب سبحانه وتعالى لا يُجرَّب!

- هذا قول لسانك.. فما حال قلبك؟

تنبَّهت عندما ألقى سؤاله هذا وشردتُ قليلًا قبل أن أجيبه قائلًا: «لديَّ يقين أنَّ هناك يُسرًا بعد العُسر، وفرجًا بعد الضِّيق، ما زلت أدعو ولم أشترط شيئًا في دعائي فأنا الفقير فكيف أشترط على الغني!».

امتدَّت الوشائج لتفترش صدري وكأنَّ «بَلُّوط» أراد أن يتحسس ضلوعي وقال: «لماذا صوتك يحمل الحزن والأسى؟».

مرَّ بذاكرتي وجه أبي وأمِّي، و«كنان»، و«أمروس»، و«سيدون»، فقلت: «أوجعني موت بعضهم هناك في وطني قبل أن يوجعني موت بعضهم هنا، لماذا يرحل الطَّيبون سريعًا؟».

- الموت أعظم برهان على وجود الحياة، أنسيت أنَّنا راحلون مثلهم إلى ديار أخرى؟ لعلَّنا نلقاهم هناك فلا تقطع الأمل في الله.

صمت هنيهة وعاد يسألني: «هل هذا هو سبب حزنك الوحيد؟».

ذكَّرني بالدُّكتور «مودود» وشعرت وكأنَّني أخضع لجلسة علاج نفسي فقلت له: «كُف عن الحديث وكأنَّك صديقي يا سيِّد «بَلُّوط»، أنت تُقيِّدني وتحتجزني بلا سبب!».

- تهرب من سؤالي لتواري أحزانك.

- لا أرغب في البوح لك بشيء.

زادت الوشائج كثافة حول رأسي والتفَّت وكأنَّه ألبسني خوذة، شعرت بحرارة تجتاح جمجمتي قال بعدها بصوته الغليظ: «أنت قلق لأنَّ كتابك تأخَّر في إظهار كلماته، وبالكاد أظهر جملًا قليلة».

- الآن تقرأ أفكاري..

- امضِ في طريقك وأكمل عملك وإيَّاك والعجلة، فإن الله يبتلي بالتأخير ليخرج ضغائن الصدور، ومن خفيٍّ لطفه أنَّه جعل فرج الضِّيق حين يُريد وليس حينما نُريد.

استوقفتني كلماته وشعرت وكأنَّ حكيمًا أو شيخًا يُحدِّثني، سألته في فضول: «كيف تعرف هذا وأنت مجرَّد جذع شجرة! أشعر أنَّني فقدتُ عقلي! شجر البَلُّوط يُحدِّثني!».

أغمض عينيه وأزاح وشائجه من حول رأسي وقال: «مرَّ تحت ظلالي الموحِّدون، والتائهون، والعصاة المتمرِّدون، سمعت تراتيل ودعوات، وشهدت كربات، أُريقت تحتي دماء ودُفنت أسرار وهُتكت أعراض، تسلَّقوني ليراقبوا الطريق، وقطعوا أغصاني للحريق يلتمسون الدِّفء منها، حتى أوراقي اليابسة المتساقطة في الخريف لعبوا بها وبعثروها في الهواء ضاحكين، أسندوا ظهورهم عليَّ ليرتاحوا، باحوا لبعضهم بالحبِّ هنا فسترتهم ولم أبح بالسرِّ، سنوات طوال لم أكَل فيها أو أمَل وما زلت أرى وأشاهد وأراقب، كلُّ شيء على أرض مملكتنا له صوت ولسان».

ثُمَّ فتح عينيه وأضاف: «ألم تناجِك الكتب؟».

- بلى.

- فلم تتعجَّب إذن؟

ندَّت ضحكة ساخرة من «سنديانة»، أرخيا وشائجهما ورفعاها عن رأسي فاستطعت أن أحرِّكها لكنَّهما لم يُحررا باقي جسدي، بيد أنَّهما أرخيا ما يحيط بقفصي الصدري فاستطعت التنفُّس بأريحيَّة وسألتهما: «هل «السيدة الملونة» بخير؟».

شهقت «سنديانة» قائلة: «أهذا اسمها؟ ما أجمله!».

- حسنًا، ألن تحرراني لأنقذ هذه المسكينة ذات الاسم الجميل من الموت؟

قالت «سنديانة» بنبرة حادة: «لن تخرج «السيِّدة الملوَّنة» من غابتنا، وإن أردت الرَّحيل عليك أن ترحل وحدك».

هدرت غاضبًا: «وهل توافق أنت على كلامها يا «بَلُّوط»؟».

- أظنُّ...

قاطعته «سنديانة» قائلة: «لا تحاول يا «بَلُّوط».. لن أتركها تخرج معه!».

حدَّقتُ إلى عينيه منتظرًا أن يكون أكثر حكمة منها، فأغلقهما فقلتُ في حسرة: «ظننتك العاقل والسيِّد هنا! كيف تسمح لتلك السنديانة باتخاذ قراراتك؟».

صرخت «سنديانة»: «أيها الخبيث! لا تُحاول التحريش بيني وبين زوجي».

- طلقها يا «بلُّوط» وتزوج بشجرة ليلك ناعمة.

- يا لك من ذكوريٍّ أحمق!

- بل أنتِ نسويَّة فاشلة!

غضبت «سنديانة» وضيَّقت وشائجها على ذراعيَّ من جديد وعصرتها عصرًا فبدأت أصرخ. عضضتُ على شفتي ولزمت الصَّمت حتَّى تتوقَّف، سمعت صوت خطوات تطئ أوراق الأشجار الجَّافة فأدرت رأسي نحو منبع الصوت والهواجس تنهش رأسي نهشًا. لم ينتشلني من مخاوفي تلك إلَّا ظهور فتاة شابَّة تسير بين الأشجار في وقار وعليها ثوب هندبائيُّ اللون، وكانت تلفُّ رأسها بشالٍ مزين بنقوش خضراء، رأيت الأشجار تنحني وتلمس رأسها وكأنَّها تلثمها وتملِّس على رأسها، وهي تستمتع بهذا وتضع كفَّها لتتحسس كل شجرة تمرُّ بها، فزعت عندما رأتني ممددًا على الأرض وهرولت نحوي وهي تصيح: «ما هذا؟ لماذا تحتجزانه؟».

قالت «سنديانة»: «يريد أن يسلبني ابنتي».

- ابنتك!

رفعت الفتاة عينيها تجاه «السيِّدة الملونة» فرأت خصلات شعرها فصاحت: «يا إلهي! طفلة صغيرة! أنزليها بسرعة يا «سنديانة»».

- ولكن..

احتضنت الفتاة جذع «سنديانة» وقالت في حنان: «أعلم أنَّك تتوقين للأمومة، وترغبين في تجربة شعور الأمهات من البشر ولكن هذا مستحيل. أنت أمٌّ بالفعل وتملكين أزهارًا جميلة وهؤلاء بناتك».

استجابت لها «سنديانة» وكأنَّها تلقَّت أمرًا منها، حملت الفتاة «السيِّدة الملونة» بوجل وإشفاق وغطَّت رأسها ووضعتها على الأرض في مكان آمن، واقتربت منِّي وبدأت تمسك بالوشائج وتملِّس عليها لتحلَّها عن جسدي وهي تُردد: «اتركوه في سلام وأمان».

لم تستجب وشائج «بَلُّوط» لها وظلت تُصدر هسيسًا وهمهمات غير مفهومة، وكان منها وشيجة غليظة تلتف حول جذعي فأسرعت الفتاة وضربت بكفِّها على جذع «بَلُّوط» وقالت: «ليس عليك معرفة كلِّ شيء يا «بَلُّوط»، النفوس صناديق وأسرار لا ينبغي لنا فتحها».

لم يتوقف «بَلُّوط» عن عصر جسدي بوشائجه، فهمست إليَّ قائلة: «تخلَّص من قيودك وتحرر من الدَّاخل».

- ماذا تقصدين؟

هزَّت رأسها في حكمة وقالت: «هذه مجرد نباتات! ترسخ في الغابة ولا تستطيع الانتقال هنا أو هناك، أنت الأقوى والأعقل، أمَّا هي فلا حيلة لها! استرخ ودع الخوف يُغادر عقلك وجسدك».

حدَّثت نفسي بما قالته للتو فهان «بَلُّوط» في نظري، شعرت أن الخوف يتلاشى شيئًا فشيئًا فبدأت الوشائج تنحل من حول جسدي وتتلوَّى وتتراجع لتعود إلى جذعها، سحب «بَلُّوط» وشيجته الأخيرة وأغمض عينيه وسكن كما سكنت «سنديانة»، ولم يتحدَّثا بعد ذلك. انتظرت الفتاة حتَّى جلستُ، وكنت أشعر بالدُّوار، قالت وهي ترنو إليَّ بعينيها الحالمتين: «أرأيت؟ نحن نخلق الوهم في عقولنا وعندما نعظِّمه نقع فريسة له، فتتدفَّق عصارة الخوف في عروقنا، وتلك الأشجار تشعر بهذا وتلمسه».

أحسستُ بالحرج عندما أدركت أنَّ الأمر كان أهون مما ظننت، فقد كان خوفي هو قيدي، لاحظتْ شرودي فسألتني: «هل أنت بخير؟».

سألتها وأنا أتعجَّب: «كيف تفعلين هذا؟».

- ما الذي فعلته؟

- تشعرين بما يعتمل في نفوس الأشجار بمجرَّد احتضانها!

قالت وهي تُقلِّب كفَّيها في الهواء: «ألمسها فيقع في نفسي ما تعنيه، هناك وشائج خفيَّة تربط بيننا، «بَلُّوط» و«سنديانة» من أصدقائي، فقد قضيت طفولتي في تلك الغابة».

- ألا تخافين منها؟

قالت بثقة: «ولمَ سأخاف؟ دخلت الغابة وأنا طفلة عندما نادتني أشجارها، الجميع في قريتنا يعرفون أنَّ «ناردين» في الغابة دائمًا».

- «ناردين»! أهذا اسمك؟

أومأت موافقة فسألتها: «ما معناه؟».

- اسم لزهرة بريَّة نادرة.

حملت الآنسةُ «ناردين» «السيِّدةَ الملوَّنة» في حضنها وأزاحت الدِّثار عن رأسها لتتفحَّصها جيدًا، لم تفزع من ملامحها وكانت لطيفة عندما سألتها عن اسمها لتُجيبها الصغيرة بصعوبة من بين أنفاس متقطِّعة بسبب دفعها لألم جسدها: «السيِّدة الملوَّنة».

- أنا «ناردين»، كم عمرك يا صغيرتي؟

- ست سنوات، كم عمرك يا خالة؟

- ثمانية وعشرون عامًا أيَّتها الملوَّنة، تبدين صغيرة جدًّا وضئيلة الحجم! عليك أن تهتمِّي بغذائك.

أمسكَت الآنسة «ناردين» بكفِّها فشعرت بحرارتها فقالت في قلق: «إنَّها محمومة!».

- نعم.

- ما بها؟

- مريضة بحالة نادرة ولا بدَّ أن تصل إلى «غابة البيلسان»؛ البيئة هناك مناسبة لتكوينها.

- هل أنت أبوها؟

- لا!

- إذن أنت أخوها.

- لا.. كان أبوها صديقي، أراد أن يحملها بنفسه لكنَّه..

فطنت لكونه قد مات فبدا التأثُّر على مُحيَّاها، وكانت تحمل أوراق الرَّيحان في جراب قماشيٍّ تعلِّقه على كتفها، لمعت عيناها وهي تقول: «دعني أساعدها».

وضعت «السيِّدة الملوَّنة» بين يديَّ وعقدت حاجبيها وأمسكت بأوراق الرَّيحان وظلَّت تفركها بين كفَّيها حتَّى تبللتا بزيت الرَّيحان وفاحت رائحته القويَّة، عندها مسحت على جبين «السيِّدة الملوَّنة» في لطف، سألتُها في فضول: «لماذا تظلِّين وحدك هنا؟».

- أبي يعمل بالعطارة، وأتيت لجمع بعض الأعشاب النادرة له.

- ما اسم هذه الغابة؟

- يسمونها «الغابة المسحورة»، فالبعض يفقدون أبصارهم عندما يمرُّون من خلالها، حتى أبي لا يجرؤ على دخولها منذ أن شاع هذا الأمر، وما يُدهشني أنَّك لم تفقد بصرك!

- ربما لأنني من بقاع أخرى.

- من أين أتيت؟

- هل سمعتِ عن الوافدين يا آنسة «ناردين»؟

- يا إلهي! أنت منهم!

- نعم.

- هل تسمح لي برؤية كتابك؟

- ليس معي الآن، فقد حفظته في مكان أمين حتَّى أعود.

- يا لسوء حظِّي!

سألتها لأستدلَّ بمعرفتها للمكان: «هل هناك غابات أخرى أو جبال قريبة من هنا؟».

وقفت تشير إلى الجهات الأربع بذراعيها وقالت: «تلك الجهة تؤدي إلى «مملكة الشَّمال»، ومن هنا «مملكة الجنوب»، وشرق الغابة سلسلة جبال النُّور وما وراؤها وأوَّلها جبل «أمانوس» الذي ستجده أمامك مباشرة عندما تخرج من هنا، وأمَّا الغرب فيقولون إنَّ هناك أرضًا تُسمَّى «أرض الأقواس» فيها وبالقرب منها يجري نهر أخضر».

- أجل لقد أتينا بالفعل من هناك.

اتَّسعت عيناها في اندهاش وسألتني: «ورأيت النَّهر الأخضر؟».

- رأيته.

- هل شربت من مائه؟

- أجل.

قالت والشَّوق يُطلُّ من عينيها: «ليتني أذوق ماءه.. يقولون إنَّه عذب للغاية».

كنت قد ملأت قربة من ماء النَّهر فأعطيتها لها فسكبت القليل على جذع «بَلُّوط»، وانتظرت للحظات ثمَّ شربت بنهم حتَّى ارتوت وبللت ثيابها، أعادت إليَّ القربة وقد أشرق وجهها وقالت: «ما أعذبه!».

تعجَّبتُ لعفويَّتها وكيف أنَّها شربت من الماء دون خوف مني فقلت لها: «البقاء في تلك الغابة وحدك سيعرضك للخطر يا آنسة «ناردين»، وأنصحك ألَّا تثقي بالغرباء وتشربي مما يعرضونه عليك!».

- لو كان في الماء ضرر لنبهني «بَلُّوط»، كما أنَّك شخص طيِّب.

- وما أدراك أنني شخص طيِّب؟ انتبهي فقد يخدعك أحدهم.

هزَّت رأسها في حكمة وقالت: «لن يحمل شابٌّ طفلة صغيرة لا تربط بينهما صلة قرابة ليقطع بها تلك المسافات الطويلة لينقذ حياتها إلَّا إن كان نقيَّ القلب وسليم الطويَّة».

أردت أن أنصرف فبدأت أحكم ربط «السيِّدة الملوَّنة» وكانت الآنسة «ناردين» تراقبني، التفتت نحو «بلُّوط» وقالت له: «امنحنا شيئًا ليربط به الفتاة يا صاح!».

وقفت تترقَّب رده قليلًا ثم أردفت: «لا تكن بخيلًا.. أرجوك!».

تحرَّكت وشيجة من وشائج «بلُّوط» وامتدَّت نحونا حتى وصلت تحت أقدامنا وانفصل من طرفها جزء كالحبل، التقطته «ناردين» وكان لينًا طريًّا بين يديها فجدلته ولفَّته ثُم أعطته لي قائلة: «كانت تلك الوشائج دائمًا حبالي للنجاة، فلا تفرِّط بها».

تناولتُ الوشيجة المجدولة منها وربطت بها «السيِّدة الملوَّنة» على صدري، ودَّعتها وسرت مبتعدًا فأصرَّت على السَّير معنا قائلة: «دعني أرافقكما إلى الحدود».

أدركت أنَّها على سجيَّتها ولا تحمل خبثًا، منحتها حجرًا من أحجار الكريستال ففركتْه ليضيء بين كفَّيها فأشرق وجهها بابتسامة واسعة وقالت: «لم أتلقَّ هديَّة من قبل، أنا دائمًا منسيَّة!».

رأيت الحجر يُلقي بالضَّوء على وجهها وهي تتأمَّله في ابتهاج، فشعرتُ بالسعادة لأنَّني أدخلت السُّرور عليها، فقد كان الحزن والانكسار يكسوان ملامحها، اقتربنا من الحدود فقالت لـ «السيِّدة الملوَّنة» قبل أن تفارقنا: «يومًا ما سأزورك في «غابة البيلسان»».

استدارت الآنسة «ناردين» وهي لا تزال تحمل الحجر بوجل بين كفَّيها، ثُمَّ التفتت وسألتني: «لم تخبرني عن اسمك أيُّها الشَّاب؟».

- «توفيق».

- حسنًا، إلى اللقاء!

عادت الآنسة «ناردين» إلى سيرها بتؤدة بين الأشجار التي كانت تتسابق للمس رأسها بفروعها وهي تمرُّ بينها في سكينة، خفف لقاؤها عنِّي كثيرًا، كانت رؤيتها سببًا لهدوء نفسي، فالتعامل مع الواثقين بأنفسهم يردُّ إلينا ثقتنا بأنفسنا بطريقة ما، عندما يتحدَّثون إلينا من خلالها، وحين ينظرون

إلينا عبر حدودها الخفيَّة. تركت خلفها رائحة الرَّيحان على جبين «السيِّدة الملوَّنة» فلم تغادر أنفي لوقت طويل. خرجتُ من تلك الغابة من الجهة التي أخبرتني الآنسة «ناردين» أنَّها تؤدي إلى سلسلة جبال النُّور، وعندما غادرتها فوجئت ببحر الظُّلمات أمامي فأجفلت! كيف يظهر لي هنا في تلك البقعة؟

لكنَّ الرِّمال السَّوداء لم تكن تحت قدمي، فأدركت أنَّها جهة أخرى وساحل آخر من سواحله المترامية الأطراف، وكان يفصل بيني وبين جبل عظيم، ثار البحر وكأنَّه علم بوصولنا وبدأ الموج فيه يعتلج، أخبرت «السيِّدة الملوَّنة» أننا سنعبر بحرًا حتَّى لا تخاف، أجلستها لترى أمواجه بعينيها، وتفحَّصتُ الجرح الذي تسببت فيه وخزة «بلوط» ودهنته بدهان أمدَّتني به السيِّدة «مارماحوز» وكان ثخينًا فصنع طبقة عازلة فوقه فاستحسنت هذا، فأنا على وشك السباحة في ماء البحر ولا أرغب في أن يُلهِب الماء جرحي. ربطتُ «السيِّدة الملوَّنة» على ظهري وسحبت جذع شجرة مقطوعًا وألقيته وتعلَّقتُ به لأعبر إلى الجهة الأخرى، كدت أغرق بها فبدأت تصرخ عندما غمرها ماء البحر البارد، فار الماء ودار في دوَّامة فأدركتُ أننا سنغرق، لكنَّني فوجئت برأس أطلَّ وعليه تاجه الأزرق، إنَّها «ذات الكفِّ الذَّهبية» من جديد، غطستْ تحت الماء ورفعتنا ودفعتنا نحو الشَّاطئ، كانت «السيِّدة الملوَّنة» قد فقدت وعيها فأنزلتها لأسعفها والتهيت بهذا، اختفت «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» دون أن توجِّه إليَّ كلمة واحدة مما أثار شكوكي. أفاقت «السيِّدة الملوَّنة» أخيرًا فجلسنا لنستريح، هبَّت عاصفة ثلجيَّة فبدأت أشعر بالخوف من أن تحول بيني وبين الوصول بالصَّغيرة في الوقت المناسب. عُدت أتندَّم من جديد على خنجري الذي لو كان معي لأنقذتها وأوصلتها إلى غابة البيلسان في غضون لحظات! انحنيتُ على البحر وناديت «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» لعلَّها تنقلنا بطريقتها إلى هناك لكنَّها لم تُجبني.

١٤

جبل أمانوس

سرت نحو الجبل وكان هناك مغارة أسفله يحميها نتوء بارز وملتفٌّ يحجب عنها الرِّياح والمطر فدلفتها وتفحَّصت جدرانها، وكان هناك أثر يشي بأنَّ هناك من سكنها سابقًا ولكن ليس من وقت قريب، قررت المبيت فيها فقد بدأ الظَّلام يُرخي سدوله وأخرجت زجاجة مسحوق حجر «الأبسوس» وحمدت الله أنِّي كنت أغلقها بإحكام، ونثرت بعضًا منه بين حجرين لأشعل النَّار فوجدت صعوبة لأنَّ أغصان الأشجار التي جمعتها رطبة، ولكن من حسن حظِّي أن عثرت على القليل من الأغصان اليابسة داخل تلك المغارة فاستعنت بها، شعرت لوهلة أنني عدت إلى العصر الحجري!

بدأت النَّار تجفف ملابسنا وشعرت أخيرًا بالدفء، أخرجت التمر وأطعمت «السيِّدة الملوَّنة» القليل منه مع الخبز المبلل بالماء، رأيتها قد ازدادت وهنًا وضعفًا فدثَّرتها واحتضنتها لأشعِرها بالأمان، كان عليَّ أن أربطها حول صدري قبل أن أنام فالمكان غير آمن، مرَّت الليلة وأنا لا أكاد أغمض عيني لأرتاح، وإنَّما كانت غفوات قصيرة، فكلَّما سمعت صوتًا كنت أنتفض وأقوم لأحدِّق تجاه فتحة المغارة خوفًا من اقتحام أحد لها، وزاد صوت الرَّعد من

هواجسي بينما الخيالات تتراقص على الجدار أمامي، وكنت قد أشعلت المزيد من النَّار لأسدَّ باب المغارة.

مرَّ الليل ثقيلًا، وعندما بزغ نور الفجر وكانت الرِّياح قد هدأت قمت مسرعًا لأكمل الطريق، تحدَّثت مع «السيِّدة الملونة» فأخذت تشكو من الآلام في جسدها ثُمَّ أغمضت عينيها ولم أدر حينها هل هي نائمة أم فقدت وعيها، حاولت تنبيهها لتساعدني كي أربطها على ظهري لكنَّها كانت مغيَّبة تمامًا بينما أنفاسها تتسارع بوتيرة منتظمة، حملتها على ظهري وانحنيت ولففت حزامًا حولنا عدَّة مرَّات وكأنَّها حقيبة أحملها، وبدأت أصعد الجبل وندف الثَّلج ترشق وجهي، ما عدت أشعر بأنفي وأذنيَّ، تجمَّدت أذناي وكان البرد القارس ينخر عظامي، توقَّفت ندف الثلج وعاد المطر يهطل كستار كثيف وكنت قد وصلت إلى جزء مرتفع من الجبل أستطيع منه الانحدار إلى الجهة الأخرى، فماء المطر يسيل على هذا المنحدر لكنَّه أمر خطر للغاية، فوقفت أتساءل في نفسي هل من الجنون أن أجلس وأنزلق عليه للأسفل وهي على ظهري؟ تراجعت للخلف وأنا أحدِّث نفسي.

صُعقت عندما تعثَّرت في قدم رجل عملاق عظيم الكَراديس[1]، له رأس ضخم، ووجه مربَّع تثقبه عينان مخيفتان كعينَي ذئب، وعنق عريض وذراعان غليظتان، كان يضع بجواره مطرقة عظيمة لها رأس مكوَّر وممتلئ بشذرات حديدية حادَّة وبارزة، انتبهت لملامحه فتذكَّرت أنني رأيته على صفحة «بنات الرَّعد»، خفق قلبي عندما تذكَّرت رؤيتي له وهو يُصارع وحوشًا شرسة.

كان مصابًا بجرح شديد ولا يقوى على القيام، نظر إليَّ وكنت في ذهول من عظم جسده، شعرت بالقشعريرة تسري في جسدي كلِّه عندما اخترق أذني صوت زمجرة غاضبة، استدرت وإذا بي أرى وحشًا كاسرًا أمام عيني، هربت الدماء من أطرافي، استغرقت وقتًا حتى استعدت أنفاسي التي انقطعت وكدت أفقد وعيي، تماسكت ووقفت أتأمله، كانت أنيابه الحادة تبرز من بين شفتيه محمَّلة بلعابه الوفير وهو يرفل ويزوم ويزأر، أدركت حينها أنني هالك

(1) الكَراديس جمع كُردوس وهو كلُّ عظم تام وضخم.

لا محالة، انطلق الوحش يزأر، وارتفعت أصوات عديدة تناجيه وتردُّ عليه وبدا لي أنَّها بعيدة جدًّا، قال العملاق من خلفي: «اثبت ولا تتحرَّك».

كان الوحش يقترب، سمعت العملاق يزحف من خلفي ويئنُّ وهو يتحرَّك، عاد يقول: «عندما أصيح انخفض في الحال وإلَّا ستموت!».

أطلق صيحة فهويت على ركبتي وأحنيت جذعي وإذا بشيء يطير من فوق رأسي، رفعت عيني فرأيت مطرقة العملاق ترشق برأس الوحش وتدكُّه في الجدار المقابل وسالت الدِّماء في الحال فحمدت الله على النجاة. وجدتني أتساءل بصوت مسموع: «ما هذا!».

- «عِفريس»[1] من عفاريس جبل «أمانوس».

- يبدو رأسه غريب الشَّكل، لم أرَ مثله في حياتي!

التفتُّ وشكرت العملاق، كدت أنصرف لكنَّ قلبي لم يُطاوعني، اقتربتُ من العملاق وسألته: «ما بك؟».

- سقطتُ وأنا أتسلَّق الجبل ويبدو أنَّ ساقي قد أصيبت بكسر.

- كيف أُساعدك؟

بدأت «السيِّدة الملوَّنة» تئنُّ من آلام جسدها فسمعها وسألني: «ما بها؟».

- مريضة وينبغي أن تعيش في «غابة البيلسان».

- أهي ابنتك؟

- لا، ولكنَّها ابنة صديقي.

- أسرع بنزول الجبل قبل أن يحلَّ الظَّلام.

- لكنَّك مُصاب وتحتاج إلى المساعدة، أخبرني كيف أساعدك؟

- اسحبني إلى تلك الكوَّة في الجبل لأحتمي بها وبتلك الصَّخرة البارزة من المطر حتَّى يعود أخي بالنَّجدة.

---

(1) العِفريس اسم من أسماء الأسد.

وقفتُ حائرًا، كيف سأسحب هذا الرَّجل الضَّخم وعلى ظهري فتاة تكاد تموت وقد يؤخِّرني هذا! ترددت قليلًا لكنَّني قررتُ أن أُساعده، حاولت أن أجره من كتفيه وكدت أسقط على ظهري فأنزلت «السيِّدة المُلوَّنة» في مكان آمن حتى لا تتأذَّى وكانت تراني وأنا أحاول سحبه نحو الصَّخرة البارزة والمطر يغرقنا، همس وهو يراني أحاول: «سأُساعدك بساقي السَّليمة وأرفع بها جسدي، وستؤلمني ساقي الأخرى لهذا سأصرخ فأخبر الصَّغيرة حتَّى لا تفزع».

هرولت نحو «السيِّدة الملوَّنة» وأخبرتها أنَّ صوته سيكون عاليًا ومخيفًا فهزَّت رأسها بهوان، عدت إليه واحتضنت جذعه من خلف وسحبته بكلِّ ما أوتيت من قوَّة وأنا أرتكز على ساقيَّ وأجره جرًّا فبدأ يصرخ بصوت غليظ تردد صداه في الأجواء. لم أنجح في تحريكه قيد أنملة! فألقيت بجسدي على الأرض بجواره وكانت عضلات ساقيَّ تتشنَّج، همست له من بين أنفاسي المتقطِّعة: «سامحني فلست قويًّا بالقدر الكافي».

- يكفي أنَّك حاولت، ولتعلم أنَّك قويُّ البنية يا صاح، لو تخلَّصت من رائحة الخوف لن تقربك الوحوش.
- وهل للخوف رائحة؟
- نعم.
- وكيف أتخلَّص منها؟
- هي ميتة واحدة، فلماذا نخاف!
- صدقت.

عاد المطر يتساقط علينا وكنت أشعر بالخدر وأنا ممدد على الأرض، وددتُ لو أغمضت عيني وفتحتهما لأجد نفسي في بيتي وكلُّ هذا مجرَّد حلم طويل، بدأت «السيِّدة الملوَّنة» تسعل فوثبت وبدأت أجمع أغصان الأشجار وغطَّيت جسد العملاق بها وصنعت مظلَّة فوق رأسه من أوراق الأشجار العريضة لتحجب المطر عن وجهه، وقرَّبت منه مطرقته وكانت ثقيلة للغاية،

لففتُ رأسه بوشاحي، ووضعت في كفِّه حجرًا من أحجار الكريستال وقُلت له: «لو أظلم الليل عليك افركه هكذا وسينير لك المكان».

تأمَّلني بعينيه الكابيتين وسألني: «لماذا توقَّفت لمساعدتي ولم تفر منِّي كما يفعل الآخرون؟».

- ولماذا سأفرُّ منك؟ كما أنَّك أنقذت حياتي وحياة تلك الصَّغيرة.

- هكذا يفعل النَّاس معنا، يسبوننا بأبشع الألفاظ ويقذفوننا بالحجارة وقد ينصبون لنا الشِّباك كالحيوانات، لم نسلم من أذاهم حتَّى فررنا إلى الجبال، فهم لا يرضون بوجودنا على حالنا واضطر بعض أفراد العشيرة إلى القتل والعنف، فلجأت وعائلتي إلى جبل «أمانوس».

- من أيِّ عشيرة أنتم؟

- نحن «العماليق»!

بدا لي وجهه وكأنه لم يعرف الابتسامة من قبل، سألته: «هل هناك وحوش أخرى على مقربة منَّا؟».

- نعم، لهذا عليك أن تُسرع قبل أن يتتبعوك.

- وماذا عنك؟ لو اجتمعوا عليك ورميت أحدهم بمطرقتك فمن سيردها لك؟

أخرج خنجرًا من تحت قميصه وقال: «اعتدتُ ذبحها فلا تقلق».

- لكنَّ ساقك مكسورة و..

قاطعني قائلًا: «أسرع فأنا أستطيع تدبُّر حالي إن اقتربت منِّي تلك الوحوش وإن كانت ساقي مكسورة، لكنَّني لن أستطيع حمايتكما إن ركضت الوحوش خلفكما بعيدًا عنِّي».

تعجَّبت لحاله وقومه، يُحاسَبون على ما لا يملكون تغييره، يفرُّون من وحوش البشر ليعيشوا بين وحوش البريَّة! ما أعجب الإنسان عندما يكون جوار الوحوش أكثر أمانًا من جواره!

حملت «السيِّدة الملوَّنة» وربطتها على ظهري مرَّة أخرى، ودَّعته فصاح وأنا أبتعد عنه: «لم تُخبرني عن اسمك؟».

- «توفيق».

- وأنا «مَردان».

ابتعدتُ وصوته يتلجلج في أذني، صاح عندما غبت عن عينيه: «إلى اللقاء يا «توفيق»».

للمرَّة الثَّالثة يودِّعني أحدهم بتلك الكلمات «إلى اللقاء».. لا أدري لماذا أصبحوا يُرددونها؟ ليتهم يقولون وداعًا لتنتهي الرِّحلة وأعود إلى بيتي بالفيُّوم، لكنَّهم يُصرُّون على اللقاء مرَّة أخرى، «مردان»، و«ناردين»، ومن قبلهما «زهلول»! وحتَّى «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة».

لم ينقطع المطر وكان ماؤه يجري جريًا على سفح الجبل، لجأت إلى الله ودعوته أن ينجينا ويسلِّمنا وجلست على الحافَّة ودفعت ساقيَّ شيئًا فشيئًا وسريعًا ما انزلقنا مع الماء وهو يسيل، عندما وصلنا إلى أسفل الجبل كان ماء المطر يسيل على رأسي ووجهي، أنزلت «السيِّدة الملوَّنة» من فوق ظهري وكان وجهها شاحبًا وقد ازرقَّت شفتاها من شدَّة البرد فحملتها وركضتُ كالمجنون لعلِّي أصل إلى حدود «غابة البيلسان»، من آن إلى آخر كنت أتوقَّف لالتقاط أنفاسي عندما أشعر بألم أسفل أضلعي وكأنَّني مطعون، أخرجت خريطة «الشَّريف الإدريسيِّ» وحمدت الله أنَّها مرسومة على رقعة من الجلد وإلَّا كانت ستتهَتَّك من الماء، أدركتُ أنني على بعد أمتار من «غابة البيلسان» فعُدت إلى الرَّكض حتَّى وصلت إلى حدودها وأنا أجد مشقَّة في التقاط أنفاسي وكان المطر قد توقَّف، خطوت فوق الأحجار البيضاء التي تحيطها فتغيَّرت الأجواء تمامًا وشعرت بدفء عجيب، أنزلت «السيِّدة الملوَّنة» واستلقيت على ظهري وكنت أشعر بألم شديد في صدري فأمسكتُ بيدها الضئيلة وهمست لها: «ابقي بجانبي ولا تبتعدي».

وبدأت أحسُّ بالدوار، شعرت بيدها وقد بدأ الدفء يتسرَّب إليها وانتقلت لتجلس بجوار رأسي ووضعت كفَّها على جبيني، سمعت صوت خطوات تطئ

على أوراق الأشجار الرطبة وتقترب ولاح لي طيف شيخ له لحية طويلة بيضاء تُشبه الحليب في لونها، اقترب منَّا ومسح على رأس «السيِّدة الملوَّنة» وقال لها بصوت دافئ: «مرحبًا أيَّتها الجميلة، ما اسمك؟».

- «السيِّدة الملوَّنة».
- هل تسمعين شيئًا؟
- نعم.

هزَّ رأسه قائلًا: «أخبرينا به وأخرجي ما بصدرك من كلمات يا صغيرتي».

سحب الشيخ شيئًا من كُمِّه ووضعه بجواري وسمعته يقول للفتاة: «أخبريه أن يحافظ عليه لأنَّه كنز يورَّث».

بدأت «السيِّدة الملوَّنة» تردد كلمات وكأنَّها تسرد أحداث قصَّة ما، وكنت لا أزال أمسك بيدها اليسرى بينما يدها اليمنى على جبيني، زاد شعوري بالوهن ولم أستطع تحريك لساني، انحنى الشَّيخ وربَّت على صدري، ثُمَّ مضى مبتعدًا، وفقدتُ الوعي في الحال.

أيقظتني رائحة نفَّاذة، عندما فتحتُ عيني كان هناك من يقرِّب من أنفي زيتًا عطريًّا قويًّا، كان الليل قد أرخى عباءته على المكان وهناك ضوء شعلة يحملها أحدهم، دققت النَّظر فرأيت شابَّة لها ملامح «السيِّدة الملوَّنة» نفسها، بيد أنَّ عينيها واسعتان ولهما بؤبؤان كبيران أسودان وكانت هي من تقرِّب قارورة العطر من أنفي، رأيتها تلفُّ رأسها بوشاح حنطيِّ اللون وخلفها يقف كهل خمسينيٌّ أنيق بشرته سمراء له عينان لامعتان كالبلَّور ويحمل الشُّعلة وبجواره امرأة بيضاء الوجه، أدركت أنَّه «سامي كول» وزوجته، اعتدلتُ جالسًا وسألتهم: «أين «السيِّدة الملوَّنة»؟».

قال الكهل وهو يُساعدني على النُّهوض: «بخير وقد تحسَّنت كثيرًا عندما تناولت رحيق أزهار البيلسان، لقد أنقذت حياة تلك الصَّغيرة للتوِّ!».

- الحمد لله!

مسحت وجهي بكفيَّ وسألته: «هل أنت الحكيم «سامي كول»؟».

- نعم.

تنفَّست الصُّعداء، فقد كنت في حاجة إلى الحديث مع شخص كان «أبادول» يثق به، عرَّفني بزوجته وابنته فتبادلنا التَّحيَّة وسرت معهم، قال «سامي كول» وهو يعقد يديه خلف ظهره: «لا ريب أنَّك متعب وتحتاج إلى النوم والرَّاحة».

- حاجتي إلى الحديث معك أكبر من حاجتي إلى النوم.

وصلنا إلى بناء واسع يتوسَّط الغابة وأضواء الشُّعل تلقي بحمرتها على جنباته، وكان هناك العديد من الشَّابات والفتيات اليافعات والصَّغيرات اللاتي يُشبهن «السيِّدة الملوَّنة» في ملامحهن يجلسن هناك، عندما رأتني «السيِّدة الملوَّنة» أقبلت راكضة وكنت في ذهول من نشاطها وتغيُّر حالها! حملتها واحتضنتني طويلًا ثُمَّ همست في أذني: «حافظ على خنجرك فإنَّه كنز يُورَّث».

ثم عادت إلى رفيقاتها فسُررت عندما سمعت ضحكاتهنَّ، تذكَّرت الشيخ الذي مرَّ بجانبي قبل أن أفقد الوعي، دسست يدي في حقيبتي لأتحسس خنجري فخفق قلبي عندما وجدته، تُرى من ذاك الذي أعاده؟ وكيف استرده؟ رجوت الله ألَّا أفقده مرَّة أخرى، انتشلني صوت «سامي كول» من شرودي وهو يقول: «ما الذي دعاك لدخول «أرض الأقواس» أيُّها الشَّاب؟».

بدأت أروي له قصَّتي مع «أبادول» وابنه وحفيده وكيف التقيت الثَّلاثة وكيف دخلت «أرض الأقواس»، وكان يُنصت إليَّ بتركيز شديد، اكتشفت أنَّه يدري عن الوافدين فقد التقى أحدهم منذ سنوات. وعندما انتهيت من سرد قصَّتي أطرق طويلًا ولم يقل شيئًا، كان يعلم أنني لم أخبره بكلِّ أسراري ولزم الصَّمت الحكيم، أمَّا أنا فكنت قد ارتحت لمجرَّد بَوحي بما حدث لي على «أرض الأقواس»، صحبني إلى غرفته الخاصَّة لكي أنال قسطًا من النَّوم على وعد منه بأن يكون لنا حديث آخر في الصَّباح، أخرجتُ خنجري وأخذت أتأمَّله، وكدت أرحل لكنَّني كُنت مُتعبًا جدًّا فأعدته إلى حقيبتي واحتضنتها وتدثَّرت جيدًا وغرقت في نوم عميق.

***

أيقظتني رائحة زكيَّة لم أشم مثلها من قبل، فخرجت سريعًا من الغرفة التي تركني «سامي كول» أنام فيها، وجدت «سامي كول» وزوجته وبعض الآباء والأمَّهات قد أعدُّوا وليمة احتفاء بقدومي، انضممت إليهم وكان الطَّعام شهيًّا، أردت أن أُطعم «السيِّدة الملوَّنة» من الشواء فأشرت إليها وعندما أقبلت أخبرتني أنَّها لا ترغب في تناول طعامنا هذا، همس لي «سامي كول» وهو يراقبها تبتعد: «أمرهنَّ عجيب، طعامنا لا يروقهنَّ، يحببن تناول ثمار الأشجار هنا ويستخلصن رحيق الأزهار، ويشربن الماء المخزَّن في أشجار «الباوباب»[1] الموجودة بكثرة هنا».

- وكأنَّهن فراشات!
- نعم، ولكن يُحيِّرني شيء فيهنَّ.
- وما هو يا سيِّدي؟
- أشعر أنَّهن نظاميَّات وكأنَّهن سرب من النَّمل يسير خلف بعضه، وجدتُ انتماءهنَّ لبعضهنَّ أكبر من انتمائهنَّ لنا كآباء وأُمَّهات، لو رحلنا لن يلتفتوا لنا وسترعى البالغاتُ الصَّغيراتِ وكأنَّهن يعرفن مهامهنَّ! وهؤلاء الفتيات البالغات من عمر ابنتي لا يملكن الميل الفطريَّ للحبِّ والزواج ولا يتحدَّثن عنه إلَّا ابنتي «الحوراء» سألتني مرارًا متى ستخرج من هنا وسألت أمَّها مرارًا متى ستتزوَّج!
- هذا غريب حقًّا!
- والأغرب أنَّهن يسمعن همسًا ويروين حكايا وقصصًا طوال الوقت، كلٌّ منهنَّ تسرد قصَّة وقد تُكملها على مدار أيَّام وأسابيع، وعندما تنتهي لا يمرُّ وقت طويل قبل أن تبدأ في أخرى!
- هل تسمح لي بالحديث معهنَّ؟
- ها هنَّ أمام عينك تحدَّث معهنَّ لعلَّك تفسِّر تلك الأحجيات الغريبة.

---

(1) هو نوع من النباتات يتبع جنس التبلدي من الفصيلة الخبازية، يتميز بساق ضخمة طويلة تصل إلى نحو 18 مترًا، يخزِّن فيها الماء.

أقبلتُ على الفتيات الصَّغيرات وكانت «السيِّدة الملوَّنة» بينهنَّ، جلست على الأرض فأقبلن عليَّ في لطف ووداعة، سألتهنَّ: «كيف الحال يا فراشات؟».

تعالت ضحكاتهنَّ وقالت إحداهنَّ: «أخبرتنا «نونا» أنَّك حملتها إلى هنا».

- تقصدين «السيِّدة الملوَّنة»؟

- بل «نونا».

عدن إلى ضحكهنَّ وكنت أتأمَّل ملامحهنَّ الغريبة، وكيف أنَّهن غير حزينات على بُعدهن عن أوطانهنَّ، سألتهنَّ في فضول: «هل حقًّا تسمعن همس الرِّياح بالحكايا والقصص؟».

بدأت الإجابات تتوالى منهنَّ وصرت لا أفرِّق بينهن من فرط الشَّبه بين وجوههن وأصواتهنَّ، وكانت الإجابات: «نعم، طوال الوقت».

- أخبرنني بالقصص.

أتى صوت «الحوراء» من خلفي وهي تقول بهدوء شديد: «تنسى الفتاة ما تهمس به بعد أيَّام ولا تستطيع سرده مرَّة أخرى».

وقفت احترامًا لها وكانت تقف بثيابها الملوَّنة الفضفاضة وتعقد يديها وهي تتحدَّث، حييتها وسألتها: «تعيشين هنا منذ سنوات، أليس كذلك؟».

- بلى.

- هل تتوافد الكثير من الفتيات؟

- كما ترى، العدد يزداد، وهناك العديد من البيوت في الغابة، لن تجد غير الكهول فهم فقط من يصبرون على الحياة معنا.

- لماذا؟

- بعض الآباء والأمَّهات انتقلوا للمعيشة مع بناتهم، يكون الحماس في البدايات كبيرًا لكنَّهم يرحلون بعد ذلك ويعودون إلى أوطانهم بعد إلحاح أبنائهم ويتركون الفتيات في عهدة من يبقى من الكهول مثل أبي، لم يبق غير رجال يُعَدُّون على أصابع اليدين ولم يتخطُّوا قط العشرة.

- لا ريب أنَّ هذا يُحزن الفتيات.

- لا، هذا ما يميِّز صنفنا، المشاعر شحيحة، الفتيات لا يرتبطن عاطفيًّا بأحد.

أطرقت في حزن فسألتها: «أخبرني والدك أنَّك تختلفين عنهنَّ وترغبين في العودة إلى أرض الأقواس، أليس كذلك؟».

- بلى، ولا أعرف السبب! معي ثلاث فتيات إحداهن تكبرني بثلاثة أعوام ولا يشعرن بالحنين للوطن ولا لآبائهنَّ وأمهاتهن وقد رحلوا وتركوهنَّ مع أبي.

- بعد نسيانك للقصَّة التي كنت تسمعينها هل سمعتِ همسًا بعد ذلك؟

همست بخفوت: «لم أنس قصَّتي الأولى كباقي الفتيات قط!».

- يبدو أنَّك تختلفين عنهن فعلًا، عن أيِّ شيء كانت؟

- «جزيرة النِّسيان».

تذكَّرت عندما رأيت تلك القصَّة مع السيِّد «سُفيان» فقلت لها: «تلك الجزيرة موجودة بالفعل».

- ماذا قُلت؟

- «جزيرة النِّسيان» موجودة.

- يا إلهي! كنت أشعر بهذا! هل ذهبت إليها؟

- لا.

- وهل سمعت عن الزَّائر الذي حمل الشَّر والقتل إلى شواطئها؟

- لم أسمع عنه.

طأطأت رأسها في أسى وقالت: «أمَّا أنا فأسمع الكثير من الهمس والأصوات المتداخلة، أحيانًا لا أستطيع تمييز حرف منها من كثرة اختلاطها، رأسي يكاد ينفجر، أرغب أحيانًا في الخروج من «غابة البيلسان» لأرتاح».

- الأجواء خارج الغابة تمرضكنَّ، كانت السيِّدة الملوَّنة مريضة طوال الوقت وها هي الآن في أفضل حالاتها.
- جرَّبت الخروج وتخطِّي الحدود دون أن أُخبر أبي فمرضت وعدت زحفًا.
- لعلَّ الأمور تتحسَّن وتخرجن من هنا في وقت ما.
- قضيت هنا اثني عشر عامًا، لا أمل في الخروج، ولا أمل في النَّاس، أنتظر رحيل أبي وأُمِّي في أيِّ لحظة!

اغرورقت عيناها بالدُّموع فأدركت أنَّها كما وصف أبوها تختلف عن الأُخريات، أقبلت «السيِّدة الملوَّنة» ووضعت زهرة في كفِّي وقالت: «ضعها في فمك».

وضعتها فذقت مرارة وتغيَّرت ملامحي فوقفت تضحك هي و«الحوراء» التي قالت: «لن يُعجبه رحيق الأزهار مثلنا».

خلعت «السيِّدة الملوَّنة» عقدًا كانت ترتديه وهمست لي: «أعط هذا العقد لأمِّي وأخبرها أنَّني بخير وسعيدة هنا».

أدركت أنَّ تلك هي العلامة بينهما، فدسست العقد في حقيبتي، أعادت لي الوشيجة التي أعطاها لي «بَلُّوط» فاستخدمتها كحزام أتمنطق به، وعدت إلى «سامي كول» الذي قال فور أن رآني: «لديَّ ثلث كتابات «أواوا»، وكان «أبادول» يحمل الثلث الثاني، والبقيَّة كانت مفرَّقة بين رفاقنا الخمسة، كنَّا سبعة مات بعضنا، ولا أعرف أين أجد من تبقَّى على قيد الحياة».

- ماذا ستفعل بها؟
- انتظرت طويلًا حتَّى يعود «يويا» إلى رشده، ولكن يبدو أنَّه لن يعود، والآن مات «أبادول» وتقول إنَّ البَردِيَّات التي كانت لديه صارت خالية من الكلمات.
- والبَردِيَّات التي لديك؟
- ستذهب معي الآن لتفحُّصها.

سرنا معًا بين أشجار غابة البيلسان، وصلنا إلى شجرة من أشجار «الباوباب» وكانت طويلة جدًّا وضخمة وكأنَّها بناية من أربعة طوابق، وعريضة قد يصل قطرها إلى عدَّة أمتار، لكنَّها جافَّة ومظلَّتها لا تحمل ورقة واحدة، قال «سامي كول» وهو يتأمَّلها: «هذه شجرة من أشجار «الباوباب» قد جفَّت وما عادت تخزِّن الماء وصارت ملاذي».

مسح «سامي كول» على ساقها الخالية من الأغصان وكأنَّه يتتبع شيئًا ما، ظلَّ يمرر كفَّه ببطء حتَّى وصل إلى جزء فدفعه إلى الدَّاخل وكأنَّه باب كافٍ لمرور شخص ودخل فدخلت خلفه، وجدتني معه في غرفة مسقوفة وكان الضَّوء يتخلل من فتحات جانبيَّة بالسَّاق، أخرج صندوقًا خشبيًّا وبدأ يُخرج البَردِيَّات منه واحدة تلو الأخرى، وكان كلَّما يبسط إحداها يتمتم في حسرة وتعجُّب: «اختفت وتلاشت الكلمات!».

أشفقت عليه فقد لاحظت ارتباكه فقلت له: «لعلَّها ابتلعت كلماتها كما حدث لكتاب «أبادول» الذي استدعاني، أليس هذا الكتاب من كتب الأمير «أواوا»؟».

- بلى.
- هل تعلم ما كتبه فيه؟
- لا أعرف التَّفاصيل.. لكنني أظنُّه كان يحكي عن قصَّة جدٍّ يعيش مع حفيده ويحدِّثه عن اليقين بالله، أين كتابك يا «توفيق»؟
- أحتفظ به في مكان آمن.
- في أرض الأقواس؟
- نعم.
- لا أمان على أرض الأقواس يا بنيَّ.
- ولا هنا!

قال في ارتباك وهو يمسح وجهه: «يبدو هذا!».

قال وهو يعيد فحص أوراقه التي اعتنى بها لسنوات وهو يظنُّ أنَّها في أمان: «عُد سريعًا لتستردَّ كتابك، لعلَّ تلك البَردِيَّات ابتلعت كلماتها لأننا لن

نستطيع حمايتها، ولهذا استدعتكم لأنَّكم أكثر تصديقًا للقيم التي فيها! لا تترك الأمور في «أرض الأقواس» معلَّقة، ولا تُسلِّم الكتابات لـ «يويا»».

خرجنا من الشَّجرة وأخرجت الخنجر وودَّعته، لكنَّني لم أرغب في الانتقال إلى أرض الأقواس مباشرة، بل انتقلت إلى شاطئ الرِّمال السَّوداء، فالفضول ينهش خلايا عقلي المتعبة.

١٥

شاطئ الرِّمال السَّوداء

رفعت خنجري قائلًا: «شاطئ الرمال السوداء»، ورحلتُ من جديد إلى هناك وكان الطقس قارس البرودة، جلست أنتظر انحسار ماء البحر لكي تبرز «بنات الرعد». عندما تأخَّر انحسار الماء وقفت وسرت نحوه حتَّى لامس الماء قدميَّ وغاصتا في الرِّمال المبتلَّة. كان يُقبل بنعومة وينزلق في نعومة لا موج يعتلج فيه كعادته، مظلم قاتم مخيف وغامض. بدأ الموج يظهر ويروح ويجيء وكأنَّه شعر بقدميَّ وهما تغوصان في الرِّمال، ثم بدأ ينحسر بسرعة شديدة وبرزت الصُّخور الرَّمادية الخشنة التي تحيط بالشاطئ فسرت فوقها حتَّى وصلت إلى «بنات الرَّعد»، انتظرت حتَّى تومض إحداها فلاح لي ضوء واهن من واحدة منها فأسرعت نحوها ومسحت عليها، كانت الصور والمشاهد هذه المرَّة لوجوه التقيتها، وبقع زرتها وسرت فيها وبدا لي أنَّها تتوالى بوتيرة منتظمة وتتكرر لتريني ارتباط أشياء بأخرى! أقبلت الأفكار كالمطر يفرغ إفراغًا على رأسي دفعة من غير تلبُّث، الكثير من الأُحجِيَّات بدأت تتشكَّل في عقلي، وكلُّ أُحجِية منها كانت تحتاج إلى صفاء ذهني لكي أحلَّها. تكرر مشهد لرجل يجمع أطيافًا تلوح في الهواء ويدسُّها في جوف الوحوش ثُمَّ ينحرها، ظل ذلك المشهد يتكرر حتَّى رأيته وقد استحال إلى كيان عظيم واستدار

نحوي فرأيت وجهه، كان أحمر العينين له قرنان ووجه مغطى بالحراشف والنَّار تخرج من منخاريه بينما برزت أسنانه من فمه القبيح فحدَّقت إلى وجهه فانطفأ الحجر، عدت أمسح عليه وتكرر ما رأيته، وبدأت بعض الأمور تتراءى لي وكأنَّها قطع متراكبة ومتداخلة عليَّ أن أصل بينها، بينما أرى المشاهد نقرت على واحد منها فشعرت وكأنَّ الحجر يُحاكيني وكأنَّه شاشة فعَّالة فبدأت أسحب الصُّور وأغيِّرها وأنقلها لأحلَّ الألغاز الَّتي تواثبت لذهني وتكاثفت. وقع في نفسي شيء ما.. بل عدَّة أشياء! لهذا كان عليَّ أن أُسرع قبل أن تنقلب الأمور ولا أستطيع السَّيطرة عليها.

وثبت فوق الصُّخور عائدًا إلى الشَّاطئ فوجدتُ أمامي ذلك الشَّيخ الَّذي استقبلني على حدود «غابة البيلسان» ودسَّ الخنجر بجانبي وانصرف، وقفت أمامه وقُلت له: «أنت من أعدت إليَّ خنجري؟».

- ظننتك لن تعرفني فقد كنت مشوشًا.

تأمَّلت عينيه اللامعتين في فضول، قال وهو يتفرَّس في ملامحي: «هل حدَّثتك «بنات الرَّعد»؟».

أجفلت عندما وجدته يعلم عنها فقال ليُطمئنني: «أخبرني «سُفيان» الكثير عنك».

كنت حائرًا هل هو من الوافدين أم من أهل المملكة! فسألته: «أنت من أصحاب الدِّماء الحمراء، أليس كذلك؟».

ابتسم قائلًا: «صرت تتحدَّث مثلهم».

نزع خنجرًا من حزامه وجرح يده ليُريني دماءه الحمراء لأطمئنَّ، وقال وهو يمسح جرح إصبعه في طرف ثوبه: «اسمي «نبيل»».

ثُم أضاف وهو يرنو إليَّ بنظرات جادة لكنَّها مُتعبة: ««بنات الرَّعد» أحيانًا تُعطينا الحلول، ولكن سيبقى الغموض يلفُّ كلَّ شيء هنا يا «توفيق»».

- أدري، ولكن كيف علمت بوصولي إلى الشَّاطئ يا سيِّد «نبيل»؟

- لم أتوقَّع وجودك هنا فقد أتيت لغرض آخر خاصٍّ بي.

- كيف حصلت على خنجري؟

رفع حاجبيه قائلًا: «لي طرقي الخاصَّة، فقد التقيت في رحلتي أصدقاء يستطيعون سلب أحدهم الكحل من عينيه».

- الجنُّ؟

- حضور الجنِّ والسِّحر والسَّحرة هنا واقع وحاضر بقوَّة في عالم مملكة البلاغة وعليك أن تتقبَّل هذا وتتعامل معه.

- هل استطعتَ الانتقال بخنجري كما أفعل؟

- لا.. لم يعمل الخنجر معي كما حدث من «سُفيان»، السرُّ في اليد التي تقبض على الخنجر وتحمله.

قالها وهو يرنو لي بنظرة عميقة وهو يتفرَّس في ملامحي. سألته مستفسرًا: «أخبرتني «السيِّدة الملوَّنة» أنك طلبت منها أن تُخبرني أنَّه كنز يورَّث! فهل هذا صحيح؟».

- صحيح، وحافظ عليه فلربَّما يحتاج إليه أولادك.

قُلت ساخرًا: «وهل سأتزوج أصلًا؟ أشعر أنَّ تلك المملكة ستسلبني حياتي، أظنني لن أعود إلى الديار مثلكم».

عقد حاجبيه قائلًا في تأثُّر: «ستعود بإذن الله إلى ديارك وستتزوج، وسيردُّك الشَّوق إلى مملكة البلاغة».

- هل انتقل أولادك إلى المملكة هنا؟

تغيَّرت ملامحه وشعرت بحزنه وهو يقول: «نعم».

- وهل استخدم أولادك أدواتك عندما وصلوا إلى هنا؟

- بالتَّأكيد.

- كيف هذا وخنجري لم يعمل مع أحد غيري!

- ألم أُخبرك أنَّه يُورَّث؟

ثُمَّ أضاف وهو يتعجَّلني: «ليس هذا وقت الثرثرة عن العائلة، لديك مهمَّة ويجب عليك الإسراع لأدائها».

ابتعد ووقف يتأمَّل البحر فأقبلت أسأله: «أين نحن الآن يا سيِّد «نبيل»؟».

- الله وحده يعلم.
- أليس هذا بحر الظُّلمات؟
- بلى.
- لعلَّنا في «مثلث برمودا»؟

حرَّك رأسه في أسى وقال: «ستفقد عقلك إن أطلت التفكير.. ستُصاب بالجنون».

كنت أحتاج إلى إجابات فعدت أسأله وأنا أنظر إلى السَّماء: «النجوم في السَّماء تبعد عنَّا بعدًا سحيقًا، آلاف السِّنين الضَّوئيَّة، ماتت بالفعل ولا وجود لها! وما نراه بأعيننا هو ماضيها، فهل نحن في الماضي؟».

- لا يوجد سفر إلى الماضي يا «توفيق».
- أدري.. ولكن ما هذا الذي أعيشه! هل مررتُ من بوَّابة عجائبيَّة؟ لقد التقيت أشخاصًا...

قاطعني قائلًا: «دماؤهم سوداء، قد يحملون أسماء من تعرفهم لكنَّهم ليسوا هم أنفسهم، وستعبر من بقعة إلى أخرى وكأنَّك تنتقل من زمن إلى آخر».

- هذا أمر آخر يُحيِّرني!
- في اللحظة التي تطئ قدمك فيها أرض «مملكة البلاغة» يختلف الوقت وماهيَّته وكينونته وإحساسك به، فلا تُرهق خلايا عقلك وتقبَّل الأشياء كما هي دون أن تبحث عن تفسير لها.
- الفضول ينهش عقلي نهشًا.
- بعض الفضول قد يفيد، وبعضه قد يؤذيك، فاحذر يا بنيَّ!

تلاقت نظراتنا وشعرت بصدق تحذيره، أدركت أن بعض الأمور ستظلُّ غامضة لا تفسير لها وينبغي لي ألَّا أُفتِّش وراءها وإلَّا سأعرِّض نفسي للهلاك، سألته ملتمسًا بعض الأمان: «بمَ تنصحني يا سيِّد «نبيل»؟».

رفع عينيه الكليلتين إلى وجهي وقال وهو يوقِّع كلَّ حرف ينطق به: «لا تركن لأحد من الخلق أبدًا وإن كان ملوك الإنس والجنِّ تحت قدميك، واطلب حاجتك من الله وحده وإن رأيت السُنن الكونية تنبئك باستحالة وقوع ما ترجوه! فهو القادر فوق عباده وسيستجيب!».

- ونعم بالله.
- احذر عندما تُصارع، وعندما تقاتل، فانتبه لما يتسرَّب إليك وأنت تفعل هذا، لا تدع الشرَّ يتغلغل في خلاياك ويلوِّث روحك.
- رأيت بعض الصور على صفحة «بنات الرَّعد».
- ما رأيته أنت يختلف عمَّا رأيته أنا ويختلف عمَّا رآه «سُفيان».
- لماذا؟
- الكتب حيَّة، والصُّخور حيَّة، تخاطب كلًّا منَّا بطريقة مختلفة.

أخرج من حقيبة قماشيَّة كان يحملها كتابًا مهترئًا وممتلئًا بالصُّور المرسومة ومدوَّن بجوارها الكثير من الملاحظات وقال وهو يضعه بين يديَّ: «هذا الكتاب لنطَّاسيٍّ من بغداد كان يتنقَّل بين المدن والقرى باحثًا عن هؤلاء الفتيات، قبل أن يموت سلَّمني كتابه هذا».

- لماذا لم تُعطه للحكيم «سامي كول»؟ لا ريب أنَّك التقيته في «غابة البيلسان» عندما مررت بها.
- رحلت سريعًا هذه المرَّة بعد أن وضعت الخنجر بجوارك.

صمت لوهلة وأضاف: «أنا طبيب يا «توفيق»، كنت شغوفًا في شبابي بمادة التَّشريح التي درستها بتوسُّع، لهذا احتفظت بالكتاب لنفسي وحاولت دراسة المكتوب فيه لعلِّي أفيد الفتيات وفشلت للأسف، لكنني عندما رأيتك الآن أدركت أنَّك ستستطيع!».

- أستطيع ماذا؟

- وَصل بعض الأمور ببعضها بطريقتك! لديك عزيمة قويَّة وعندما تُصرُّ على شيء تفعله.

تصفَّحت الكتاب وكان بلغة غريبة لم أفهم كنهها، لكنَّ الرُّسوم كانت واضحة جدًّا ومرسومة وملوَّنة ببراعة شديدة، سألته: «ما هذه اللغة؟».

- اللغة السُّومريَّة.

- يبدو أنَّك كنت الوافد الأول من عائلتك وكتابك كان بتلك اللغة.

أومأ برأسه موافقًا، سألته في فضول: «كيف بدأت رحلتك إلى هنا؟».

- بيت عتيق ورثناه عن جدِّي يقع في بغداد، البيت مهجور منذ سنوات، كنت أتردد عليه نظرًا لتعلُّقي بجدِّي، وكان هناك الكثير من الكتب فأقبلت عليها أقرؤها فنهلت من علمها نهلًا، بعد وفاة أبي هاجر أخي الأكبر إلى السويد، وتزوجت أختي الوسطى، فتركت بيت أبي لأخي الأصغر ليتزوَّج فيه ورفضت أُمِّي الانتقال معي إلى بيت جدي، فهي تشكو من انغلاقي وتعلُّقي بالكتب وأقامت مع أخي، فبقيت وحيدًا في ذلك البيت العتيق على أطراف «بغداد» وقضيت عامين وأنا غارق في القراءة لا أرى أهلي إلَّا نادرًا، ظهر لي طيف الكتاب مُشكَّلًا من الحروف السومريَّة وخاطبني بها فلم أفهمه، ثُم ظهر لي الصقر، وتحدَّث معي، وحملني إلى هنا.

- ما اسم الصقر الذي حملك؟

- «شاهين».

- وهل وافقت بكلِّ سهولة هكذا من أوَّل مرَّة؟

- ترددت في البداية، لكنَّه حملني مرَّتين في جولتين سريعتين وأعادني إلى البيت، وعندما ظهر لي الرَّمز أتى وحملني عنوة فوجدت «سفيان» في انتظاري وأضاء لي طريقي بكلماته فقد سبقني بأعوام قليلة كانت كافية ليأخذ بيدي.

وضعت الكتاب الذي أعطاه لي في حقيبتي وقُلت له وأنا أراقب نظراته المنكسرة: «وكأنَّك مريض أو مكروب! هل أنت بخير يا سيِّد «نبيل»؟».

اغرورقت عيناه بالدُّموع فأشاح بوجهه قائلًا: «هيا ارحل ودعني أراك وأنت تستخدم خنجرك العجيب يا «توفيق»».

كان الحزن لا يزال عالقًا بمُحيَّاه، وددتُ لو بقيت معه لفترة أطول لكنَّه كان يتعجَّلني لأنصرف كما كان يفعل السيِّد «سُفيان». قبل أن أنصرف سألته: «إن رغبت في رؤيتك مرَّة أخرى فأين أجدك؟».

شردت عيناه وهو يقول: «سأكون في «جزيرة النِّسيان»».

للمرَّة الثَّالثة يتكرر اسم «جزيرة النِّسيان» أمامي، ترددتُ قليلًا إلى أين أرحل، عندما وضعت الكتاب الذي أعطاه لي في حقيبتي تذكَّرت «الخيفاء»، فأخرجت الخنجر ووقفت متأهِّبًا وقلت وأنا أرفع يدي به: «غابة السِّنُّور».

ظهرت الفجوة ودارت في الهواء كما تفعل في كلِّ مرَّة، فوثبت فيها وسقطت أمام عرش «الوشق» مباشرة وكان هذا ما يدور في خاطري بالفعل فأنا أرغب في لقائه، وجدته يُحدِّق تجاهي في فزع، وفوجئت بجنوده وهم يحيطون بي ويوجِّهون رماحهم تجاهي. فور أن رأى وجهي رفع يده ليوقفهم وقال: «اتركوه إنَّه «توفيق»».

أبعدوا رماحهم عنِّي فأشار إليَّ لأقترب منه وأبتعد عن البقعة الَّتي ظهرت فيها الفجوة، دنا منِّي ووضع يده على كتفي وسألني: «كيف ظهرت هنا فجأة؟».

- هذه ميزة من ميزات الوافدين.

- كيف؟

- طريقة أتنقل بها هنا في أرجاء الممالك.

أخذ يتلمَّظ ويتلفَّت يمينًا ويسارًا وسألني: «هل استرددت كتابك؟».

- ليس بعد، أواجه مشكلات وأتيت طلبًا لعونك.

- أنا!

- نعم أنت، رأيتك تُقدِّر دماء أهل عشيرتك وتخشى عليهم من القتل والفناء.
- صدقت، ولهذا نلت مكانة لديَّ لأنَّك لم تُهدر دماءنا.
- هناك جنس ضعيف لا حيلة له، يحتاج إلى من يعينه.
- أيُّ جنس هذا؟
- فتيات صغيرات لديهنَّ سمات خاصَّة تختلف عن الأخريات، إن لم ينتقلن للعيش في غابة من الغابات يمتن عند بلوغهنَّ السَّادسة.
- غريب أمرهن!
- أتيت طلبًا لعون «الخيفاء» لعلَّها تستطيع اكتشاف دواء لعلاجهنَّ ليخرجن من تلك الغابة.
- ولكن لماذا يرغبن في الخروج من الغابة؟
- لديَّ حدس ما، فهناك بعض الأمور لا تزال غير واضحة لي.
- لا بدَّ أن أعرف يا «توفيق».
- لا أستطيع البوح بما أظنُّه حتَّى أتيقَّن من صحَّته، البوح بالظُّنون قد يُفسد الأمور التي نسعى لإصلاحها.
- لكنَّ «الخيفاء» عالمة وذكيَّة وليس بين نسائنا من تضاهيها، لا أظنُّها ستقبل بالخروج من هنا، وإن قبلت.. أخشى إن خرجت ألَّا تعود.
- هل أستطيع عرض الأمر عليها بنفسي؟ لعلَّها تقبل بعونهنَّ وسأنقلها بالطَّريقة نفسها التي أتيتُ بها وسأُعيدها إلى هنا بسلام، أعدك بهذا.

استُدعيت «الخيفاء» بعد موافقة «الوشق»، وعندما سمعت منِّي وتصفَّحت الصور في الكتاب -الذي تجهل لغته كما أجهلها- كان حماسها شديدًا، وسريعًا ما جمعت قواريرها وأدويتها وأعشابها وأقبلت ومعها «المارج» الذي صمم على مرافقتها وعلل ذلك لـ «الوشق» بأنَّه سيأتيه بالأخبار، رفعت خنجري ورددتُ اسم «غابة البيلسان».

سرنا نحو بيت الحكيم «سامي كول»، وكان الجميع يتأمَّلون «الخيفاء» و«المارج» في خوف وترقُّب، ولكنَّ «الخيفاء» استطاعت بلطفها أن تطمئن الفتيات وأقبلن عليها يتحسسن بشرتها في فضول وبدأت بفحصهنَّ، التفتت نحوي وقالت بصوتها الحاد: «أريد فحص دمائهنَّ».

اقتربت «الحوراء» وجرحت إصبعها وجمعت لها من دمها البعض في قارورة لتجري عليها تجاربها فطفقت «الخيفاء» تضيف أشياء وتذيب أخرى وتراقب تغيُّرها في قواريرها الشَّفافة، بينما جلستُ مع «المارج» و«سامي كول» نناقش حال الفتيات، فلو استطاعت «الخيفاء» صنع دواء لعلاجهنَّ حتَّى يخرجن من «غابة البيلسان» سيكون الأمر أسهل عليهنَّ وتعيش الفتيات في أوطانهنَّ بسلام. طلبت الخيفاء البقاء معهنَّ لأيَّام فانتقلت لأبلغ «الوشق»، وعدت إلى أرض الأقواس، وكلَّما رفعت خنجري لأدخلها أجد الفجوة تنقلني إلى خارج حدودها! وقفت خارجها وحاولت تخطِّي حدودها فحجبني حاجز غير مرئيٍّ! وكانت الشُّعل حولها منطفئة! كررت كلَّ الأسماء التي أعرفها بالدَّاخل: «مقرُّ العسَّاسين، ملجأ النساء، قصر الأميرة «فاتي»، بيت «أبادول»، حانوت الحدَّاد، المقابر، بيت «سيدون»».

لم أنجح في دخولها بأيٍّ حال، حتَّى ساحة السجن الخارجيَّة لم تنجح معي! جلست أتخبَّط في حيرة فرأيت طيفًا يموج أمامي في الهواء وسط ظلمة الليل المعتمة.

كانت تلك هي السيِّدة «مارماحوز» التي خرجت برأسها من فجوة معلَّقة في الهواء واستندت على حافَّتها كما وكأنَّها تستند على حافَّة نافذة وقالت لي: «لن تستطيع الدُّخول».

- سيِّدة «مارماحوز»! لماذا لم تظهري من قبل؟
- لم أرك إلَّا بعد دخول «أمان» إلى نطاق «أرض الأقواس».
- ومن أخفى أثري عن السَّاحر «سورنجان» عندما حبسوني المرة الأولى؟
- لعلَّ هناك من يُساعدك من الجن!
- لماذا لا أستطيع دخول «أرض الأقواس»؟

- حجب «الدَّواسر» أرض الأقواس بأكملها، لن يدخل أحد أو يخرج منها حتَّى يعثروا عليك، الملك يرغب في الحصول على كتابك.

- هناك أمير آخر يسمى «القلقديس» يرغب في الحصول على الكتاب ويبحث عني.

- «القلقديس» من عشيرة الغربان يا «توفيق»، هو ابن الملك «قتام» الأكبر، لو عثرا عليك سيقتلانك ولتعلم أنَّ كتابك كنز لهما!

- وماذا سأفعل؟

- أين كتابك؟

- بالدَّاخل.

- أجننت؟ كيف تتركه؟

- عليَّ الدخول لاسترداده، ماذا سأفعل؟

- الجنُّ يُواجَهون بالجنِّ، لو كان «الحوذانيُّون» يستطيعون لأرسلتهم، لكنَّهم لا يضاهون «الدَّواسر»! لهذا عليك أن تستعين بـ «أصحاب القلانيس الزَّرقاء».

- وهل سيقبلون بمُساعدتي ويواجهون «الدَّواسر»؟

- أنسيت أنَّ «غيهبان» حبس ابن ملكهم الأمير «القابض على رمحه»، سيرغبون في الثَّأر لذلك، حاول أن تتحدَّث إلى «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» على الأقل.

- سأفعل.

- لو كان «المنبوذون» أحرارًا لعاونوك في القضاء عليهم، فقد تصدُّوا لهم لسنوات طويلة، لكنَّهم استطاعوا السيطرة على زعيمهم «زهلول» للأسف، لا ريب أنَّ «غيهبان» أمرهم بالنُّزول وحبسهم، فتلك العشائر تُطيع من يأسر زعيمها، ولهذا حبسهم تحت مدينة النَّحاس كما أخبرتنا.

- حسنًا سأنتقل إلى «بحر الظُّلمات» الآن.

اختفت السيِّدة «مارماحوز» وأغلقت نافذتها المعلَّقة في الهواء، أدركتُ الآن أنَّها تتبع أخباري بشكل ما، أخرجت خنجري وأردتُ الانتقال إلى الشَّاطئ الأسود لولا ظهور «زهلول» وكان يطفو أمامي بثوبه الأبيض الطويل الفضفاض والهواء يموج بشعره الطويل الذي يكاد يلمس طرف ثوبه، دنا منِّي فأضاء الحجر الفيروزيُّ المثبَّت بتاجه وهو يقول: «لماذا أنت هنا؟».

- حاولت دخول أرض الأقواس، لكنَّ «الدَّواسر» حجبوها، سأذهب لطلب المساعدة من «أصحاب القلانيس الزَّرقاء».

- لا تتعب نفسك.

- ماذا تقصد؟

- لجأت لهم طلبًا للعون فرفضوا، الملك لا يرغب في خوض المعارك مع «الدَّواسر» وخصيصى بعد استرداده لملكه من أخيه بعد عودة وليِّ عهده.

- لكنني حررت وليَّ عهده بنفسي! أمَّا أنت فلم تقدم لهم شيئًا، فقد يقبلون مساعدتي.

- وإن فعلت! أنت لا تعرف شيئًا عن صراع ملوك الجنِّ، و«الدَّواسر» عشيرة لا يُستهان بها.

- لا بدَّ أن أدخل أرض الأقواس! ماذا سأفعل الآن؟ هل تستطيع مساعدتي؟

- ليس قبل أن تُساعدني، فقد منحتك الخنجر لكي تعينني على تحرير عشيرتي.

- لم أكن على علم بأنَّ هدايا الجنِّ دينٌ يُردُّ، ولو علمت هذا ما قبلتها.

- هل استطعت الانتقال به؟

- ألم تعرف بهذا؟ لقد انتقلت وسُرق منِّي مرَّتين وأعاده لي الأصدقاء، كيف لا تعلم بسرقته وأنت الذي صنعته؟

- ومن أخبرك أنَّني من صنعت الخنجر؟ لقد لفظته الأرض وهمست لي باسمك وأخبرتني أنَّك ستقطع به مسافات طويلة!

- أيُّ أرض؟

- أرض مدينة النَّحاس، كلُّ شيء هنا بممالكنا حيٌّ وله صوت يا «توفيق».

- أعرف هذا فقد حدَّثتني الأشجار، ولكن ألم تلازمني بأرض الأقواس وكنت تُخفي أثري عن «الدَّواسر»؟

- لا! ليس أنا!

- لماذا أتيت إذًا؟ وكيف علمت برغبتي في دخول أرض الأقواس؟

- خرج عدد كبير من «الدَّواسر» من «مدينة النَّحاس» فأدركت أنَّ هناك خطبًا جليلًا، وأنا أتبعهم وأراقبهم منذ أن حررتني، وعندما أتيت رأيتك تحاول الدُّخول وتكرر المحاولة.. ومنذ قليل حُجبت وكأنَّك اختفيت ثُمَّ عدت الآن!

- نعم، كنت أتحدَّث إلى عجوز أعرفها.

- لماذا ترغب في الدُّخول؟

- كتابي بالدَّاخل، هذه الأرض التي نشأ فيها الأمير «أواوا».

- أعرف هذا، ولكن وجود «الدَّواسر» يعني استعانتهم بساحر.

- «سورنجان»؟ هذا اسمه، استعان به ابن الأمير «أواوا»، فهو يرغب في الحصول على كتابات أبيه ليُدمِّرها، ظننت أنَّك تعرف أكثر مني!

- أنت تعلم أنني حُبست لفترة طويلة وانقطعت الأخبار عنِّي، كما أنني حاولت تتبُّعك لكنَّك اختفيت وتلاشى أثرك تمامًا! والآن أرض الأقواس محجوبة ولا أستطيع معرفة أسرارها.

تأمَّلت طيفه وبدأت أشعر أنَّني مسلوب الإرادة، فحتَّى ذلك الجنيُّ لا يستطيع مساعدتي لكي أدخل «أرض الأقواس» لأحضر كتابي وأُتمَّ مهمَّتي. قال «زهلول» وهو يدور حولي: «ساعدني في تحرير عشيرتي، وسنساعدك في صراعك مع «الدَّواسر»».

- وكيف سأفعل هذا؟

- على عكس ما يظنُّ البشر، الإنس أقوى من الجنِّ لكنَّ الخوف من المجهول يُضعفهم أمامنا، لديك من الشَّجاعة ما يجعلك تصمد أمامنا، تستطيع قتل «الدَّواسر» وسلبهم قواهم لتزداد قواك إن أردت، فقوى «الدَّواسر» تنتقل من المقتول إلى قاتله.

- سأتحوَّل إلى شيطان إن فعلت!

- لن يكون هذا إن استطعت السيطرة عليها بإرادتك.

- لا ريب أنَّ هناك حلًّا آخر، حلًّا أستطيع به السَّيطرة عليهم دون أن تنتقل قوى الشرِّ لي، فأنا لا أرغب فيها!

- كيف تقول هذا؟

- لست في حاجة إليها، قوَّتي في يقيني بالله، هذا ما يدفعني للوقوف أمامك الآن.

- خذ قرارك الآن، إن ساعدتني سأُساعدك.

- لا ريب أنَّ هناك طريقة أخرى للسيطرة على «الدَّواسر» دون أن تنتقل قواهم البائسة لي!

- لا يوجد!

برز صوتها مجلجلًا من خلفنا وهي تقول: «بل هناك طريقة!».

أظهرت «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» نفسها وزحفت بطيفها على الأرض واقتربت منَّا، وقف «زهلول» أمامها شاخصًا، وجدتها تغلظ من صوتها وتتحدَّث بطريقة تختلف عن طريقتها في الحديث معي على شاطئ الرِّمال السَّوداء، فقالت: «لا تصدِّقه يا «توفيق»، تستطيع حبس كيانات «الدَّواسر» أوَّلًا في جوف الوحوش وذبحها لتتبدد قواها».

هدر «زهلول» غاضبًا: «من أنت أيَّتها الـــ...».

قاطعته قائلة وهي تلوِّح بكفِّها الذَّهبيَّة: ««ذات الكفِّ الذَّهبيَّة»، أميرة البحار المرمريَّة، من ملوك عشيرتها مرضيَّة، أطوف بالبحار بأريحيَّة، أحمل مسكًا ورائحة زكيَّة، إن عاديتني فعشيرتك منفيَّة، وإن صادقتني فأيَّامك بهيَّة».

انحنى أمامها «زهلول» وقال: «مرحبًا بأميرة الأميرات وتاج رؤوس أصحاب القلانيس الزَّرقاء».

كنت أراقبهما وقد راقني تعريفها بنفسها كما راقني احترامه وتوقيره لها، عادت تُحدِّق إلى وجهي وقالت: «مع من كنت تتحدث قبل هذا؟».

- عجوز أعرفها.
- لقد رددَت اسم عشيرتنا! سمعته بنفسي!
- نعم، كانت تنصحني بطلب العون منكم لمواجهة «الدَّواسر»؟

تمتمت قائلة: «لن يقبل أبي بهذا على الرغم من عونك في تحرير أخي! لأنَّه الآن يخشى على مُلكه بعد استرداده من أخيه».

- أعرف هذا ولا ألومك!
- ولكن.. ألم تعبر جبل «أمانوس»؟
- بلى.
- إذن رأيت الوحوش.
- صحيح.
- تستطيع حبس «الدَّواسر» في أجوافها.
- كيف؟
- عليك أن تتدبَّر أمرك، أستطيع فقط أن أعلِّمك كيف تتركهم يتخللون جسدك ثُمَّ تخلعهم وتنفضهم وتدسُّ كياناتهم في جوف الوحوش، ولكن تعلَّم أولًا كيف تتدبَّر أمرك مع الوحوش.
- هل فعلها أحد من قبل أمام عينيك؟
- اثنان، أحدهما نجا، والآخر تحوَّل إلى مسخ يسكن براكين «طرمساء»[1] منذ أمد بعيد، لم يتمكَّن من مقاومة سحر قوى «الدَّواسر»، تركها

(1) الطِّرمس والطِّرمساء هي الظُّلمة الشَّديدة.

تتغلغل في نفسه وروحه حتَّى استحال إلى شيطان مارد، لا يزال يُرسل الجنَّ إلى أركان الممالك هنا ويؤذي المخلوقات.

- كيف أضمن أنني لن أكون مثله؟

- تدبَّر أمرك.. أنت وحدك تعرف حقيقة ما يعتمل بنفسك.

قال «زهلول»: «لو استطعت قتل «غيهبان» ستطيعك عشيرة «الدواسر» بأكملها».

قالت له «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة»: «أخبرك أنَّه لا يُحبُّ القتل! ألم تسمعه؟».

استدارت لتنصرف فسألتها: «هل كنت تمحين أثري حتَّى لا يعثر الدواسر عليَّ؟».

صفَّقت بيديها وقالت: «إنَّها أحجاري الرائعة تمتصُّ أثر حاملها تمامًا من الأجواء، لا ريب أنَّك كنت تحملها طوال الوقت، لا تُفرِّط بها وإن أردت المزيد فلك ذلك».

- يكفيني ما معي، وعلى أيِّ حال شكرًا لك، ولكن لماذا تتحوَّل أحيانًا إلى قطع من الفحم الأسود؟

- حتى لا تنكشف حقيقتها!

- يا إلهي.. أهي أيضًا حيَّة كالكتب؟

- وتشعر بك!

- لماذا لم تجيبي ندائي وتُحدِّثيني عندما كنت أحمل «السيِّدة الملوَّنة» حين رفعتِنا من بين الأمواج؟

- كنت غاضبة منك! عندما بحثت عنك وجدت حجرًا مع شابَّة، لم أمنحها لك لتهديها لغيرك!

- صارت ملكي ولي الحق في إهدائها لمن أشاء.

- أنت لا تعرف ماهيَّة تلك الكريستالات! إنَّها تجمع ضوء الشَّمس وتختزنه، لا تُضيء فقط بل تفعل أشياء أخرى.

انصرفت غاضبة وتبعها «زهلول» دون أن يحييني وكأنَّه انشغل بها، قررتُ الذهاب إلى بيت «الرَّماديِّ» لأبيت ليلتي، وذهبت إلى «مَردان» في الصَّباح التالي.

وصل «أمان» إلى «غابة البيلسان» ودخلها بجواده، كان يسير بين أشجارها وهو يتأمَّلها، راقه هدوء الغابة وألوان أزهارها وأشكال أشجارها الغريبة، ترجَّل عن جواده وسحبه من سراجه وأخذ يلمس الأشجار بيده، اخترق أريج الأزهار أنفه فأغمض عينيه ووقف مستمتعًا بجماله، تناهى إلى مسامعه صوت ضحكات فأسرع نحو مصدر الصَّوت، كانت «الحوراء» تجلس مع الفتيات الصَّغيرات وقد وضعن أرجلهن في جدول ماء وكانت تتحدَّث إليهنَّ وتحكي لهنَّ عن الأميرات خارج الغابة، وكيف أنَّهن جميلات وفاتنات، وعن قصورهنَّ وأزواجهنَّ من الأمراء، قالت وهي تنقل عينيها بين وجوههن: «الحبُّ ليس قصرًا ولا تاجًا ولا حياة ورديَّة، قد يكون الكوخ الذي يسكنه زوجان أوسع من قصر عظيم لأنَّهما يحبَّان بعضهما».

سألتها فتاة منهنَّ والمكر يُطلُّ من عينيها: «وكيف تعرفين هذا وأنت لم تخرجي من الغابة منذ أن كنتِ طفلة؟».

- أخبرتني أمِّي! فقد كانت تحكي لي القصص التي أرويها لكنَّ.

سألتها أخرى: «ما هو الحب؟».

- احتياج شخص إلى شخص آخر، ووجوده عندما يحتاج إليه هذا الآخر، واهتمامه بتفاصيله الصَّغيرة وكلماته القليلة، واطمئنانه برؤيته وقلَّة الصبر على فراقه، والإقبال على حديثه، وإلقاء سمعه كلِّه إليه، ومحبَّة داره وأهله وأحبابه وما يُحبُّه، وغيرته عليه، واقتسام السعادة معه بأشكالها.

- حتى لو كانت في قطعة حلوى؟

- نعم، حتى لو كانت قطعة حلوى، فالمحب لا يستلذُّ شيئًا إلَّا ويحرص على أن يذوقه حبيبه.. تمامًا كحبِّكن لأمَّهاتكنَّ وشوقكنَّ إليهن.

قالت فتاة وهي تهزُّ كتفيها: «لكنني لا أشعر بالشوق إلى رؤية أهلي، أنا سعيدة هنا!».

أضافت أخرى: «وأنا كذلك، ولا يحزنني هذا».

- لا عليكن حبيباتي، هذا لقاء أرواح بأرواح، وأنا أعلم أنَّكن مختلفات.

- وأنت مثلنا؟

- ربَّما أختلف عنكنَّ قليلًا، فأنا أحبُّ أبي وأمِّي، وأريد أن أكون أمًّا.

نظرت إليها فتاة بمكرٍ وقالت: «أترغبين في الزَّواج!».

- ولم لا؟

ضحكت الفتيات، انتقلت إلى الحديث عن حكاية أخرى عن جزيرة غريبة، لاحظ «أمان» كفَّها الممتلئة بالحبوب ورأى زاجلًا أزرق يلتقط الحَبَّ من كفِّها في هدوء، راقه صوتها الحاني! اقترب أكثر ليرى وجهها فتعجَّب من ملامحها الغريبة، لفت نظره رفقها وهدوؤها مع الفتيات، وفجأة صهل جواد «أمان» فالتفتن نحوه وصاحت إحداهنَّ: «غريب في غابتنا!».

ركضن نحوه في فضول، فحيَّاهنَّ وسحبنه من يده، ترك لهنَّ نفسه ليقدنه نحو «الحوراء» التي وقفت كتمثال من الشَّمع وسط أشجار الغابة، ألقى عليها السَّلام فأجابته في عصبيَّة: «وعليك السَّلام.. من أنت؟ ومنذ متى وأنت تتلصَّص علينا؟».

قال غاضبًا: «لم أقصد التلصُّص فقد مررت للتوِّ! أنا «أمان»، أتيت باحثًا عن صديق لي مرَّ من هنا وجاء يحمل فتاة صغيرة».

تغيَّرت ملامح وجهها وسألته: «اسمه «توفيق»؟».

- نعم.

- فلتتبعني لتلتقي أبي.

سار خلفها نحو أبيها، وكان الزَّاجل لا يزال يقف على يديها فسألها: «كيف يقف ذلك الزَّاجل على يدك دون خوف؟».

- اعتاد تناول الحبوب من كفِّي، الحمام يعيش معنا بالغابة وهناك طيور أخرى ولكنَّ هذا الزَّاجل مميَّز عن غيره.

- وما الذي يُميِّزه؟

- لا أدري! ربَّما لأنَّ لونه أزرق!

- وهل تلك ميزة؟

- أحبُ السَّماء، والبحر، وكلاهما أزرق.

- تلك ليست ميزة!

أضافت بعفويَّة وكأنَّها طفلة: «يكفيِ أن أراه أنا هكذا!».

- هو مميَّز إذن لأنَّه راقكِ وحسب.

- الجمال أثواب وحُللٌ نُلبسها لأحبابنا بأنفسنا، فنحن نرى الأشياء جميلة عندما نُحبُّها وكذلك النَّاس عندما نحبهم بصدق!

- ربَّما.

ران عليهما صمت لطيف ولم يتحدثا بعدها وسارا في سكون، وصلا أخيرًا إلى مجلس أبيها «سامي كول» الذي رحب به فور أن رآه، وعندما علم ببحثه عن «توفيق» قال باحتفاء: «مرحبًا بأصدقاء «توفيق»، من أين أتيت أيُّها الشَّاب؟».

- من «مملكة الشَّمال» واسمي «أمان».

دُهشت «الحوراء» عندما علمت أنَّه أتى من هناك! وكانت تسمع عن مملكة الشَّمال من أمِّها، وقفت تنصت لحديثهما، قال «أمان» وهو يجلس أمام أبيها: «متى رحل «توفيق»؟».

- لم يطل بقاؤه هنا بل رحل سريعًا، وهو بخير حال.

- الحمد لله، كُنت قلقًا عليه، لا ريب أنَّه سيعود إلى أرض الأقواس.

- نعم.. استردَّ خنجره وانتقل سريعًا، أظنُّك كنت معه هناك، فقد أخبرني عن لقائه معك واعتقالك من قِبل جنود الملك.

رنا إلى جرح ذراعه المضمَّد وسأله: «ما بها ذراعك؟».

- رماني أحد جنود الملك «يويا» بسهم فأصابني بها، لكنَّه جرح سطحيٌّ.
- لا تعد يا بني وابق خارج أرض الأقواس حتَّى يتدبَّر «توفيق» أمره.
- حسنًا، هل الفتاة الصَّغيرة بخير؟
- تقصد «السيِّدة الملوَّنة» التي حملها «توفيق» إلى هنا؟
- لم أكن على علم باسمها، أين هي؟

أشار «سامي كول» نحوها وقال له: «ها هي في أحسن حال».

التفت «أمان» ليراها فعلقت عيناه بوجه «الحوراء» التي كانت تراقبه على استحياء، عاد ينظر إلى «سامي كول» وسأله: «هل تعيش معهنَّ هنا؟».

أشار «سامي كول» إلى ابنته وقال: «منذ أن كانت ابنتي «الحوراء» في السَّادسة من عمرها ونحن هنا معها، انتقلنا مع القليل من الأسر ونعيش مع الفتيات، فالغابة هنا تلائمهنَّ ويستطعن العيش في صحة وسلام».

- الغابة هنا تحتاج إلى تأمين حدودها، رأيتها سهلة الاختراق، لقد تسللت دون أن يشعر بي أحد، كيف تعيشون بلا حراسة؟
- عانينا بعض المشكلات بالفعل، فالحدود مفتوحة للغرباء، سنوات ونحن نتعرَّض للسطو والسَّرقة، كنَّا نعطيهم ما يريدون ليتركوا الفتيات في سلام..
- عليكم تأمين المكان بأنفسكم، صحيح أنَّ الأمر يحتاج إلى حراسة وجنود، ولكن لا بأس بنصب الشِّباك والأفخاخ، واختيار مناطق آمنة للإقامة.
- وكيف سنفعل هذا؟ نحن قلَّة ولن يكترث أحد لأمرنا.
- أستطيع تدبير بعض الأمور لكم، سأحاول الطواف بالغابة أولًا لأدرسها وأتفحَّص مخاطرها لتأمينكم قبل أن أنصرف.

ظلَّ «أمان» في ضيافة «سامي كول» لعدَّة أيَّام، نصب على حدود الغابة الأفخاخ، وشاركهم جميعًا في صُنع الشِّباك من وشائج الأشجار، ودرس الغابة جيدًا.

١٦

العماليق

عُدت إلى جبل «أمانوس»، كان الجوُّ باردًا فبدأت أسناني تصطك ببعضها بعضًا، جمعت كفيَّ ونفخت فيهما لأدفئهما بأنفاسي، صعدته لأيًا فلأيًا وأنا أنادي «مَردان»، كان صوتي يتردد صداه في الأجواء ولم يأتني الرَّد، لكنَّني كنت أسمع زئير الوحوش كلَّما ارتقيت فكنت أخرج خنجري لأنتقل فورًا إلى أيِّ بقعة أخرى إن ظهروا لي. عندما وصل صوتي إلى «مردان» أرسل إليَّ شقيقه وتبعته إلى حيث يقطنون أعلى الجبل، عانيت حتَّى وصلت إلى مكانهم، كان يربط ساقه ويثبِّتها بألواح خشبيَّة طويلة، رأيت وجوههم تتباين بين الجمال الشديد والقبح المخيف، ورأيت نفسي ضئيلًا بجوارهم. كان «مَردان» ممتنًّا لما فعلته معه، اكتشفت أنَّه يصغرني بعشر سنوات!

سألني أبوه عن سبب وجودي بينهم فوق جبل «أمانوس»، وكان عليَّ أن أروي لهم ما مررتُ به وأعرِّفهم بالوافدين ومهامِّهم، كنت أقضي النَّهار معهم وأعود ليلًا إلى بيت «الرَّماديِّ» وكان قد بدأ جرح كتفه يلتئم، بعدها بأيَّام بدأ يُحلِّق وكان يلازمني في أثناء وجودي على جبل «أمانوس»، كنت في حاجة إلى التمرين على مواجهة الوحوش، فسلسلوا واحدًا منها لكي أتمرَّن أمام أعينهم، ظلَّ «مردان» يُراقبني وهو جالس فساقه ستحتاج إلى أسبوعين

إضافيين ليتمكَّن من الوقوف عليها مرَّة أخرى، بدأ يتحسَّن سريعًا فأدركت أنَّه كان شرخًا ربَّما وليس بكسرٍ وأخذت أتخيَّله في أحد المستشفيات بالفيُّوم وهم يحاولون إجراء أشعة لساقه، هززت رأسي وابتسمت من مجرَّد التَّخيل فسألني: «فيم تفكِّر؟».

- في قوَّتك، أراك تتعافى سريعًا.

- نحن «العماليق» عظامنا سريعة الالتئام، وعندما تلتئم تصير أكثر صلابة، لهذا ينبشون قبورنا ويصنعون من عظامنا الأسلحة.

- كيف يفعلون هذا!

- ألم أُخبرك أن الآخرين لا يروننا إلَّا وحوشًا؟

أحبَّني «العماليق» واستغرقتُ وقتًا لكي أعتاد وجوههم التي نادرًا ما تبتسم، أو لعلَّهم لا يعرفون الابتسام فقد كانوا يُعبِّرون عن فرحتهم بالصَّيحات والأصوات، كرروا على مسامعي أن أتخلَّص من رائحة الخوف، كنت أتمرَّن لأقوِّي جسدي وعزيمتي ولم أترك صلاتي وكان هذا سببًا للكثير من الأسئلة وكنت أجيبهم بكلِّ صبر لكنَّهم كانوا سريعًا ما ينسون ما حدَّثتهم عنه، وما أراح قلبي هو أنَّهم لا يسجدون لصنم، وكانوا يعرفون نبيَّ الله سُليمان.

مرَّت الأيَّام وبدأ قلبي يزداد ثباتًا، حاولت دخول «أرض الأقواس» مرارًا وجرَّبت الخنجر وظلَّت محجوبة كما هي، وكنت أُحاول استخدام الخنجر أيضًا وأنا أناوش العِفريس المُسلسل، أقبل «العماليق» من خبايا الجبل عندما علموا بوجودي بينهم، وصاروا يُشجعونني بصيحاتهم وهتافاتهم، وتحوَّلت إلى مادة ترفيهيَّة لهم! كانت مطارقهم ثقيلة جدًّا فصنعوا لي مطرقة تناسب حجمي، لكنَّها لم ترُقني.

قضيت الليالي ووجه «نوب» لا يُغادر مخيلتي وكنت قلقًا عليه وأخشى أن يعود إلى سابق عهده، كما أخشى أن يتخلَّى عن أبناء سيدون وهم في حاجة إلى المال حتى ولو بقدر يسير منه وكنت قد نويت أن أطلب من الأميرة «فاتي» إلحاقهم بقصرها مع «دهيبة» عند عودتي.

زرت «كو» مرَّتين وعلمت بقرب موعد ولادة أمِّه، وكان لقائي مع السيِّد «سفيان» يفيدني حيث تحدَّثنا كثيرًا عن رحلته وما مرَّ به خلالها. لم يظهر «أمان» وعندما سألت «الرَّماديَّ» عنه أخبرني أنَّه كان قد خرج إلى «غابة البيلسان» عندما علم بتوجُّهي نحوها، وأنَّه كثيرًا ما يغيب ثمَّ يعود ويظهر دون أن يُبيِّن أين كان يختفي. أعدت «الخيفاء» و«المارج» إلى «غابة السِّنُّور» لتكمل أبحاثها في معملها وأخبرتني أنَّها التقت «أمان» في «غابة البيلسان» وأنَّه سيقضي أيَّامًا هناك.

مرَّ أسبوعان وتعافى «مردان» وحان وقت تحرير العِفريس من قيده لأصارعه وأمسك برأسه لأتمكَّن منه وأفتح فمه بيدي، زدت من التمرين، وكنت أقترب منه كثيرًا، أتانا أحد العماليق بعِفريس منهم كان قد غرز خنجرًا بقلبه، فطلبت منهم أن يعطوني الفرصة لأتفحَّص جسده من الدَّاخل، ففعلت وأمسكت بكلِّ جزء من أحشائه بين كفَّيَّ لأتعرَّف على خصمي، وكان هذا أقسى ما فعلته في حياتي.

في غابة البيلسان

كان «أمان» يلازم «سامي كول» ويتجوَّل معه في «غابة البيلسان»، استطاع مسح الغابة وحفظ مداخلها ومخارجها، بدأ يقطع الأشجار فحمل بلطة وبدأ منذ بداية النَّهار يبحث عمَّا يُناسب بناء الأفخاخ، وكان ماهرًا في تركيبها. جمع جدائل الأشجار ووشائجها وصنع حبالًا متينة، وحفر آبارًا وعلق شباكًا ومصائد عجيبة، كان لديه مهارة استخدام ما هو متاح في فعل المطلوب، كان «سامي كول» مُعجبًا بتخطيطه وذكائه، ومروءته ونخوته التي دفعته لمساعدتهم بعد أن علم بأنَّ من يبقى مع الفتيات هم الكهول والشيوخ فقط، تحدَّثا في الكثير من المواضيع المختلفة.

كان قد تسلق شجرة للتوِّ عندما وصلت «الحوراء» وهي تحمل الطعام له ولأبيها، أجفلت عندما قفز من فوق الشَّجرة فجأة ليستقرَّ أمامها وينفض كفَّيه، وكان لا يزال يتعجَّب من ملامحها الغريبة، تركت الطعام وانصرفت

تهرول مبتعدة وهي تتخبَّط في خجل، ومضى النهار وعاد «أمان» مع أبيها حيث البيوت التي يسكنون فيها، لكنَّها لم تكن هناك! استبدَّ بهم القلق عليها، وقع في نفس «أمان» أنها سارت في اتجاه جدول الماء حيث جالست الفتيات الصغيرات من قبل، وكان قد وضع مصيدة أعدَّها من الجهة الخارجية التي دخل الغابة منها ليحمي مكان جلوسهم قُرب ذلك الجدول من الغرباء، فحفر حفرة ليقع فيها من يحاول التسلل للغابة، فهرع عبر طرقات الغابة نحوها قبل أن يحلَّ الظلام، وجدها هناك بالفعل وكانت تبكي وتنتفض من فرط الخوف فقد بدأ الظَّلام يبسط رداءه، طمأنها وأخبرها أنَّه سينزل إليها فصاحت في توسُّل: «لا تنزل أرجوك! أحضر حبلًا وسأتعلق به لترفعني».

أتاها بحبل مجدول ومده نحوها لكنَّها لم تتمكَّن من الصُّعود، فحلَّ شيئًا مما كان قد صنعه من الأخشاب، وطفق يربطها ليصنع للحوراء كرسيًّا صغيرًا وبسيطًا تجلس عليه ليرفعها واستغرق وقتًا فلم تصرخ ولم تنادِ ولم تتعجَّله فعاد ليتأكَّد أنَّها بخير فرآها تبكي في صمت، ربط الكرسيَّ بالأحبال في جذع شجرة وأنزله إليها فجلست وتشبَّثت بالحبال، كانت لا تزال ترتجف كورقة شجر في مهب الرِّياح عندما أطلت برأسها من فوهة الحفرة، مدَّ يده إليها فامتنعت عن التعلق بها وأخرجت نفسها بعد معاناة نظرًا لإصابة ساقها، قال لها وهو يتعجَّلها: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

- فقدت «الزَّاجل الأزرق» وأتيت للبحث عنه.

- كدت تخرجين من الغابة! علينا أن نسرع قبل أن يشتد الظلام.

سارت بجواره في سكون وهي تعرج، فأدرك أنَّها أصيبت في ساقها وتعجب لأنَّها لم تصرخ وتصِح كما تفعل الفتيات! عاد مسرعًا وأحضر الكرسيَّ الذي صنعه وطوى قميصه ووضعه فوقه وطلب منها الجلوس عليه فرفضت، وطلبت منه إعادة ارتدائه ففعل، جلست على الأخشاب فجرَّها خلفه بالأحبال وهو يهرول قبل أن يُحكم الليل عباءته فيزداد حلكة، فقد كان يخشى ألا يتبين الطريق وسط الأشجار، كانت خائفة وساقها تؤلمها بشدَّة، وصلا

حيث البيوت فهرعت أمُّها نحوها والتفَّ الحضور حولها وحملوها إلى الدَّاخل. تحسس قميصه وتذكَّر كيف أزعجها أنه أراد أن يُجلسها عليه، كما تذكَّر كيف تلاحقه فتيات العائلة ويطلبن وداده ويصنعن الحيل ليشغلنه بهن، شتَّان بين الثرى والثُّريا، جلس ينتظر عودة الرِّجال فأقبلوا وهم يحملون الشُّعل تباعًا وكانوا قِلة، وعندما اطمأنَّ على عودتهم جميعًا حاول أن ينام، لكنَّ النوم جافاه وهو يتفكَّر في تلك الحوراء ذات العينين الساحرتين، أعجبه حرصها الشديد على ألَّا يلمسها! وراقه ذاك الهدوء الذي يجللها حتى وهي تتألَّم.

«توفيق»

عينان غائرتان قاتمتان ولهاث شديد ولعاب يجري من فم يتلهَّف الإطباق على عنقي، كان عليَّ الاقتراب منه لكنني كنت أتخيَّل في كلِّ مرَّة لحظة إطباقه بأنيابه تارة على عنقي ليقطع أوردتي وتتطاير دمائي وتسيل، وتارة على فخذي ليمزِّق عضلاتها، وكثيرًا ما تخيلته يقتطع ذراعي ويركض بها، «لا تخف حتَّى لا تفوح رائحة الخوف». كررها أبو «مردان» مرارًا وأنا أقف أمام العفريس وهو يزمجر. قال «مردان»: «سيظلُّ رابضًا في مكانه حتى تخطو خطوتك الأولى، عندها سيكون سريعًا جدًّا».

لم أتحرَّك حتَّى هدأت نبضات قلبي، أهملتُ كلَّ صوت حولي وبدأت أنظر إلى عينيه فقط وكأنني خفَّضت زرًّا حجب أصوات الجميع إلَّا صوت لهاثه وأنفاسه كان يتردد عاليًا في أذنيَّ، وبقيت الصور والألوان أمام عيني تلوح فكان عليَّ أن أزيحها من ناظري لتبقى أنيابه فقط بارزة في محيط رؤيتي، شعرت باستنفار كلِّ عضلة في جسدي وخطوت خطوتي الأولى فرأيته يقفز فقفزت مثله، وأحطت عنقه بذراعي وكلانا معلَّق في الهواء فسقطنا معًا، فقبضت على فكِّه وأمسكت به وظلَّ يتلوَّى ويصارع وأنا رابض فوقه بجسدي، سكن في غضون دقائق وكانت أنفاسي متسارعة، وكنت لا أرى ولا أسمع ولا أشعر إلَّا به، شعرت بيد تربت على كتفي وهناك من يخلِّص العِفريس من

بين يدي، وكان هذا «مردان» الذي حملني عنه وأوقفني أمامه وانحنى ليقول: ««توفيق».. لقد نجحت!».

تعالى هتاف «العماليق» فانتبهت للزَّمان وللمكان، رأيت العِفريس ساكنًا على الأرض وقد سلسلوه مرَّة أخرى وكان يراقبني بنظرة تشي بانكسار الهزيمة، كان حرقُ الجمرة الذي أُصبت به في «أرض الأقواس» لا يزال يتعافى ولا ريب سيترك أثرًا في كفِّي، والآن أُصيبت كفِّي الأخرى بجرح من أنياب ذلك العِفريس ولم تكن تلك المرَّة الأولى التي أُصاب فيها بجرح ناب، فقد أُصبت من قبل في «غابة السِنُّور»، قررت أن أعدَّ تلك الندوب كعلامات وأدلَّة لأتذكَّر دائمًا أنني كنت هنا في رحاب «مملكة البلاغة».

في غابة البيلسان

كان «أمان» قد أشعل نارًا لتدفِّئهم وجلس مع «سامي كول» ليخبره عن أماكن المصائد والأفخاخ ليُحذِّر الفتيات قبل أن ينصرف، اقتربت «الحوراء» وكانت تتعكَّز على غصن شجرة وتسير ببطء فقام إليها أبوها واتكَّأت على ذراعه وانضمت إليهما، أرادت أن تشكر «أمان» وفعلت، وبينما عادت إلى سكونها أكملا حوارهما، راقها حديثهما عن الوافدين، وجذبها الحديث عن الكتب، سألته في فضول: «كيف هي الحياة في مملكة الشَّمال؟».

- مليئة بالصراعات، أنتم هنا تعيشون في جنَّة من جنان الأرض.

قال أبوها: ««الحوراء» تظنُّ أنَّ الحياة ممتعة في البقاع الأخرى».

- ليس على الدَّوام، فالشرُّ يقبع هنا وهناك، قتل وسطو وسرقة وطمع، حتى الأشقَّاء يتقاتلون يا سيِّدي.

غضَّنت «الحوراء» حاجبيها وقالت: «معقول!».

- لن تروقكِ الحياة خارج الغابة، لكي تعيشي في سلام لا بد أن تكون لك مخالب وأنياب.

- لا ريب أنَّ هناك أناسًا طيِّبين ورائعين، أليس كذلك؟

- بلى.
- لديَّ فضول شديد لرؤية العالم خارج الغابة، فأنا هنا منذ اثني عشر عامًا.

قال «سامي كول» وهو يُحدِّق إلى النَّار: «نعم يا بنتي، لقد أتممتِ الثامنة عشرة من عمرك، مرت السنوات سريعًا ونحن في «غابة البيلسان» هنا».

- مرَّت بطيئة عليَّ يا أبي.

التفت «سامي كول» تجاه «أمان» وسأله: «هل لديك أشقَّاء يا «أمان»؟».

- أنا الذَّكر الوحيد، ولديَّ خمس شقيقات مزعجات.
- هذا رائع.. أما أنا فوحيدة وهذا يحزنني كثيرًا.
- ظننت أنكنَّ لا تشعرن بما نشعر به.

قالت غاضبة: «أنا بشرٌ مثلكم أشعر وأحسُّ!».

أسرع أبوها قائلًا: «لم يقصد الإساءة يا بنتي».

- أعلم أنني مختلفة، فرفيقاتي لا يشعرن بذاك الحنين والخواء في نفسي، أشعر أنني سأرتاح إن خرجت من تلك الغابة وعدت إلى الحياة على أرض الأقواس حيث نشأت، كان لي صديقة هناك أرغب في رؤيتها بشدَّة، وأشتاق إلى عمَّاتي وخالاتي.

أراد «سامي كول» تغيير دفَّة الحديث فقال لـ «أمان»: «لا ريب أنَّ والديك شديدا التعلق بك».

- هذا أكيد، لكنني عوَّدتهما على كثرة تجوالي، أنا أشبه الصقور.. أرغب في التَّحليق دائمًا.

انطلق يُحدِّث «سامي كول» عن حياته في مملكة الشَّمال وكانت «الحوراء» تنصت إليهما في سكون، طال حديثهما وأخرج «أمان» ما بجعبته من حكايا ونوادر، كان يشعر براحة شديدة لحديثه معهما، التفت نحوها فرآها بشكل مختلف، لاحت لناظريه على خلفية خضراء كفراشة رقيقة، لم تكن غريبة

الملامح كما رآها لأول مرَّة، هناك شيء مخبأ في عينيها جذبه، كان إسراعها بالهروب من التفاتته نحوها أكثر ما لفت نظره، وبعد قليل بدأت تشكو من نشر شديد وحارق في ساقها، فدخلت البيت بمساعدة أبيها ولم تتمكَّن من الخروج عندما تأهَّب «أمان» لمغادرة الغابة، وكان قد عثر على «الزَّاجل الأزرق» وحمله لأبيها ليُعيده إليها. رحل الفارس عن «غابة البيلسان» وترك قلبه معلقًا هناك على جناح الزَّاجل الأزرق وهو يقف ليلتقط الحَبَّ من كفها وهي لا تدري.

«توفيق»

بالمزيد من التمرين استطعت أن أمسك العِفريس وأقلبه وأربض فوقه وأفتح فمه بيدي الاثنتين بأن أغرز أصابعي في ركني فكِّه، كنت أرى تلك النَّظرة في أعين العماليق وهم يرونني أفعل هذا، لقد فاجأهم أنني لم أعد أخاف تلك الوحوش، لا أدري هل مات قلبي أم هو الإصرار على الحياة والبقاء الذي بدأ يتدفَّق في أوردتي، هذه هي السبيل لكي أدخل «أرض الأقواس» من جديد وأسترد كتابي، نعم كتابي! صرت الآن أشعر أنَّه ينتمي إليَّ أكثر من ذي قبل! ترسَّخ في ذهني أنني مُحارب، وأنَّ تلك الحياة لن تستقيم إلَّا وأنا كذلك.. «مُحارب»، أحارب الحياة، وأحارب العوائق والفتن، وأحارب نفسي أحيانًا لأردَّها لطريقها القويم.

حان وقت لقائي مع «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» لكي تعلِّمني كيف أسمح للكيانات الأثيريَّة بتخلل جسدي لكي أخلعهم وأضعهم في جوف الوحوش!

احتجت إلى رؤية هذا على «بنات الرَّعد» من جديد، انتقلت إلى هناك وحدي، ووصلت إليها ومسحت على صفحتها بيدي ليظهر لي المسخ الذي رأيته من قبل لكنني رأيته هذه المرَّة وهو يحبس الكيانات في جوف البشر ثمَّ يقتلهم! فتتسرَّب إلى جسده ويصرخ منتشيًا في كلِّ مرَّة، تراجعت للخلف وشعرت بأنني في خطر، فتغيَّرت صفحة الحجر الذي كنت أتفحَّصه وظهر

رجل، كان يستخرج الكيانات ويضعها في جوف الذِّئاب ويُطلقها، أردتُ أن أرى وجهه لكنَّني لم أتمكن من رؤيته، بدأ منسوب الماء يرتفع فأسرعت تجاه الشَّاطئ ووقفت لأنادي «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة»، وعندما خرجت سألتها في الحال: «ذاك المسخ، بدأ بما سأبدأ به وأفعله! هل كان من الوافدين؟».

- نعم كان منهم.
- يا إلهي!
- مم تخاف وأنت لا تشبهه!
- وكيف أضمن نفسي؟
- ألم أخبرك أن تتدبَّر أمر نفسك؟ ذلك شيء أنت وحدك من يستطيع أن يعرفه.
- حتَّى أنا لا أعرف خبايا نفسي، لكنني أعرف خالقها.

حرَّكت رأسها وقالت وهي تنثر أحجارها على الرِّمال: «ذاك ما تتميَّز به أيُّها الشَّاب، ثقتك بربِّك عظيمة لهذا سيكون لك شأن هنا، ستعود مرَّات ومرَّات».

- وكيف تعرفين هذا؟
- الجبناء يرحلون سريعًا، لا يعودون إلى تلك البقاع التي دارت عليها صراعاتهم، وإن كانت تلك الصراعات لم تغادر صدورهم ولم يطلع عليها الآخرون، فصراع النَّفس أقوى من صراع السيوف والحِراب.
- علِّميني كيف أسمح لـ «الدواسر» بتخلل جسدي وكيف أخرجهم منه.
- عليك أوَّلًا ألا تضعف أمام قواهم التي ستتسرَّب لنفسك.
- وكيف تشعرون؟
- يكفي أن تعرف أنَّك ستشعر بالسيطرة على من حولك وبخاصَّة الجبناء والضعفاء.
- فلنبدأ الآن.

أتى صوته من خلفي فجأة فالتفتُّ وإذا بالسيِّد «نبيل» يقبل علينا، بدا لي أنَّه يعرف «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة»، بعد أن حيَّاها قال بجديَّة شديدة: «ألم أخبرك ألَّا تعلِّميه إلَّا وأنا معكما؟».

- وها قد حضرت! فهل سنبدأ الآن؟

أردتُ أن أتحدَّث قليلًا مع السيِّد «نبيل» لكنَّه أشار لنا بيديه لنبدأ، قالت وهي تنقل عينيها بيننا: «حسنًا، سنتحدَّث معًا وسأباغتك بالدخول».

- لماذا بغتة؟

قال السيِّد «نبيل»: «هكذا تتمُّ الأمور يا «توفيق»».

بدأنا نتحدَّث، سألني السيِّد «نبيل» عن أولى لحظات وصولي عندما سقطتُ في بحر الظُّلمات، وعمَّا أحسستُ به فبدأت أروي ما حدث بالتَّفصيل، وعندما بدأت أصف مشاعر الخوف التي اعترتني حينها شعرت بوخزة في ظهري ثُم تشنَّجت يداي، وانتفض جسدي وكأنَّ صاعقة أصابتني، كنت أسمع صوتها يدور في رأسي، حرَّكتني تجاه البحر وكادت تدفع جسدي للغوص فناداني السيِّد «نبيل» باسمي مرارًا وقال: «لا تستسلم يا «توفيق»».

- ساعدني.

- أيقظ عزيمتك فأنت الأقوى.

كانت تجرُّ ساقي جرًّا وكُنت أُقاوم، أردت أن أصرخ لأستغيث لكنني لم أتمكَّن، عاد «نبيل» لمناداتي باسمي وقال: «أنقذ نفسك».

شعرت بأنني أختنق، ضاق صدري وكأنَّ كلَّ ضلع من ضلوعي يُطبق على ما تحته، كان لساني يرغب في مناجاة الله ولم أتمكَّن من تحريكه، حدَّثت نفسي فسمعت صوتي يتردد في رأسي وصدري وأنا أقول: «سيُنقذني الله كما أنقذني في كلِّ مرَّة».

بدأت أتنفَّس، وعاد قلبي يخفق بقوَّة، استطعت أن أدفعها من داخلي فخرج كيانها من جوفي وداهمني سُعال قويٌّ فرأيت طيفها الملوَّن وهو يتسرَّب من

فمي، وقفت أمامي ورشقتني بنظرات غاضبة، وكان السيِّد «نبيل» يبتسم وهو يعقد ذراعيه خلف ظهره، سألتهما: «هل كنت جيدًا؟».

قال السيِّد «نبيل» برويَّة: «كنت رائعًا، ولكن احذر من أن تقع أسيرًا لضعف نفسك».

- سيُنقذني الله كما يفعل في كلِّ مرَّة!
- ولهذا ما زلت بخير وستكون بخير بإذن الله، ذاك اليقين هو درعك الذي تحتمي به.
- هناك شعور لا يزال يربو في داخلي.
- وما هو؟
- أشعر أنني مُحارب!

أمضينا الليلة على شاطئ الرِّمال السَّوداء، كررت «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» التغلغل في جسدي، بدأ الأمر بسعال لتخرج، ثم استطعت بعد ذلك لمس طيفها بأطراف أصابعي وأغضبها هذا، لكنَّها عادت وسكنت عندما ذكَّرها السيِّد «نبيل» بأنَّني أنقذت أخاها، وأبوها رفض ردَّ الجميل، فأدركتُ أنَّها حاولت إقناع والدها ليُساعدني فأبى، وأنَّها تحمل على عاتقها ردَّ جميلي.

بعد محاولات كان من السَّهل عليَّ نفض طيفها بذراعي ودفعه أمامي، فصاحت حين فعلتُها: «هكذا ستدفع الكيان في جوف الوحوش».

وافقها السيِّد «نبيل» وقبل أن ينصرف أمسك برأسي وقال بعد أن أطال النَّظر إلى عيني: «لقد نزعت عباءة الخوف بالفعل! أرجوك لا تتركهم يسرقون نفسك من بين جنبيك».

استدار وسار مبتعدًا وانصرفت «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» فعدت إلى «مدينة الرَّباب»، وأخبرت الجميع بعزمي على العودة إلى «مدينة النَّحاس» لمواجهة «غيهبان» زعيم الدَّواسر.

١٧

"الدَّواسر"

كان من السَّهل الانتقال إلى «مدينة النَّحاس»، ولكن كيف لي أن أنقل العِفريس إلى هناك، وهل سيطيعني ويدخل الفجوة إن أمرته بهذا؟ نصحني العماليق أن أروِّض عِفريسًا واحدًا حتَّى يطيعني وبعدها سيُطيعني وعندها سأصحبه معي إلى هناك، ففعلت وكان هذا عصيًّا واستغرق منِّي أيَّامًا أخرى أطالت من غيابي عن «أرض الأقواس» وأنا لا أعرف هل سأستردُّ كتابي أم لا؟ وعندما حان الوقت أخرجت خنجري ورفعته في الهواء لكي أنتقل إلى «مدينة النَّحاس» فأطلَّت السيِّدة «مارماحوز» من نافذتها المُعلَّقة في الهواء واستوقفتني، مدَّت يدها بمسحوق بعد أن رددت شيئًا لم أفهم كنهه وطلبت منِّي نثره على العِفريس ومسح رأسه به، تذكَّرت كلمات السيِّد «نبيل» عندما قال: «الجنُّ والسِّحر والسَّحرة واقع على أرض مملكة البلاغة وعليك التَّعامل معه».

فعلت ما طلبته مني وعندما سألتها أخبرتني أنَّه سيُخفيه عن أعين الجميع إلَّا عيني! اختفت فجأة كما ظهرت فجأة، سحبتُ العِفريس الذي روَّضته وانتقلنا من خلال فجوة فتحتها بخنجري، كانت العودة ثقيلة على قلبي فقد تذكَّرت «كنان» وأنا على أطرافها، لم يتمكَّن «الرَّمادي» من تتبعنا ولم يظهر

في السَّماء، عندما انتقلت إلى داخل الأسوار وقفت على أرضها فرأيت وجوه «المنبوذين» وهم ينظرون إليَّ بأعينهم تحت السَّطح البلوري الذي حُبسوا تحته، أطلَّ «زهلول» في الحال ومعه «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» فقد استطاع نقلها إلى «مدينة النَّحاس» وكانت لا تراها قبل ذلك، أدركتُ أنَّهما صارا يتواصلان معًا، سألاني عن العِفريس فأخبرتهما أنَّه موجود وسيظهر في الوقت المناسب! أصابهما هذا بالجنون فكيف لا يريانه! وكنت قد أشرت إليه ليجلس مكانه ففعل طواعية وربض في مكانه، بدت المدينة خالية كما رأيتها من قبل لكنني كُنت أعلم أنَّها عامرة بالدَّواسر، وقفت بين أشجار الحديقة التي تتوسَّط القصور وحولي كلُّ شيء يبرق ويلمع ورفعت صوتي مُناديًا زعيم «الدَّواسر» ورددتُ اسمه فتردد صدى صوتي في الأجواء وكان له رنين عجيب: «غيهبان»! رددتها مرارًا فظهر «الدَّواسر» واحتشدوا حولي بثياب صاخبة الألوان وزينة فاحشة، وبدوا وكأنَّ هناك احتفالًا كبيرًا فامتلأ المكان بصخبهم وصياحهم وضحكاتهم المجنونة، أطبق عليهم الصَّمت فجأة ورأيتهم شاخصين لشيء خلفي فاستدرت وإذا به «غيهبان» زعيمهم، تعرَّفت عليه من تاجه العظيم وكان يحمل صولجانًا ذهبيًّا على رأسه ياقوتة حمراء، تعملق أمامي فوقفت أتأمَّله ولم أشعر بالخوف كما شعرت عندما رأيت «زهلول» وهو يخرج من قارورته ويتطاول بجسده، لم يخفق قلبي كما كان يخفق سابقًا، أدركت أنني صرت شخصًا آخر يختلف عن ذاك الذي وصل إلى أرض مملكة البلاغة منذ شهر أو أكثر! طفق «غيهبان» يتضاءل أمامي وهو يتعجَّب من صمودي، وقف يسألني وهو يُشير بصولجانه: «كيف تجرؤ على دخول مدينتي ومملكتي دون إذن منِّي؟».

- لا أحتاج إلى إذن منك، لم يُشيِّد «الدَّواسر» تلك المدينة ليملكوها!

علا ضجيج «الدَّواسر» وتكاثفوا حولي، أزاحهم «غيهبان» بإشارة من صولجانه وبدأ يسير بتؤدة حولي وهو ينظر إليَّ بعينيه الحمراوين، قال بصوته الأجشِّ: «ماذا تُريد؟».

- اخرجوا من «أرض الأقواس».

- دخلناها بأمر من ملكها الجديد.

- ملكها الجديد! وأين «يويا»؟

- ألم يصل إليك الخبر؟ لقد فقد «يويا» عقله وصار يطوف بأرض الأقواس كالمجنون يهذي بكلمات غير مفهومة، والآن تولَّى الملك «القلقديس» مقاليد حكم «أرض الأقواس»، وينتظر عودتك بكتابك لتغيير التاريخ.

- لن يفلح «القلقديس» ولن تفلحوا.

- أتدري ما مكافأتي إن حملتك إليه الآن؟ سيكون لنا ما تحت «أرض الأقواس» بل وما فوقها، سنسكن الأرض والماء والهواء، بيوتها وحقولها وبساتينها ومقابرها، كما صارت «مدينة النحاس» لنا من قبل ستكون تلك الأرض لنا.

وقفتُ متأهِّبًا وقلت: «لن تستطيع إجباري على الوقوف بين يديه».

أطلق ضحكة ارتجَّت لها أجواء «مدينة النَّحاس» وبدأ يدور حولي في دوَّامة سريعة حملت أوراق الأشجار المتساقطة وطافت بأجواف الأواني النَّحاسيَّة الموجودة في كلِّ مكان فأصدرت دويًّا مخيفًا، أشرت إلى العفريس فدنا منِّي ووقف بين يديَّ وكان مخفيًّا عن أعين الجميع وهم يترقَّبون ما سيحدث لي، رنوت إلى «المنبوذين» تحت أقدامنا فوجدتهم شاخصين تجاهي، شعرت بشيء يخترق ظهري وكأنَّ سكينًا غُرز به، وتشنَّجت أطرافي وارتجَّ رأسي وحُبست أنفاسي في صدري، شعرت بوجوده في كلِّ ذرَّة في كياني، كُنت قويًّا وخفيفًا ومنتشيًا وسعيدًا وكأنني بطل خارق، رأيت أضواء وألوانًا لم أرها من قبل، كان كلُّ شيء حولي في أبهى زينته، ارتفعت في الهواء ورأيت مدينة النَّحاس من أعلى فدهشت، كدت أفقد نفسي، أفقد «توفيق» الذي أعرفه، أتاني صوت مختنق من بعيد وظلَّ يُناديني: ««توفيق».. لا تستسلم»، تعرَّفت عليه، كان صوت السيِّد «نبيل»، ردَّني صوته إلى نفسي فسقطت على أرض «مدينة النَّحاس» وكنت لا أزال أشعر بـ «غيهبان» وهو يرتجف تحت جلدي،

بدأت لذَّة الشعور بالقوَّة والسيطرة تسري في روحي كما تسير النَّار في الهشيم، كنت أشعر أنني قادرٌ على تحطيم «مدينة النحاس» بأكملها، لمعت في عيني الممالك التي أراها هنا، لماذا لا أظلُّ هكذا للأبد؟ عاد السيِّد «نبيل» يُناديني باسمي فهرعت نحوه وقبضت على عنقه وطفقت أخنقه، فوضع يديه على صدري فصُعقت صعقة نافذة وخزتني في قلبي ورأيت بابًا في الهواء يُفتح له فاختفى من أمامي وانتقل خلفي فجأة! وعاد يُناديني: ««توفيق».. لا تستسلم وقاوم تلك اللذة يا بنيَّ، هذا سحرٌ فانٍ، عد إلى رشدك».

خرج صوت غليظ من حنجرتي وكنت أقول: «سأقتلك!».

هممت بقتله فبرز «زهلول» ومعه «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» وأمسكا بذراعيَّ وعلقاني في الهواء، شعرت بنهم شديد لسحبهما بذراعيَّ وكأنني أريد التهامهما، فأدركتُ أنَّ «غيهبان» يرغب في سحب قواهما، ويبدو أنَّهما شعرا بهذا فتركاني واختفيا في الحال، ونزلت لأقف أمام السيِّد «نبيل» من جديد، رأيت جملة من الجمل التي ظهرت لي في الكتاب تُرسَم في الهواء أمام عيني بحروف ذهبيَّة..

«حربك مع نفسك أكثر ضراوة من حربك مع الآخرين، فإن لم تنتصر عليها لن تنال النصر أبدًا».

كانت تظهر بالحروف العربيَّة، ثُم تعود وتظهر بحروف أخرى أدركت أنَّها الحروف النُّوبيَّة، عاد السيِّد «نبيل» يُناديني، وكان يتنقَّل من مكان لآخر بواسطة أبوابٍ تُفتح له، بدأت صورته ترتجف أمام عيني، ظننته لوهلة أبي! برزت صورة أبي في ذهني واضحة بكلِّ تفاصيل وجهه! فانتبهت كلُّ حواسِّي وعدت إلى رشدي واستطعتُ إخراج «غيهبان» من جسدي لكنني لم أتمكَّن من حبسه في جوف العفريس! سقطتُ على الأرض وكنت أشعر بحرقة في جسدي، اقترب السيِّد «نبيل» وأقامني فألقى به «غيهبان» بعيدًا فاصطدم بسور «مدينة النَّحاس» وسمعت صيحته، عاد «غيهبان» واخترقني، وبدأ يتخلل جسدي ثانية وهو يخور خوار الثَّور الهائج، وخرج صوته من حنجرتي وهو يصرخ ودار في «مدينة النَّحاس» فأخاف الجميع، وقفت أمام العفريس

وبدأت أجترُّ كلَّ لحظة مررتُ بها هنا على أرض «مملكة البلاغة»، لن أخسر معركتي الآن بعد كلِّ هذا فأنا مُحارب، والمُحارب الحق يثبت عند صدق لجوئه لله، لُذت بربي في أقصى مراحل ضعفي وتضعضعي واستعنت به في خبايا قلبي، وبدأت أشعر بدبيب «غيهبان» وهو يقاومني، كان أكثر عنفوانًا، بدأت أسعل واسم الله حاضر بين أضلعي، رأيت كيان «غيهبان» الملوَّن وهو يخرج من فمي ولمسته بطرف إصبعي، انتزعته وسحبته كقميص من قماش ونفضته أمام أفراد عشيرته وأمسكت بفم العفريس ودسسته في جوفه فظهر جسد العفريس للجميع وتعالت الصَّيحات عندما رأوه أمام أعينهم، وحين انتهيت من «غيهبان» زأر العفريس فسكن الجميع، أخرجت خنجري وذبحته فمات «غيهبان»، ورأيت صولجان زعيمهم يسقط بين يديَّ فقبضتُ عليه ورفعته فأخفضوا رؤوسهم جميعًا ووقفوا كتماثيل من نحاس لا حياة فيها، اقترب السيِّد «نبيل» ووضع يده على كتفي وكان وجهه مخضَّبًا بالدُّموع، قال بصوت مرتعش: «كدنا نفقدك إلى الأبد».

- سامحني يا سيِّد «نبيل»، لم أكن أنا!
- أدرك هذا جيدًا فلا تقلق. انظر إلى «الدَّواسر»! الآن سيطيعونك طاعة عمياء.

قُلت وأنا أشير بصولجان «غيهبان»: «أطلقوا سراح «المنبوذين»».

رأيت الأرض ترتجُّ من تحت أقدامنا وبدأ «المنبوذون» يخرجون منها ويطيرون في السَّماء، كنت أراهم بثيابهم البيضاء، بيد أنَّ الآخرين يرونهم بلا ملامح كما أخبرني «زهلول» من قبل وكما أخبرني السيِّد «نبيل» للتوِّ، رفعت الصَّولجان مرَّة أخرى وقلت لهم: «اخرجوا من «مدينة النَّحاس» إلى سفح جبل «أمانوس»».

تلاشى «الدَّواسر» من أمامي في غمضة عين، وأقبل «المنبوذون» من كلِّ حدب وصوب ووقفوا في صفوفٍ على أرض «مدينة النَّحاس»، تقدَّمهم

«زهلول» وقد انفرجت أساريره وقال: «نحن مدينون لك، وسنكون رهنًا لإشارة منك حتَّى تستردَّ كتابك».

وضع يده على صدره وأحنى رأسه للأمام ففعل جميع من خلفه من «المنبوذين» كما فعل، رفعت صوتي قائلًا لهم: «لن تكونوا منبوذين بعد اليوم، لتختاروا اسمًا آخر تُعرَفون به».

قال «زهلول» وهو يُشير إليَّ: «لتختره لنا يا «توفيق»».

وقفت أتأمَّلهم وأتساءل كيف للآخرين أن يروهم وكأنَّهم قطع من الليل المظلم، ووجوههم جهمة، فتَّشت في عقلي عن كلمة تناسبهم فوجدتني أقول: «المجاهيم»[1].

- ليكُن هذا.. نحن «المجاهيم»!

علا هتافهم وكانوا في سرور عظيم، قال السيِّد «نبيل» بجديَّة شديدة: «لا يلهينك هذا عن مهمَّتك، أسرع بالانتقال إلى جبل «أمانوس» لتحبس «الدَّواسر» في أجواف العفاريس».

- ليس قبل أن أُخرج بقيَّتهم من «أرض الأقواس».

قال «زهلول»: «لن يتحرَّك «الدَّواسر» من فوق سفح جبل «أمانوس» حتَّى تعود إليهم، أمَّا الموجودون في «أرض الأقواس» فهم تحت زعامة «قلب العقرب»، وقد تواجه تمرُّدًا منهم بسببه».

- معي الصولجان، لنذهب إلى «أرض الأقواس».

قال السيِّد «نبيل»: «ستحتاج إلى عِفريس آخر».

أسرع «زهلول» قائلًا: «لن يحتاج.. سأتولَّى أمر «قلب العقرب» بنفسي».

---

(1) المجاهيم لقب يُطلق على مجموعة من الجنِّ وهم من شخصيات الجزء الأوَّل، رجل جهم الوجه أي كالح الوجه، ومعنى جهمه جهمًا أي استقبله بوجه كريه، ولقب المجاهيم يُطلَق على بعض أنواع الإبل النجدية السوداء، كبيرة الحجم وضخمة العظام، تتحمل الظروف القاسية بكل تضاريسها وتحولاتها المختلفة.

أخرجتُ خنجري وانتقلت إلى هناك مع السيِّد «نبيل»، ضربت الأرض بصولجان «غيهبان» فارتفعت الأحجار البيضاء المحيطة بأرض الأقواس ثُم هوت إلى مكانها مرَّة أخرى، قُلت وأنا أرفع صوتي: «اخرجوا من «أرض الأقواس» فقد مات «غيهبان»».

اهتزَّت أرض الأقواس وكأنَّ زلزالًا أصابها، لم يخرج أحد منها!

جمع «زهلول» «المجاهيم» وأمرهم بإخراج «الدَّواسر» منها، تكاثفوا على حدودها ودخلوها دفعة واحدة وقتلوا بعضهم وكنَّا نسمع صراخهم الذي تنخلع له القلوب، فرَّ من تبقى من «الدَّواسر» وأقبلوا أمامي واحتشد المكان بهم، وكلَّما رأى أحدهم الصولجان يلوح في يدي كان ينضمُّ إلى رفاقه ويقف كتمثال بجوارهم، خرج «قلب العقرب» كعاصفة ناريَّة وكان يتوجَّه نحوي، رفعت الصولجان فقفز «زهلول» وصاح قائلًا: «اتركه لي».

دار معه في الهواء، رأيتهما وهما يتصارعان، أدركت أنَّ «زهلول» يُريد أن يقتله ليحصل على قواه، تمرَّد بعض الحضور من «الدَّواسر» وبدؤوا يتصارعون مع «المجاهيم»، كان «قلب العقرب» أكثر قوَّة من «زهلول» وكاد يفتك به، همس لي السيِّد «نبيل» وهو يتعجَّلني: «تستطيع إنهاء كلِّ هذا بإشارة من صولجانك!».

- لم يطيعوني أوَّل الأمر، يبدو أنَّ لـ «قلب العقرب» سطوة عليهم!

تذكَّرت كيف كان «زهلول» محبوسًا في قارورة، فأخرجت قارورة من القوارير التي أعطتها لي «مارماحوز» وأفرغت ما بها، وأشرت بالصولجان تجاه «قلب العقرب» وذكرت الله فالتقطت كيانه الأثيري بطرفها وحبسته فيها، أغلقتها بإحكام فوقف «زهلول» أمامي وقال وهو يُحني رأسه للمرَّة الثَّانية: «أنقذت حياتي مرَّتين، ورددت إلى عشيرتي أرضها، ومنحتنا لقبًا جديدًا، سأظلُّ مدينًا لك طوال عمري».

مرَّ السيِّد «نبيل» على من يقف من «الدَّواسر» بعينيه وقال لي: «أمامك مهمَّة شاقة، ستجمع كلَّ هؤلاء لتدخِلهم في أجواف الوحوش».

- وسأذبح الوحوش.

- لا يا «توفيق»، لا تفعلها.

- لماذا؟ أريد القضاء عليهم للأبد!

- قوى «الدَّواسر» تنتقل إلى من يقتلهم كما أخبرتك وقد تنتقل إليك.

- لم تنتقل إليَّ قوَّة «غيهبان»! بقيتُ كما أنا!

- كنت قويَّ الرُّوح يا بنيَّ ولم تُفتن بها وتضعف أمام لذَّة السُّلطان فلم تنتقل إليك بل إلى الصَّولجان، نجوت مرَّة وقد لا تنجو هذه المرَّة! لو ضعفت كما فعل...

- من؟

- ولدي!

أجهش بالبكاء، أدركت أنَّ المسخ الذي رأيته على بنات الرَّعد كان ولده، برزت «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» مرَّة أخرى وقالت: «ألم أخبرك أنَّهما اثنان، هذا الذي نجا، وأمَّا ابنه فلم ينجُ وسلَّم نفسه لشيطانه».

سألتهم وأنا في حيرة: «هل هذا يعني أنَّه إذا قتل أحدهم عِفريسًا ستنتقل إليه قوى «الدَّواسر» المحبوسة في جوفه؟».

قال «زهلول»: «ما دام الصولجان في يدك وملكك ولم تمنحه لأحد ولم يُنقل إلى غيرك لن يستطيع أحد الاقتراب من العفاريس، وسنحبسها في مغارات الجبل ولن يؤذى أحد من قِبلها أبدًا».

همس لي السيِّد «نبيل» وهو يقبض على ذراعي: «الصولجان!».

فطنت إلى مراده، وأدركت أنَّ الصولجان سيكون مطمعًا للجميع.

عدت إلى جبل «أمانوس» وقد أعياني الانتقال من مكان لآخر، صعدتُ إلى «العماليق» على قمَّة الجبل فاستقبلوني باحتفاء، أخبرتهم بما حدث، فدلُّوني على أوكار العفاريس، ربطتُ الصولجان على صدري، وبدأت أسحب وحشًا تلو الآخر إلى مغارات الجبل، وأشير بالصولجان لاستدعاء «الدَّواسر»، كنت أشير

به فيدخل العشرات منهم إلى جوف العفريس الواحد، ثمَّ يسلسله «العماليق» ويدخلونه إلى مغارة من مغارات الجبل، حتى القارورة التي حبست فيها «قلب العقرب» ألقيتها في جوف أحدهم وابتلعها، ووقف «زهلول» زعيم «المجاهيم» ومن معه منهم يلقون التعاويذ لتُغلق عليها. امتلأت المغارات بالعفاريس المُسلسلة، ولم يبقَ أحد من «الدَّواسر» إلَّا وهو في جوف وحش منها، انتقلت بخنجري إلى أرض الأقواس لأتيقَّن أنَّها ما عادت محجوبة، ثُمَّ عدت إلى «العماليق» والسيِّد «نبيل» لأخبرهم أنَّني سأدخل «أرض الأقواس»، وقف «زهلول» وبجواره «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» أمامي وكانا ينظران إلى الصولجان، سألني «زهلول»: «ماذا ستفعل به؟».

قالت «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة»: «لا حاجة إليك به بعد الآن».

قال السيِّد «نبيل» في رجاء: «وددت لو كنت تستطيع إنقاذ ولدي به، لكنَّ الأوان قد فات».

غمزني السيِّد «نبيل» ففطنت لمراده، وضربت الصَّولجان على صخرة كانت على مقربة منِّي فتهشَّم وتفتت الصولجان فانقضَّا عليه يتصارعان ودارا في الهواء، قال السيِّد «نبيل»: «كنت على يقين أنَّ هذا سيحدث!».

- لا ألومهما! لقد كدت أفقد نفسي، أفقد «توفيق» الذي أعرفه.

- حمدًا لله أنَّك تخلَّصت منه، والآن عُد إلى «أرض الأقواس».

- وأنت متى ستعود إلى الوطن يا سيِّد «نبيل»؟ ألم تشتق لممارسة الطبِّ؟

قال في حزن وأسى: «لا أستطيع مغادرة أرض مملكة البلاغة، قلبي المكلوم معلَّق هنا».

- آسف لما حدث لولدك.

- سأظل أبكيه هنا للأبد، ولتعلم أن لقائي معك خفف عنِّي كثيرًا.

انصرف السيِّد «نبيل» تاركًا في نفسي حزنًا عميقًا وكأنَّ أحدهم وخزني في قلبي، ظلَّت عيناي عالقتين به وهو يسير مبتعدًا، التفت عدَّة مرَّات ولوَّح لي وكأنَّه أبٌ على سفر ويودِّع ابنه وهو لا يعرف متى سيلقاه مرَّة أخرى،

حزنت لما حدث لولده وأدركت مدى حزنه وألمه. ودَّعت «العماليق» وكنت متعبًا للغاية، فكلُّ ذرَّة في جسدي تؤلمني، ولقد أُصبت بالكثير من الخدوش والجراح من العفاريس، وكان أحدها في صدري وقد بدأ يحرقني. عليَّ الآن أن أدخل إلى «أرض الأقواس» لكنني لم أقدر من فرط التعب والإرهاق بعد تلك المعارك التي خضتها اليوم، وكنت أقاوم جفنيَّ وهما ينسدلان رغمًا عنِّي، فقررتُ العودة إلى بيت «الرَّمادي» لألتقط أنفاسي وأرتاح لأعاود رحلتي في «أرض الأقواس» من جديد، فـ «القلقديس» هناك بجنوده، ولا بدَّ من الاستعداد لمواجهتهم. عندما وصلت أخبروني أنَّ أمَّ «كو» قد أنجبت فتاة جميلة فأسعدني هذا جدًّا، ولا ريب أنَّه أسعد «كو».

«مملكة الشَّمال»

دلف «أمان» قصر الملك بعد أن اغتسل وبدَّل ثيابه، كان أنيقًا ذا هيبة كعادته عندما دخل ديوان الملك وثيابه مضمَّخة بالعطر، هشَّ الملك وبشَّ له عندما رآه فقد كان مُشتاقًا له، عندما اقترب منه قام وعانقه طويلًا ثُمَّ قال: «طال غيابك يا بنيَّ! أين كُنت؟».

- هنا وهناك يا أبي.
- أما زلت تتجوَّل بين النَّاس وتخفي هويَّتك؟
- بلى، وأستمتع بهذا.
- ومتى ستعود للإقامة الدَّائمة معي؟
- سأفعل يا أبي، ولكن أرجوك لا تمنعني من حريَّة التجوال.

أخذ الملك يتفرَّس في ملامح ابنه بإعجاب وقال في حنان بليغ: «أنت تعلم أنَّك وليُّ العهد الوحيد، ولا بدَّ أن تتدرَّب على كيفية إدارة حكم مملكة الشَّمال يا «أمان»».

- قضيت الكثير من الوقت في أروقة ديوانك يا أبي وتعلم يقينًا أنني رهن إشارتك وأستطيع إدارة شؤون المملكة إن أمرتني بهذا، لكنني حاليًّا أفضِّل التجوال لأتعلَّم من خلال احتكاكي بالنَّاس.

- أطلِعني على أسرارك! أراك دائمًا يلفُّك الغموض وكأنَّك تخفي أسرارًا عنِّي.

ابتسم «أمان» قائلًا: «يكفي أن تعلم أنني أرغب في الزَّواج».

- ما أسعدني بهذا الخبر! لك أن تختار من تشاء من أجمل بنات الملوك، أو اترك الأمر لي ولأمِّك لنختار لك من تليق بك.
- هذا ما أعادني إلى المملكة يا أبي، لقد التقيت من ملكت فؤادي وجوارحي وأسرت عقلي.
- مرحبًا بالبشريات، أخبرني عن اسمها واسم أبيها ومن أي الممالك هي؟
- هي من «أرض الأقواس»، لكنَّها تعيش في «غابة البيلسان».
- لماذا؟
- سأخبرك بكلِّ شيء يا أبي.

بدأ «أمان» يروي لأبيه عن «الحوراء»، وكان أبوه ينصت إليه وهو يعبث بلحيته، خلع تاجه ومدَّ قدميه أمام ولده وبدا عليه عدم الاقتناع بما يسمعه، لكنَّه كان حكيمًا وصبورًا، ترك «أمان» يُخرج ما بصدره وأنصت إليه طويلًا حتَّى النِّهاية، وطلب منه أن يمهله ليُفكِّر في الأمر. في غضون ساعات قليلة كان القصر ممتلئًا بزوار الملك، فالجميع سمع بعودة «أمان» إلى بلاط قصر أبيه، أحاطت به الأميرات من كلِّ الجهات، كان رأسه يطفو وسط الزِّحام كجذع شجرة يحمله ماء النَّهر في كلِّ اتجاه، لزم الصَّمت وكان صمته عامرًا بالأفكار، انتشل نفسه من بينهم وبحث عن أقرب شقيقاته لقلبه وجلس معها في حديقة القصر لينصت إلى ثرثرتها بذهن شارد، وعندما سكن القصر وخلد الجميع للنَّوم، تسلل «أمان» من جديد بثياب العامَّة وخرج من «مملكة الشَّمال».

١٨
"أرض الأقواس"

لم أنم سوى سويعات قليلة فقد كنت أتعجَّل استرداد كتابي، عالجت جرح صدري الذي كان يحرقني قبل أن أخرج من «مدينة الرَّباب»، رافقني «الرَّمادي» وبعد انتقالي بخنجري ألفيته يطوف في الأجواء فوق حدود «أرض الأقواس»، خطوت فوق الأحجار لأدخلها فعادت إليَّ صورة «أبادول»، توجَّهت صوب مقرِّ «العسَّاسين» لألتقي «نوب» لكنني لم أجده ولم أجد أي أثر لواحد منهم، كان المكان خاليًا والخيام ممزَّقة، حتَّى القطط ليست هناك! برزت الظلال السَّوداء من كلِّ حدب وصوب، داروا حولي وأطلقوا أنينًا يُشبه البكاء، سألتهم من جديد: «من أنتم؟».

لم يأتني الجواب، لكنَّهم جلسوا أمامي تمامًا كما جلس العساسون ليكتبوا ما أمليه عليهم، ثُمَّ أقبلوا عليَّ من جديد، أغمضتُ عيني وحاولت أن أصفي ذهني لأفهم، وعندما فتحتهما رأيتهم يطلقون الرُّموز والحروف حولي لتطير في الهواء، أدركت أنَّها الكتب، نعم هي الكتب وكانت هي طوال الوقت، تلتصق بكلِّ فرد من أهل أرض الأقواس وتلازمه، تودُّ لو انتبه لها ولتاريخه وهويَّته وقيمه وحضارته، لكنَّهم لم يلتفتوا إليها ودهسوها بأقدامهم، انطلقت أحدِّث الظلال السوداء وقلت لهم: «أعلم أنَّكم ترفضون إظهار كلماتكم إلَّا بين يدَي

من يؤمن بها بحق، وإنني هنا لأحارب لاسترداد كلماتكم بتحقيق ما فيها من قيم، وكذلك يفعل غيري من الوافدين، ولهذا عدت إلى أرض الأقواس ولن أرحل إلَّا بعد استرداد كتاب «أبادول» بإذن الله».

سكن أنينهم، واجتمعوا تحت أقدامي، وافترشوا الأرض فأصبحت أسير ولي العديد من الظلال، انتقلت إلى حانوت الحدَّاد وعندما رآني سألني عن سبب غيابنا فأدركت أنَّ «نوب» لم يأتِه منذ أن غادرناه آخر مرَّة حين أُصبت بحرق في كفِّ يدي بسبب الجمرة التي أبعدتها عن الصَّغير، أجفل عندما رأى الظِّلال تجتمع تحت قدمي ونادى رفاقه فأسرعت بالرَّحيل واستخدمت خنجري.

انتقلت إلى قصر الأميرة «فاتي» وكان خاليًا، لا أثر للخدم والوصيفات! سمعت أصوات الجنود في الحديقة فاقتربت من النَّافذة ورأيتهم بثيابهم السَّوداء فأدركت منذ النظرة الأولى أنَّهم ليسوا من أهل «أرض الأقواس»، ولا ريب أنَّهم جنود الملك «القلقديس».

وقفتُ حائرًا، انتقلت إلى ملجأ النِّساء فوجدتهنَّ يملأن أروقة الملجأ وكنَّ في حالة يرثى لها وكأنَّهنَّ في مجاعة، وكان الأطفال يستلقون هنا وهناك وقد غاب النشاط عن وجوههم!

لم يبق لي إلَّا مكان واحد، انتقلت إلى بيت «دهيبة» بجوار بيت «أبادول»، وعندما رأتني قالت بخفوت: «عاد «أبادول»!».

لم يكن صوتها مفعمًا بالحيويَّة كما رأيتها عندما دخلت «أرض الأقواس» في المرَّة الأولى، كانت حزينة وقد فقدت بعضًا من وزنها، همست تسألني: «هل «كو» بخير؟».

- نعم بخير، رُزقت أمُّه بأنثى.

لاح بريق فرحة محزونة في عينيها، كانت متعبة وكأنَّ جبلًا يرسخ على كتفيها.

أقبل شقيقاها فسألتهما عن «سونو» فأخذاني إليه، عندما رآني سألني: «أين كنت يا.. «أبادول»؟».

أدركتُ عندما لم يُنادني باسمي أنَّه لم يُخبر أحدًا بحقيقتي فقلت له: «حملت ابنة «سيدون» إلى «غابة البيلسان»، وعندما عدت لم أتمكَّن من دخول أرض الأقواس فقد كان الجنُّ يحجبونها».

أشار إليَّ لأتبعه ليكون الحديث خاصًّا بيننا وقال: «أنقذت طفلة واحدة وأوقعت أرض الأقواس بأكملها بين براثن ملك ظالم، لو منحته الكتاب لنجونا جميعًا، لا أحد يعرف بهذا، يظنُّ الجميع أنَّه يريد منك كتابات «أواوا»».

- لو أعطيته الكتاب ستهلكون جميعًا، إنَّما يرغب في الكتاب لتزييف كلِّ شيء والقضاء على كلِّ ما هو جميل!
- لقد قضوا على كلِّ ما هو جميل بالفعل!
- ما الذي حدث يا «سونو»؟
- دخل «القلقديس» أرضنا بجيشه، وكان معه ساحر لديه خدم من الجنِّ أطلقهم علينا فقلبوا أرض الأقواس رأسًا على عقب، حاولنا الفرار ولم نتمكَّن، عشنا أيامًا وليالي لم نذق فيها طعم النَّوم، الكثيرون في السِّجن، وهناك من قُتل ظلمًا وبُهتانًا، ألقى السَّاحر على الملك «يويا» تعويذة فأفقده عقله وانطلق يجري في الطرقات كالمجنون، لم يتعرَّف على أحد سوى أخته «فاتي».
- وأين هي الأميرة «فاتي»؟
- في قصر «القلقديس» ومعها «يويا»، عندما أسرها طلبت منه أن يبقي على أخيها في رعايتها مقابل أن تتنازل له عن الحكم وعن قصرها وكلِّ شيء، فألحقها بالقصر لينصاع أهل أرض الأقواس له.
- وأين «نوب»؟
- في السِّجن، الملك ينتظر عودتك من أجله، لا يزال السَّاحر يُردد أنَّك ستعود، يطلبون كتابات الأمير «أواوا» كلَّها، والكتاب الآخر الذي كُنت تحمله.

ثم قال «سونو» وهو يقلب يديه: «لقد اختفت كلُّ الكتابات التي أمليتها على العسَّاسين من البرديات والعظام والكرانيف التي دوَّنوها عليها بعد رحيلك».

- ستظلُّ تختفي وتختفي حتَّى تعثر على من يؤمن بها.

- وما الحل الآن؟

- سأذهب بنفسي للقاء «القلقديس»، وليكن ما يكون.

رفضتُ أن يُرافقني «سونو» فرحلت وحدي، دخلت قصر «يويا» الذي أصبح قصر «القلقديس» بواسطة خنجري ووقفت أمام العرش فرأيته بقامته الطَّويلة وعينيه السوداوين وشعره الغزير الأسود الفاحم، حرَّك رأسه فماج شعره النَّاعم على كتفيه وانتبه حين رآني، كان يجلس في انتظاري وبجواره يقبع «سورنجان» بسحنته التي تشبه كرمة العنب الذَّابلة وقرطه الذي يتدلَّى من أذنيه الطويلتين، قال بصوته الأجشِّ عندما رآني: «ها قد عاد «أبادول»».

وقف «القلقديس» وسار نحوي وقال بازدراء: «هل نناديك بـ «أبادول» أم «توفيق»؟».

أدركت أنَّه علم بحقيقتي فقلت باعتزاز: «قُل ما تشاء فأنا أعرف نفسي جيِّدًا».

أمسك بوجهي فأقبل حارسان ووجها سيفيهما تجاهي كي لا أتحرَّك فخمش جلدي بأظفاره وقال: «لو سلخنا جلدك هل سنجد جلد «توفيق» تحته؟».

- ستجد روح مُحارب.

- ماذا؟ محارب؟

انطلق يضحك في سُخرية، عاد إلى عرشه وقال بخيلاء: «أين الصُّقور الآن؟ أين «الرَّمادي» البائس؟ الآن تُدرك أنَّ الصقور لا قيمة لها».

- ماذا تُريد من «أرض الأقواس» وسكَّانها؟

- صارت مملكتي.

- ليس لك سُلطان عليها.

- وما الذي تراه أمامك أيُّها الأحمق!
- مُلك مسلوب، وكلٌّ مسلوب زائل.
- أعطني كتابك إن أردت أن تخرج من هنا حيًّا، وسأعيدك إلى بيتك سالمًا وأعدك ألَّا تهاجمك الغربان مرَّة أخرى.
- وإن قُلت لا؟
- ستموت!

قال «سورنجان»: «الوافدون مخلصون لأصدقائهم، يؤلمهم أن يُعذَّبوا.. ما رأيك بالقليل من اللهو والتسلية يا جلالة الملك؟».

ضرب «القلقديس» بيده على مقبض عرشه وقال: «مرحبًا بالمتعة!».

أشار إلى جنوده فداهموني بغتة وكان عددهم كبيرًا، جرَّدوني من حقيبتي وخنجري وخلعوا قميصي وأخرجوني عاري الصَّدر إلى ساحة واسعة أمام القصر، أمرهم أن يُقيِّدوني على عمود ويتركوني ليوم كامل في العراء، ففعلوا وبقيت وحيدًا، مرَّ الليل كئيبًا طويلًا، انتظرت أن يظهر «زهلول»، أو «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة»، فلم يظهر أحد. ظننت «سونو» سيأتي ليُحررني فلم يظهر هو الآخر، رفعت رأسي للسَّماء أنتظر ظهور «الرَّمادي» فلم أجد له أثرًا. عُدت إلى نفسي ألومها، كيف أنتظر من الخلق عونًا ولا ألوذ بخالقي، فبدأت أدعو وأبتهل وسط عتمة الليل وظلمته، كانت الرِّياح شديدة وحملت رذاذًا باردًا معها، وبدأ البرد القارس ينخر في عظامي وما عدت أشعر بأنفي وأذنيَّ.

مضى نصف النَّهار وأنا مقيَّد كما أنا، أرادوا أن يهزموني ويجبروني على الإفصاح عن مكان كتابي. أقبل أربعة من الجنود وضرب أحدهم ناقوسًا فاحتشد النَّاس حولنا وأقبلوا من أبواب القصر، أحضروا «نوب» الذي صاح عندما رآني وناداني باسمي في تلعثم شديد، أدركت أنَّه عانى كثيرًا فعاد إلى تخبُّط لسانه، أشفقتُ عليه وأنا أراهم يربطونه على عمود كما ربطوني على الآخر، خرج «القلقديس» ومعه «سورنجان» وأشار إلى جنوده فبدؤوا يخيفون «نوب» بأسياخ الحديد المتَّقدة ولسعوه في جسده فأثاروا غضبي، صحت عليهم ألَّا يفعلوا فأشار إليهم ملكهم فبدؤوا يجلدونني على ظهري،

حبستُ أنفاسي وتحمَّلت الجلد، وكان يوقفهم بعد كلِّ عشر جلدات ويسألني عن الكتاب فكنت أرفض الكشف عن مكانه، صحت في مرَّة منها: «لو كنت رجلًا بحقٍّ لصارعتني رجلًا لرجلٍ لكنَّك غراب جبان وحقير».

اقترب منِّي وسدد ضربة قويَّة لعيني فغابت الرؤية عنها، ظلَّ يروح ويجيء وكأنَّه لُدغ من عقرب للتوِّ، شعرت أنني أطلقت سهمًا أصاب كبرياءه وغروره، بدت آثار صراعه النَّفسي على ملامحه فبدا وجهه كالجورب المقلوب، شبَّك أصابع يديه وثناها فسمعت طقطقة مفاصلها، زفر بحنق ووقف يكزُّ على أسنانه ثم أشار إلى جنوده ليحلُّوا وثاقي، خلع عباءته وألقاها وقال بخيلاء: «أقبل لموتك أيُّها الأحمق».

كان عليَّ اجترار كلِّ ما تعلَّمته سابقًا في حياتي عن القتال والمصارعة، فالآن أنا وخصمي بلا سيف أو سلاح رأسًا برأس، وذراعًا بذراع، ليس المهم كثرة الضربات، إنَّما الأهم أن تكون ضرباتي قاصمة، على الرغم من آلام ظهري وعيني تحاملت وبدأت أناوشه ونسيت أيَّ وجع في جسدي، فقد كانت طاقة التَّحدي في داخلي تطغى على تلك الأوجاع، نلت منه ضربات شديدة، وألقمته ضربات أشد، وطال شجارنا بالأيادي، شددتُ قبضتي واستجمعت فيها قواي قدر استطاعتي وضربته فأصبته في عظام وجهه فأطلق صيحة من شدَّة الألم وظلَّ يثب في مكانه، بدأت أركله بساقي واقتربت منه حتَّى استطعت لفَّ ذراعي حول عنقه، بدأت أعصرها وكدت أسقطه أرضًا لولا إشارته لـ «سورنجان» الذي ردد شيئًا وأشار إلى يدي فشعرت بوخزة فيها فتركت عنق «القلقديس» فضربني الأخير على ساقي بقوَّة فانثنت ركبتي وآلمتني بشدَّة، كان الحضور يراقبوننا وكأنَّ على رؤوسهم الطَّير، هرول مبتعدًا وأشار إلى جنوده فقيَّدوني من جديد، أمرهم بإلقاء «نوب» في بئر قريبة، فأخذ يصرخ ويستغيث، قال «القلقديس» موجهًا كلامه لي: «في تلك البئر حيَّة تستطيع التقام رجل بأكمله، إن أردت إنقاذ صديقك فأعطني كتابك، فأنا لن أقتله بضربه واحدة ولكنني سأجعلك تسمع صراخه وهو ينازع».

- سأفعل ولكن لتتركه أوَّلًا.

أشار إليهم وكانوا قد ربطوا «نوب» بالفعل، فتوقَّفوا بجوار البئر، ناديت «دهيبة» وكانت بين الحضور وقلت لها: «أعطهم الكتاب يا «دُهيبة»».

أخرجت «دُهيبة» الكتاب وسط ذهول من حولها فالتقطه الجنود وصاروا يتناقلونه حتَّى استقر في يد «القلقديس»، مسَّ غلافه بأطراف أصابعه وابتسم ورماني بنظرة غادرة وقال لجنوده: «اقتلوهما».

أنزل الجنود «نوب» إلى البئر وصوت صراخه ونحيبه واستغاثاته لا ينقطع.

بيت العائلة

«الفيوم»

توقَّف «أنس» عن سرد حكاية «أبادول» عندما لاحظ بكاء ابنته «فرح»، قالت ووجهها مخضَّب بالدُّموع: «هذا كثير، ألا يكفي ما تعرَّض له من ضرب وما خاضه من معارك تسببت له في جراح بليغة، وما عاناه من سمِّ النَّاب في «غابة السنُّور»؟ يُجلد ويُعذَّب أيضًا في «أرض الأقواس»! وهو شاب لا يزال في الخامسة والعشرين من عمره! هذا كثير».

عادت إلى البكاء فأبكت أمَّها وعمَّتها وجدَّتها «دولت»، عضَّ «أنس» على شفتيه ليمنع دمعة طفرت من عينه فقد كان يعرف عن «أبادول» أكثر مما رواه وأفصح عنه، ورأى على جسده علامات جروح قديمة وهو يغسِّله ويكفِّنه، همس بعد أن استعاد رباطة جأشه: «هذا دأب المحاربين الشرفاء».

كفكفت «فرح» دموعها لكنَّها واصلت الانزلاق على وجنتيها، همست وشفتاها ترتعشان: «أكمل يا أبي أرجوك».

عاد «أنس» يحكي وقد لمس الحزن والحنين أفئدتهم وهم ينصتون إليه...

«توفيق»

كانت الدِّماء تسيل من جراحي وظهري يؤلمني للغاية، لم أعد أشعر بعيني اليمنى فقد تورَّمت بشدة، وهناك ألم شديد ينخر عظام ساقي اليسرى،

رأيت أقواس جنود «القلقديس» موجهة نحوي وهم يستعدُّون لرمي صدري بها، وقفت بثبات ورددتُ الشَّهادتين وأغلقت عينيَّ، كانت البئر الَّتي أنزلوا فيها «نوب» قريبة منِّي، تلفَّتُّ باحثًا عن وجه أطمئنُّ إليه قبل أن أموت فرأيت «سونو»، و«دهيبة»، حتَّى «أمان» وصل هو الآخر! وكان الحزن يكسو وجوههم، أومأ لي «أمان» برأسه ثُمَّ رفع صوته قائلًا: «انظروا إنَّه صقر عظيم!».

التفت الجميع تجاه «الرَّماديِّ» الذي بدأ يطوف بهم في دأب فلكيٍّ ومن خلفه سرب من الصُّقور وملؤوا السَّماء فالتهى الجنود عنِّي، برز شباب «أرض الأقواس» ورفعوا أقواسهم وصعدوا فوق أكتاف رفاقهم وأنشؤوا في رمي جنود «القلقديس» بسهامهم في مهارة وخفَّة وكيف لا؟ ونحن في أرض الأقواس التي ترعرعوا فيها وتلك لعبتهم التي يتقنونها، أشهر «أمان» سيفه وأقبل علينا فخرج من بين الحشد رجل شديد عندما كشف اللثام عن وجهه ارتجَّ قلبي، كان «الوشق»! الذي انطلق تجاه «القلقديس» وبدأ يُبارزه أمام الجميع وانتشرت فرقة من «أبناء السِّنور» فاضطرب الجنود فقد أخافتهم وجوههم وأنيابهم، أُصيب «القلقديس» في صدره بجرح بليغ فأطلق نعيقًا بائسًا وبسط جناحيه الأسودين العظيمين واستحال إلى غراب أسود عظيم وحلَّق مبتعدًا وتبعه جنوده تباعًا فتناثر بعض من ريشهم الأسود وهم يتحوَّلون إلى غربان، اختفى «سورنجان» فور رحيلهم.. ووقف شباب ورجال أرض الأقواس وهم لا يصدِّقون ما يرونه بأعينهم! رجال بوجوه نمور وأسود، وآخرون يتحوَّلون إلى غربان!

صرخ «نوب» ونادى مستغيثًا بعد أن بدأ الحبل الذي ربطوه به يتمزَّق، ركضتُ نحو البئر وحللت الحبل الذي كنت أتمنطق به وكانت «ناردين» قد جدلته بيديها، أردت أن أعقده حول معصمي وأمده نحو «نوب» ليتعلَّق بطرفه ويترك الحبل الآخر لكي أسحبه به، فور أن حللته من حول جذعي ارتفع لأعلى وتعلَّق في الهواء وكنت مذهولًا! جذبته فوجدته لا يسقط وكأنَّ هناك ما يثبِّته في الهواء، أخذ يمتد ويطول فتعلَّقت به وقفزت في البئر ونزلت صوب «نوب»، صرخ عندما شعر بنزولي فقلت لأطمئنه: ««نوب» لا تخف إنَّه أنا.. «توفيق»».

- الثعابين والعقارب تحتي ولو سقطت سأموت في الحال.

كانت أعين الحيَّات تضيء في الظَّلام، ومنها حيَّة رقشاء عظيمة لها عينان عظيمتان تبرقان، بدأت تتلوَّى وتُطلق فحيحها وتنتظر سقوطه لتلفَّه بجسدها وتكسِّر عظامه كما فعلت بالسَّابقين من المعاقَبين بأمر الملك «يويا»! كانت البئر ممتلئة بعظامهم وجماجمهم، نزلتُ بحرص حتَّى وصلت إلى «نوب» وكان يتعلَّق بحبل البئر الذي أوشك أن ينقطع، احتضنته فترك الحبل وتعلَّق بي، رفعت عيني وحرَّكت الوشيجة فرفعتني أنا و«نوب» لأعلى، خرجنا من البئر وما زلت في ذهول من أمر تلك الوشيجة التي اقتطعها «بَلُّوط» وألقاها لي بلا اكتراث وكنت لا أعرف قيمتها، سرت مع «نوب» وكنت أعرج على ساقي المصابة بينما الدِّماء تسيل من جراحي وتلطِّخ الأرض حيث أخطو بقدميَّ، لم أعد أرى بعيني التي تورَّمت بشدَّة، تجمهر أهل أرض الأقواس على الجانبين، سأل أحدهم باستنكار: «من هذا؟».

صاح من بجواره: «وجه غريب!».

توقَّفت متعجِّبًا والتفتُّ نحوه! وإذا بهم جميعًا ينظرون إليَّ في استغراب، قال آخر: «أين «أبادول»؟ لقد قفز أمامنا في البئر؟».

رفعت يدي فوجدت بشرتي قد عادت إلى لونها الطَّبيعيِّ فأدركت أنَّ صورتي الحقيقيَّة قد عادت إليَّ، سألني أحدهم وهو يدفعني بقوَّة في صدري وكان غاضبًا: «ماذا فعلت بـ «أبادول»؟».

صاح «نوب»: «اتركوه!».

سحبني أحدهم من ذراعي وسألني: «من أنت أيُّها الغريب؟».

- أنا «توفيق».

- لا ريب أنَّه غراب مثلهم!

بدؤوا يدفعونني بينهم بعنف وفصلوني عن «نوب» فصحت بهم مرارًا: «دعوني وشأني.. ابتعدوا!».

سمعت فتاة من بين الحضور نبرة صوتي فصاحت بهم: «اتركوه!» وأشارت إليَّ قائلة: «إنَّه صوته الذي لن أنساه أبدًا.. هو «أبادول» الذي سترني بالسُّوق عندما نزع جنود الملك عنِّي ثيابي».

قال آخر وهو يحملق في وجهي: «عينه تورَّمت من أثر الضرب الذي تلقاه أمامنا، وها هي آثار الجلد بالسِّياط لا تزال على جسده».

وقال غيره: «يعرج على ساقه التي ضربه عليها ذلك المأفون أمام أعيننا، إنَّه هو «أبادول»!».

أقبلت «دهيبة» ونظرت إلى وجهي وقالت: «كان «كو» على حق! لن أخطئ أبدًا في تلك النَّظرة الحانية.. إنَّه «أبادول»».

استطاع «نوب» اختراق الزِّحام ووقف بجواري لأتكئ على ذراعه، صاحت امرأة ليوسِّعوا لها الطريق وكانت تحمل صغيرها فتركوها لتمرَّ من بينهم وهم يراقبونها في فضول، أقبلت عليَّ قائلة: «ابسط يدك أيُّها الشَّاب».

وعندما بسطتُ كفِّي تفحَّصتها باحثة عن أثر الحرق من الجمرة الَّتي أبعدتُها عن ابنها فقالت: «والله هو! لقد أبعد الجمرة عن وجه ولدي بكفِّه تلك ولا يزال أثر الحرق عليها!».

تعالت الأصوات حولي وهم يُرددون اسم «أبادول»!

أقبلت زوجة «سيدون» وهي تحمل رضيعها ومن خلفها ابنها الأكبر ووقفت تسألني: «إن كنت حقًّا «أبادول» وقد حملت ابنتي إلى «غابة البيلسان» فأخبرني عن رسالة ابنتي لي عندما سلَّمتها للحكيم «سامي كول»».

- طلبت منِّي أن أمنحك عقدها الذي صنعه «سيدون» لها، كنت أحمله في حقيبتي لكنَّهم سلبوني إيَّاها.

سالت دموعها وقالت بخفوت: «لقد أنقذت ابنتي ولم تكن مجبرًا على هذا، ولم يكن «أبادول» الحقيقيُّ ليفعلها!».

ثُمَّ رفعت صوتها مرددة: «إنَّه «أبادول»!».

بدؤوا يلمسون رأسي وأنا أمرُّ بينهم فشعرت بعطفة شديدة تجاههم، كانت الأميرة «فاتي» على مقربة وبجوارها «سونو» فأقبلت وهي في حالة حزن شديد، أبعدهم «سونو» بإشارة منه لتقترب منِّي، تمعَّنت في وجهي وقالت: «كدت تفقد حياتك أيُّها الشَّاب!».

ثمَّ رفعت صوتها قائلة: «لقد مات «أبادول» الذي كنا نجلُّه ونحترمه، وأمَّا هذا الشَّاب فهو «أبادول» الذي نُحبُّه».

علا هتافهم فسالت دموعي، اقتربت «دهيبة» وهي تحمل الكتاب بعد أن التقطته من الأرض وقالت: «لقد ظهرت الكلمات كلُّها! يبدو أنَّ مهمَّتك انتهت يا.. «أبادول»!».

كنت أعلم أن «دهيبة» ستحافظ على الكتاب ولن تُفرِّط فيه، لم أجد من أستأمنه عليه سواها وقد رأيت صدقها في حبِّ «كو»، أخبرتها أنَّ تغيُّر محتوى الكتاب وتزييفه سيعرِّض حياة الغلام للخطر وقد يموت، فأقسمت أن تخفيه عن الجميع حتى أعود، فقد خشيتُ أن أخرجه من «أرض الأقواس» معي، فقوانين تلك المملكة الغريبة لا تزال مبهمة لي، وما زلت أحاول فكَّ شفراتها، حملتُ الكتاب وكنت ممتنًّا لها بشدَّة، ابتسمتُ فهي على بساطتها لم تدرك أنَّ «القلقديس» يطلب الكتاب وذلك لأنَّه فور دخوله فرَّق بينها وبين «فاتي»، وحتَّى «سونو» لم يتوقَّع أن يكون الكتاب معها فانصرف عنها وعن زوجها وأخويها وأقام بمكان آخر.

كانت عناية الله تشملني بحفظ ذلك الكتاب مع تلك المرأة البسيطة، لم تملك دهاء عقل «فاتي» ولا قوَّة ذراع «سونو» لكنَّها تملك قلبًا صادقًا ووفيًّا لـ «أبادول» وحفيده.

فتحت الكتاب ورأيته ممتلئًا بالجمل حتَّى آخر صفحاته، الآن سأرتاح فقد اكتملت كلمات كتابي ولن يستطيع «القلقديس» أو غيره تحريف ما به، سأملي شباب أرض الأقواس كتابات «أبادول» التي في ذاكرتي المستعارة، وأنا على يقين من أنَّها ستختفي من البَرديَّات والأوراق والألواح لتحمي نفسها

من التحريف، حتَّى تعثر على من تثق به ليستردَّ كلماتها وتتحرر على يديه، سأريح قلوبهم ليروها بأعينهم!

كانت الظلال لا تزال تلتصق بقدمي، رآها الجميع وهي تتصاعد تباعًا وتترك الأرض وتتبع بعضها بعضًا، رحلت ظلال الكتب عن أرض الأقواس وتبعها «الرَّمادي» محلِّقًا بجناحيه ليتفقَّد طريقها وأين ستحطُّ برحالها، وعندما عاد أخبرني أنَّها دلفت كهوف الجبل الأحمر، ذلك الجبل العظيم الأيهم الذي رأيته فور وصولي إلى مملكة البلاغة وكانت السُّحب الحمراء التي تكاثفت من دماء الوافدين المهدورة تحيط بقمَّته البيضاء في حلقات، فأدركت أنَّها أوت إلى ذلك الجبل تكريمًا لهم.

مضى الوقت وجميع سكان «أرض الأقواس» يسيرون في شوارعها ويحتفلون، ويوزعون الأطعمة والأشربة وألوانًا من الفاكهة على بعضهم بعضًا، كنت متعبًا للغاية وأرغب في الهروب من كلِّ هذا الضَّجيج.

بعد انتهائي من حديثي مع «الوشق» حيث شكرته بشكل يليق به، وقدَّمت إليه الكتاب ليتصفَّحه كما وعدته، وأخبرته بتفاصيل القصَّة المدوَّنة فيه التي تحتوي على قصَّتي كـ «أبادول» على أرض الأقواس وما لاقيته، سألته: «هل ستسمح الآن بتداول الكتب بين «أبناء السِّنور»؟».

- وكيف لا أفعل وقد رأيتك تعرِّض نفسك للخطر والموت من أجل كتاب!
- ما زلت في حيرة وأتساءل عن سبب خروجك بنفسك من «غابة السِّنور»؟ وكيف علمت بما يدور على «أرض الأقواس»؟
- جاءني أمير في موكب شرفيٍّ، عرَّفني بنفسه وأنَّه ابن حاكم «مملكة الشَّمال» ووليُّ عهده، وأخبرني أنَّه صديق لك وأنَّك مسحور وتظهر بوجه آخر وحياتك عرضة للخطر وطلب مني العون.

أشار إلى «أمان» فأدهشني ما سمعته! كاد ينصرف فاستوقفته وقلت له: «هل لي بطلب ورجاء؟».

- لك هذا يا صديقي.
- «الخيفاء» و«المارج».

ضحك وهو يقبض على يدي وقال: «أعرف أنَّه يُحبُّها ويعشقها حدَّ الصَّبابة، وسأزوِّجها له».

ثُمَّ همس قائلًا: «لا أفضِّل الإناث الغارقات في العلم حتَّى آذانهنَّ، كما أنني سأتزوَّج اليوم من جميلة من جميلات «السِّنور»، ولا بد من الإسراع في العودة إلى الغابة فالاحتفالات قائمة منذ الأمس، ما رأيك أن تنضمَّ إلينا؟».

انصرف «الوشق» مع جنوده ومن خلفهم خرج أهل «أرض الأقواس» يودِّعونهم بالهتاف، صفحة جديدة فتحها «الوشق» على البقاع الأخرى، لن يُغلق حدوده بعد الآن وسيسمح لشعبه بالتعارف على سكان البقاع الأخرى.

أقبلت على «أمان» وسألته: «لماذا لم تُخبرني أنَّك أمير، وأنَّ أباك هو حاكم «مملكة الشَّمال»؟».

- لا أرغب في تعريف نفسي بتلك الطريقة.

- ما الضرر في معرفتي لذلك؟

قال في تواضع: «يعاملني النَّاس بطريقة مختلفة، ولا أحبُّ هذا».

- ولكن...

قاطعني قائلًا: «دعك من كلِّ هذا، أريد نصيحتك في أمر مهم».

- ما هو؟

- أريد أن أتزوج.

- يا إلهي! ما بكم يا شباب؟ «نوب» قبلك وها أنت الآن؟

قال وهو يتخبَّط في حرج: ««الحوراء» ملكت روحي».

- هل رأيتها جيدًا و..

قاطعني قائلًا: «لا تُحدِّثني عن ملامحها فأنا أراها جميلة!».

- حسنًا.

- نظرت إلى عينيها وتعرَّفت على روحها التي بين جنبيها، وتحدَّثت معها حتَّى إنَّ والدها أخبرني عما يُلاحظه على هؤلاء الفتيات من زهدهنَّ في

العاطفة والحبِّ لكنَّ «الحوراء» تختلف، وكأنَّ في عينيها سحرًا ما! وذلك عصيٌّ على الشَّرح فذاك الشَّيء الغامض وقع في قلبي هنا.

- ولكنَّها لن تخرج من «غابة البيلسان»!

- لأتزوَّجها هناك، وأبني لها قصرًا وأقيم معها ومع أهلها بالغابة.

- وتترك مُلك أبيك ومملكة الشَّمال؟

- هذا ما يوجع قلبي، فأبي لن يوافق، لكنني سأصبر وسأظلُّ أُلحُّ عليه حتَّى يرضى.. فلم أعتد فعل ما يُخالف أبي فأنا أُجلُّه وأحترمه.

- وكيف ستُقنعه؟

- لا تسألني عن هذا الآن.

- عدني أنْ تُرسل «الرَّمادي» حين تقيم هذا الزِّفاف.

- أعدك يا «أبادول»!

ضحك وهو يرددها وما عاد يُناديني إلَّا بها.

كان «الرَّمادي» يُحلِّق فوقنا، وددت لو قفزت إلى «مدينة الرَّباب» لأعانقه، أقبل «سونو» بوجه مشرق وهمس لي: «سأتزوَّج «فاتي»».

ضحكت فأوجعني فكِّي وآلمتني عيني، ووضعت يدي على ضلوعي المصابة واستمرت نوبة الضَّحك ولم تنقطع، على الرغم من شعوري بحرارة التهاب آثار الجلد بالسِّياط على ظهري ضحكت، بدأت أقهقه حتَّى ضحك كلُّ من حولي عندما رأوني أضحك بهستيرية، التفَّ حولي شباب «أرض الأقواس» وضجَّ المكان بالضَّحك، مضت الليلة لطيفة لكنني كنت أحتاج إلى دخول قسم العناية الفائقة بأكبر مستشفيات الفيُّوم، ولكن أنَّى لي أن أرحل الآن!

عدت في آخر الليل مع «أمان» إلى مدينة الرَّباب، عالجوا جراحي بمساعدة أعشاب السيِّدة «مارماحوز»، ونمت نومًا عميقًا لم أذقه منذ وصولي وكنت أحتضن الكتاب.

عندما استيقظت في اليوم التَّالي كان السيِّد «سفيان» في ضيافة والد «الرَّمادي»، سلَّمته الكتاب وقُلت وأنا أضعه بين يديه: «ها هو كتابي كاملًا».

فتحه وبدأ يقرأ فيه، وأنصت الجميع إليه وهو يُردد الحكم والمواعظ، أمضينا وقتًا وهو يقرأ وجميعنا نستمتع بطريقته في الإلقاء، وكان بليغًا ومفوَّهًا، اكتفى بما قرأه وأغلق الكتاب والتفت نحوي وقال: «كتابك عن الشَّجاعة، لهذا اختارك يا «توفيق»، فأنت أهلٌ لذلك».

قال «الرَّمادي» باسمًا: «بل هو «أبادول»».

ضجَّ المكان بضحكاتهم، أردتُ أن أقترح شيئًا فقلت بلا تردد: «لا بدَّ من بناء مكتبة خاصَّة لتلك الكتب، أليس كذلك يا سيِّد «سُفيان»؟».

- بلى، سنحتاج إلى هذا بالفعل.

لاحظ علامات الإرهاق على وجهي فسألني: «أخبرني كيف حالك الآن؟».

- أشعر أنني كنت أخوض معركة شرسة، مع نفسي ومع النُّفوس الأخرى.

تمعَّن السيِّد «سُفيان» في وجهي وقال: «كانت رحلتك قاسية».

- جراح نفسي أعمق من جراح جسدي، ولا أدري متى ستلتئم.

- ستكون بخير.. أثق بهذا.

- عندما يستدعي كتاب جديد قارئًا آخر من عالمنا لا تقولوا عليه وافدًا، بل قولوا «مُحاربًا» وأخبروه بهذا، فمن يِفد إلى مملكة البلاغة يُحارب من أجل القيم المدوَّنة في الكتب.

- فليكن هذا أيُّها المُحارب النبيل.

كان لوقع الكلمة في نفسي أثر بليغ، مررت بعيني على الكتاب وهو بين يدَي السيِّد «سُفيان» وسألته: «هل أستطيع حمله معي إلى بيتي؟».

- لم أحمل كتابي إلى الديار من قبل، لكنَّني كنت أجده في مكتبتي من آن لآخر فكنت أعيده إلى الرفاق هنا، الكتب تشتاق لنا يا «توفيق».. أقصد يا «أبادول»!

- يبدو أنَّ هذا اللقب علق بي.

ضحك «الرَّمادي» وكان يتابع حوارنا، قال وهو يشير إلى أخيه «برهان»: «كنت أتحدَّث مع «برهان» في أمر الكتب، ماذا لو سُرقت من المكان الذي تحتفظون فيه بالكتب يا سيد «سُفيان»؟».

أجفلت عندما سمعت هذا، تذكَّرت كلَّ أخبار حرق الكتب التي قرأت عنها طوال حياتي لتدمير التراث العربي فأسرعتُ قائلًا: «ما رأيكم أن نبني مكتبة عظيمة نجمع فيها الكتب، ويتناوب الفرسان على حراستها».

أشرق وجه السيِّد «سُفيان» بابتسامة واسعة وقال لي: «هذا يعني أنَّك ستعود إلى «مملكة البلاغة»!».

- بالتَّأكيد.. وسأبذل قصارى جهدي دائمًا، تلك الكتب حيَّة تتنفَّس وتعيش وتشعر بنا، تناجينا وتموج بكلماتها بيننا، تفتح دفَّتيها لتحتضن أرواحنا المتعبة في كلِّ مرَّة نطالعها فيها، ترغب في وجودنا هنا معها على أرض «مملكة البلاغة»، ولن تتوقَّف عن البوح لنا بأسرارها أبدًا، وكما يُقال:

«إذا غَامرتَ في شرف مَروم فلا تقنع بما دون النجوم»[1].

- ألم أُخبرك أنَّك ستتعلَّق بها.

التفتُّ نحو «الرَّمادي» و«برهان» و«أمان» وقلت وأنا أنقل عيني بينهم: «لقد حظيت هنا بأشقَّاء وعائلة وأنا الوحيد في دياري».

أقبلوا يُعانقونني وكنت أتألَّم من مجرَّد لمسهم لظهري وكتفي.

وصلت «قطرة الدَّمع» مع أبيها فانصرف «الرَّمادي» وغرق في عالمه الخاصِّ، خرجتُ مع السيِّد «سُفيان» للتجوال حول البيت وتوغَّلنا في البساتين الخضراء هناك، كانت الصور التي رأيتها على صفحة «بنات الرَّعد» لا تزال تتوالى على ذهني، قُلتُ له وكان قد استوقفني ليتفحَّص عيني برفق: «لماذا لا يُغادر السيِّد «نبيل» مملكة البلاغة؟».

(1) من أشعار المتنبي ويقول فيه للإنسان عامةً إنَّكَ إذا دخلتَ في مُغامرةٍ وعرَّضت نفسك للخطر لطلب شرفٍ فلا تقبَل بأيَّة نتيجةٍ بسيطةٍ، ولا تقتنع بقدرٍ يسيرٍ أو قليلٍ منه.

- لم يتخطَّ ما حدث لابنه حتَّى الآن.

- هل تلتقيه وتتحدث معه؟ يبدو حزينًا ومنكسرًا للغاية.

- لا تظن أنَّه أتاني شوقًا للقائي فقد أتى خصيصى من أجلك فقد كان يخشى عليك، «نبيل» دائمًا غاضب ونادرًا ما يُخرج كلمة من فمه الصارم هذا.

- الصَّمت أحيانًا أكثر بلاغة من الكلمات، ما رأيته منه يشي بحزن عميق.

- حاولت أن أخفف عنه، لكنَّه يتحدَّث باقتضاب وكأنَّه يقتطع الكلمات من لحمه.

- من المنطقيِّ أن يميل إلى من أتوا من عالمه ويتحدَّث إليهم ليأنس بهم.

هزَّ كتفيه قائلًا: «أنت أوَّل من يفتح قلبه له، لم أتخيَّل أنَّه سيُرافقك إلى «مدينة النَّحاس»!».

- ألهذه الدَّرجة؟

- إنَّه عنيد، عندما وصل إلى مملكة البلاغة جرح الصَّقر الَّذي نقله لأنَّه حمله عنوة وألقى به في الغابة وكاد يقتله.

- أخبرني أنَّ السيِّد «شاهين» هو من كان يحمله.

ضحك قائلًا: «أجل.. كاد يقتله فأنقذته السيِّدة «مارماحوز» من بين يديه».

انتهى السيِّد «سُفيان» من فحص عيني وبدأ يفحص حرق يدي والجراح التي تغطيها، قلت له ولا تزال الهواجس تتقلَّب برأسي: «هؤلاء الفتيات في غابة البيلسان».

- ما بالهن؟

- يهمسن بالأحداث في الوقت ذاته الذي تقع فيه، لقد سمعت «السيِّدة الملونة» تهمس بقصَّتي وما مررتُ به، وأظنُّها سردت ما حدث بعد أن تركتها، ويبدو أنَّ «الحوراء» كانت تهمس بقصَّة السيِّد «نبيل»! لقد أخبرتني بنفسها أنَّها تسمع همس الرِّياح، ولقد رأيت وجوههن على صفحات «بنات الرَّعد».

- يبدو أنَّ «بنات الرَّعد» فتحت أمام عينيك سجلات كثيرة يا «توفيق».
- صدِّقني هناك علاقة وطيدة بين الكتب وهؤلاء الفتيات، ولذلك هن في خطر، لو علم الغربان بأمرهنَّ سيستهدفونهنَّ.
- علينا أن نذهب لزيارتهن.
- «أمان» يرغب في الزَّواج بـ «الحوراء»، يريد أن يُقيم هناك ويبني قصرًا لها، ولو تمَّ هذا سيحمي الحدود بجنوده.
- وهل سيقبل أبوه؟
- لا أدري.
- لنذهب أولًا للقاء هؤلاء الفتيات يا «توفيق».
- لقد طلبت من «الخيفاء» وهي طبيبة بارعة من «أبناء السِّنور» أن تصنع لهنَّ دواء ليستطعن الخروج من الغابة بعد تناوله، سأزورها قبل انصرافي لأرى نتائج أبحاثها.
- ليكن هذا قبل ذهابنا إلى غابة البيلسان، لعلَّها تستطيع اكتشاف علاجٍ لهنَّ.

رغبت في اقتراح شيء آخر فقلت وكنت جادًّا فيما أقوله: «لماذا لا نؤلف كتابًا يحتوي على خرائط لأرض مملكة البلاغة بقصورها وجبالها؟ ولأرض الواقع بكل التفاصيل حتى بيتي بالفيوم وبيوت كلٍّ من يصل إلى مملكة البلاغة، ونُضيف إليه مخطوطات للكواكب وأقمارها، وللنُّجوم لتحديد المواقع والأبعاد وقياسها بدقَّة شديدة».

قال السيِّد «سُفيان» في حماس: «سيُساعد هذا الصُّقور في التحليق والطيران وتحديد المواقع، فعندما يتحوَّلون إلى صقور يستطيعون حساب وتقدير المسافات، وأحيانًا يستغرقون وقتًا في البحث عن مواقع البيوت، لهذا ستكون الخرائط دليلًا مباشرًا لهم».

- وكأنهم يملكون بوصلة في رؤوسهم.

سعدتُ لأن الفكرة قد أعجبته، توقفت عن السَّير وسألته: «ماذا سنُسمِّيه؟».

ظهر السيِّد «نبيل» فجأة أمامنا وكأنه فتح بابًا ودلف منه، وكان يحتضن كتابًا كبيرًا له غلاف جلدي عتيق، قال «سُفيان» وهو يهزُّ رأسه: «ألم أخبرك أنَّك تخيفني بظهورك بتلك الطريقة يا «نبيل»! أطرق على الأقلِّ أبوابك التي تلج إلينا منها لننتبه، لا ريب أنك كنت تسمع حوارنا، أليس كذلك؟».

أشار إليه بيده ليُسكته وقال وهو يقطِّب جبينه: «صه يا «سُفيان»، لم آتِ من أجل سواد عينيك، أتيت من أجل «توفيق»».

- اسمه «أبادول»، صار هذا لقبه الجديد.

مطَّ فمه الصَّارم بابتسامة مصطنعة وتجاهله والتفت نحوي، بدا لي كيف هما قريبان من بعضهما على الرغم من تناوشهما، مدَّ السيِّد «نبيل» يده بكتاب ووضعه بين يديَّ وقال: «خذ يا «توفيق»، هذا كتاب «القُدمُوس»[1]».

- وما هو؟

- كتاب لم يتمكَّن صاحبه من إكماله، جمع أوراقه وخاطها معًا، ودبغ جلد غلافه بنفسه، وهو من نقش الاسم على غلافه بريشته، وكتب جملة واحدة واختفت.

قرأت عنوان الكتاب وتعجَّبت منه، أردف السيِّد «نبيل» قائلًا: «كان رحالة من «فلسطين» التقيته هنا على أرض «مملكة البلاغة»، أراد رسم خرائط لوطنه وما حوله، فليكن هذا هو الكتاب الذي نبدأ منه، لنرسم فيه الخرائط».

- وماذا إن لم يقبل الكتاب ما نخطُّه عليه وابتلع الحبر والكلمات والخرائط؟

- لم يكن على صفحاته كلمات من قبل، رسم خريطة القُدس ثم مات، وعلى أي حال.. افتح الكتاب وطالع صفحته الأولى.

---

(1) «القُدمُوس» كلمة تعني القديم والعتيق، وتعني أيضًا المَلك الضَّخم. وهو كتاب من أهمِّ وأخطر كُتب «المكتبة العظمى» وأقدمها وأعرقها، يحتوي على الكثير من الخرائط، بعضها مخطوط بالحِنطة، وبعضها مخطوط بالدِّماء، وبعضها مخطوط بالفحم الأسود، ومواد أخرى. ذُكر في رواية «سُقُطرى».

فتحت الكتاب فاقشعرَّ جلدي، كانت هناك كلمة واحدة وسطها: «توفيق»، اختفى اسمي فجأة وكُتب مكانه بحروف مُزيَّنة..

«مرحبًا أيُّها المُحارب!».

أجفل كلاهما وتبادلا النَّظرات، ثمَّ نظرا تجاهي وابتسما في آنٍ واحد. قال «نبيل» بصوته العميق: «أنت تحتاج إلى كتاب حيٍّ لتخطَّ عليه ما يخصُّ «مملكة البلاغة» وكُتبها وعالمها هنا، هذا الكتاب سيكون مختلفًا! سيتحدَّث عن تاريخ «المحاربين»».

- وما معنى كلمة «القُدمُوس»؟
- القديم والعتيق.. كُنت قد التقيت ذلك الرحالة قبل أن يموت، وهو الذي أخبرني بمعناها وأعطاني الكتاب قبل أن يفارق الحياة بين يدي، ليكن هذا كتابنا الذي نؤلِّفه معًا نحن «المحاربين».

أضاف «سُفيان» وهو يضع يده على كتف السيِّد «نبيل»: «سنشارك جميعًا في كتابته يا صديقي، أليس كذلك؟».

- بلى.

التفت نحوي وأضاف: «سأقيم بتلك المكتبة التي ستُبنى وسأحرس الكتب التي يستردُّ «المُحاربون» كلماتها».

- ألا ترغب في العودة إلى الوطن يا سيِّد «نبيل»؟
- وطني هنا، ولا بدَّ أن تظل الكتب تحت أعيننا.
- تلك تضحية عظيمة، الآن سنطمئنُّ على الكتب وهي في عهدتك بإذن الله.

عانقني السيِّد «نبيل» طويلًا ومدَّ ذراعه في الهواء ففُتح باب أمامه فدلفه، وانتقل كما أنتقل بخنجري واختفى مرَّة أخرى قبل أن أودِّعه، التفت السيِّد «سُفيان» نحوي وقال: «ذاك الرَّجل يُحبُّك بصدق».

عدنا إلى بيت «الرَّماديِّ» مرَّة أخرى، وكان «الرَّماديُّ» لا يزال هائمًا في عالمه، غارقًا حتى أذنيه في قطرة دمع واحدة! وكأنَّها أتت بعد ظمأ شديد

لتروي نبتة الحبِّ التي تبرعمت في صدره. كان يجلس هو و«قطرة الدَّمع» وسط أهلهما دون أن يتحدَّثا ودون حتى أن ينظرا إلى بعضهما، لكنَّ السعادة تفترش ملامحهما، يكفي أن تكون بجوار الحبيب في المكان نفسه، تتنفَّس الهواء ذاته، تسمع أنفاسه وسعاله وضحكاته على استحياء، لن تحتاج إلى الكلام فالحديث هنا حديث قلوب وأرواح، وذاك حديث ليس له حروف ولا أصوات.

انتقلتُ إلى غابة السِّنور فاستقبلوني بحفاوة وأتت «الخيفاء» وهي تحمل الكتاب الذي أعطيته لها وقالت: «في دمائهنَّ شيء يُشبه السُّم لكنَّه ليس بسمٍّ! يسكن داخل غابة البيلسان وخصيصى بعد أن يأكلن شيئًا من نباتاتها، وإن خرجن منها يأكل أجسادهنَّ أكلًا، استطعت إعداد ترياق يستطعن تحضيره بسهولة من رحيق أزهار نباتات الغابة ليشربنه قبل الخروج، ولا بدَّ من تجربته».

- لنذهب إليهنَّ لعلَّه يشفيهنَّ.

هزَّت رأسها نافية وقالت: «ليس هذا بمرض ليُعالَج، وإنَّما هو تشريح وتكوين مختلف، إنَّهن يُشبهن الفراشات، بيد أنَّهن من البشر!».

قال «الوشق» مستنكرًا: «وهل تُنجب النساء الفراشات؟».

- انظر إلينا يا جلالة الملك! وانظر كيف نختلف عن البشر في السِّمات والخصائص والتشريح!

- صدقتِ.

التفتت نحوي وأضافت: «ما دمن لا يخرجن من «غابة البيلسان» فهنَّ بخير».

صمتت لوهلة وأضافت: «أردتُ أن أُطلق عليهن اسمًا يا «توفيق»».

- وما هو؟

- «الحورائيَّات» فهذا يليق بهنَّ كفراشات بشريَّة.

راقني الاسم فقلت مستبشرًا: «هذا رائع، أتدرين أنَّ أهل «أرض الأقواس» كانوا يتشاءمون منهن ولا يُطلقون عليهن الأسماء أبدًا وشبهوهنَّ بالمسوخ؟ سأخبر الجميع بهذا اللقب».

قالت في أسى: «لا ينبغي أن يخجل أحدٌ من آبائهنَّ من إطلاق الأسماء عليهن».

قُلت جادًّا: «سنحرص على ألَّا يتكرر هذا الأمر، ولنبدأ نحن بتكريمهنَّ».

انتقلنا إلى «غابة البيلسان» وراق الجميع اسمهنَّ الجديد، وكانت «الحوراء» أوَّل من تطوَّع بتناول الترياق رغم اعتراض أبيها، خرجت من الغابة وقضت ثلاثة أيَّام في «أرض الأقواس» مع أمِّها وأبيها دون أن تمرض. أشفقتُ على «أمان» وقد علمت أنَّه لا يزال ينتظر موافقة أبيه على زواجه بـ«الحوراء»، كان موجوعًا وكأنَّ أحدهم كسر له ضلعًا.

١٩

اليوم الأخير

كنت أنتظر «أمان» على حدود «أرض الأقواس» برفقة «الرَّمادي»، لاحظ صمتي فسألني: «ما بك؟».

- أشعر أنني تغيَّرت، أصبحت أكثر نضوجًا من ذي قبل.
- لا ريب في ذلك، حتَّى أنا تغيَّرت. ما رأيك في سكَّان مملكة البلاغة؟
- أحببتكم، أنت وعائلتك و«أمان» ورفاقه والمحاربون، وسكان أرض الأقواس.

راودني حنين شديد فأضفت: «و «كنان» ومن كانوا معه من الفرسان العرب، وتعلَّمت دروسًا لا تُنسى ممن أذوني».

- كيف؟
- تعلَّمت أنَّ الأكثر ضجيجًا هو الأضعف، والأكثر صياحًا هو الأكذب، والأكثر اعتراضًا بلا سبب هو أقلُّ من يستحقُّ التَّقدير، وقد تخفي الندوب أرواحًا جميلة، وأن الاختلاف لا يعني النقصان والضَّعف فقد يكون الاختلاف تميُّزًا، وأنَّ الأصدقاء جواهر.

أقبل «أمان» مع رفاقه من الفرسان وعليهم ثياب بيضاء كالقطن، ترجَّل عن جواده وعانقني وقال: «جئت أُودِّعك».

- أين تذهبون؟

- نسعى في دروب الخير هنا وهناك.

- هل وافق أبوك على زواجك بـ «الحوراء»؟

- ليس بعد، لكنَّه سيوافق، وسأتزوَّجها وأنجب ذكرًا بإذن الله وسأسمِّيه «الزَّاجل الأزرق».

- ولِمَ هذا الاسم بالذَّات؟

- سأُخبرك عندما تزورنا في المرَّة القادمة.

كنت قد رأيت بعض هؤلاء الفرسان في رفقة السيِّد «سفيان» عندما التقينا لأوَّل مرَّة، وكان قد أثنى عليهم هو والسيِّد «شاهين»، وعلمت أنَّهم يساعدون المحاربين بعد وصولهم بالإضافة إلى مساعدة الضعفاء والمحتاجين في بقاع الأرض المختلفة، ترجَّلوا عن خيولهم وأحاطوني ودار بيننا حوار طويل وعامر بالعزَّة والإباء، وددت لو كنت مثلهم أفعل الخير ولا أبتغي الشكر من أحد، أكون هناك عندما يحتاج إليَّ الآخرون، وأرحل سريعًا بعد أن أقدم إليهم ما يرجونه ويحتاجون إليه، في الخفاء وكأنني أسير على الماء دون أن أترك أثرًا خلفي.

قبل أن ينصرفوا أخفى «أمان» وجهه بلثامه فغطى الفرسان وجوههم مثله، تأمَّلتهم بفخر وكنت أغبطهم، سألته بفضول: «ثياب بيضاء وتخفون وجوهكم! أين تذهبون؟».

- على دروب الخير نمضي، نحن «المغاتير» لا نحب أن يعرفنا النَّاس بوجوهنا بل بأفعالنا، لا نبتغي الشُّكر ولا نطلب الأجر، نساعد من يحتاج ونرجو من الله ألَّا نحتاج.

- وما «المغاتير»؟

- هل رأيت الجمال البيضاء التي تطوف بالصحراء حولنا؟

- رأيتهم يسيرون في جماعات عندما حملني «الرَّمادي» وطاف بي فوق «مملكة البلاغة».

- هؤلاء هم «المغاتير»[1]، وهذا لقبنا الجديد!

اعتلى «أمان» صهوة جواده بقفزة واحدة، صهل جواده ورفع قوائمه الأماميَّة فصهلت خيول الفرسان ردًّا على صهيله وانطلقوا مبتعدين وتركوني وقد طافت السَّعادة في جوانحي، كان الهواء يضرب قمصانهم البيضاء وكأنَّها أجنحة ترفرف بهم، تبعهم «الرَّمادي» وحلَّق فوقهم في مشهد أخذ بجوارحي.

استقرَّت الأمور في «أرض الأقواس»، تولَّت الأميرة «فاتي» مقاليد الحكم، وتزوَّجت بـ «سونو» الذي أصرَّ على الإسراع بالزفاف حتَّى أحظى بحضوره وكنت سعيدًا لهذا. ظلَّ أخوها «يويا» في رعايتها، عندما رأيته أشفقت عليه كثيرًا، وددت لو علم قبل أن يفقد عقله كيف كان أبوه يُحبُّه.

أعدت «كو» وأمَّه إلى «أرض الأقواس» واستخرجت الذَّهب الذي كان يُخفيه «أبادول» في أرضه الزِّراعيَّة وسلَّمته لهما، وعاد العمار إلى بيت «أبادول».

ردَّت الأميرة «فاتي» الأراضي الزراعيَّة لأصحابها فعاد الفلاحون إلى أراضيهم وديارهم بسلام، كما ضمَّت زوجة «سيدون» وولديها إلى قصرها مع «دهيبة»، لم أنسَ أن أنقلها مع ولديها بواسطة الخنجر إلى غابة البيلسان لترى ابنتها وكانوا في سعادة بالغة عندما رأوا «السيدة الملونة» بين «الحورائيَّات» وهي في صحَّة وعافية.

كانت ذاكرة «أبادول» قد مُحيت من رأسي! فأخبرت الأميرة «فاتي» أنَّ «كو» يحفظ كتابات أبيها الأمير «أواوا» كاملة، فاستقبلته في قصرها وخصصت له فريقًا من الكتبة ليدوِّنوا ما يُمليه عليهم، لكنَّه همس لي بسرٍّ وهو أنَّه قد نسي القصص وبقيت فقط الأقوال والحكم النثريَّة في رأسه، فنصحته أن يمليها عليهم، وكنت على يقين أنَّ الكتابات ستختفي مرَّة أخرى من أوراق البرديِّ والعظام والكرانيف لأنَّ الكتب ترغب في حماية محتواها من التحريف، لكنني

---

(1) المغاتير لقب يُطلق على نوع من الإبل البيضاء النفيسة جميلة المظهر وغزيرة الوبر، يقول عنها أهل البادية: المغاتير نور القلب.

أرحت الأميرة لكي تهدأ وتطمئن، سيظلُّ «كو» يمليها عليهم من جديد مرَّات ومرَّات، ورجوت من الله ألَّا ينسى ما تبقى برأسه منها.

القلادة

كان «نوب» يلازمني ولا يرغب في رحيلي، سألته مداعبًا: «ألم تخبرني أنَّك ترغب في الزَّواج؟».

- ومن سترغب في الزَّواج بي بندوب وجهي وتلعثمي؟
- ستجد من تُحبُّك بندوب وجهك الجميلة تلك يا «نوب».
- كيف ترى القُبح جميلًا يا «أبادول»؟
- كنتَ سابقًا تناديني باسمي وكنت أخبرك أن تناديني بـ «أبادول»، صرت الآن لا تناديني إلَّا به!
- الوقار يليق بك يا صاح!

ذهبنا إلى مقر العسَّاسين الخالي ووقفنا نقلِّب أعيننا فيه ونجترُّ الذِّكريات، برز «المجاهيم» فجأة فأجفل «نوب» فطمأنته وأخبرته أنَّهم لن يؤذوه، اصطفُّوا أمامي خلف زعيمهم. قال «نوب» وهو ينظر إليهم: «وجوههم سوداء لا ملامح لها وكأنَّهم وُلدوا من جوف الليل!».

ابتسمتُ وقلت لـ «زهلول» وأنا أتأمَّل تاجه الجديد: «لم تزُل عنكم لعنة إخفاء ملامحكم عن الآخرين».

- يكفي أننا نرى بعضنا بعضًا، وأنت ترانا على حقيقتنا يا «أبادول».
- أنت أيضًا ستُناديني بهذا اللقب؟
- الأخبار تتناقل من بقعة إلى أخرى، الجميع الآن يعرفك بهذا اللقب.
- أين «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة»؟
- **إلى حيث ألقت رحلها أمُّ قشعم**[1].

---

(1) «إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم»، والقول من شعر زهير بن أبي سُلمى: فشدَّ فلم تَفْزَعْ بيوت كثيرة لدى حيث ألقت رحلها أم قَشْعَمِ، (أم قشعم) هي المنيَّة أو الحرب.

- ماذا حدث؟ كنت معجبًا بها!

- طلبتها للزواج فوبَّختني وقالت كيف لي أن أتزوج بك وأنت كاللطخة السوداء بلا ملامح! تريد زوجًا تسهر الليالي لتتأمَّل ملامحه!

- لو رأتك على حقيقتك لفُتنت بك يا «زهلول».

أشاح بيده وكأنَّه لا يرغب في الحديث عنها وقال: «وددت أن أهديك شيئًا قبل أن ترحل».

- أعتذر منك يا «زهلول»، ما عُدت أقبل الهدايا من الجنِّ! رددتُ دين الخنجر بشقِّ الأنفس، وحمدًا لله أن «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» أعفتني من ردِّ دَين الكريستالات بعد رفض أبيها التدخُّل لمواجهة «الدواسر».

- لا تخف فهذا تقليد شرفي ليعرفك جميع أفراد عشيرتنا على أرض مملكة البلاغة، إن حملته لن يمسَّك أحد بسوء.

- ولن يكون هناك مقابل؟

- أمَّا منك فلا، وأمَّا منَّا فسيكون لك العون والولاء للأبد، فقد رددت إلينا أرضنا وعزَّتنا وحررتنا من سجن مدينة النَّحاس، وأنقذت حياتي مرَّتين.

ألبسني «زُهلول» قلادة ووقف أمامي وأحنى رأسه وهو يضع يده على صدره تحيَّة لي، ففعل أفراد عشيرته كما فعل تمامًا، سألته وأنا أتفحَّصها بأطراف أصابعي: «هل ستكون لي ولأفراد عائلتي؟».

- ليكن هذا لكلِّ من تسمح له بحملها منهم.

انصرف «المجاهيم» وعدت لمشاكسة «نوب»، قررت أن أكلف «دهيبة» بالبحث عن عروس له فصحبته لزيارتها.

حان وقت الوداع فبكى «نوب» وأنا أودِّعه، أخبرته أنني سأعود لكنَّه لم يُصدِّقني، وكان أكثر وداعًا آلمني. عدت إلى الشَّاطئ الأسود لأردَّ خريطة «الشَّريف الإدريسيِّ» للملك «زريق» فأبلغتني «ذات الكفِّ الذَّهبيَّة» أنَّ أباها

وتستعمل شطرة بيت زهير في الدعاء على الغائب ألا يرجع، أوهي دعاءٌ على الذي يسيء إليك ليذهب عنك إلى غير رجعة، أو على من ينصرف عنا بعد أن كان ثقيلًا.

تنازل عنها لي ولا يطلب ردًّا لتلك الهديَّة. انتقلت إلى جبل «أمانوس» وودَّعت «مردان» والعماليق وحملوني واحتفوا بي. كان من الضروريِّ أن أزور السيِّدة «مارماحوز» لأشكرها وطلبت منها أن تُخرج «الحوذانيين» من بيتي ولا تُعيدهم مرَّة أخرى، ففعلت وأخبرتني أنَّها ستترك بعضهم في الحديقة فرفضت وأخبرتها أن الله سيحميني! لكنني شعرت أنَّها لن تستجيب لطلبي الأخير وستترك بعضهم بالحديقة.

جددتُ القسم أمام السيِّد «شاهين» ألَّا أكشف سرَّ «مدينة الرَّباب» ومن فيها، وودعت أسرة «الرَّمادي» الذي حملني أخيرًا إلى بيتي بالفيُّوم، ووعدني هو و«أمان» و«برهان» بدعوتي لحفلات زواجهم، عندما دخلتُ بيتي شعرت بوحشة شديدة، لقد بقي جزء منِّي عالقًا بمملكة البلاغة وأهلها! كان كلُّ شيء فيه ساكنًا وهادئًا لكنني لم أجد ذرَّة تراب واحدة! طفت بالبيت لأتفحَّص كلَّ ركن فيه، فوجئت بظهور نقوش عجيبة على الأسقف والجدران بغرف البيت، وما أدهشني هو تغيُّر رسوم اللوحات المعلَّقة بغرفة الاستقبال بالبيت وكأنَّ رسَّامًا بارعًا أعاد تشكيلها، كنت أعلم أنَّهم «الحوذانيُّون» وكانت تلك هداياهم قبل أن يُغادروا البيت.

أسرعت إلى النَّافذة لأتفقَّد زهور الحوذان الحمراء والصَّفراء فوجدتها هناك، لا يزالون بالحديقة يحرسونها! تأمَّلت الحديقة فوجدتها ممتلئة بالزُّروع وقد نمت أشجارها بكثافة! وكأنَّ هناك من اهتمَّ بها خلال غيابي، بدَّلت ملابسي وخرجت إلى عيادة الدكتور «مودود» الذي ترك ما بين يديه وأسرع يُعانقني وسألني وهو يتفحَّص وجهي: «ماذا فعل بك «الرَّماديُّ» يا «توفيق»؟».

ظننته يسخر منِّي فقلت في خفوت: «لا شيء! أنا بخير».

رفع حاجبيه قائلًا: «لقد رأيته أنا و«قمر» وهو يحملك بعد خروجنا من بيتك!».

خفق قلبي خفقًا، أضاف قائلًا: «هناك شيء غريب آخر!».

- ما هو؟

- لقد انتقلت «قمر» إلى «مملكة البلاغة».

سرت القشعريرة بجسدي وكأنَّ آلاف الأشواك رُشقت فيه، سألته وقلبي يخفق: «معقول! هل عادت؟ أم لا تزال هناك؟».

لاحظ هلعي وفزعي فطمأنني قائلًا: «عادت وبخير والحمد لله».

بدأ الدكتور «مودود» يحكي لي ما وصفته له «قمر» عندما دخلت البيت وحدها، فأدركتُ أن «الحوذانيين» نقلوها إلى حديقة السيِّدة «مارماحوز»، وأنَّها قد أعادتها إلى هنا بسلام. لم أتعجَّب أنَّها لم تُخبرني بانتقال «قمر» إلى حديقتها، فهي لم ترغب في إشغالي بأمرها، لكنني تعجَّبت من إخفائها للأمر بعد تمام مهمَّتي وزيارتي لها، لعلَّها كانت تخشى عليها من الغربان! فقد يرغبون في الانتقام منِّي بأذيَّتها، ستظلُّ تلك العجوز غريبة وكأنَّها أحجية غامضة!

مرَّت لحظات كنت أشعر فيها أنني كطفل صغير ضلَّ من والده في سوق كبيرة وواسعة وقد عثر عليه للتوِّ، جلست وأخرجت ما بجوفي من حكايا وقصصتُ رحلتي بأكملها على الدُّكتور «مودود» وحجبت أسرار «مدينة الرَّباب» ولم أخبره أنَّ «قمر» كانت هناك! كان يوقفني ليتفحَّص إصابات جسدي التي أخبره عنها، رأى أثر السياط على ظهري فعالجها بدهان، وتفحَّص جراح صدري مرَّات ومرَّات، كان صبورًا وحانيًا وحليمًا، وجدته أكثر تقبُّلًا لحديثي من ذي قبل، وقد أفسح لي المجال لكي أبوح له بمكنون صدري وطلبت منه يد ابنته «قمر» للزواج، وافق بترحابٍ شديد وعندما أردتُ الانصراف قبض على يدي وصحبني إلى بيته، وعندما دخلنا خفق قلبي من جديد عندما رأيت «قمر»، وفُتحت لي أبواب السَّعادة على مصاريعها.

مرَّت أيَّام وأنا و«الرَّماديُّ» نتدرَّب على فصل تواصلنا، كان الأمر صعبًا في البداية ولم ينقطع كما حدث في «مملكة البلاغة» خلال وجودي في بعض الأماكن مثلما فارقني في البقاع التي زرتها هناك، بل كان متواصلًا وكنت أسمع صوت أنفاسه ودقَّات قلبه وأنا أشرح لتلاميذي بالمدرسة وكان هذا يفقِدني تركيزي. احتجت إلى صفاء ذهني وفصل مشاعري لكي أسيطر على

هذا الأمر فاستعنت بالله ثم بدأت أخرج للتأمُّل في خلق الله والتجوال بناظري في صفحة السَّماء وقت طلوع الفجر ووقت الغروب فأصبحت أكثر تركيزًا ونجحت بعد معاناة، وأصبحت وكأنَّني أفتح بابًا وأغلقه بيني وبين «الرَّماديِّ» وقتما أشاء، وساعدني تفهُّمه للأمر ومحاولاته في الوقت ذاته ليفصل ذهنه عنِّي. الآن صار لي صديق عزيز أستطيع أن أتحاور معه عندما أحتاج إليه، وأستشيره في أموري، ونال من قلبي مكانة لم ينلها أحد من قبل، وكأننا توءمان في مملكتين مختلفتين.

٢٠

بيت العائلة

«الفيوم»

انتهى «أنس» من سرد قصَّة جده «أبادول»، بينما كانت أعينهم عامرة بالدُّموع وهم يُطالعون وجهه، كانت عيناه على كرسيٍّ جده الخالي أمام المدفأة، كانوا يشعرون أنَّ «أبادول» موجود بينهم، ليس من السَّهل أن تفقد شخصًا تُحبُّه من سويداء قلبك، تعشق كلَّ تفاصيله الدَّقيقة، تدمن نبرة صوته الحانية وذاك الأمان والدفء الذي يغمرك في حضوره، وأن يكون ذلك الشَّخص «أبادول» فأنت لا ريب تتألَّم. همس «أنس» وهو يُطالع صورة وجه «أبادول» فوق المنضدة: «لم تنتهِ حكايات «أبادول»، هناك المزيد من الأسرار».

سأله «حمزة»: «متى ستُكملها لنا؟».

- ليس الآن، فأنا مُتعب للغاية.
- لا عجب أنَّ كلَّ هؤلاء كانوا حاضرين في جنازته!
- وكيف لا يأتون من مشارق «مملكة البلاغة» ومغاربها... إنَّه «سيِّد المُحاربين»!

قال «يوسف» في تأثُّر: «كان «أبادول» حجر أساس في بناء أسطورة المحاربين، فقد أطلق عليهم لقب «مُحارب»، ولعلَّه من أطلق أسماء باقي الرُّتب!».

أومأ «كمال» موافقًا وقال: «واكتشف الكثير من خبايا المملكة وأسرارها».

ران على أفراد العائلة صمت لطيف، كانت الأرجاء دافئة بأنفاسهم وبسيرة جدِّهم العطرة، تسرَّبوا تباعًا إلى غرفهم ولا تزال ذكرياتهم مع «أبادول» تحلِّق فوق رؤوسهم.

انتظر «أنس» حتَّى خلد الجميع إلى النَّوم، وتوجَّه إلى غرفة الأشباح وفتح النَّافذة، فوجئ بـ «الرَّماديِّ» يقترب، حمله إلى «مدينة الرَّباب»، وعندما وقف أمامه هرع «أنس» إلى حضنه وتعانقا وطال البكاء، قال «الرَّماديُّ» وهو يغالب دموعه: «كان «أبادول» أقرب إليَّ من نفسي، أشعر أن هناك طعنة في صدري لن تبرأ أبدًا».

كفكف «أنس» دموعه وقال: «وأنا مثلك يا عمَّاه».

- لا أظنني سأستطيع التَّحليق بعد موت «أبادول»، كما أنني كبرت، لقد هُزم قلبي بموت توءم روحي! كان جدُّك أقرب إليَّ من روحي!

بدا الحزن جليًّا على مُحياه وهو يُضيف: «سيكون أحد أحفادي مسؤولًا عن نقلكم إلى هنا، وهو أكثرهم تعلُّقًا بكم فقد كنت دائم الحديث معه عنكم، وكان «أبادول» يُحبُّه كثيرًا».

- لا ألومك! ولكن أستأذنك أن تحملني وابنتي «فرح» حتَّى نزيل عنها ما علق بها، فهل تسمح؟

- سأفعل، ولتكن زيارتي الأخيرة إلى بيت «أبادول».

سالت دموع «الرَّماديِّ» من جديد، صحب «أنس» إلى بيته ليُعرِّفه بأحفاده وكان عددهم كبيرًا، اندهش «أنس» عندما رأى كثرتهم واختلافهم وتباينهم، قضى معهم ساعاتٍ فشنفوا أذنيه بسيرة جده العطرة، وعندما انتهى من جلسته معهم وخرج من دار «الرَّماديِّ» وسار برفقته، داهمه شعور غريب يشبه ذاك الشعور الذي كان يراوده عندما كان «أبادول» يتخاطر معه وهو

في «بابل»، ارتجفت يداه واقشعرَّ بدنه واخترقت أذنيه دقَّات قلب تتزامن مع دقَّات قلبه، وسمع أنفاس شخص آخر، التفت نحو «الرمادي» وأمسك بيده وهو يترنَّح، وسأله بصوت يرتجف: «ما الذي يحدث لي؟».

أقبل أصغر أحفاد «الرَّمادي» من خلفه وكان شابًّا مليح الوجه في الثلاثين من عمره وقال: «أنا يا سيِّد «أنس».. «السَّماويُّ»».

ابتسم «الرَّماديُّ» وقال له بصوته الدَّافئ: «ذاك أفضل أحفادي وأقربهم إلى نفسي، كان يراك دائمًا في أحلامه من صغره، لكنَّ «أبادول» طلب مني تدريبه على فصل ذهنه عنك حتى يحين الوقت المناسب ففعلت».

ابتسم «أنس» وقال وهو يتأمَّل ملامح «السَّماويِّ»: «تُشبه جدَّك كثيرًا».

قال «السَّماويُّ» وهو يبتسم: «وكذلك أنت يا سيِّد «أنس» تُشبه جدَّك كثيرًا!».

كان «الرَّماديُّ» مسرورًا بانسجامهما، وعندما انتهى حوارهما أعاد «أنس» قبل الفجر إلى بيت العائلة، على وعد باللقاء في اليوم التالي.

صحب «أنس» ابنته «فرح» ودخلا غرفة الأشباح، لم يتخيَّل «أنس» قط أنَّ ابنته الرَّقيقة «فرح» هي التي قادت المعركة مع «عشتار» خلال وجودهم في «بابل»، وقضت عليها خلال صراعهم معها على أرض مدينة «بابل» دون أن تُخبر أحدًا وتركت الجميع يحتفل بـ «أُورماندا» ولم تُفسد عليها فرحتها، فـ «أورماندا» لا تزال تحتاج إلى الكثير من النُّضج والتمرين، كانت «فرح» هي البيدق الذي لعب الدَّور دون أن يُحرِّكه أحد، فأطلقت جناحيها لتحمي عائلتها، وكأنَّها «سيروش» المجنَّح الذي وقف محاربًا على بوابة عشتار لحماية أبيها وباقي أفراد العائلة، ولهذا ظهر الوشم على عنقها بعد أن خاضت معركتها الكبرى، لكنَّ «أنس» لا يرضى لها أن تكون من السَّاحرات، وكذلك هي تأبى وترفض حفاظًا على دينها، فكيف الخلاص مما علقت به؟

جاء «الرَّماديُّ» الذي لا تعرف «فرح» أنَّه شيخ كبير يسكن في «مدينة الرَّباب» فقد أقسم «أنس» على حفظ سرِّ تلك المدينة، وسيبرُّ بقسمه كما فعل «أبادول»، وما كان بوح «أبادول» له إلا بعد استئذان عشيرة الصُّقور،

وكانت «قطرة الدَّمع» ترافقه، حملاهما إلى بقعة من بقاع مملكة البلاغة حيث الضباب يلفُّ كلَّ شيء ويغبش هيئة الواقع، أقبلت حفيدة «مارماحوز» الصغرى للقائهما وكانت «ماميران» هي الوحيدة التي بقيت من أحفادها الثلاثة وورثت عن جدَّتها مهارتها فهي داهية في السِّحر، كانت تعرف بما حدث لـ «فرح» منذ سنوات ورأت جدَّتها وهي ترفض نزع الميراث عنها من فرط خوفها من حمله وما يترتب عليه، لكنَّها كانت أكثر بأسًا وقوَّة من جدتها وقررت انتزاعه بطريقتها، وضعتْ باطن يدها اليمنى على خدِّ «فرح» الأيسر، وأمسكتْ بيدها اليُمنى ووضعتها على خدِّها الأيسر، وقبضت على يد «فرح» اليُسرى بيدها اليُسرى، وغرزت عينيها في عينَي «فرح» للحظات، رأت «فرح» وميضًا حجب عنها الرؤية، ثُمَّ شعرت بحرارة تجتاح رأسها وصدرها، شهقت «ماميران» فجأة وفتحت عينيها وكانت يداها متشنجتين فصرخت «فرح» وأصيبت بصداع شديد، ثم بدأت تنتفض وتتشنَّج حتَّى فقدت وعيها، أفاقت بعد لحظات بين يدَي «أنس»، بدت مشوَّشة وكأنَّها فقدت ذاكرتها لوقت يسير جعل قلب أبيها يعتصر ألمًا وخوفًا، تفحَّص عنقها وكان وشم «سيروش» قد اختفى، التفت ليجد الوشم يضيء على جبين «ماميران» فتيقَّن أنَّ ميراث «مِهربان»[1] انتقل إليها، أمسكت «فرح» بيده وظنَّت أنَّها سترى ما يدور برأسه من جديد ولكنَّها لم تشعر بشيء فضحكت بعنفوان ثم بكت بحرقة وقالت من بين دموعها: «ذهب ميراث «طرجهارة»[2] يا أبي! تحررت منه.. تحررت منه!».

(1) «مهربان» من شخصيات الجزء السَّادس «سِيرُّوش»، وقد نقلت ميراثها من السِّحر إلى «فرح» لكي تنقله إلى حفيدتها وحذَّرتها من فكِّ رموزه واستخدامه، لكنَّها اضطرَّت إلى استخدامه لإنقاذ حياة «أنس» و«حمزة» وابنته «رواء».

(2) «طرجهارة» من شخصيات الجزء الخامس «سُقطرى» وقد منحت ميراثها الخاصَّ بقراءة الذِّكريات لـ «فرح» لتحمله عندما كانت في سجن «سراديب الخطى الضَّائعة»، لكي تنقله إلى ابنتها خارج السِّجن، لكنَّ ابنتها رفضت استرداده وظلَّ عالقًا بـ «فرح» وعانت بسببه.

وقفت «ماميران» وانحنت على أُذن «أنس» وهمست بشيء قبل أن تنصرف فأجفل وشحب وجهه، التفت نحو «الرَّماديِّ» يلتمس منه كلمة تطمئنه، لكنَّه حرَّك جناحيه وأظهر انشغاله بمراقبة الأجواء، عاد «أنس» مع ابنته إلى البيت وكان يعلم أنَّها ستخسر حبيبًا مقابل حملها لميراث «مِهربان» كما أخبرته «ماميران»، فهذا دأب السَّاحرات على أرض مملكة البلاغة، و«فرح» أدارت معركة كبرى باستخدامها للسِّحر! كان لسانه يلهج بالدُّعاء وهو يرجو الله أن يلطف بها وبهم، جلس ساكنًا يراقبهم بعينين عامرتين بالخوف والترقُّب، فقد كان يخشى أن تكون الخسارة في «سليمان» أو «خالد» أو «حمزة» أو «مرام» أو فيه هو نفسه، غلبه النوم فغفا في غضون دقائق فرأى «أبادول» يجلس على ضفاف النَّهر الأخضر الذي رآه منذ سنوات عندما وصل إلى مملكة البلاغة لأوَّل مرَّة، جلس بجواره ونظر كلاهما إلى ماء النَّهر، كان انعكاس صورتيهما لصقرين أبيضين، أحاطه «أبادول» بذراعه ونظر إلى عينيه قائلًا: «لا تخف يا «أنس»، سيُنقذنا الله كما يفعل في كلِّ مرَّة!».

استيقظ ولا يزال عطر «أبادول» في أنفه، مسح وجهه بيديه وهدأ قلبه المتعب بتلك الرؤيا، مرَّت نحو ساعة وبدأت «فرح» تشكو من آلام شديدة ثم أصابها نزيف شديد فحملوها إلى المستشفى فقد خسرت جنينها الذي كان في شهره الأوَّل،

سجد «أنس» شكرًا لله، وحمد الله أن ابتلاهم بمصيبة أهون من مصيبة أخرى كان يخشى وقوعها، فقد كان يخشى أن تفقد العائلة شخصًا آخر وهم لم يتعافوا بعد من موت جدهم «أبادول»، دعا الله في سجوده أن يبدلهم خيرًا منه زكاة وأقرب رُحمًا، قام من سجدته، وابتسم عندما تذكر قول «أبادول» له في الحلم إن الله سينقذهم كما يفعل في كل مرة، كان السر دومًا في تلك الكلمات التي حرص جده على تكرارها وترديدها على أسماعهم لترسخ في وجدانهم، جلس بجوار ابنته يجترُّ لحظاته معها منذ ميلادها وحتَّى اللحظة.

وبعد أيَّام عادت الأسرة إلى مجلسها أمام المدفأة بعد تعافي «فرح»، كان «أنس» يشوي «الكستناء» على نار المدفأة لأحفاده، وقفت «سارة» وصاحت

قائلة: «خالي! لا تظن أننا سنمررها هكذا! أين تفاصيل زفاف «أبادول» وجدَّتي «قمر»؟ وزفاف «الحوراء» و«أمان»؟ صف لنا الأجواء والملابس وكلَّ شيء وإيَّاك أن تترك تفصيلة واحدة، ولو كان قد وصف لك فساتين العرائس لا تبخل علينا».

صفَّقت «حبيبة» لها ووافقتها الرَّأي، وقامت «فرح» لتعتدل في جلستها وقد دبَّت الحياة في أوصالها، أمَّا «مرام» فكانت تضحك وهي تراقب «نور» و«طيف» وهما تتركان أولادهما وتقتربان من «أنس»، حتى بنتا «حمزة» أقبلتا خلف أمهما عندما سمعتا كلمة عرائس وفساتين! بدأ «أنس» يحكي والابتسامة لا تفارق شفتيه...

**

«توفيق»

كان زفافنا بسيطًا وأنيقًا وقد أقمناه في حديقة البيت، شعرت أنَّ أشجار الرَّيحان في الحديقة شاركتنا الاحتفال فقد أطلقت أريجها احتفاء بنا، اجتمع جيراننا بالحيِّ وزملاء الدكتور «مودود» وزملائي بالمدرسة التي كنت أعمل بها وزوجاتهم، كنت أشعر أنَّني أطير على أرض الحديقة، فها هي «قمر» بين يديَّ بردائها الأبيض كغيمة هشَّة برهافة القطن، كانت جميلة بكلِّ ما فيها، شعرت أنَّ اللآلئ على طرف ثوبها وأكمامه تحتفي بها لرقتها وعذوبتها وحيائها الذي زادها بهاء، أنا مغرم وعاشق لتلك الفتاة الوحيدة التي خطفت روحي وها هو قلبي يُعانق قلبها وأشعر بنبضاته تتسرب من كفِّها الرَّقيقة الغارقة في حضن كفِّي، قَبِلتني بكلِّ تناقضاتي وغموضي فغرقتُ في بحر عينيها الرَّائقتين. سمعتُ صياح «الرَّماديِّ» فرفعت رأسي ورأيته يُحلِّق في السَّماء في حلقات فرقص قلبي بين أضلعي فرحًا، مضت الأيام ونحن ننهل من عسلها نهلًا، سكنت إليها وسكنت إليَّ وطافت السَّعادة بنا وغمرنا لطف الكريم.

توقَّف «أنس» قليلًا وتذكَّر كيف وصف له «أبادول» زفاف «الرَّماديِّ»، فهو لا يستطيع إخبارهم بهذا فقد أقسم على حفظ سرِّ «مدينة الرَّباب»،

كان «أبادول» يقول له وهو يجلس بجواره على فراشه في آخر أيَّامه وعيناه تلمعان: «دعاني «الرَّماديُّ» لحفل زفافه على «قطرة الدَّمع»، لم أتمكَّن من اصطحاب «قمر» لأنَّني لن أستطيع إدخالها إلى «مدينة الرَّباب». كان الزفاف ساحرًا وأنيقًا وكأنَّه أقيم وسط السَّحاب، الزُّهور في كلِّ مكان وقد زيَّنوا بها البوابات، الموائد مبسوطة أمام البيت وعامرة بخيرات «مدينة الرَّباب»، استقبلتني عائلته بترحاب شديد، سعد السيِّد «شاهين» بحضوري، ارتدى الجميع عباءات وقلانيس مزيَّنة بالرِّيش الملوَّن، وكان الأطفال رائعين وهم يتجوَّلون حاملين سلالًا ممتلئة بالزُّهور، وقد صنعت أمهاتهم لهم أجنحة ليعلِّقوها على ظهورهم لتدريبهم على تقبُّل أمر تحوُّلهم إلى طيور منذ الصِّغر، أرهقني «الرَّماديُّ» بتسارع دقَّات قلبه فأغمضتُ عيني لأنفصل عنه وعندما انتهيت فتحت عيني فرأيته ينظر إليَّ ويبتسم حرجًا، أومأ لي معتذرًا فضحكت عندما رأيته يتخبَّط في ارتباك أمام عروسه. ردد الحضور أناشيد وأهازيج أخذت بعقلي وتأثَّرت بكلماتها ومعانيها، لم يُفارقني «أمان» وكان قد أقنع والده بقبول زواجه بـ «الحوراء» فسعدتُ لهذا. شغلتني «قمر» وأنا بينهم، فقد سألتني مرارًا عن العجوز التي رأتها عندما انتقلت إلى «مملكة البلاغة» ووقفت تصف ملامحها بدقَّة شديدة هي والثلاثة الذين كانوا معها، أخبرتها أنَّهم أحفادها وضحكت كثيرًا عندما علمت بأسمائهم، وهمست لي بأنَّها تتمنى زيارة «مملكة البلاغة» معي، لهذا قررتُ أن أخبرهم عن عزمي على اصطحاب زوجتي في زفاف «أمان» فخشوا ألَّا تتقبَّل الأمر وقد يعرِّضها هذا للخطر لكنني أردتُ أن أريها بعينيها شيئًا مما عايشته، ولأنني علمت أنَّ الزِّفاف سيكون في «غابة البيلسان» رأيت هذا مناسبًا لها».

لاحظ الجميع شرود «أنس» عندما كان يجترُّ حديث «أبادول» في خاطره، ربَّت «يوسف» على ركبته فانتبه وعاد يحكي لهم عن زفاف «الحوراء» و«أمان»، فهذا هو الزِّفاف الذي يستطيع سرد تفاصيله عليهم بأريحية.

«توفيق»

عندما عدنا معًا بعد شهر لحضور زفاف «أمان» أتاني «الرَّماديُّ» ليحملنا فرادى؛ أنا ثُمَّ زوجتي، لكنَّ «قمر» عندما رأته ظلَّت تنتفض من شدَّة الخوف فأخبرته أنني سأحتضنها وعليه أن يحملنا معًا، احتضنتها فاختبأت في حضني وأغمضت عينيها وحملنا «الرَّماديُّ» وهي لا تعرف أنَّه شاب يتحوَّل إلى صقر! عندما وصلنا إلى «غابة البيلسان» كان الجميع في انتظارنا، ظلَّت «قمر» طوال الوقت خائفة ولم تخرج من تحت ذراعي ولم تتوقَّف عن الارتجاف لفترة طويلة، وخصيصى عندما رأت «المارج» و«الخيفاء» و«الوشق». بدأت تعتاد الأمر شيئًا فشيئًا لكنَّها لم تضحك إلَّا عندما أتتها «دُهيبة»، فبدأت تتبادل الحديث مع «الحورائيَّات» وقد أحببنها. كان الزفاف ملكيًّا على عكس زفاف «الرَّماديِّ» و«قطرة الدَّمع»، أصرَّ الملك على إحاطة «غابة البيلسان» بجنوده فاصطفُّوا في شكل شرفي حول الغابة، كان «أمان» يرتدي ثيابًا فاخرة ويعتمر تاجًا بديعًا، رأيته يتأفف من ثيابه وكنت أعلم أنَّه لا يُحبُّ هذا البذخ لكنَّه يحاول إرضاء أبيه، أمَّا «الحوراء» فقد أصرَّت الملكة الأمُّ على اختيار ثيابها بنفسها، وألبستها تاجًا مزيَّنًا بالياقوت والزَّبرجد.

مضى الوقت وكنت سعيدًا لأنني عشت بعض السَّعادة على أرض رأيت فيها من الخطوب ما أوجع فؤادي وعقلي وبدني. وبينما نحن نتجوَّل في «غابة البيلسان» صاحت «الحوراء» فجأة، فأقبلنا عليها ورأيناها تبسط يديها وتنظر إليهما وهي تُحدِّق نحوهما! انحنت وانطوت على نفسها واحتضنت جذعها بيديها، كان «أمان» يحاول وضع يده على كتفها لكنَّ شيئًا ما كان يدفعه!

خرج من فمها غبار ملون ودار حولها ثُمَّ تكاثف وكأنَّها تُحاط بخيوط من حرير صنعت حولها كرة ضخمة، ظلَّ «أمان» يحاول اقتحام تلك الكرة وكان هناك ما يُبعده، أقبل «سامي كول» وزوجته وحاولا لمسها لكنَّهما لم يُفلحا فخرَّا على ركبتيهما وهما يلهجان بالدُّعاء، اقتربت «الخيفاء» وهي تصيح: «اتركوها فهي تمرُّ بالطور الملكيِّ!».

سألتها في فضول: «هل هذا مذكور في الكتاب؟».

- أجل.

- وهل سيضرُّها؟

- لا.. ستكون أكثر نضوجًا ولن تعاني بعد الآن.

أخرجت «الحوراء» يدها ومدَّتها تجاه «أمان» فأمسك بها ووقف بجوارها وهو يردد اسمها وكنا جميعًا نراقبهما في خوف ووجل، سحبت يدها فجأة! وتوقَّفت الخيوط عن الدوران حولها، هربت دمعة من عينيه وهو لا يدري ما الخطب، حُبست أنفاسنا للحظات ونحن نقف في صمت مهيب وننتظر ما سيحدث، انشقَّت الكرة فجأة! وتناثر غبار لؤلؤيٌّ أبيض ورأينا جميعًا «الحوراء» بثوبها نفسه وقد تغيَّرت ملامحها وأصبح وجهها جميل الملامح كالقمر، أسرعتْ نحو «أمان» فنظر إلى عينيها ثُمَّ أوت إليه ولاذت به، لم تدرك أنَّها صارت جميلة إلَّا من تعليقات من حولها، اقتربت «الخيفاء» منِّي وقالت في حماس: «لا أُصدِّق أنني رأيت هذا بأمِّ عيني!».

تركت «قمر» يدي لأوَّل مرة منذ وصولنا وأسرعت تلتقط تاج «الحوراء» وألبسته لها بيديها وأخذت تُعدِّل من ثيابها وتعانقتا فسرني هذا كثيرًا، ضجَّ المكان بصيحات الفرح وكأنَّ الزفاف قد بدأ للتوِّ، كان «الرَّماديُّ» وباقي عائلته و«قطرة الدَّمع» يراقبون كلَّ شيء وهم فوق الأشجار، رفعت «قمر» عينيها تجاههم وسألتني هامسة: «لماذا تراقبنا تلك الطُّيور بطريقة غريبة؟».

همست لها مُجيبًا: «تلك الصُّقور تُحبُّنا».

- وكيف تعرف هذا؟

- هؤلاء أصدقائي.. لا تخافي منهم أبدًا. هل ترين أنثى الصَّقر التي تقف بجوار «الرَّمادي»؟

- ما بها؟

- تلك «قطرة الدَّمع» وهي زوجته.. ما رأيك أن تحملك في أثناء عودتنا؟

- لا.. لا!

عادت تتعلَّق بذراعي وكأنَّه طوق نجاة، وعدنا إلى بيتنا بعد الزِّفاف بالطريقة نفسها التي حملنا بها «الرَّماديُّ» فقد خافت «قمر» من أن تحملها «قطرة الدَّمع» وحدها. لم تنم «قمر» طوال الليل وظلَّت تسرد وتكرر على مسامعي كلَّ شيء حدث في أثناء الزِّفاف وكأنني لم أحضره معها، لم تستسلم للنوم إلَّا بعد شروق الشَّمس وظلَّت طوال النَّهار في سبات عميق.

وفي صباح آخر ليوم مشرق آخر، وكنت قد التحقت بوظيفة أخرى في مدرسة خاصَّة، وبينما أنا عائد من عملي اشتريت جريدة وعندما عدت إلى المنزل بسطتها لأقرأ العناوين بينما «قمر» تُعدُّ طعام الغداء، علقت عيناي بعنوان في الصفحة الخلفيَّة عن رواية جديدة لكاتب شاب عنوانها «أبادول» فخفق قلبي، قرأت ملخصًا عن أحداثها وضحكت، لقد كنت على صواب.. إنَّهن «الحورائيَّات» بالفعل كما وقع في نفسي وكنت مصيبًا، ويبدو أنَّ «السيِّدة الملوَّنة» من بنات أفكار هذا الكاتب!

دقَّ جرس الباب فأسرعت نحوه، فتحته لأجد أمامي «راغب» الذي كان يعمل لدى أبي منذ سنوات، وكانت زوجته تقف خلفه على استحياء، رجاني أن أقبله وزوجته ليعملا بالبيت فسعدت بهذا ورحَّبت بهما، وسُرَّت «قمر» بزوجته «صفيَّة» فقد وجدت فيها أنيسًا لها.

كنت أقف في نافذة الغرفة العلويَّة عندما داعبت أنفي رائحة مخبوزات شهيَّة، لكنَّها سريعًا ما تحوَّلت إلى رائحة طعام يحترق فهرولت نحو المطبخ وأنا أضحك، لقد أحرقت حبيبتي المخبوزات كعادتها، وقفت تُراقبني وأنا أضحك بوجهها الباسم ثمَّ اقتربت ودسَّت يدها تحت ذراعي واحتضنته وهمست لي وهي تبتسم: «لديَّ خبر سار».

- ما هو؟

- يبدو أنَّ هناك مُحاربًا صغيرًا في طريقه إلينا.

بعد شهور..

في بقعة من بقاع «مملكة البلاغة»، كان «توفيق» يسير على ضفاف النهر الأخضر، عندما وصل صقر وبدأ يُحلِّق فوقه، وكان يحمل شابًّا تبدو عليه علامات النباهة، وقف الشاب في ارتباك وهو يجوس بعينيه في قلق، بينما كان الخوف يملأ عينيه الواسعتين كان يحتضن كتابًا عتيقًا يحمل على غلافه رمزًا من رموز لغة ما، ظلَّ الشَّاب يشيِّع الصَّقر بنظرات مضطربة وهو يحلق مبتعدًا، اقترب «توفيق» منه بهدوء وصافحه قائلًا: «مرحبًا أيُّها المُحارب!».

ومن هنا.. بدأت حكاية جديدة.

- تمَّت -

***

شكر وعرفان

شكر وتقدير وعرفان بالجميل لكلٍّ من كان لهم فضل ليَخرج لكم العمل بهذا الشَّكل.

شكرًا للأفاضل والفضليات مع حفظ الألقاب:

- سناء يونس.
- لبنى محمد.
- إسراء الشقيري.
- راينا كاريوني.
- أسماء محمد لبيب.
- مرام محمد.
- زياد السقا.
- يوسف طارق.
- خالد جمال.
- أحمد السعيد مراد.

للاطلاع على إصدارات أخرى للكاتبة:

يمكنك زيارة صفحة الكاتبة

على موقع عصير الكتب